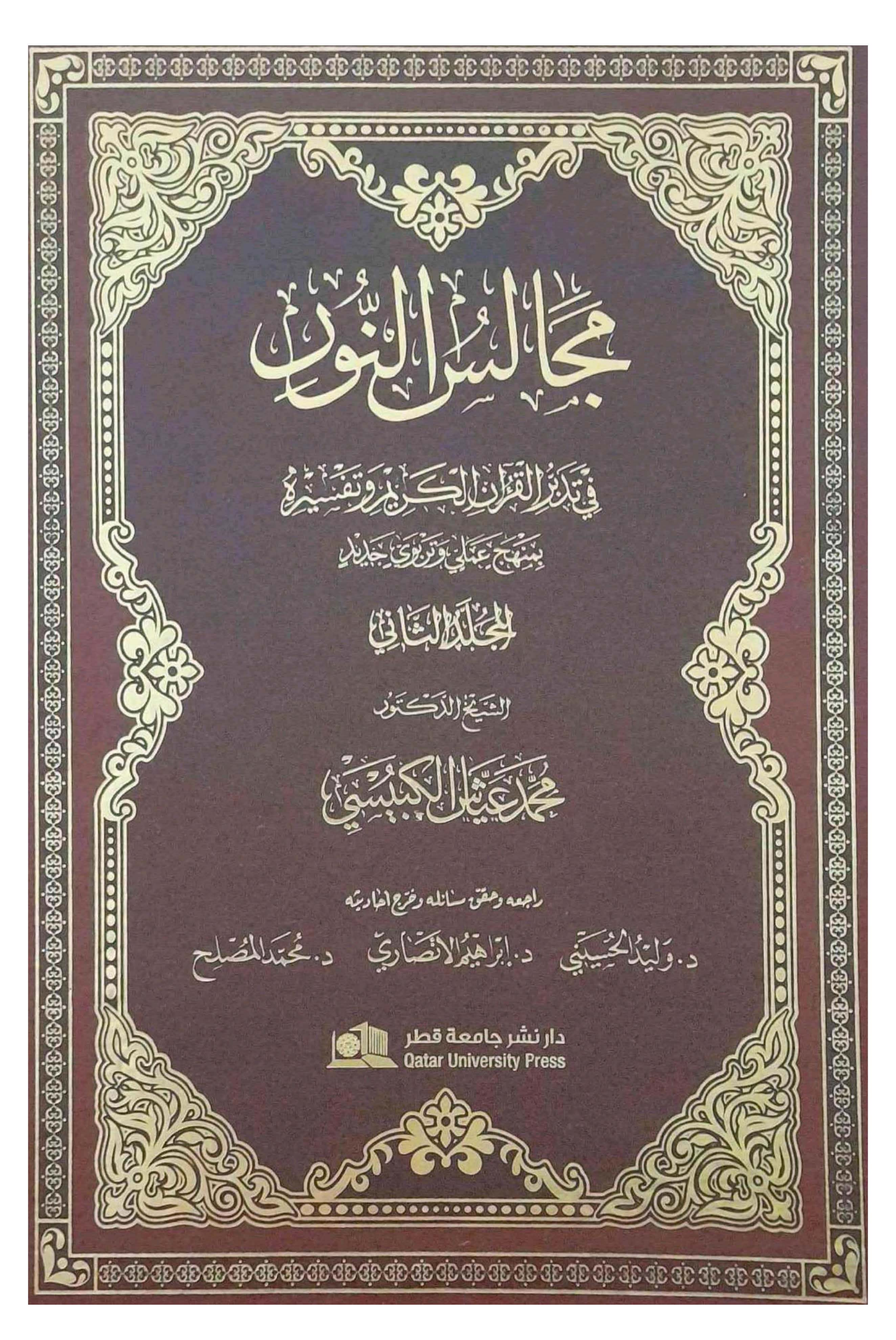

مجالس النور
في تدبر القرآن الكريم وتفسيره
بمنهج علمي وتربوي جديد
المجلد الثاني
الشيخ الدكتور
محمد عياش الكبيسي
راجعه وحقق مسائله وخرج احاديثه
د. وليد الحسيني
د. إبراهيم الأنصاري
د. محمد المصلح
دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مجالس النور

في تدبر القرآن الكريم وتفسيره

بمنهج عملي وتربوي جديد

المجلد الثاني

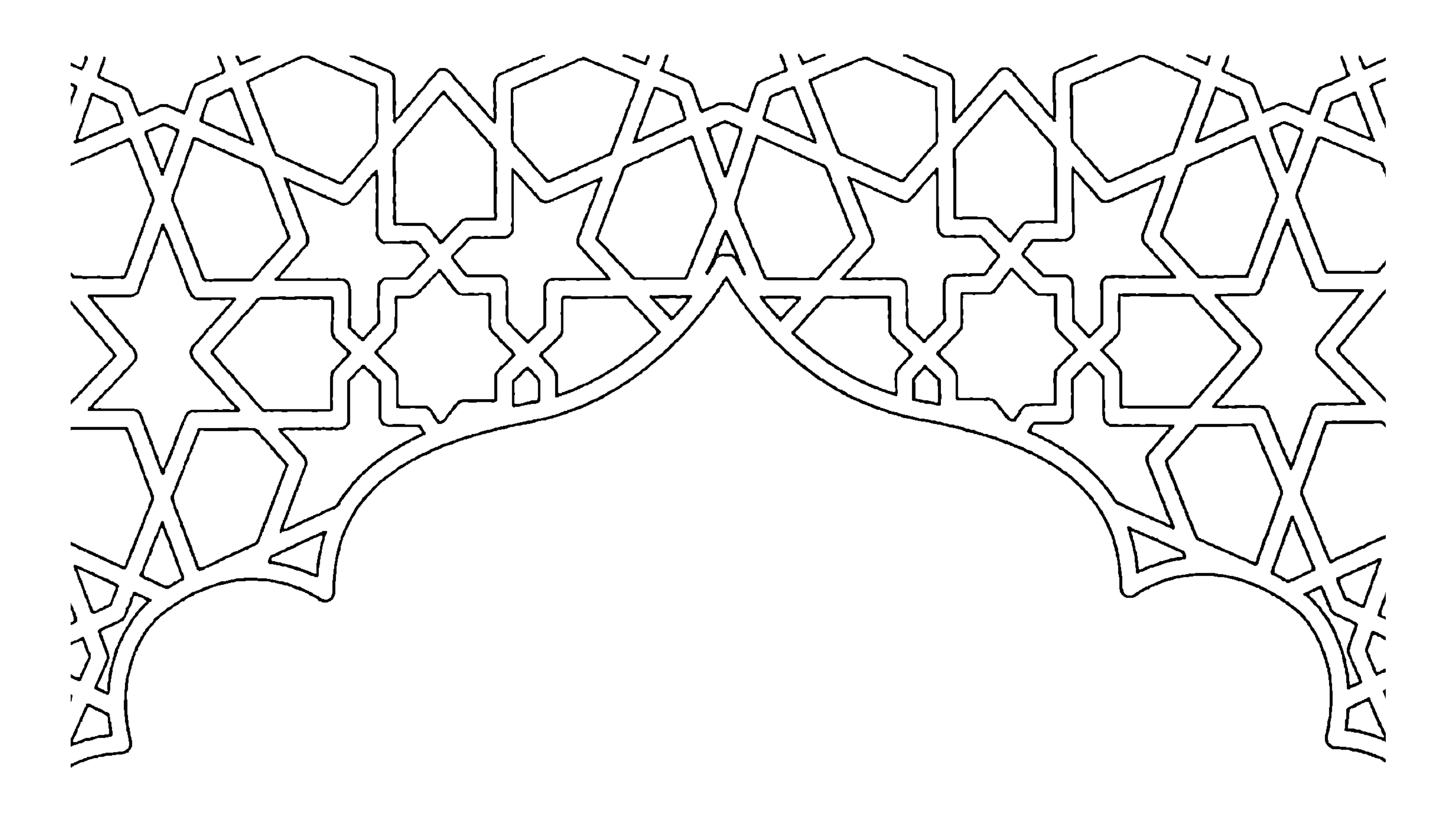
الشيخ الدكتور

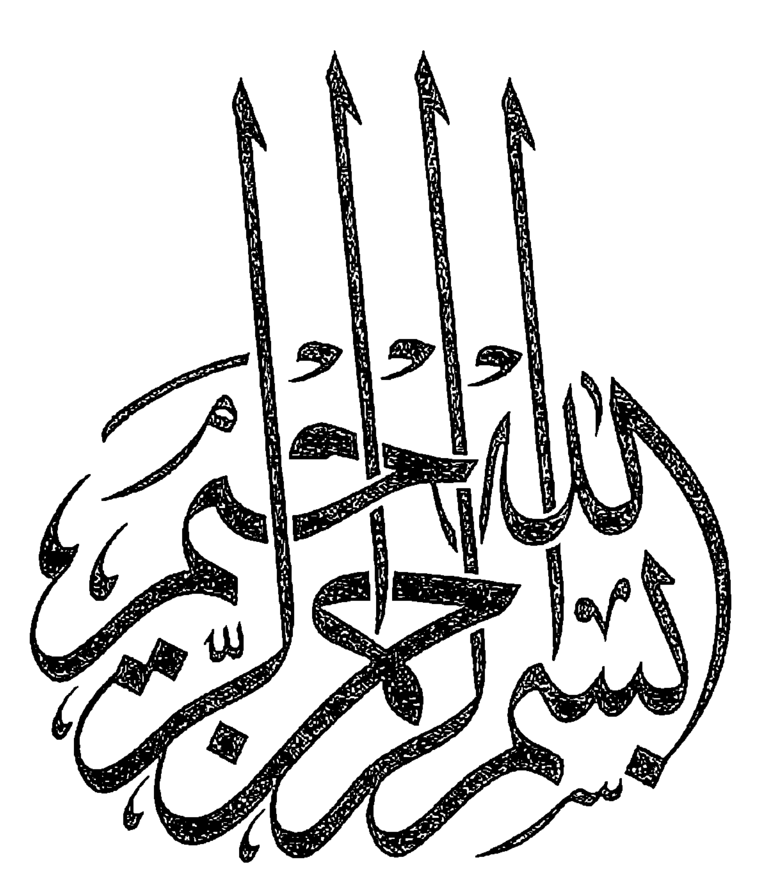
محمد عياش الكبيسي

راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه

د. وليد الحسيني   د. إبراهيم الأنصاري   د. محمد المصلح






بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

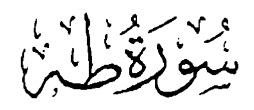
سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم



سورة الأنبياء

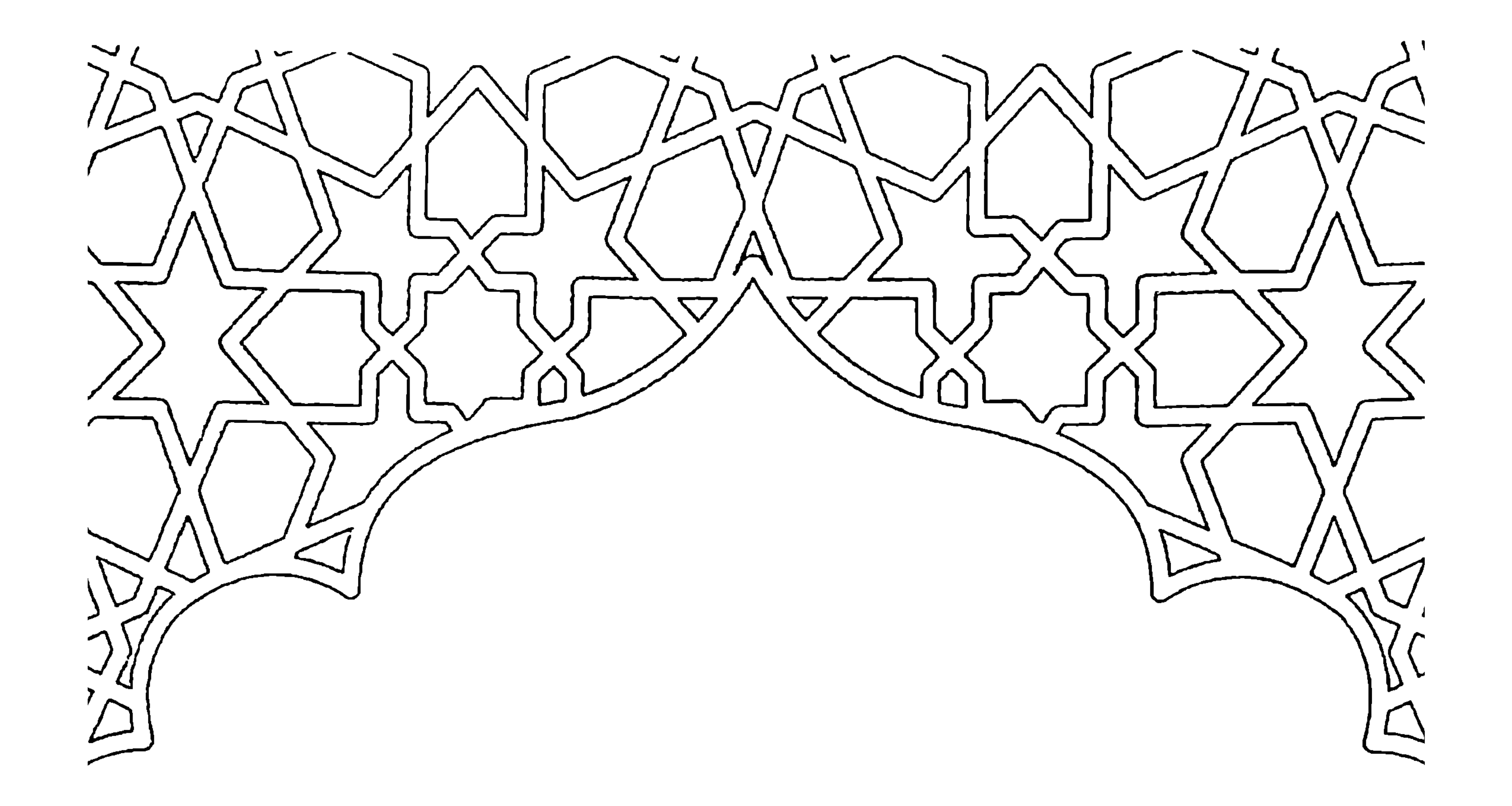
سورة الحج

سورة المؤمنون



سورة الفرقان

سورة الشعراء



سُورَةُ التَّوبَةِ

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

بيان إنهاء العقود المبرمة مع المشركين

البراءة من الشرك والمشركين نزلت مبكِّرًا في مكة بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١- ٦].

بل إن الدعوة إلى التوحيد من أساسها هي إعلان للبراءة من الشرك، ومقتضى (لا إله إلا الله) الكفر بالأصنام وبكل وثن يُعبد من دون الله، أما سورة التوبة هذه فموضوعها الأساس قطع العلاقات السياسيَّة مع المشركين؛ ذاك لأن البراءة من الشرك التي نزَلَت في مكة لم تكن تستلزم قطع هذه العلاقات، بل العكس؛ إذ كان المسلمون يرفضون مبدأ المقاطعة.

وهذا ظاهرٌ من قصَّة شِعب أبي طالب؛ حيث كان إنهاء المقاطعة نصرًا كبيرًا للمسلمين، ثم بعد الهجرة وتكوين الدولة اتَّفَقَ الرسولُ ﷺ مع المشركين على الصلح لمدة عشر سنين وهو المعروف بصلح الحُديبية، وهذه دلائل قاطعة على فكِّ الارتباط والتلازُم بين المفاصلة العقديَّة الدينيَّة وبين المفاصلة السياسيَّة والمجتمعيَّة.

وعليه فإن سورة التوبة لم تأتِ لتأصيل مسائل العقيدة وما ينبني عليها تجاه الآخرين، بل جاءت لتأصيل فقه العلاقات في مرحلة النضج والقوة التي وصَلَت إليها الدولة المسلمة في أواخر العهد النبوي المبارك.

وقد استهلَّت السورة ببيان الموقف الشرعي من جبهة الشرك، وطريقة التعامل مع القبائل المشركة بعد كلِّ ذلك التاريخ الطويل من الصراع والأخذ والرد، والسلم والحرب، وذلك كما يأتي:

أولًا: إنهاء العلاقات السياسيَّة مع المشركين بشكلٍ كاملٍ وحاسمٍ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾.

ثانيًا: بيان أسباب البراءة والمفاصلة ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾، ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾، ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ فهم لا يَفُون بعهدٍ ولا عقدٍ، وقد استخدموا قوتهم لإكراه الناس على الكفر والصدِّ عن سبيل الله، وهم من بدأ بالعدوان ﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.

ثالثًا: مُقتضى هذه البراءة تحريم موالاتهم بأي صور الولاء، مهما كانت النوايا والأسباب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

رابعًا: إخراج المشركين من المسجد الحرام ومنعهم منه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾.

وقد علَّل هذا بأن المشركين لا يُؤتمَنون على رسالة المسجد؛ حيث أدخَلوا فيه الأصنام، وإنما المسجد هو بيت الله وليس بيتًا للأصنام ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾.

وقد أبطَلَ حُجَّتَهم التي كانوا يتوسَّلُون بها إلى أحقِّيتهم بالبيت، وهي الخدمات التي يُقدِّمونها للبيت وللحَجِيج الوافدين إليه ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وبهذا حسم الإسلام سيطرتَه على المركز الديني في الجزيرة العربية، ونزع من قريش أهم أسباب هَيبَتها وهَيمَنتها على الجزيرة.

خامسًا: إمهال المشركين أربعة أشهر من يوم إعلان البراءة ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ وقد تضمَّن هذا الإمهال ترغيبهم في التوبة ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾

وهذا يعني: حرص الإسلام على إدماج هؤلاء في المجتمع المسلم، ومحو آثار الصراع والفتنة.

سادسًا: إن أصرُّوا على شِركهم والخروج بالقوة المسلحة عن سُلطان الدولة المسلمة في جزيرة العرب، فإنه لا حَلَّ معهم إلا القوَّة ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾، ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾.

سابعًا: استثنى القرآن من كلِّ هذه الأحكام حالتَين من حالات المشركين:

الحالة الأولى: المشركون الذين لم ينقضوا العهود، ولم يُشارِكُوا بعُدوان على المسلمين، فهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم، والاستقامة معهم ما استقاموا ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾.

الحالة الثانية: أفراد المشركين الذين ليس لهم شوكة، ويطلبون الحماية من المسلمين، فهؤلاء تجب حمايتهم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثامنًا: تنبيه المسلمين إلى خطورة الغرور بالقوة ونشوة النصر، وهذه آفة تُصيب كثيرًا من حركات الإصلاح والتغيير؛ حيث تنتكِس القيم، وتنتهك المبادئ التي انطلقت منها الحركة. وقد سجَّل القرآن هنا ما أصاب المسلمين بعد فتح مكة من هذه العوارض البشرية؛ ليكون الدرس البليغ للأمة على مدار أجيالها وأحوالها ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾.

ترك البسملة في هذه السورة جَارٍ على عادة العرب في صياغة خطابات الحرب، والإعلام بانتهاء الهدنة ومعاهدات الصلح، وهذا أقربُ الوجوه، والله أعلم.

أما القول بأنها تكمِلة لسورة الأنفال، فيُثِيرُ أكثر من إشكال، من بينها: فتح المجال للقول بإمكانية الاجتهاد البشري في ترتيب السور، ثم إن خواتيم سورة الأنفال مختلفة في الصياغة والأسلوب عن أوائل التوبة، وسيكون الانقطاعُ واضحًا.

إضافةً إلى هذا، فإن سورة الأنفال تُعالِجُ موضوعًا مختلفًا عن سورة التوبة، والفارقُ الزمنيُّ بين السورتَين كبير؛ فالأنفال تتحدَّثُ عن معركة بدر، والتوبة تتحدَّث عن مرحلة ما بعد الحديبية ونهايات الصراع الطويل مع الوثنيَّة.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ هي من الله تشريعًا، ومن رسوله تبليغًا وتنفيذًا.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ سِيروا فيها آمِنين، وفيه إشارة للتفكُّر والنظر في العواقب، والأربعة أشهر هذه ليست هي الأشهر الحرم، بل هي مُهلة متصلة منَحَها الله للمشركين تبدأ من يوم إعلان البراءة، والمعلوم أن الأشهر الحرم ليست متصلة.

﴿غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ فالله قادرٌ عليكم أينما كنتم.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ الأذان: الإعلام والإعلان.

﴿ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وصفٌ ملازمٌ للحجِّ لا على سبيل الاحتراز، فكلُّ حجٍّ هو أكبر؛ إذ ليس هناك حجٌّ أصغر، وإن أُطلِق على العمرة تجوزًا، ويوم الحجِّ يحتمل وقفة الحَجِيج بعرفة، أو يوم النحر، ويحتمل أنه أيام الحجِّ كلها، كما تقول: يوم القادسية، وهو ليس يومًا واحدًا، والله أعلم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ورسوله بريءٌ منهم أيضًا.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ إذا انقضت هذه المهلة، وهي المحدَّدة بأربعة أشهر متصلة من يوم الإعلام بالبراءة، وهي ليست الأشهر الحرم المعروفة. وسمِّيت حُرمًا؛ لأن الله حرَّمَ فيها دماء

المشركين، ومنَحَهم فيها الأمان والسياحة في الأرض.

﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ ليست عامَّة في كلِّ المشركين؛ بدليل الاستثناءات الواردة بعدُ كما سيأتي.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر.

﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ راقبوا تحركاتهم في كلِّ مكانٍ وعلى كلِّ طريقٍ، ولا تسمحوا لهم بتجميع قواهم، أو التنقُّل كما يشاءون.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ استثناء من المقاتلة، وفيه دليلٌ أن المقاتَلة إنما تكون للمشركين أصحاب الشوكة والقوة والمنعة، أما الأفراد فمقامهم مقام الرحمة والدعوة وحُسن الخلق، والأصل فيهم قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأما أصحاب الشوكة فأولئك خارجون عن النظام، ومُتمرِّدون فيجب إخضاعهم بالقوَّة.

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ أي: إذا استمروا على الوفاء بعهدهم فاستمروا معهم، وهو استثناء كذلك من حكم المقاتلة.

﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يظفروا بكم ويتغلَّبُوا عليكم.

﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا يُراعُون فيكم قرابةً، ولا رحِمًا، ولا صِلةً سابقةً، ولا عهدًا مُبرَمًا.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ منعوا الناس من الدخول في الإسلام.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ رغم كلِّ ما فعلوه بكم، وهذا دليلٌ على أن باب الإيمان مفتوحٌ للجميع، ويتساوَى الولاء فيه بين كلِّ المؤمنين مهما كان أصلهم وفصلهم وتاريخهم، فالقتال في الإسلام له غاية إنسانيَّة نبيلة، فهو ليس لتسلُّط شعبٍ على شعب، أو قبيلةٍ على قبيلة، وليس هو قتالًا ثأريًا أو انتقاميًّا.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ لأنهم يَحُولون بين الناس وبين هداية الوحي، فلو أُزِيحوا عن الطريق لاهتدى الناس بلا مقاتلة ولا إكراه.

﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ جمع يمين، وهو القسَم، والمقصود به هنا: العهد، بمعنى: أن هؤلاء لا يحفظون عهودهم؛ ولذلك لا تقبل منهم.

﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ عِلْمُ الله شاملٌ لا يحدُّه زمان ولا مكان، والمقصود تحقيقُ ما يعلَمُه الله من أفعالكم؛ لأن هذا هو مناطُ الجزاء الذي تستحقُّونه.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لأن عمارة المسجد بالحجارة لا قيمة لها إن كان فيها طمسٌ لرسالة المسجد، وإظهارٌ للشرك وعبادة الأصنام.

﴿۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ تأكيدٌ أن عمارة المسجد إنما تكون بالإيمان والعمل الصالح وحسن التعبُّد، فإن انتفت هذه فلا قيمة للمباهاة بالصرف على المساجد وتزيينها وزخرفتها، وإطعام الحَجيج وسقايتهم، وهذا مُتَّسقٌ مع أصلٍ كبيرٍ من أصول الإسلام؛ أن العمل الصالح ثمرةٌ للإيمان، فإن قطع عنه لا يسمَّى صالحًا، بل هو باطلٌ وذاهبٌ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ الولاء هنا ولاء النصرة والتأييد حينما تتمايز الصفوف، أما صلة الرحم وحسن الخلق واللطف في المعاملة فهي من شمائل الإسلام حتى مع الكافرين بل هي طريق الدعوة والإصلاح ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان:١٥].
[١٥].

﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها وحصَّلتموها، وعبَّر بالاقتراف إشارةً للكسب الحرام، وهو الذي يصدُّ صاحبه عن سبيل الحقِّ والخير.

﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ تهديد لكلِّ من منعه التعصُّب للقرابة، أو الطمع في متاع الدنيا عن اللحاق بركب المؤمنين وموالاتهم، والبذل معهم، والجهاد في صفوفهم، وتحت رايتهم.

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ تذكيرٌ بمَنِّ الله وفضله، وتشجيع لهم على الثبات في الميدان بعد أن طلب منهم مُقاتَلَة الناكِثِين للعهد من المشركين.

﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ أي: ونصركم يوم حُنَينٍ أيضًا، وحُنَين واد بين مكة والطائف حصلت فيه معركة كبيرة، وجاء تذكيرُهم به لما فيه من عبرة مناسبة؛ حيث إن المسلمين كانوا فيه كثرة كاثرة، على خلاف المعارك الأخرى؛ كبدر، وأُحُد، والأحزاب.

﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ فغرور القوَّة أو الكثرة قد يكون سببًا لإهمال الأسباب، والتقليل من الحيطة والحذر، مع ضعفِ الشعور بالحاجة إلى الدعاء والسند الإلهي، وقد حصَلَت النكسةُ بالفعل بداية المعركة بسبب هذا، وهو قطعًا ليس عامًّا عند كلِّ المؤمنين، لكنه شعورٌ غالبٌ على ما يبدو من ظاهر الآية، والله أعلم.

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ تعبيرٌ عن انسداد الأفق، وفقدان الحيلة والمخرج بسبب شدَّة الصدمة، وهول المفاجأة.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إذ ثبتَ ﷺ مع قلَّةٍ من المؤمنين، ثم ثبَّت الله به الآخرين، وأرجَعَ الفارِّين حتى عادَت الصفوف كما كانت، فتحقَّق النصر بعد النكسة.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ نجاسة المعتقد لا نجاسة الأعيان؛ حيث يصرُّون على عبادة الأصنام وتقديم القرابين لها، وهذا مُنافٍ لطهارة المسجد الحرام ورسالته الإيمانيَّة التوحيديَّة.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ فقرًا بسبب انقطاع الأسواق، وقلة التجارة؛ وذلك بسبب منع القبائل المشركة من دخول مكة.

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

الموقف من أهل الكتاب

بعد فتح مكة ثم الطائف ودخول القبائل العربية في دين الله دخَلَت العلاقات بين المسلمين والنصارى في مرحلةٍ جديدة، أما اليهود فقد بادَروا المسلمين بالعداء قبل هذا التاريخ.

لم تكن في الجزيرة تجمُّعات نصرانيَّة ذات شوكة كما كان لليهود، لكن النُّذُر جاءت من بلاد الشام التي كانت خاضعة للروم، وهذا أمر متوقع بعد أن شعر النصارى أن مُشاغَلة العرب للدعوة الإسلاميَّة قد تلاشَت، وأن دولة عربية إسلاميَّة قويَّة قد تشكَّلَت بالفعل على حدودهم الجنوبيَّة، ومن هنا بدأت بواكير الصراع، فكانت معركة مؤتة، ثم معركة تبوك، وبينهما عام واحد تقريبًا، فكان نزول القرآن بهذه الآيات تهيئةً للمسلمين لمثل هذه المواجهة، وكما يأتي:

أولًا: بيان انحرافاتهم العقديَّة، وخروجهم عن الدين الذي أنزله الله على النبيِّين السابِقين ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

ثانيًا: نزع الشرعيَّة عن قياداتهم ومرجعيَّاتهم الدينيَّة ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

ثالثًا: إنهم يُضمِرون العداوة لهذا الدين، ويَسعَون لطمسه ومحوه من الأرض ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

رابعًا: الأمر بمقاتلتهم حتى يُذعنوا للحقِّ ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

خامسًا: الاستعداد الشامل والجادُّ لهذه المعركة ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾.

سادسًا: إن الله ناصرٌ نبيَّه، وحافظٌ لهذا الدين قلَّ الناصر أو كثُر ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

دقائق التفسير

﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ الجِزية من الجزاء، وهي قَدرٌ من المال تأخذه الدولة المسلمة من مُواطنيها الكتابيِّين جزاء حمايتها لهم، وصيانتها لحقوقهم، بشرط خضوعهم لسلطانها، والتزامهم بقوانينها.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ المشهور أن هذا قول فرقة منهم، إلا أن عامة اليهود لم تُنكِر عليهم، فكانوا شركاءَهم بحكم الإقرار، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ أي: ادِّعاء بلا دليل، وفيه إشارة إلى أنَّهم يقولونه غلوًّا وعنادًا لا عن قناعةٍ راسخةٍ؛ لأنه قولٌ تُنكِرُه العقول، وتأباه الفطرة.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ يُشابِهون قولَ المشركين في شِركهم.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان لسبب الانحراف، والأحبار علماء اليهود، والرهبان أصحاب الصوامع المنقطعون للتعبُّد من النصارى، ومعنى اتخاذهم أربابًا: أنهم يُطيعونهم في تحريمهم الحلال وتحليلهم الحرام بلا دليل.

وقد ورد هذا المعنى في حديث عديِّ بن حاتم المعروف، وفيه قوله ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**»(1).

(1) رواه الترمذي وقال: (هذا حديث غريب)، ينظر: «جامع الترمذي» (5/ 278/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ يريدون أن يطمسوا نور الإسلام.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليُعلِيَ الإسلام على كلِّ دين؛ لأنه الدين الحقُّ المحفوظ بحفظ الله، والمنصور بقوة الله، وليس هناك اليوم على وجهِ الأرض كتابٌ سماويٌّ محفوظٌ ومُنزَّهٌ عن التحريف بزيادةٍ أو نقصانٍ غير القرآن الكريم، فلا توجد فيه نسخة تخالف نسخة، ولا رواية تخالف رواية، بخلاف كلِّ الكتب الدينيَّة السماويَّة منها وغير السماويَّة.

وأما الظهور بمعنى التمكين والقوة والسلطان فهذا ليس شرطًا في قيام الحجة، مع أنه مُتحقِّقٌ في أغلب التاريخ، فلم ينتكِس المسلمون انتكاسةً عامةً إلا في هذه المرحلة الاستِثنائيَّة من كلِّ تاريخهم.

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ربط بين الصدِّ عن سبيل الله وأكل المال الحرام، وفيه إشارة إلى أن الذي يدفع هؤلاء الأحبار والرهبان للتمسُّك بالباطل ومحاربة الحقِّ إنما هو الخوف من فَوَات مكاسبهم وامتيازاتهم الماديَّة والمعنويَّة، كما هو حالُ كثيرٍ من رجال الدين ممن يُسمَّون بالمراجع، والذين يحيطون أنفسهم بهالةٍ من القداسة، فتُجبَى لهم الأموال من كلِّ فجٍ وصَوبٍ، ودون حسيبٍ ولا رقيب.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الكلام متصل بحال الأحبار والرهبان، وفيه بيان لجَشَعهم وطمعهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الذمُّ والوعيد يدخل فيهما كلُّ من شابَهَهم في كَنز للمال بلا وجه حقٍّ، ثم منعه عن مُستحقِّيه من الفقراء والمساكين ونحوهم.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهي عدَّةٌ قدريَّةٌ حاكِمةٌ لحساب الزمن، مُتضمِّنة الأسابيع والأيام والساعات، سواء أكانت بحساب الشمس أم بحساب القمر، فكلُّ ذلك من تقديرِ الله في هذا الفلك العظيم، والناس خاضِعُون لهذا التقسيم ومُتوافِقُون عليه، وللحساب القمري خصوصيَّة متعلقة بالشعائر والمناسك، وبعض الأحكام التكليفيَّة لدى المسلمين، كما سيأتي.

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ وهذا تشريعٌ بصيغة الخبر، بمعنى: أن من الشهور الإثنَي عشر أربعة يحرم فيها القتال، وهذا التشريعُ جاء مُوافقًا لعُرفٍ عربيٍّ كان سائِدًا قبل الإسلام، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب الفرد، وربما كان هذا العُرف من بقايا الإبراهيميَّة، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِۖ﴾ والنسيء هنا تأخير الامتناع عن القتال إلى الأشهر الأخرى؛ حيث كان المشركون ينتَهِكُون حرمة هذه الأشهر ويستمرُّون بالقتال دون توقُّف، ثم يُعوِّضون الأيام التي تَقاتَلوا فيها بأيام أخرى من غير الأشهر الحرم، وهذا تلاعُبٌ في الدين وانتهاكٌ للحرمات، ومن ثَمَّ فهو زيادة متصلة بما عندهم من الكفر.

وهنا إشارة أن التحليل والتحريم من غير دليل مُؤْذِنٌ بالكفر، والله أعلم.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ تأكيد لتلاعبهم بالدين، وكأنهم شابَهُوا الأحبارَ والرهبان في الجرأة على تحليل الحرام وتحريم الحلال.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليُوافقوا عددَ الأيام التي انتَهَكوها من الأشهر الحرم بأيَّامٍ أخرى.

﴿ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اخرجوا بجمعكم للجهاد.

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ تباطَأتم كراهةً في القتال، ورغبةً في الحياة.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يُهيِّء للجهاد وحمل أمانة الدعوة أقوامًا آخرين.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ هما رسولُ الله ﷺ وصاحبه الذي اختاره للهجرة معه من بين كلِّ أصحابه وهو أبو بكرٍ الصدِّيق ﷺ.

﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ مُختبِئان في غارٍ بجبل ثور من جبال مكة.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ قال: لا تحزَن، ولم يقل: لا تخَف؛ لأن أبا بكرٍ ﷺ عنه كان يخشَى على رسول الله ﷺ والدعوة التي يحملها أكثر من خشيَتِه على نفسه.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ولم يقل: إن الله معي؛ لأن أبا بكر داخِل في هذه المعيَّة، وهي معيَّة التأييد والحفظ والنصرة، فهو مع صاحبه في كلِّ هذا ولم يُشارِكه أحدٌ من الخلق، وهذه ميزة لأبي بكر لم تكن لغيره أبدًا.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾

فالجَعل مُسلَّطٌ على كلمة الذين كفروا، أما كلمة الله فهي العُليا أزلًا وأبدًا لا تحتاج إلى جَعل، ولا يَعتَريها تغيُّر.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

في غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وهي كذلك أبعد مسافة من كلِّ الغزوات ظهر دور المنافقين كما هو دأبهم في تثبيط الناس وتخويفهم من مشاقِّ الطريق، وذهبوا يلتَمِسُون الأعذارَ لأنفسهم من رسول الله ﷺ.

وقد جاءت سورة التوبة فاضحةً لهم، كاشفةً لأساليبهم ولحقيقة أهدافهم وما يُضمِرونه من كراهية لهذا الدين وأهله؛ ولأن هذه السورة من أواخِر ما نزل من القرآن، فقد اقتضى الأمرُ تفصيلًا أكثر، وتحذيرًا أشد، وكشفًا لهذا الجيب الفاسد في داخل الجسد الإسلامي:

أولًا: إنهم كافِرون في حقيقة أنفسهم وإن ادَّعوا الإيمان ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾، ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ ﴾، ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

ثانيًا: إنهم يعملون على إيذاء رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ﴾، ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ ﴾.

ثالثًا: إنهم يستهزئون بالدين ويحطُّون من شأنه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾، ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ ﴾.

رابعًا: إنهم كتلة واحدة يُخطِّطون ويتآمرون ويتعاونون على الباطل ومحاربة الحقِّ ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾، وبهذا جعلوا أنفسهم في مواجهة الأمة المسلمة ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾.

خامسًا: إنهم دعاة فتنة وشر ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾، ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾، ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾.

سادسًا: إنهم يتظاهرون بمودَّة المؤمنين والحرص عليهم، وهذا من مكرهم وكيدهم ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

سابعًا: إنهم يخافون الجهاد ويتهرَّبون منه ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ (٥٦) لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾، ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

ثامنًا: إنهم أهل جشعٍ وطمعٍ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾، ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾.

وقد كان هذا الجشع سببًا مباشرًا في انحدارهم إلى درك النفاق ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ (٧٦) فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾.

تاسعًا: إنهم يلمزون المتصدِّقين ويسخَرون منهم ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ فهم لم يَكتفوا بالبخل ومسك اليد، بل راحوا يُثبِّطون الآخرين، ويُحرِجُونهم، ويُنفِّرونهم عن الصدقة.

عاشرًا: إن مصيرَهم في الآخرة النار كمصير الكافرين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾، وهو المصير الذي يجمعهم بسلسلة الأقوام المكذِّبين لأنبيائهم ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ

وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

في خضم هذا الكشف والفضح وردت أربعة توجيهات عملية للمسلمين:

أولًا: التريُّث في قبول أعذار المُعتذِرين، وتأخير الإذن لهم بالتخلُّف؛ حتى يتميَّز الصادق عن الكاذب ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وفي هذا تمييزٌ للمُنافق عن غيره من الضعفاء والمسلمين الجدُد ممن لم يترسَّخ الإيمان في قلوبهم بعدُ، فالمؤمنُ الذي يرُدُّ الرسول ﷺ عُذرَه سيخرج للقتال مهما كان ظرفه بخلاف المنافق.

ثانيًا: صرف الصدقات لمستحقِّيها، وعدم الخضوع لمشاغَبة المنافقين وإلحاحهم؛ ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

ثالثًا: الحذر من السماع لشُبهاتهم والترويج لإشاعاتهم ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ ﴾.

رابعًا: العمل على منعهم من تحقيق غاياتهم بمراقبتهم، ومحاصرة تحرُّكاتهم وعلاقاتهم، ومعاقبتهم على كلِّ خيانة يقترفونها، وهذا هو الجهاد المناسب في مواجهة مثل هذه الفئة، وهذا هو معنى مجاهدتهم كما بيَّنه عمليًّا رسول الله ﷺ؛ تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ ﴾.

أما من فسَّر الجهاد هنا بقتال الفريقَين؛ الكافرين والمنافقين على حدٍّ سواء فقد وَهِم؛ ذاك لأن الكافرين كانوا أهل شوكة وسلاح، فقاتَلَهم رسول الله مقاتلة جيشٍ لجيش، أما المنافقون فلم يكونوا كذلك، فلم يدع الداعي لمقاتلتهم، فالجهاد له صور كثيرة، والجهاد الأمني "الاستخباراتي" قد يكون أشقَّ وأدقَّ من الجهاد العسكري، والله أعلم.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ نفعًا دنيويًّا سهل المأخذ.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ مريحًا ليس فيه مشقَّة.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ باليمين الكاذبة، وبتخلُّفهم عن الجهاد الحقِّ.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ استهلالٌ وَدودٌ قبل المعاتبة، ولا يلزم من العفو وجود الذنب؛ لأن الفعل السابق للتشريع لا يعدُّ ذنبًا حتى لو كان مُخالفًا له.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ تأكيدٌ للقاعدة الشرعيَّة المعروفة (ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب)، وهذه قاعدةٌ ذهبيةٌ تندرِج فيها آلاف المسائل والمستجدَّات العمليَّة، مثل: استخراج جواز السفر وتأشيرة السفر لَمن أراد الحج، فمَن لم يعمَل عليهما وَفَاتَه الحج فقد أَثِم.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ خذلهم وأوهن عزيمتهم.

﴿خَبَالًا﴾ فسادًا وفتنةً.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أوقعوا بينكم بالنميمة والدسيسة.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ مصدِّقون لهم.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ فهذا شأنُهم ودَيدَنُهم، إشارة إلى إبطال عُذرهم في هذه المعركة.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ دبَّروا الحِيَلَ.

﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ لا تُوقِعني في الإثم، ورَدَت في رجل اعتذر عن الخروج تخوُّفًا بزعمه من رؤية نساء الروم والافتتان بهنَّ، فردَّ عليه القرآن: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ فمخالفة الرسول ﷺ والتخلف عنه في هذه الغزوة أشدُّ إثمًا مما كان قد اعتذر به.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ اللوم والتشكيك والشماتة بكلِّ ما يصيب المسلمين من خسارةٍ أو نكسةٍ، وقوله: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ أي: احتطْنا لأنفسنا وفُزْنا؛ لأننا أهل نظر وحكمة، وهي محاولة للنَّيْل من حسن إدارة الرسول ﷺ وكأنهم يطرَحُون أنفسهم بديلًا عنه، وهذا لا يكون إلا من منافق.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: هل تنتظرون منَّا إلا أن تكون لنا واحدة من اثنتَين: النصر، أو الشهادة.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ تهديد للمنافقين أن استخدام القوَّة معهم واردٌ في حالة خروجهم وتمرُّدهم على سلطان الدولة.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ القبول الأخروي، أما في الدنيا فالمنافق مطالَب أن يؤدِّي ما عليه من حقوق ماليَّة كالمسلم لا فرق بينهما، إلا أن المسلم ينتظر الأجرَ من الله بخلاف المنافق.

وقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ والمنافق لا يُنفق إلا مُكرَهًا ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فلعلَّهُ أراد نفقةَ التقية والرياء المتضمِّنة لشيءٍ من الخديعة والمكر، والله أعلم.

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليلٌ لعدم القبول، والفسوق هنا الخروج عن الإيمان، وهو فسوق الكفر، وهو المفسَّر بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

﴿يَفْرَقُونَ﴾ يخافون.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ مكانًا محصَّنًا.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ جمع مغارة، وهي المكان الصالح للتخفِّي بين الجبال والوِهاد.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ الطرق والمخارج الخفيَّة.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يُسرِعُون إليه بقوةٍ وعزيمةٍ.

﴿يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يعيبك في توزيعها وطريقة صرفها.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الفارق بينهما: أن المسكين أَدعَى للرأفة والرحمة؛ بسبب عجزه أو مرضه أو كبر سنِّه، وهذا هو إيحاء كلمة (مسكين)، أما الفقير فقد يكون قويًّا مُعافى لكنه لا يجد بابًا للرزق، وكلاهما مُستحقٌّ للصدقة، وإنما فرَّق بينهما؛ تنبيهًا لطريقة التعامل معهما، فالمسكين قد لا يصلح للعمل أصلًا، فتكون النفقة عليه بالمباشر، ومنها تهيئة من يكفله أو يخدمه، وأما الفقير فالأَولَى توفير فرصةِ العمل له وإن كان بمال الصدقة؛ ليكون واحدًا من المُنتِجِين والمُساهِمِين في الإعمارِ والتنميةِ.

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ الجُباةُ المُفرَّغُون لِجِباية الزكاة وضبطها وتوزيعها، فهؤلاء مُوظَّفُون يستحِقُّون الأجر من مال الزكاة وإن كانوا أغنياء إلا أن يطَّوَّعُوا.

﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ هم كلُّ من يُرجى خيرُه للمسلمين بإسلامه أو بنصرته، أو بدفع شرِّه أو شرٍّ من وراءه، وهذا بابٌ واسع للمصلحة العامة، ومبدأ من مبادئ السياسة الشرعيَّة القائم على الشورى، والتقدير الدقيق للموقف؛ بحيث لا يكون مدخلًا للهوى، والأغراض الشخصيَّة.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ لمساعدة العبيد على التحرُّر بالمكاتبة وغيرها.

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ الذين ركِبَتْهم الديون؛ بحيث إن ما عندهم من المال لا يكفِي لسدِّ ديونهم.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجهاد في سبيل الله وما يؤدِّي مُؤدَّاه من دعوةٍ للحقِّ، وتقويةٍ للصف، والله أعلم.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ المسافر المنقطع عن بلده؛ بحيث لا يقدر على التصرُّف في ماله، فيُعطَى من الزكاة بقدر ما يسدُّ حاجته في طريقه حتى يصِل إلى بلده.

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ دلالة أن هذه الصدقات إنما هي الزكاة الواجبة؛ تمييزًا لها عن بقيَّة الصدقات؛ كصدقة التطوُّع، والنَّذر، والنفقة الواجبة.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ أي: يستمع لكل ما يقال له استماع المُصدِّق.

﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يُصدِّقُهم، ويُسلِّمُ لهم، وهذه لطيفةُ التعدِية باللام، وفيه تزكِيةٌ

للصحابة رضي الله تعالى عنهم، وإشارةٌ إلى أنّ النبيَّ ﷺ ما كان يُصدِّقُ بكلِّ ما يُقالُ له، وإنَّما يُصدِّقُ أصحابَه المعرُوفين بإيمانهم ومحبَّتهم له.

﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يُناصِبُهما العداء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: يكشف للمؤمنين خباياكم وما تخشون من كشفه وافتضاحه.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ العفو عن المنافقين فيما أضمَروه أصلٌ، ومعاقبتهم على جرائمهم الظاهرة أصلٌ كذلك، ومن هنا كان التفريق بين الطائفَتَين، وفي الآية تهديدٌ للمنافقين أن يُحوِّلُوا كفرَهم الباطن إلى جرائم ظاهرة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ فلا يتصدَّقون.

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾ تركوا أمر الله وهَدْيَه والتفكُّر في الوصول إلى الحقِّ، فحَرَمَهم الله من رحمته.

﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ﴾ كلّ هؤلاء المنافقين والكافرين ومن سبَقَهم من أهل الكفر في الأمم السابقة قد أخذوا نصيبهم من هذه الدنيا، وانشغلوا بها حتى نسوا أنفسهم، والغاية من خلقهم ووجودهم، فتخبَّطُوا في حَمأة الغفلة والضلال حتى واجهوا مصيرَهم المحتوم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ هذا هو القانون الإلهي المُحكَم، فالظالم إنما يظلم نفسه، ومن نَسَبَ الظلمَ إلى الله على طريقة الإجبار والإكراه القدريِّ فقد أعظم على الله الفِرْيَة، فحاشا لله أن يُجبِر إنسانًا على الكفر أو الذنب وينزع عنه حريَّة الاختيار، ثم يُعاقبه.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ فالولاء مرتبط بالإيمان، وكلُّ من لا تستطيع أن

تُخرِجه من دائرة الإيمان فلا يحقُّ لك أن تحرِمه من دائرة الولاء، وفي هذا إبطال للولاءات القاصرة التي يلتقي عليها الناس دون الإيمان؛ كالنَّزعات العنصريَّة، أو الحزبيَّة، أو المذهبيَّة.

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ لأن الغِلظة شرطٌ في مجاهدة الأعداء عسكريًّا، وفي ملاحقة المجرمين والعابثين أمنيًّا، ورِقَّة القلب في الحالَتَين علامة الضعف، ومدعاة للفشل.

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ أي: همُّوا بإيذاء رسول الله ﷺ والنَّيل منه، فوقاه الله منهم.

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ دلالة على سعة رحمة الله وحلمه وعفوه.

﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ هي صورةٌ للمُتشبِّثين بالدنيا الذين يطرقون كلَّ الأبواب من أجلها، ولا يهمهم بعد ذلك التزام ولا عهد، ولا من أين اكتسب ولا فيم أنفق، وهذه من الغفلة التي تحكم القلب فتُعميه عن الحقِّ وتزجُّ به في طريق الضالِّين والمنافقين.

وما ورد في بعض الروايات التفسيريَّة عن الصحابي الأنصاري ثعلبة بن حاطِب ﷺ وقصة تحوُّله من الفقر إلى الغنى، ومنعه للزكاة وما شابَه، فهي لا تصحُّ سندًا ولا متنًا، والله أعلم.

﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوّعين بالصدقة.

﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ أي: يتطوَّعون بحسب طاقتهم.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ فالاستغفار للكافرين لا ينفعهم بحال، وذِكْر السبعين ليس حدًّا، بل هو للتيئيس والحسم؛ لأن معناه عند العرب الكثرة المطلقة، كأنه قال: إن استَغفَرتَ لهم قليلًا أو كثيرًا فلن يغفر الله لهم، وهذا من وعيد الله الجازم والحاسم للمشركين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1].

وفي هذا التأكيد إشارة لحرص رسول الله ﷺ على هدايتهم وتوبتهم، مهما كانت أذيَّتهم له بأبي هو وأمي ﷺ.

---

(١) تكرَّر هذا النصّ الكريم مرتين، كلاهما في سورة النساء/ ٤٨، ١١٦.

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) ﴾

الموقف من المتخلفين عن المعركة

التخلُّف عن غزوة تبوك وهي الغزوة الأخيرة في سيرة النبي الكريم ﷺ حظيَ بمعالجةٍ قرآنيَّة دقيقة وشاملة؛ وربما كان ذلك لأنه الدرس الأخير الذي يمكن للوحي أن يواكِبَه،

بخلاف التخلُّف عن الغزوات السابقة، كما أن المتخلِّفين عن الغزو مع رسول الله ﷺ سيكونون أجرأ على التخلُّف مع خلفائه من بعده، ومن ثَمَّ كان هذا الدرس وقائيًّا لحالات التخلُّف المتوقعة بعد رسول الله ﷺ أكثر مما هو معالجة للمشكلة الآنِيَّة.

ويمكن تلخيص ما جاء به القرآن بهذا الصدد في النقاط الآتية:

أولًا: تحديد الأصناف الذين يُقبل عذرهم في التخلُّف ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

ثانيًا: في مقابل هؤلاء يُحدد القرآن الأصناف الذين لا يقبل لهم عذر وإن اعتذروا ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ وهؤلاء هم أصحاب القوة والمال.

ثالثًا: إن السبب الأساس لهذا التخلُّف إنما هو النفاق والكفر الخفي ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

رابعًا: إن الجهل سببٌ آخر، وهو أصلٌ في الضلال بكل أشكالِهِ ومُستوياتِهِ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾، ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾، ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ ﴾.

خامسًا: حب الدنيا والدعة والراحة فيها ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾، ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾، ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

سادسًا: إنهم مع كلِّ هذا يحاولون تحسين صورتهم بين المسلمين ولو بالأيمان الكاذبة ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾، ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾، ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ﴾.

سابعًا: التحذير من قبول عذرهم وتوفير الغطاء الأخلاقي لهم ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾، ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

ثامنًا: التوجيه باتخاذ إجراءات عمليَّة لمُحاصَرة هذه الحالة الشاذَّة وعَزلها عن جسَد الأمة ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ وهذا معناه: حِرمانُهم من المشاركة في المؤسسة العسكريَّة، ثم قال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ وهذا إعلانٌ صريحٌ بكفرهم وخروجهم من ملَّة المسلمين.

تاسعًا: وقد اقتَضَى المقام تفصيل الأمر بالنسبة للأعراب، والذين كانوا أبعَد عن الوعي الصحيح بالإسلام ومبادئه وأحكامه، فكانوا بذلك بيئة للتصرُّفات المختلفة والمتضادة فمنهم من يتأثَّر بشُبهات المنافقين، ومنهم من يقترب من صفات الصالحين.

وقد فصَّل القرآن هذه الحالات تجنُّبًا للتعميم الظالم وأخذ الكلِّ بجريرة البعض ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ﴾، قال هذا بعد قوله فيهم: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾.

وفي قضية التخلُّف كان موقف المتخلِّفين منهم مُخالفًا لموقف المنافقين: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ وهي إشارةٌ إلى تمييزهم عن المنافقين، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا﴾ تهديد.

﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ وعيد.

﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من المُخلَّفين، والمقصود بهم المنافقون؛ لأن الذين تخلَّفوا ليسوا كلُّهم منافقين.

﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ في معركة أخرى.

﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ من النساء والأطفال والضعفاء العاجِزين.

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ فالمال ليس دليلًا على الصلاح ولا على مقبوليَّة أهله عند الله.

﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ ربط الجهاد مع رسول الله بالإيمان بالله في إشارة إلى أن التخلُّف عنه بغير عُذر أمارة على النفاق.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ العِزُّ والكرامة في الدنيا والجنة في الآخرة.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ أصحاب الأعذار، والظاهر أنهم صادقون في أعذارهم؛ لأنه ميَّزهم عمَّن بعدهم من الذين كذبوا الله ورسوله.

﴿حَرَجٌ﴾ إثم.

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أخلصوا لله ورسوله.

﴿مِن سَبِيلٖۚ﴾ من طريق للَّوم.

﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ صورة للعاطفة الدينيَّة الصادقة، فهم مع عذرهم وصدق حالهم واعتذار رسول الله ﷺ لهم مع كلِّ هذا تفيض أعينهم حزنًا على اضطرارهم للتخلُّف.

﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لن نصدِّقكم.

﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ لتعفوا عنهم.

﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ اتركوهم، فالعتاب لا ينفع معهم.

﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ تعليلٌ للإعراض عنهم.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ البدو، وليس في هذا انتِقاص لهذه الفِئة من الناس، بل هو بيانٌ لحال من لم تُتَح له فرصة التعلُّم، فهو لا يعرف الحقَّ من غيره، فإن جمع إلى هذا الجهل جلافةً وتكبُّرًا كان أبعَد عن الهدى.

﴿يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ يعدُّ الزكاة والصدقة نوعًا من العقوبة والغرامة المفروضة عليه بالقوة.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ ينتظر دوران الزمان بكم وتحول القوة عنكم؛ لينقلب عليكم ويُوالي غيركم.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ أي: بتربُّصِهم هذا يستحقُّون هم أن يدُور عليهم السوء.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هم صِنفٌ آخر من الأعراب، وهم المؤمنون الذين يتقرَّبون إلى الله بنفقاتهم وصدقاتهم.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: يطلبون الدعاء من رسول الله ﷺ بصدق نيَّة وحسن عقيدة.

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ شهادة لهم بأنهم أهل لهذه القُرُبات.

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (١٠٠) وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم (١٠١) وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم (١٠٢) خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم (١٠٣) ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم (١٠٤) وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (١٠٥) وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم (١٠٦) والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون (١٠٧) لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين (١٠٨) أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين (١٠٩) لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم (١١٠) ۞ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (١١١) التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين (١١٢) ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (١١٣) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم (١١٤) وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم (١١٥) إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (١١٦) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم (١١٧) وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم (١١٨) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (١١٩) ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين (١٢٠) ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون (١٢١) ۞ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (١٢٢) يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين (١٢٣) وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون (١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (١٢٥) أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون (١٢٦) وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون (١٢٧) لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم (١٢٨) فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (١٢٩)﴾

بعد الحديث عن المشركين ثم أهل الكتاب ثم المنافقين والمتخلِّفين عن تبوك وما اقتضاه الأمر من تشريعٍ وتوجيهٍ وتنبيهٍ جاء القسم الأخير من السورة ليتحدَّث عن أهل الإيمان؛ ليُعطي صورة تقويميَّة قريبة لهذه الأمة التي آمَنَت بالله ورسوله، وتحمَّلَت أعباء هذه الدعوة بأمانة وصدق:

أولًا: ذكر الصفات العامة التي تُميِّز هذه الأمة عن غيرها ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾، ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

ثانيًا: تصنيف هذه الأمة باعتبارات مختلفة؛ فالمهاجرون لهم السَّبق، ثم الأنصار، ثم يأتي بعدهم من أحَبَّهم ومشَى على طريقهم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

وهناك صِنفٌ أدنى من هؤلاء ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

ثم نبَّه إلى أخطاءٍ شخصيَّةٍ تقَع من بعض المؤمنين على خلاف قواعد الإيمان والتقوى لكنها ضمن دائرة التقصير البشري المعهود ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهؤلاء يُعقِبون تقصيرَهم بالندم السريع والتوبة النصوح.

ثالثًا: ميَّز الله في هذه الأمة العلمَ وأهلَ العلم وحمَّلهم مسؤوليَّة عظيمة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

رابعًا: أوجَبَ الله على أغنياء هذه الأمة الزكاة وأداء الحقوق المالية لمُستحقِّيها؛ لِمَا في هذا من تقويةٍ لأواصر الوحدة والمحبة، وإشاعة روح التعاون والتكافل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

خامسًا: أوجَبَ الله على كلِّ مُؤمنٍ أن يكون مع هذه الأمة بانتِمائه وولائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

سادسًا: التمييزُ بين هذه الأمة ومن سِواها من الكافِرين والمُنافقين ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

سابعًا: التحذيرُ من مكائِدِ المنافقين ومُحاولاتهم لبثِّ الفُرقة بين المسلمين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ رضاهم عنه حمدًا وشكرًا وتعظيمًا لنعمته عليهم.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ حول المدينة.

﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ تمرَّسُوا فيه واستمرُّوا عليه.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بأسمائهم كلهم على وجه اليقين إلا بوحيٍ من الله، وهذا النفيُ لا يُنافِي معرفته ﷺ بهم من خلال توسُّمِه بسلوكهم اليومي وأماراتهم الظاهرة.

﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ هؤلاء فئة من المؤمنين؛ بدليل شمولهم بالتوبة، وكلمة (عسى) تفيد الرجاء وقُرب تحقُّق ما بعدها، والآية تُمهِّد لبيان حال المتخلِّفين كسلًا وتهاونًا، لا كفرًا ونفاقًا.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ إشارة إلى مركزيَّة تنظيم الزكاة أخذًا وصَرفًا، فلا تُوكَل إلى اجتهادات الأشخاص ورغباتهم وما يصحبها من منَّةٍ على الفقراء، وتحيُّزٍ لبعضهم دون بعض، وضياعٍ لمنهجية محاربة الفقر ومعالجة أسبابه في المجتمع.

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ تطهيرٌ من لوث الذنوب والمال الحرام، وتزكية للنفوس من صفات البخل والطمع وما أشبه، وفيها أيضًا تطهير للمجتمع كله، وتزكية له من أمراض التحاسد، والتباغض، وسوء الظن.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ ادعُ لهم، فدعاءُ النبيِّ ﷺ مُستجابٌ، وهو سببٌ من أسباب نزول الرحمات الإلهيَّة، وفيه تقويةٌ لإيمانهم، وطمأنةٌ لقلوبهم، وتثبيتٌ لأقدامهم.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ خطابٌ عامٌّ لكلِّ مؤمنٍ، وشاملٌ لكلِّ أعمال الخير والبرِّ، وفيه إشارةٌ أنه شرطٌ للتوبة الصادقة؛ لأنه جاء عقِبَ قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فالتوبة تعني: التصحيح ودفع السيئات بالحسنات، وليست مجرد حسرة في القلوب، وهمهمة في الأفواه.

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إلى الجِدِّ والاجتهاد في الإصلاح والدعوة إلى الخير، وهذه لا تَخفَى على أحد، فيراها المؤمنون، ويشهَدون لها، وينتفعون بها، وإن كان أصل العمل القُربَى لله والاتِّباع لرسوله ﷺ.

ومن ظنَّ أن شهادةَ المؤمنين ليست مطلوبة - لأنها قد تكون بابًا للرياء - فقد وَهِمَ، والتبَسَ عليه الأمر؛ فالعمل مع المؤمنين واجب، والسُّمعة الطيِّبة مشروعة، وإخلاص العمل لله في السر

والعلن واجب، والمؤمن الحصيف يجمع بين كلّ هذه المطالب ولا يفرّق.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فعِلْمُ الخلق وشهادتهم مهما بلغت فهي ناقصة؛ لأنها تدور في عالم الشهادة، أما النوايا وخفايا النفوس فلا يعلمها إلا الله.

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ مُؤخَّرون إلى أجلٍ يعلَمُه الله، وهذه نزلت في الثلاثة الذين تخلَّفُوا دون عُذر، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة، ومُرارةُ بن الرَّبِيع، وقد تابَ الله عليهم فيما بعد رضِيَ الله عنهم وأرضاهم، وقصَّتهم معروفة في كتب السنَّة[1].

﴿مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ بناه المنافقون بقصد الإضرار بالمسلمين.

﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ تهيئةً وإعدادًا للعدو المحارب لله ورسوله.

﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ ﴾ نهيٌ لرسول الله ﷺ أن يصلي فيه، والأمة تابعة له في ذلك، وقد بعث النبيُّ ﷺ من يقوم بهدمه وإزالته.

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ ﴾ هو مسجد قباء المبارك، وقد كان رسول الله ﷺ يزور هذا المسجد[2] ويرغب بزيارته[3].

﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ مدحٌ لأهل قباء، وقد أطلق التطهُّر دون تحديد؛ ليشمل تطهُّرهم الظاهر والباطن؛ تطهُّر الأجساد، وتطهُّر القلوب والنفوس،

---

(١) حديثُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا فتابَ الله عليهم، متفق عليه عن كعب بن مالك ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٦٠٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٨/ ١١١/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) عن ابن عمر ﷺ قال: (كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبتٍ ماشِيًا وراكبًا)، زاد فيه ابن نُمَير عن نافع: (فيُصلِّي فيه ركعَتَين) متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٣٩٩/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٤/ ١٢٧/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٣) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ - يعني: مَسجِدَ قُبَاء - فَيُصَلِّيَ فِيْهِ، كَانَ كَعِدْلِ عُمْرَةٍ»؛ رواه النسائي في «السنن الصغرى» (٢/ ٣٧/ مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط. ٢، ١٤٠٦- ١٩٨٦م، تح عبد الفتاح أبو غدة)، وأحمد في المسند (٢٥/ ٣٢٨/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ تصحيح محمد الزهري الغمراوي)، وابن ماجه في «سُننه» (١/ ٤٥٣/ دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي)، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي، ينظر: «المستدرك» مع تلخيص الذهبي (٣/ ١٣/ دار المعرفة - مصور عن الطبعة الهندية، بإشراف د. يوسف المرعشلي) كلهم عن سهل بن حنيف ﷺ.

وقرينة إرادة الباطن مع الظاهر سبق قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، والله أعلم.

﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي: بدافع التقوى، وقصد الرضوان.

﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ طرف مشرف على السقوط؛ تشبيهًا لبطلان عمل المنافقين وإن كان ظاهره مسجدًا يُتقرَّب به إلى الله.

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ كانت هذه الأعمال سببًا في دخولهم النار؛ لأنها بُنِيَت على باطلٍ ونيةٍ سيئةٍ.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أعمالهم هذه متلبِّسة بالشك الدائم والمستمر بسبب مرضٍ في قلوبهم، وهذا المرض لن يزول عنهم حتى تتقطَّع قلوبهم بالموت.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ هذا من عظيم كرم الله؛ أنه وهَبَ لعباده حياتهم وأموالهم ثم اشتراها منهم بجنَّة فيها حياة أفضل من حياتهم، ونعيم أفضل من نعيمهم وأموالهم، والسلعة والثمن كلاهما من الله، فتبارك الله الكريم الرحيم.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ قدَّم التوبةَ على العبادة؛ لأن التخلِيَة قبل التحلِيَة، مع أن التوبة عبادة أيضًا.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ التاركون لمتاع الدنيا وشهواتها، والمنقطِعون إلى العبادة التي تتطلَّب هذا الترك؛ كالصيام الذي يتطلَّب البُعد عن الطعام والشراب والجماع، وكالجهاد الذي يتطلَّب البُعد عن الديار، ومُجافاة الراحة والدَّعَة والنوم، والله أعلم.

﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المعروف: كلُّ مطلوبٍ شرعًا، والمنكر: كلُّ محظورٍ شرعًا، أما ما كان في دائِرة الاجتهاد مما قد يحصُل الخلاف فيه بين أهل العلم، فلا يدخل في هذا الباب؛ لأن الاجتهاد يدور بين الأجر والأجرين وليس في أحدهما إثم، وإنما المنكر الإثم، والله أعلم.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ المقصود بهم من ماتوا على الكفر بعد أن بلَغَتهم الدعوة، وهذا من تمام المفاصلة والتمايز في الهويَّة، أما من لم تبلغهم الدعوة فليسوا مُكلَّفين أصلًا.

﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ قبل نزول النهي.

﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ متضرِّعٌ إلى الله بكثرة الدعاء والإنابة.

﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ غزوة تبوك، والمقصود بالساعة: الوقت وليس الوحدة الزمانيَّة المعروفة، وقد اجتمعت في هذه الغزوة المشاقُّ كلها؛ شدَّة الحر، وبُعد المسافة، وقلَّة الزاد والراحلة.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ شكًّا بوعد الله في إكمال الدين وإتمام النعمة؛ لشدَّة ما لاقَوه في هذه الغزوة من عُسرٍ وجوعٍ وظمإٍ، حتى إنَّ الرجُلَين كانا يشُقَّان التمرة بينهما، وكانوا يعصِرون فَرثَ البعير بعد ذَبحِه ابتِغاءَ الماء!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ مثالٌ يُحتَذَى في صدق التوبة وحرارة الندم، وهكذا يكون الصحابة ﷺ مثلًا في كلِّ خيرٍ حتى حينما يقعون في الذنب.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ اللام للتعليل، ومعناه: أن الله قَبِلَ توبتهم ليداوموا على حالة الصدق هذه وحسن التعبُّد، فالإنابة كانت منهم أولًا، ولم تنزِل توبتهم إلا بعد خمسين يومًا وليلة، حتى ضاقَت عليهم أنفسهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعد كلِّ هذا الندم، ومن ظنَّ أن الله تابَ عليهم ابتداء قبل أن يبدؤوا هم بالتوبة فقد وَهِمَ، والله أعلم.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعبٌ.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ ولا مجاعةٌ.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ إلى الجهاد، فالنَّفير إلى الجهاد إنما يكون بقدر الحاجة؛ ليتفرَّغ الباقون إلى أعمال الحياة الأخرى؛ كالصناعة، والزراعة، والتجارة، ورعاية

شؤون الناس.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أمر بالنَّفير إلى العلم، فهذا نفير وذاك نفير، وليسا هما واحدًا، وإنما سمى الخروج لطلب العلم نفيرًا كما سمى الخروج للجهاد؛ تنبيهًا على خطر العلم، وأنه لا يقِلُّ أهميةً عن الجهاد إن لم يتقدَّم عليه، وكما أن الخروجَ للجهاد لا يكون من كلِّ الناس، فكذلك الخروج للعلم.

وفي الآية إشارة إلى أن كلَّ حيٍّ أو قريةٍ أو قبيلةٍ من المسلمين عليهم أن ينتدبوا بعضًا منهم لطلب العلم، وحينما كان رسول الله ﷺ موجودًا فعلى طلبة العلم أن ينفروا إليه حيثما كان في المدينة أو الغزو، ثم يرجعوا إلى أقوامهم لينشروا فيهم ما تعلَّمُوه، وبعد موته ﷺ تكون النُّفرة إلى حيث العلم، ويكون معنى الآية الإجمالي: أن المؤمنين لا ينفِرون كلُّهم إلى الجهاد، بل منهم من لا بدَّ أن ينفِر إلى العلم أينما كان مصدر هذا العلم، وهذا القول أَولَى ممن حصَرَ العلم في الغزو، أو حصَرَه في المدينة، والله أعلم.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ المحاربين، وهؤلاء أشد خطرًا على المسلمين بحكم قُربهم من دار الإسلام، أما المعاهدون وأهل الذمة ومن ليس له شوكة فهؤلاء لهم أحكام أخرى، ولا يصح بَدؤُهم بقتال.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ هم المنافقون لا تزيدهم الآيات إلا كفرًا وحسدًا وعداوةً للمؤمنين.

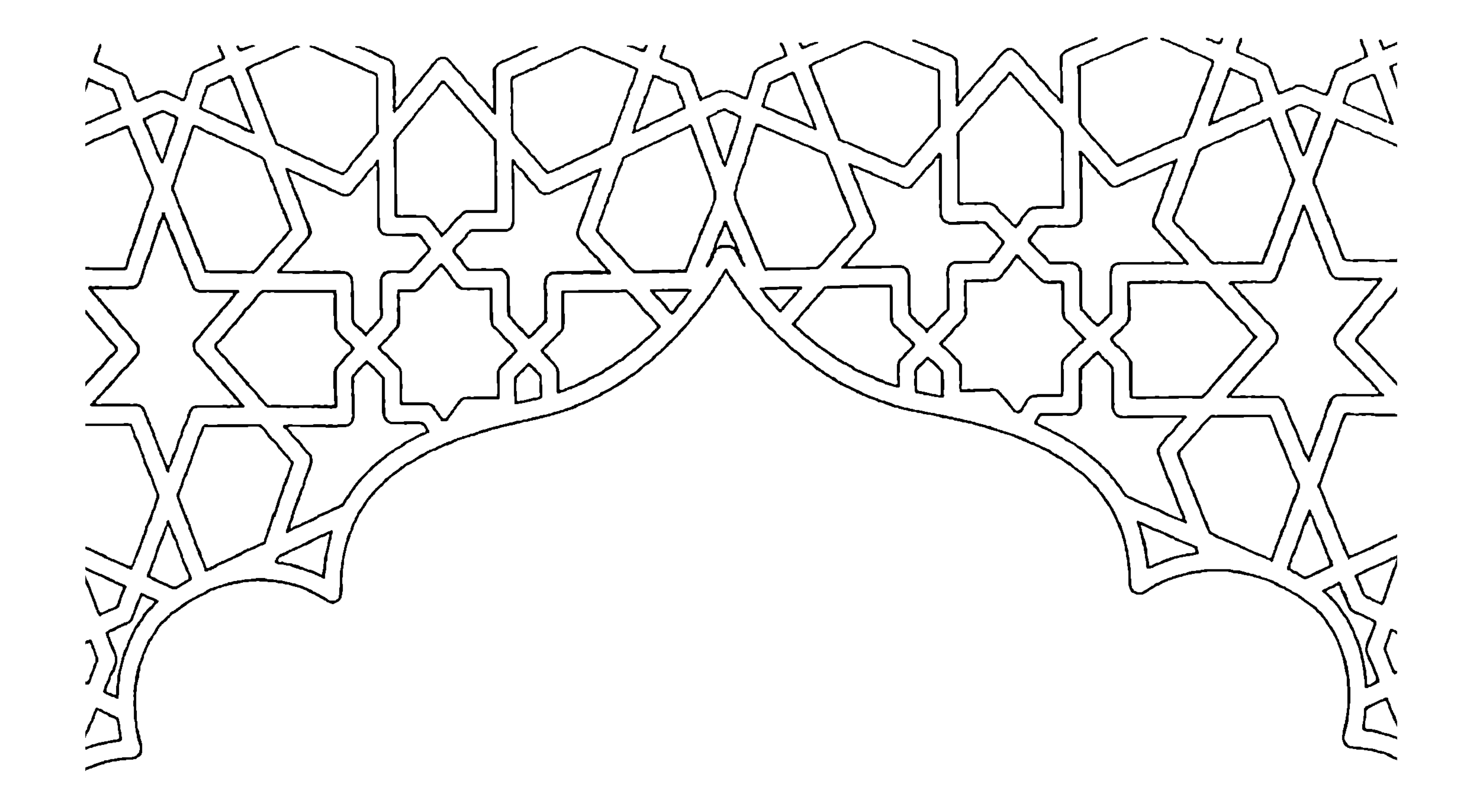
﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لم يُعرف أن المنافقين كانوا يُصابون بمرضٍ أو قحطٍ أو نكبةٍ خاصة بهم، فتأويل الفتنة بهذه المصائب مُستبعَد، والظاهر أنهم يفتنون في الغزوات والأحداث الكبيرة، فيفتضح أمرهم، ويتبيَّن لهم الحقُّ، وأن هذا الرسول مؤيَّدٌ بالوحي، لكنهم يُصرُّون على نفاقهم فلا يتوبون ولا يذَّكَّرون، والله أعلم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ صورة

عملية ومتكررة؛ فالمنافقون يحضرون مع المسلمين الصلاة والمواعظ، فإذا نزلت آيات تمسُّهم ولا تُعجِبهم آثروا الانصراف خُفيةً بحيث لا يشعر بهم أحدٌ، أو هكذا يظنُّون.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعزُّ عليه أن يراكم في شدَّةٍ ومشقَّةٍ، بل هو لرحمته بكم لا يريد لكم إلا الخير واليسر ﷺ.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ صفتان لرسول الله ﷺ ومعناهما متقارب، ولا تشتبهان بأسماء الله الحسنى؛ الرءوف والرحيم؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وليس كصفته صفات، فرأفةُ رسول الله ورحمته صفتان بشريتان وإن كانتا بأعلى ما يمكن أن يتَّصِف بهما بشر.



سورة يونس

المجلس الرابع والثمانون: معالم الإيمان الحق

المجلس الخامس والثمانون: حوار مع المشركين

المجلس السادس والثمانون: عاقبة الفريقين

المجلس السابع والثمانون: الأنبياء السابقون في مواجهة الشرك والظلم

المجلس الثامن والثمانون: توجيهات ختامية

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

معالم الإيمان الحق

سورة يونس سورةٌ مكيّة، ومحورها الأساس الإيمان، والقرآن المكي في الأغلب يدور حول هذا المحور، مع اختلافٍ في مراحل المعالجة، وتنوعٍ في أسلوب العرض والنقاش، وفي مقدمات هذه السورة يشرح القرآن بتركيزٍ دقيقٍ المبادئ الكليّة لمفهوم الإيمان:

أولًا: الإيمانُ بالله الخالق ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ

ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ إن القرآن هنا يطرح قضيتين اثنتَين: قضية الخلق، وقضية تدبير هذا الخلق؛ فالخلق هو: الإيجاد من العدم، والإنسان لا يستطيع أن يدَّعي أنه هو الذي أوجد هذه الكائنات من العدم، ولا يستطيع أن ينسب هذا الإيجاد لغيره مما هو مشاهد عنده، حتى الأصنام والآلهة المزيَّفة فهي أعجز من الناس الذين يعبدونها.

أما الهروب إلى مقولة "قِدَم العالم" فهو هروب من منطق العقل وضرورات التفكير الآدمي، فلا مناص من الاعتراف بنقطة بداية محدَّدة لهذا الإيجاد، وهذه النقطة لا بدَّ لها من فعلٍ مؤثِّرٍ، ولا فعل بلا فاعل.

أما القضية الثانية: فكأن القرآن يُجارِي هؤلاء المُنكِرين والمُكابِرين، وينزل إلى مستوى عقولهم ونفوسهم؛ ليقيم عليهم الحجة، كأنه يقول لهم: هَبُوا أن هذه الكائنات كلّها قد وُجدت من غير مُوجِدٍ، فمن الذي يُدبِّرها كلَّ هذا التدبير، ويضع هذه الموازين الدقيقة في حركتها وانسيابيتها وتطوُّر حياتها وتلبية حاجِياتها حتى تستمر في حياتها وعطائها؟

فالعلاقة بين الأرض والشمس علاقة حياة ووجود، لو ابتعدت الأرض عن مسارها هذا أو اقتربت لانتهت الحياة، وكذلك العلاقة بين الليل والنهار، وكلّ الأشياء المتعددة والمتنوعة في هذا الكون، فمن الذي وضع هذه المقاييس، وضبط كلَّ هذه العلاقات؟ وهذه قضيَّة مشاهدة وملموسة.

ثانيًا: استنطاق الفطرة، فبعد استنطاق العقل يتحوَّل القرآن إلى عُمق الفطرة الإنسانيَّة فيُخاطبها بقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وهذه ظاهرة بشريَّة عامة، فالناس وهم أقوياء أصِحَّاء غيرهم حينما يمرُّون بمراحِلِ الضعف وأوقات الشدَّة، فالراقدون على أسرَّة المشافي لا تسمع منهم إلا كلمات الإيمان،

والأدعية الخالصة، والسلوك الهادئ اللطيف، إنهم يتجرَّدون عن بهرج الغرور والكبرياء الذي كان يغطِّي فطرتهم وطبيعة آدميتهم.

إن اللجوء إلى الخالق حينما تتعطّل الأسباب هو عمليَّة كشف لما هو مستور في أعماق الفطرة الإنسانيَّة، وهذا المستور لا يتنافَى مع العقل أو العلم، بل كلاهما يدعو للآخر ويعضِّده ويكمِّله.

ثالثًا: الإيمان المرتبط بالعمل، فالإيمان الذي يدعو له القرآن ليس هو ذلك الإيمان الفلسفي المجرَّد الذي يلبِّي حاجة عقلية محضة تُحتِّمها أقِيسَة منطقية لا يستطيع العقل منها فكاكًا، وهو النمط الذي ساد عند كثير من فلاسفة اليونان؛ حيث أوصَلَتهم عقولهم إلى الإيمان بوجود الخالق باعتباره علَّة لهذا الخلق؛ لأن هذا هو التفسير الوحيد لنشأته ووجوده، أما ماذا ينبني على هذا الإيمان؟ فهذا لم يكن من اهتمامهم!

أما القرآن فإنه يرتِّب على هذا الإيمان سلوكًا عمليًّا يبدأ بالخضوع التام لهذا الخالق العظيم، لأمره ونهيه، كما يخضع هذا الكون كلُّه لنواميسه وسننه المقدَّرة والمحكمة، ويلخِّص القرآن مسؤوليَّة الإنسان هذه بجملة واحدة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

رابعًا: لا عملَ إلا بوحيٍ، فالعمل المطلوب بعد الإيمان - والذي هو العبادة - لا يمكن أن يكون إلا وفق أمر الله ونهيه، وإلا لما سمِّي عبادة، والبشر ليس عندهم القدرة لمعرفة أمر الله ونهيه إلا من خلال الوحي، ومن ثَمَّ كانت معركة القرآن الأولى مع المشركين إنما هي الإيمان بالوحي؛ ذاك لأن المشركين لم تكن عندهم مشكلة في أصل الإيمان، فهم يؤمنون بالله الخالق، لكنَّهم يتنكرون لعبادته، ويأنفون من الخضوع لأمره ونهيه، وهذا هو الذي دعاهم لتكذيب النبيِّ وإنكار الوحي ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ ولأنهم يعرفون أنه ليس بسحرٍ بدأ القرآن يُحذِّرهم من التمادي في هذا الجحود والمعاندة الباطلة.

خامسًا: الإيمان بيوم الجزاء؛ إذ هو القوة الدافعة لتحقيق الإيمان العملي المقترن بالخشية من الله وطلب الثواب منه ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

دقائق التفسير

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ المحكم الذي هو في غاية الإتقان، وفيه ردٌّ متقدِّمٌ على شُبهة المشركين الآتية في أنه سحر.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ إنكار على تعجُّب المشركين من بعثة النبيِّ ﷺ، وفيه إشارة إلى أن التعجُّب من الشيء لا يُسوِّغ إنكاره، فالإنسان يتعجَّب من كلِّ شيءٍ جديدٍ أو غير مألوف حتى لو كان واقِعًا بين يديه.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أمر الخلائق؛ صغيرها وكبيرها، بالنواميس التي قدَّرها الله ووضعها الله في هذا الكون، وهو دليلٌ مُضافٌ إلى دليل الاختراع والإيجاد من العدم.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ردٌّ على ادِّعاء المشركين أنهم اتخذوا الأصنام شُفعاءَ لهم عند الله.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إخبارٌ واستدلالٌ على النشأة الثانية بالنشأة الأولى.

﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ميَّز بين الضياء والنور، والظاهر أن النور ما كان لطيفًا بلا حرارة بخلاف الضياء، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ضياءَ الشمس ذاتيٌّ؛ لأنه مندفع من مصدر الحرارة، فيكون مصاحبًا لها، بخلاف نور القمر، والله أعلم.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ مراحل الأهلَّة ودورتها المعروفة في كلِّ شهر.

﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ إشارة إلى أن المقصود حصول العلم بالأيام ومداخل الشهور ونهاياتها، وحساب التاريخ بكلِّ وسيلةٍ علميَّةٍ توصل إلى هذا العلم، وأما الرؤية فلم تكن سوى وسيلة متعيّنة في ذلك العصر؛ إذ لم تكن ثمَّة وسيلة أخرى، والله أعلم.

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ لأنهم مُتَّقون، فهم صادقون مع أنفسهم يفكِّرون بجِدٍّ، وينتفعون بنتائج تفكيرهم، بخلاف الذين في قلوبهم كِبْرٌ ومرض، والذين يغمضون أعينهم عن كلِّ حقيقة ودلالة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ أي: بسبب إيمانهم؛ فالإيمان أصلٌ لكلِّ خير.

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ صورة للقاء المؤمنين في الجنَّة، فهم يُعظِّمُون الله ويُمجِّدونه أولًا، ثمَّ يسلِّمُ بعضُهم على بعض، وتسلِّم عليهم الملائكة أيضًا، فهم في سلامٍ دائمٍ ومتجدِّدٍ، ثم يختِمون كلَّ لقاءٍ لهم بحمد الله الذي اصطفاهم وخصَّهم بهذا النعيم.

﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ بمعنى: أن المشركين كانوا يتحدَّون رسولَ الله ﷺ بأن ينزل فيهم ما يتوعَّدهم به من العذاب تكبُّرًا وعنادًا، وكأنهم يطلبون الخير، ولو استجابَ لهم الله لما بقِيَ منهم أحد، ولكنه يُمهِلُهم لعلمه سبحانه أن منهم من سيهتَدِي إلى الطريق الصحيح.

﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ فهو يدعو الله في كل أحواله.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: خلفاء في هذه الأرض من بعد أولئك الأقوام الذين أهلكهم الله بذنوبهم؛ كقوم هودٍ وصالح.

﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ اختبارًا لكم، وليجزيكم بحسب نتائج أعمالكم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ۖ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

حوار مع المشركين

في هذه الآيات يسجل القرآن طريقة تفكير المشركين وهم ينأون عن هذا القرآن ويُكذِّبون محمدًا ﷺ، والقرآن ما فتِئَ يحاورهم ويخاطب عقولهم وقلوبهم، ويمكن تلخيص هذا الحوار بالنقاط الآتية:

أولًا: المشركون يريدون قرآنًا غير هذا القرآن ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ فيردُّ عليهم القرآن: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

ونلحظ هنا أن القرآن يطيل معهم الحديث، ويعمل على إزالة الغَبش عن عيونهم، مع أن مطلبهم هذا لا يخلو من سفاهةٍ ووقاحةٍ، فأيُّ قرآن ذاك الذي سيُؤمنون به إذا كان من مقترحاتهم وعلى وفق أهوائهم؟

لكن القرآن يُعلِّمُنا أن لا نُهمِلَ قول المخالف ما دام أنه رضِيَ أن يُكلِّمنا ونُكلِّمه، والله أعلم.

ثانيًا: المشركون يختارون شفعاءهم عند الله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فيرد عليهم القرآن: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالذي يتوسَّل إلى ذي سلطان يتوسَّل إليه بالمقرَّبين منه وبمن هم محل الرضا عنده، ويكون التشفُّع بالصيغة التي يرضاها السلطان أيضًا، أما أن يختار هو الشفيع الذي يراه دون علمٍ ولا إذنٍ، ويختار

أيضًا صيغة التشفُّع التي قد تُغضب السلطان، فهذه سفاهةٌ مردودةٌ، هذا في شفاعات البشر، فكيف بمن يريد التشفُّع إلى الله؟

ثالثًا: المشركون يطلبون المعجزات ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ ﴾ كأن يكون معه ملَك، أو تنزل عليه كنوز الذهب، أو يزيح عنهم جبال مكة، وهذه المطالب ليست جادَّة، وإنما هي مُماحَكَات، وفيها شيءٌ مِن الاستهزاء والسخرية، وإلا فإن ما جاء به النبيُّ ﷺ من القرآن الكريم ثم من الدلائل والمعجزات الحسيَّة يكفيهم؛ ولذلك ردَّ عليهم القرآن: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾، بمعنى: أنه يُهدِّدهم ويتوَّعدهم، ثم أردَفَ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ ﴾ وهذا تأكيدٌ لما تقدَّم من وعيدٍ وتهديدٍ يتناسَب مع صَلافَتهم وسَفاهَتهم.

رابعًا: القرآن يستنطِق فِطرَتهم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، واستِنطاق الفطرة أسلوبٌ قرآنيٌّ متكرِّر، وهو يختار اللحظة التي يتجرَّد فيها الإنسان عن حَوله وقوته وجَاهِه وسلطانه؛ بحيث يكون أمام قدَرِه المحتوم وجهًا لوجه، هناك يظهرُ الإنسان على حقيقته بلا بهرجٍ ولا قناعٍ، وهناك تتكشَّف الفطرة التي أودعها الله في كينونة هذا الإنسان.

خامسًا: القرآن يخاطب عقولهم ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فهذه دلائل التدبير والتقدير والتنسيق بين ذرَّات هذا الكون ومفرداته الهائلة والمتنوعة كلّها تُحتِّم على العقل أن يستسلم للقوة العُظمى المهيمنة على كل هذا، وهذه القوة لا يمكن أن تكون في فراغٍ، وإنما هي الألوهيَّة الحقَّة ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

سادسًا: القرآن يتحدَّاهم في الخلق ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهذا التحدِّي قائمٌ إلى قيام الساعة، فلا الإنسان، ولا ما اتخذ من آلهةٍ وشفعاء، ولا ما توصَّل إليه من صناعةٍ وعلمٍ وحيلةٍ بقادرٍ أن يدَّعِي ولو مجرَّد دعوى أنه هو من بدأ هذا الخلق؛ إذ الإنسان مع كلِّ ما توصَّل إليه لَيفخَر إذا تمكَّن أن يُحلِّل بعض مفردات الخلق أو يكشف أسرارها، فكيف يدَّعِي أن له يدًا في خلقها واختراعها؟! أما الأصنام والأوثان على اختلافها فإنها أضعف وأضعف من الإنسان نفسه.

سابعًا: القرآن يتحدَّاهم في الوحي والهدي ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾. ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ واقتران هذا التحدِّي بالهداية إلى الحقِّ وتفصيل الكتاب فيه دعوةٌ للنظر في خصائص القرآن العلميَّة والعقديَّة والتشريعيَّة؛ كونها تحمل دلائل يقينيَّة على أن هذا الكتاب كلامُ الله لا يأتِيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذه المعاني التي جاء بها القرآن مُدرَكة للناس كافَّة، العرب وغير العرب، بخلاف الإعجاز البياني الذي لا يُدرِكه إلا من يُحسِن العربية.

ثامنًا: القرآن يُحذِّرهم العواقِب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

تاسعًا: القرآن يكشف أسباب الزيغ والضلال:

- الغرور بالدنيا وغياب التفكير في الآخرة وما بعد الموت ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾.

- الانغماس في الراحة والترف والغفلة عن حاجة المخلوق إلى خالقه ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾.

- تعطيل منافذ المعرفة ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

- الجهل، وهو نتيجةٌ لازمةٌ لما قبله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ﴾. ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ﴾.

- التقليد الأعمى لأئمة الشرك والضلال ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾، ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

عاشرًا: القرآن يفتح لهم بابًا للسلام والسعادة والخير ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ فالقرآن لا يُعجِب هؤلاء القوم الفاسدين؛ لأنه يَحرِمهم من مكاسبهم التي اكتسبوها ظلمًا وعدوانًا على عباد الله والمستضعفين من الخلق، وهذا هو دَيدَنُ أهل الباطل، لا يقبَلُون بأهل الحقِّ إلا أن يتنازل أهل الحقِّ عن حقِّهم.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ فالحقُّ الذي نحمله وندعو إليه ليس آراء شخصية، ولا مشاريع حزبيَّة، إنه دينٌ ووحيٌ، فمن غيَّر أو بدَّل فقد خانَ الأمانة، وتعدَّى على الحقِّ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لأهل العلم والفتوى ممن يتقرَّبون إلى الناس بتزيين الباطل وتشويه الحقِّ.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ﴾ بمعنى: أني بقِيتُ معكم أربعين عامًا ولم أُحدِّثكم بشيءٍ، ولو شاء الله لحَجَبَ عني وعنكم هذا الوحي، فلا أنا أتلُوه عليكم، ولا أنتم تدرُون عنه شيئًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ وعيدٌ شديد للطرفين؛ من يكذب على الله بتغيير الحقِّ وتزييف الدين والفتوى، ومن يُكذِّب بالحقِّ ويتنكَّر له بعدما قامت بيِّنته وظهرت حجته.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ﴾ بسبب بدعة الشرك، وإلا ففطرة الناس واحدة، ودلالة التوحيد قائمة، فالتوحيد أصلٌ، والشرك طارئٌ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فسنَّة الله في خلقه إمهالهم إلى يوم الدين وهو يوم الجزاء، ولولا هذه السنَّة الثابتة لحكم الله اليوم بين المختلفين؛ الموحِّدين والمشركين.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ خارقة ظاهرة، كناقة صالح، وعصا موسى، وهم إنما أرادوا آيةً على هواهم، كإزاحة جبال مكة وتحويلها إلى جنان وينابيع.

﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ للصدِّ عنها، أي: عن القرآن، بمختلف الوسائل الظاهرة والباطنة.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فالملائكة يُحصُون على ابن آدم كلَّ عملٍ صغيرًا كان أو كبيرًا.

﴿يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ خلق لكم ما يحملكم على البرِّ وعلى البحر.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ جاءهم الهلاك من كلِّ صَوب.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يذكرون الله وحده وينسون أصنامهم.

﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ فعاقبة البغي إنما ترجع على الباغي.

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ غاية ما ترجونه من البغي هو تمتعكم في هذه الدنيا الزائلة.

﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من فوق، وقد وهم من فسَّر السماء هنا بالفلك المعروف؛ لأن الله قال في آية أخرى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ كثر النبات وتنوَّع حتى اختلط بعضه ببعض؛ بسبب كثرة الماء النازل من السماء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ تزيَّنت بكثرة النبات واختلاف أشكاله وألوانه حتى أصبحت كلوحة مُزخرَفة.

﴿قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ مُتمكِّنُون من تحصيل منافعهم فيها، وجَنْي ثمارها وحصاد سنبلها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ قضَينا بهلاكها.

﴿حَصِيدٗا﴾ كأنها محصودة، فليس فيها حَبٌّ ولا ثمر.

﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾ لم تكن ولم تعمَّر، والمغاني: المنازل، والآية وإن كانت في الزرع إلا أنها أعمُّ من ذلك، فهيمنةُ البشر على الأرض بالصناعة والعلم لن تبقَى إلى أبد الآباد، فيوم الساعة آتٍ، وهو قضاء الله الذي لا مردَّ له مهما ظن الناس أنهم قادرون على أرضهم ومتمكِّنون من تسخيرها وتذليل صعابها.

﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الجنة.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الذين أحسَنوا العمل لهم الحُسنى وهي الجنة، وأما الزيادة فتبدأ بمضاعفة الحسنات، وتنتهي بالقُرب من المولى الجليل والنظر إلى وجهه الكريم، فذلك هو النعيم الأجَلُّ الذي يلِيق بالأكابر من الناس، وهو الذي لا يُدانيه نعيم الحور والقصور.

ومن قاس الآخرة على الدنيا والخالق على المخلوق فقد زلَّت به قدمه، فالنظر هناك ليس كنظر المخلوق إلى المخلوق، بل هو بالكيفيَّة التي تُناسِب ذلك المقام، والله أعلم.

﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ﴾ لا يغشاهم سواد الدخان، لا ماديًّا بدخان جهنم، ولا معنويًّا بسواد الخيبة والخزي، بخلاف الآخرين ممن قال فيهم: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ والعياذ بالله.

﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم حتى يقضي الله فيكم، والشركاء هنا هم الآلهة المزيَّفة التي اتخذها المشركون شركاء مع الله، وأضافها إليهم؛ لأنها مِن صَنْعَتهم، فهم الذين اتخذوها آلهة وما هي بآلهة.

﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ فرَّقْنا بينهم، وقطعنا ما كان بينهم من تواصل.

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ إذ العبادة الطاعة والخضوع لأمر المعبود، وهذه الآلهة لم يصدُر منها أمر، فالمشركون إنما يعبدون أهواءهم على الحقيقة ولا يعبدون أصنامهم، وهذا شأنُ أكثر المشركين؛ كمن يعبد المسيح، أو يسجد لقبر الحسين، فهؤلاء الصالحون مبرَّؤون من عبادة هؤلاء.

أما نطق الأصنام بهذه الحقيقة فلا يبعد أن يُودِع الله فيها القدرة على النطق في ذلك اليوم الذي تتبدَّل فيه النواميس، وتتغيَّر فيه الأسباب، والله أعلم.

﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ فلا نسمع عبادتكم ولا نراها ولا نعقلها.

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ تعلم كلُّ نفسٍ ما قدمت، وأصل ﴿تَبۡلُواْ﴾ الفحص والاختبار والتمييز.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ شأن الدنيا والآخرة.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لأن المشركين لا ينسبون الخلق والتدبير لأصنامهم، بل دخل عليهم الشرك من باب الشفاعة والوساطة.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفق سننه تعالى، فمن طلب الهداية هُدِي، ومن طلب الضلالة ضَلَّ.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فالذي لا يقدر على الخلق بدايةً لا يقدر عليه إعادةً.

﴿لَّا يَهِدِّىٓ﴾ لا يهتدي بنفسه، فالصنم لا يستطيع أن ينتقل بنفسه من مكانٍ إلى مكانٍ إلا أن يحمله أو يدفعه أتباعه، فكيف يقدر بعد ذلك أن يهديهم هو إلى الصراط المستقيم؟

﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدِّقًا للكتب التي قبله.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أخباره وأمره ونهيه.

﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أعظم التحدي وأشدُّه على المشركين؛ إذ تحدَّاهم أن يأتوا بمقدار سورة من سور القرآن تُجاري القرآن في لغته وأسلوبه وبيانه، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، فعجزوا، وفائدة عجزهم دحض ادِّعائهم أن هذا القرآن من صُنع محمد ﷺ؛ إذ لو كان من صنعه ما عجزوا أن يأتوا بمثله.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ لم يروا بعدُ عاقبة تكذيبهم لهذا القرآن، وسيرون، والتأويل هنا المآل، وهذا القول أَولَى من قول من قال إنهم كذَّبوا به قبل أن يفهموا تفسيره، وقبل أن يسألوا عن معانيه؛ لأن المخاطبين به في ذلك الوقت كانوا في أعلى درجات البيان والفصاحة، فلا يحتاجون إلى تفسيرٍ ولا إلى ترجمان، والله أعلم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ جاء بصيغة الجمع على معنى اسم الموصول ﴿مَّن﴾ إذ المقصود به هنا الجمع، وهذا الاستماع لا يوصل إلى الهداية؛ لأنه استماع بغرض الاطلاع لا الانتفاع،

على عادة المتكبِّرين والمُفسِدين؛ ولذلك عقَّبَ بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهو صمم الغفلة والتكبُّر والتعالي عن الحقِّ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ جاء بصيغة المفرد على لفظ اسم الموصول ﴿مَّن﴾ إذ لفظه مفرد، وإن كان معناه جمعًا، وعليه فالصلةُ يصحُّ أن تأتي هنا مفردة مراعاةً للفظ، أو تكون مجموعة مراعاةً للمعنى.

واختيارُ الإفراد للنظر بخلاف السمع فيه أكثر من إشارة؛ فالمُبغِض لا يحبُّ أن يرى بغيضَه، لا سيما إذا كان بحالةٍ حسنةٍ، وهيئةٍ محترمةٍ، لكنه في الوقت نفسه يحبُّ أن يسمع عنه كلَّ شيء، فالمشركون يستمِعون إلى رسولِ الله ويتتبَّعُون أقوالَه وأخبارَه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إشارة للكثرة، لكنه إن حضَرَ تغافَلُوا وأعرَضُوا عنه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ إشارة للقلة.

ومنها: أن النظر محدد من جهة واحدة؛ فالذي ينظر ينبغي أن يكون قبالة المنظور، بخلاف السمع؛ إذ قد يكون من خلفه أو من جانبه أو من مكانٍ خفيٍّ بحيث لا يراه أصلًا، كما يفعل المتجسِّسون، والله أعلم.

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ والعُميُ هنا هم أنفسهم الذين ينظُرون إلى رسول الله ﷺ، فهم عُميٌ عن الحقيقة وإن كانوا يرَون الشكلَ، وعمَى البصيرة أشدُّ وأضرُّ من عمى البصر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تأكيدٌ أن المسؤوليَّة هي مسؤوليَّة البشر، وأن قَدَرَ الله ليس معناه الإكراه، بل هي سُنن الله العادِلة التي لا تتخلَّف، ولا تُحابِي أحدًا على أحدٍ.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

عاقبة الفريقين

بعد الحوار الطويل مع المشركين تأتي هذه الآيات لتعرض الجزاء الأخروي الذي ينتظر الناس كل الناس مؤمنهم وكافرهم، وهذا العرض يأتي لتثبيت المؤمنين من ناحية، ولتحذير المشركين من ناحية أخرى، فهو حوارٌ متواصل، ولكنه بأسلوبٍ آخر، أسلوب الترغيب والترهيب، وبيان النتائج والعواقب التي تنتظر كلَّ عامل وكلَّ مكلَّف على هذه الأرض، وقد تناولت هذه الآيات جوانب مختلفة ومتنوعة من عقيدة الجزاء:

أولًا: أن كلَّ عمل يعمله الإنسان على هذه الأرض مهما كان صغيرًا أو كبيرًا فهو مدوَّن ومحفوظ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ثانيًا: أن الله بيده الليل والنهار، والحياة والموت، والسماء والأرض، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يشاء ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

فيوم الحساب ما هو إلا خلقٌ من خلقِ الله ويوم من أيامه، واستغراب البشر من الخلق الثاني بعد أن رأوا الخلق الأول لا مسوّغ له؛ فالخلق لله أوله وآخره ليس معه شريك ولا كنديل ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثالثًا: أن لكلِّ حيٍّ أجله، ولكلِّ قومٍ نهايتهم مهما بلغوا في قوتهم وطغيانهم، وهذا الأجل إنما يعلمه الله وحده ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا

نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

رابعًا: أن أهل الإيمان هم أهل السعادة الدائمة؛ سعادة الدنيا بمعرفة الله وعبادته والاطمئنان إليه، وسعادة الآخرة برضاه والجنة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

خامسًا: أن الظالمين سينالون جزاءهم وسيندمون ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾، ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ﴾، ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

سادسًا: أن الحكم هناك إنما هو حكم العدل والقسط ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ يوم الحشر يكتشف الناس أن حياتهم الدنيا لم تكن بشيءٍ أمام سعة الآخرة وآمادها التي لا تنتهي عند حدٍّ، حتى كأن الدنيا كلها لم تكن غير ساعة لا تتسع لأكثر من التعارف!

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب الدنيوي.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يا محمد قبل تعذيبهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فكذبوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ العدل.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ متى يوم الساعة؟ يسألون سؤال المكذِّب المستهزئ.

﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لأني لا أعلم الغيب، فمن باب أَولَى أني لا أعلم الساعة.

﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لأن الأجل محسوم لا يقبل التقديم ولا التأخير.

﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾ وأنتم نائمون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مشغولون بأعمالكم ووظائفكم.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: فما الذي كنتم تستَعجِلُونه منه؟ وهو استفهامٌ على سبيل التهكُّم؛ لأنهم كانوا يسألون الرسولَ ﷺ أن يأتِيَهم بالعذاب تكذيبًا وتحدِّيًا له ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ﴾ يستخبِرُونك عن يوم القيامة.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ لو كان الظالم هناك يملك قدر ما في الدنيا كلِّها لافتدى به، ولكن هيهات فلا طريق هناك للتملك ولا للفداء.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ القرآن الكريم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ هو الفرح بالإسلام دين الرحمة والهدى والخير، وفيه إشارة أن التديُّن في الإسلام ليس تديُّن الرهبنة والعزلة والحزن، بل هو دين الحياة، الدين الذي يعمل لإسعاد البشر في الدنيا والآخرة.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا؛ لأن سعادة الإنسان ذاتيَّة داخليَّة وليست بما يجمع من كنوزٍ ومتاع.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ بأهوائكم، كما مرَّ في الأنعام وأسمائها وأصنافها عندهم.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ﴾ دلالة أن التشريع من حقِّ الله وحده، ومن شرَّعَ خلاف ما أراده الله فقد تعدَّى وافترى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بما شرَّع لهم من سبل الهداية والخير، إضافة إلى فضله في الخلق والرزق وما يتعلق بهما.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ فلا يخفى علينا شيءٌ من أعمالكم دقّها وجلّها.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ تباشرون أعمالكم وتنغمسون فيها.

﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ وما يغيب.

﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرة.

﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أصغر من الذرَّة، إشارة إلى ما تتكون منه الذرة، والله أعلم.

﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ جمعٌ، مفرده وليٌّ، وهو كلُّ مؤمنٍ تقيٍّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم في كَنَف الله ورحمته.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتَهم من حطام الدنيا ونحوه؛ لأن نعيمَ الجنة والقُربَ من الله يُنسِيهم كلَّ ذلك.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المؤيِّدات الربَّانيَّة؛ كطمأنينة القلب، واستجابة الدعاء، والرؤيا الصالحة، ونحو ذلك.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ لسننه الثابتة ووعده لعباده بالثواب والرضا والجنة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ قول المشركين من تكذيبٍ واستهزاءٍ.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ مواساةٌ لرسول الله ﷺ على ما يَلقَى من تكذيبٍ واستهزاءٍ، كأنه يقول له: أنت مع الله العزيز القوي فلا تلتفت لهؤلاء.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقولون ما لا يعلمون.

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ مع أزواجكم وأولادكم راحةً وأُنسًا وهدوءًا.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مُضيئًا، ترون فيه مصالحكم وأرزاقكم وشؤون حياتكم.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزَّه عن قولهم.

﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فلا يحتاج للولد ولا لغيره.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ ليس عندكم دليل على هذا القول.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ مدةٌ يسيرةٌ يُمهِلُهم الله فيها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

الأنبياء السابقون في مواجهة الشرك والظلم

في هذه الآيات ينتقل القرآن من أجواء مكة والمعركة المحتدمة بين التوحيد والشرك إلى أعماق التاريخ البشري ليعرض نماذج أخرى لهذا الصراع:

كان النموذج الأول نوحًا ﷺ الذي واجه أصناما شبيهة بأصنام مكة.

أما النموذج الثاني فكان موسى ﷺ الذي واجه أصنامًا من نوعٍ آخر؛ فرعون وهامان وجنودهما، في تجربة طويلة ومليئة بالأحداث والتطوُّرات؛ مما يؤهلها لتكون المدرسة التاريخية الأكبر لكلِّ مصلح وداعية.

أما النموذج الثالث فكان يونس ﷺ والذي سُمِّيت السورة باسمه، وهي تجربة قصيرة في السياق القرآني، لكنها تفتح بابًا واسعًا للأمل والرجاء.

أما الدروس المستنبطة من هذه النماذج الدعويَّة الكبيرة فيمكن تلخيصها في الآتي:

أولًا: أن الشرك بكلِّ ألوانه ظاهرةٌ بشريَّةٌ متكررة من فجر التاريخ، وهذه الظاهرة مدعُومة بعناد نفسي شديد وصلابة مجتمعيَّة متينة؛ بحيث إن دعوة الأنبياء مع ما فيها من معجزاتٍ حسِّيَّة ومعنويَّة، وما فيها من قوة البيان وقوة الحجَّة، وما يتَّصِف به الأنبياء من خلالٍ حميدة، وصفاتٍ كريمة، ونورٍ ظاهر في سلوكهم وحياتهم، إلا أنها في الغالب قد اصطدمت بهذا الجدار الصلد الذي لا يرى ولا يسمع ولا يفكِّر.

فهذا نوح ﷺ يقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ وبعد نوح لم يتغير الموقف مع كلِّ الأنبياء اللاحقين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾، وفي موسى وأخيه ﷺ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وهكذا حتى صارت كأنها

سنّة ثابتة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

ثانيًا: الحالة الوحيدة التي يذكرها القرآن استثناء من ذلك السياق هي حالة يونس ﷺ مع قومه ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

ومن هنا تكتسب هذه القصّة أهميتها وتميُّزها؛ لأنها تفتح بابًا من الأمل، خاصةً أن قوم يونس - وهم أهل الموصل شمال العراق - كانوا مجتمعًا كبيرًا قياسًا بذلك العصر ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

ثالثًا: القرآن يكشف سرَّ ذلك العناد والمكابرة الباطلة ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إنه الخوف على فوات المكاسب الماديَّة والمعنويَّة التي يمتاز بها الطغاة وحواشِيهم عن سائر الناس، نتيجةً للمعتقدات والخرافات التي تمنَحهم مثل هذا التميُّز، والتي تقومُ بدورها في تخدير العامة والرضا بالفُتات الذي يترُكه لهم أولئك الطواغيت، إنهم يخافون أن تحرِمَهم هذه الدعوة من كبريائهم، وأن تأتي بمن يُنافِسهم عليها، وهذا هو دَيدَن الطواغيت في كلِّ عصر.

رابعًا: أن الباطل يستخدم كلَّ ما عنده لمواجهة الحقِّ؛ المال، والقوة، والإعلام، والمكر وغيرها ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ وهذا تشويهٌ وتشويش، ثم راحوا يحاربون السحر- بزعمهم - بالسحر ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ فلما بطل سحرهم راحوا إلى المال والقوّة ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾.

خامسًا: أن المؤمنين الموحِّدين عليهم أن يتهيَّأوا لهذه الشدائد، وأن يثبتوا ويستعدُّوا لمواجهتها ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

سادسًا: أن العاقبة دائمًا ليست في صالح الظالمين المكذِّبين ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

وبخلاف فرعون وقومه كان حال أولئك المؤمنين الذين ثبتوا مع موسى في مواجهة فرعون ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وهذه هي سنَّة الله الماضية مهما ارتفع الباطل وطغى ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

سابعًا: أن العلم والتثبُّت من المعارف والحقائق هو طريق الحقِّ، وهو الذي يعصِمُ أهله من الزَّلَل والشطط ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.



﴿كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ شقَّ عليكم بقائي معكم ودعوتي لكم.

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ احسِمُوا رأيكم، واستَعينُوا بأوثانكم، على سبيل التحدِّي والتهكُّم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ لا تعملوا بالخفاء، بل صارحوني وواجهوني.

﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ نفِّذُوا فيَّ تهديدَكم ووعيدَكم ولا تُؤخِّرون.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ استمرُّوا في تكذيبه.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ باقِين في الأرض بعد أن أهلَكَ الله الآخرين بالطوفان.

﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ إشارة إلى أن الظلم والعدوان وإرادة الشر من أشدِّ أسباب الضلال، والعياذ بالله.

﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ لتصرفنا عن عادات آبائنا وأجدادنا؟

﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ ما تريدون إلقاءه من حبال وعصي، وفيه معنى التعجيل والتحدّي.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ يظهره ويقويه ويثبته.

﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ أولاد من بني إسرائيل، وفيه إشارة إلى أن الشباب أجرأُ على التغيير وأقوى على المواجهة.

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ خوفهم من فرعون ظاهر، وأما خوفهم من ملئهم فمعناه: أن آباءهم وكبار قومهم سيمنعونهم خوفًا عليهم من فرعون، وهذا معروف ومتكرر في كلِّ الدعوات الإصلاحية؛ حيث يستشري الخوف والرعب عند المظلومين، فينقلب الجميع إلى أدواتٍ بيد الظالم لكبح حالات الخروج والعصيان ولو كانت من أولادهم.

ويحتمل أن يكون الملأ ملأ فرعون، وأضافهم إلى ضمير الجمع إشارة إلى قوة فرعون وجمعه لكلِّ السلطات.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وكان السياق يقتضي أن يقول: أن يفتِنوهم، لكنه أفرد الأمر لفرعون وحده، وفي هذا إشارة لا تَخفَى.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضعًا للفتنة، وهي هنا التعذيب والتنكيل وما يتبعهما.

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ اتخِذا لكما ولبني إسرائيل معكما مساكِن خاصة بكم.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أماكن للعبادة والصلاة، بعد أن منَعَهم فرعون من بناء معابدهم وإظهار شعائرهم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ امحَقها وامحُ آثارها.

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ لأنهم في كلِّ مرة كانوا يستَجِيرُون به لدفع العذاب ويعِدُونه بالإيمان كما في سورة الأعراف: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فعندما يرفعه الله عنهم ينكثون ويعودون إلى كفرهم وظلمهم، فهو إيمانٌ زائفٌ مخادع، وهذا ما رغِبَ فيه موسى إلى ربه أن لا يتكرر، أما لو علم أنهم سيؤمنون بالله حقًّا وصدقًا، فلا شك أن هذا هو غايةُ الرسل ﷺ.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ إشارة إلى أن هارون كان شريكًا لموسى في هذا الدعاء وإن لم يذكره أولًا.

﴿۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ عبَرنا بهم البحر، وكانت هذه آية من الله ومعجزة لموسى؛ لأن البحر قد انكشف لهم حتى عبَروه إلى الضفة الأخرى بسلام.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ تعقَّبَهم وطارَدَهم ظُلمًا وعدوانًا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ لأنه ظن أن انكشاف البحر ظاهرة لا علاقة لها بموسى ومَن معه، فكان أن أغرَقَه الله بغروره الأخرق، وظنِّه الفاسد.

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لا يبعُد أن يكون إيمانه هذا كالمرّات السابقة، كأنه يُخادِعُ الله، والله أعلم بالقلوب، لكن الذي يرجح هذا ردُّ الله عليه، وعدم قبوله منه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ومن يعرِف سِيَر الطواغيت لا يستغرب هذا، فهؤلاء تعلموا السياسة والمكر وتغيير المواقف بحسب ما تقتضيه مصلحتهم، ولما تكرر منه ادّعاء الإيمان سابقًا لرفع الرجز، ظنَّ أنَّ هذا ماضٍ مع الله سبحانه، وقد أثبت القرآن أن فرعون قبل هذه اللحظة كان يعلَمُ صِدق موسى وصدق الآيات التي جاء بها ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لكنه عنادُ القوة وكِبرياء السُّلطة، والله أعلم.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ وهذه آيةٌ خالدةٌ إلى يومنا هذا لا يُنكِرها إلا مُكابِر.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أنزلناهم منزلًا مباركًا، وهم الذين استقرُّوا في يثرب، وهي انتِقالةٌ سريعةٌ في التسلسل التاريخي، ويشهد لهذه الانتِقالة انتِقال الخطاب بعدها مباشرةً إلى رسول الله ﷺ.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ القرآن.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ خطابٌ لكلِّ سائلٍ وشاكٍّ من خلال المبلِّغ ﷺ، وإلا فإن رسول الله لا يشكُّ فيما يُوحَى إليه أبدًا، ونحو هذا قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ استِشهادٌ على المُشركين بما عند أهل الكِتاب مِن العلم، والظاهرُ: أنّه في القصص القُرآني المُوافق لما في الكُتب السابِقة، كقصة مُوسى ﵇ مع فرعون، والله أعلم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكّين والمُرتابين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: ثبَتَت عليهم سنَّة الله في خلقه أنَّ من طلب الهداية هُدِي، ومن طلب الضلالة ضَلَّ، فكلُّ نفس تتحمل مسؤوليتها وعاقبة أمرها، وكلُّ ذلك بإرادة الله وعلمه السابق.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ فهلا آمَنَت تلك القرى قبل أن يأتيهم العذاب، والصيغة فيها معنى النفي، ثم استثنَى من هذا النفي قومَ يونس ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وهذه ميزةٌ شريفةٌ وجليلةٌ لأهل الموصل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

توجيهات ختامية

في خواتيم هذه السورة يقدم القرآن توجيهاته المناسبة لموضوع السورة وما ورد فيها من مواقف وأحداث وحوارات:

أولًا: إن المشيئة المطلقة لله وحده ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ﴾، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذه العقيدة الراسخة من شأنها أن تُريح القلوب المؤمنة، وتبعث فيها الطمأنينة وهي ترى إصرارَ الكافرين على كفرهم، وتمادي الظالمين في ظلمهم، فالله تعالى قادرٌ - لا شكَّ - على تغيير

هذه الأحوال، وتقليب هذه القلوب، لكن الذي يجري كلُّه يجري وفق سُنن الله وإرادته وحكمته.

ثانيًا: إن الإنسان هو المسؤول عن توجهاته واختياراته، وهذه المسؤولية هي مناط التكليف والاختبار، ولو تدخَّلَت الإرادة الإلهيَّة في تسييره لانتفَى مفهوم الاختبار من أساسه، ولَمَا بقي فضلٌ لتقيٍّ على شقيٍّ، ولا لمجاهدٍ على قاعدٍ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثًا: التذكير بما حصل في التاريخ البشري كلِّه من عواقب وخيمة للظالمين المعاندين، ونجاة للمظلومين الصالحين المصلحين ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

رابعًا: الوصيَّة بالثبات والصبر، والمحافظة على الصفِّ المؤمن والجماعة المؤمنة رغم حملات التشكيك والإيذاء ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وتأصيلٌ عظيمٌ يربط بين الإيمان وحريَّة الاختيار؛ ذاك أن الإيمان عقيدة جازمة محلُّها القلب، والإكراه فيها غير مُتصوَّر؛ لأن المكرَه لو استجاب فإنه يستجيب بلسانه لا بقلبه، وهذا لا يسمى إيمانًا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه وتوفيقه، ووفق سننه الثابتة في الابتلاء والاختبار والتمييز.

﴿ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دعوة للنظر في هذا الكون الفسيح وما فيه من دلائل باهرة وآثارٍ جليلة تنطق بعظمة الخالق ورحمته وحكمته.

﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يريدون الإيمان، ولو استبانَت لهم دلائله بسبب مواقف مُسبقة مبنيَّة على كِبْرٍ وحسدٍ وعداوةٍ للحقِّ وأهله، والنُّذُر جمع مفردها نَذِير، وفي آيات القرآن وقَصصه ما يكفِي من النُّذُر حتى تقوم الحجة على كلِّ منكرٍ معانِدٍ.

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فيه تهديدٌ ووعيدٌ، وثقةٌ مطمئنةٌ إلى وعد الله.

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقٌّ أوجبه الله على نفسه فضلًا وتكرُّمًا أن ينجي الرسل ومن آمن معهم من كلِّ عذابٍ عامٍّ يقع على أقوامهم بسبب تكذيبهم للرسل وصدِّهم عن سبيل الله، وهذه سنَّة تحقَّقَت في كلِّ القصص النبوي من نوحٍ، وإبراهيم، ولوط، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى عليهم وعلى نبيِّنا محمد أفضل الصلاة والسلام.

أما في غير هذه الصورة فالمؤمنون موكُولُون إلى سنَّة التدافع، ومستوى الأخذ بالأسباب، وإعداد العُدَّة، وحُسن الظن بالله غالِبٌ أن ينصر عباده المظلومين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ خصَّ الوفاةَ هنا؛ تذكيرًا بمصير الإنسان الذي تزُول معه كلُّ الشهوات والرغبات، وهذا أدعَى لتجريد الفكر، وتمحيص النظر، وتصفية القلب ليُدرِكَ الحقيقةَ كما هي من غير لَبسٍ، ولا غشاوة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: لأكون مؤمنًا، في إشارةٍ لأهمية الكينونة مع الصف المؤمن والأمة المؤمنة.

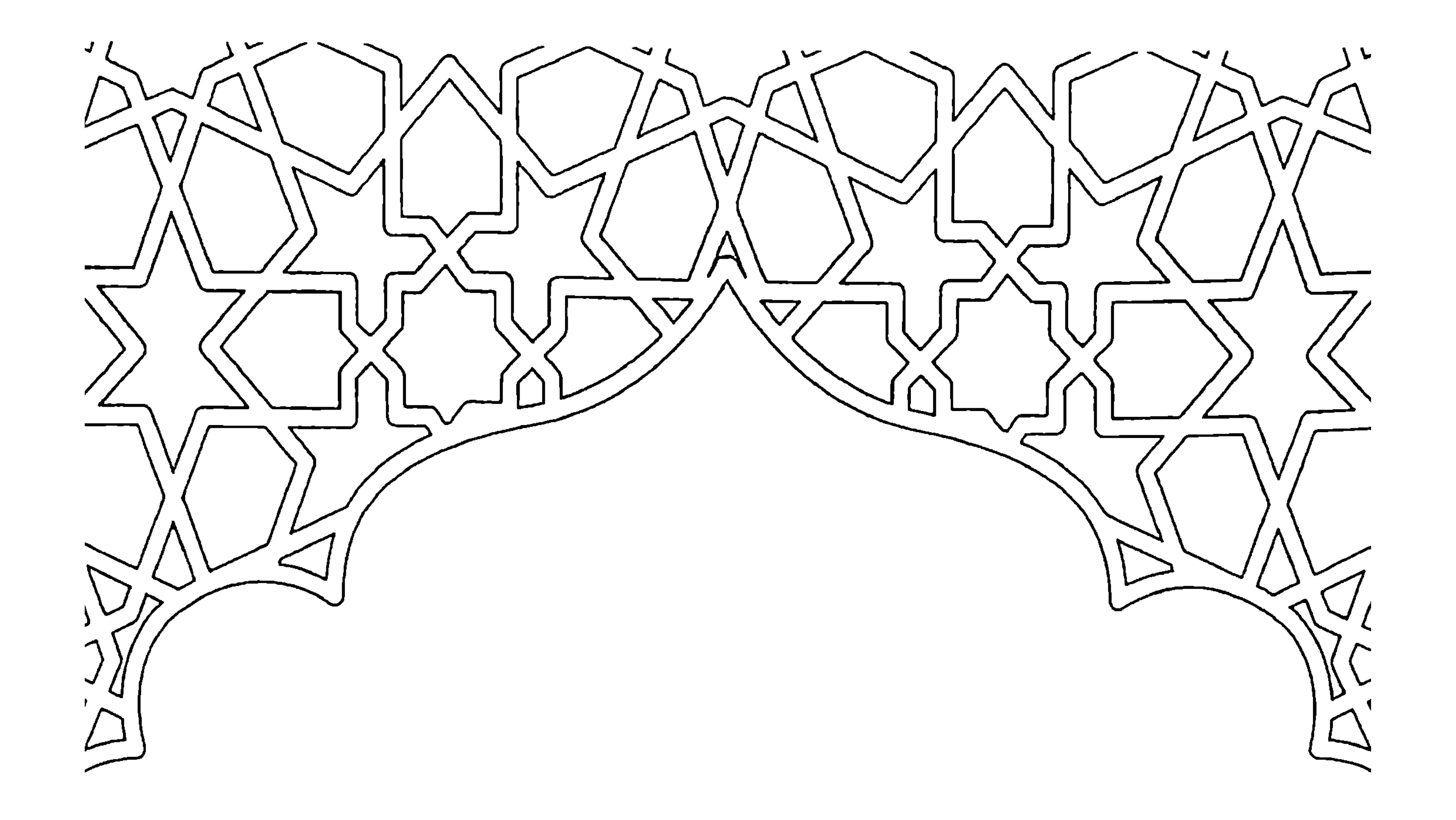
﴿حَنِيفًا﴾ مُخلصًا له ومائلًا إليه دون سِواه.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ فالله ﷻ لا يزيده إيمانُنا ولا هدايتُنا، وإنما يدعونا إلى ذلك لمحض منفَعَتنا نحن، وكذاك لا ينقصه كفرُ الكافرين، ولا ضلالُ الضالين ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وإنما يُحذِّرنا من ذلك لمحض منفعتنا أيضًا، وهذا من عظيم رحمته بخلقه ﷻ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وما أنا بموكَّل على هدايتكم، فوظيفةُ الرسول التبليغ والبيان وإقامة الحجة، ثم الناس أحرارٌ فيما يرَون ويختارون، وهم بعد ذلك المسؤولون عن أنفسهم وما اختاروا لها.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ إشارةٌ إلى أن اتباع الحقِّ يحتاج إلى الصبر؛ لكثرة دواعي الفتنة داخل النفس وخارجها.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبين هؤلاء الكافرين المكذِّبين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.



سورة هود

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الإيمان والإنسان

لا يختلف موضوع هذه السورة عن سابقتها، وهذا شأن القرآن المكي بشكلٍ عام، إلا أن ما بين هاتَين السورتَين أقوى حتى كأن الثانية امتدادٌ للأولى وتكميلٌ لها، وقد لا يكون الفارق إلا التوسُّع في ذِكر الشواهد وقصص النبيين السابقين، وتسليط الضوء على بعض الجوانب العمليّة التي تعزز الخبرة الميدانيّة للصفِّ المؤمن وهو يواجه في مكة ذات التحدّي الذي واجهه كلّ الأنبياء السابقين عليهم وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والتسليم.

في أوائل السورة يعرض القرآن لعالم الغيب وصلته بعالم الشهادة، وتردُّد البشريّة واضطرابها في فهم هذه الصلة وكيفيّة استيعابها والتعامل معها، وهذا هو أساس التباين في مواقف الناس وولاءاتهم وصراعاتهم، حتى يكون الأب في خندقٍ وابنه في خندقٍ آخر، وحتى تنقسم الأسرة الواحدة، والقبيلة الواحدة، ومن هنا يعرض القرآن توجيهاته للبشريّة عامة بغية هدايتهم وتوحيد وجهتهم، وللمؤمنين خاصة بغية تثبيتهم وتمكينهم وتعزيز موقفهم:

أولًا: إن هذا الخلْق كلَّه قد صدر عن إرادة واحدة، وهي إرادة الله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأن هذا الخلق كلّه لا زال قائمًا بإرادة الله وحكمته ورحمته ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ثانيًا: إن الإنسان له وظيفته المتميّزة في هذا الكون، وهي محور اختباره وغاية وجوده ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ وميزان العمل إنما هو الخضوع لأمر الله ووحيه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ثالثًا: إن الناس قد انقسموا على فريقين؛ فريقٌ تائهٌ حائر لا يدري سرّ وجوده ولا مبتدأه ولا منتهاه، وهم الغافلون السادرون في هذا المتاع بلا فكرٍ ولا تأملٍ ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا

كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وأما الفريق الثاني: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ﴾.

والفارِقُ بين الفريقَين: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

رابعًا: إن الإنسان من طبعه التغيّر والتقلّب بحسب ما يُواجِهه وما يُحيط به، فهو يتأثّر باللحظة التي يعيشها حتى أنه يغفل أو يتغافل عما كان عليه قبل ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، ثم استثنَى فئةً مؤمنةً واعيةً ثابتةً ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

خامسًا: إن الجانب الإيجابي في هذه الطبيعة البشريّة هو القدرة على التصحيح والرجوع عن الخطأ، ومن ثَمّ فتَحَ الله باب التوبة وحضَّ الناس عليه ترغيبًا وترهيبًا ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

سادسًا: التذكير المستمر بيوم الجزاء، وأن هذه الحياة الدنيا كلّها ما هي إلا مقدمة لذلك اليوم، وإذا كان الناس هنا يتمايزون بأنسابهم وأموالهم، فهناك التمايز إنما يكون على أساس العمل والسلوك الذي قدمه الإنسان على هذه الأرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وأما الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله فأولئك ﴿ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ

يَعۡمَلُونَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾.

سابعًا: توجيه الخطاب إلى المؤمنين من خلال النبي الكريم ﷺ أن اثبتوا على الحقّ وتمسّكوا به مهما كان حجم الباطل والدائرين في فلكه ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ دلالةٌ أن التفصيل متأخرٌ عن الإحكام، وفيه معنى ردّ الفروع إلى أصولها، وهو أساس فهم القرآن والمنهجية الصحيحة لتدبُّره واستنباط الأحكام منه.

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ترتيبٌ مقصودٌ؛ إذ المُذنِب عليه أن يستشعر الحياء أولًا فيطلب الستر وهو الاستغفار، ثم يطلب العفو بندمه وعزمه على التصحيح وهجر الذنب وأسبابه ومقدماته.

﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ الفضل الأول: عمل الخير؛ وسماه فضلًا لأن الأصل أن الإنسان يتقدَّم بالخير الفاضل عن وقته وحاجته.

والفضل الثاني: الثواب الذي هو كلّه فضل من الله بمنّه وكرمه.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أصله: تتولّوا، وحُذِفَت الأولى تخفيفًا.

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ هذا هو خُلُق النبيين حتى مع خصومهم؛ أنهم يخافون عليهم من سَخَطِ الله وعذابِهِ.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ تفريع عن التولّي، فهم يتولون عن الحقّ، وهم عالمون به، لكنهم يراوغون ويخادعون، فشبّه حالهم هذه بمن ينطوي على نفسه كأنه يخفي شيئًا، لكنه يجهل أن الله عليم به مطّلع على كامل أحواله ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وما ورد من تفسيرات مختلفة عن السلف لمعنى الثني والاستخفاء كلّها داخلة في مظلة هذه الحقيقة الكبيرة، فهي تنزيل وتطبيق على حالات الإنسان المختلفة التي يحاول فيها التخفّي حياءً أو مُراوغةً.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كلّ ما يدبّ في الأرض ويتحرك عليها.

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ كلاهما بمعنى المكان الذي يوجد فيه الكائن الحي على ما هو عليه، لكن المستودع فيه إشارة إلى معنى الوديعة، فهذا الإنسان بعد انتهاء أجله ومفارقته لمستقره على هذه الأرض سيكون هو وما قدّم وديعة عند الله، فالمستقر في الأرض، والمستودع في القبر وحياة البرزخ، والله أعلم.

﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ خبر غيبيٌّ يلزم التصديق به من غير كيفٍ وتفصيلٍ، وفيه إشارة إلى أن الماء أصل الحياة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والله أعلم.

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ إلى أجلٍ محدودٍ، لكن هذا الأجل متصلٌ بحركة الأمم والشعوب، فلا تنقرض أمة إلا وتعقبها أمة.

﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ ما يؤخره؟ كأنهم يستعجلون عذابهم، ويتحدون نبيَّهم ﷺ.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾ شديد اليأس.

﴿لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ فرح بما نال من المتاع، وفخور ينسب هذا الخير إلى قوّته وعقله وحسن تدبيره، وليس إلى الله الذي خلقه ورزقه.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ ليس للنبيِّ أن يترك بعض ما يُوحَى إليه أبدًا، وإنما هو خطاب للأمة في شخص نبيِّها، كما قال: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، وفيه إشارةٌ لحجم المِحَن والضغوط التي يُواجِهُها الأنبياء ﷺ من أقوامهم حتى احتاجوا إلى هذا التأكيد والتكرار المستمر بالثبات والصبر، والتمسُّك بما أُوحِيَ إليهم.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ تنوُّع في التحدِّي؛ ليثبت عجزهم على كلّ وجه، وقوله: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ فيه إغراء لهم، يعني: إذا كان محمدٌ قد افترى القرآن كلّه بزعمكم، فبإمكانكم أن تفتروا أيضًا ولو بمقدار عشر سُور منه.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ قانونٌ إلهيٌّ عظيمٌ، فمن يأخذ بأسباب الحياة يصل إلى ما يريد، مؤمنًا كان أو كافرًا، وهذا واقع الحياة، وحركة الناس في بناء أمجادهم وثرواتهم وحضاراتهم، وهو من العدل الإلهي المتسق مع سنّة الابتلاء والاختبار.

﴿وَحَبِطَ﴾ بطل في الآخرة ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ لأنهم أرادوه للدنيا دون الآخرة فكان كذلك.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ تفريع الضد عن الضد لغرض المقارنة، فهؤلاء الذين هم على بينة فريق، يقابلهم فريق المكذّبين المعاندين ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ وإطلاق البيّنة دلالة تتسع لكلّ من كان على بصيرةٍ وباحثٍ عن الحقّ بفطرةٍ سليمةٍ، أو بمعلومةٍ صحيحةٍ، أو بتفكّرٍ صادقٍ.

ولا شكَّ أن أكثر من يَصدُق عليه هذا الوصف هو سيدنا محمد ﷺ الذي برّأه الله من الشرك، ورغّبه في عبادته قبل بعثته، فالبينة هنا هي هذه البصيرة، ويبعد أن يكون المقصود بها الوحي لما سيأتي.

﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ الشاهدُ هنا القرآن، الذي جاء يشهد لأهل التوحيد والمصدِّقين بالرسل، ويُنكِر على المشركين وعبَدَة الأصنام، ولا شكَّ أن نزول القرآن جاء تاليًا لهذه البصيرة

والتوجُّه الفِطريِّ أو الإبراهيميِّ الذي كان يُصارِعُ الشركَ والوثنيةَ في كلّ الجزيرة العربية وغيرها.

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة، فهي كتابٌ متقدّمٌ من حيث النزول على القرآن، وهو كذلك يشهد لهذه الفطرة ولهذه البصيرة كما يشهد القرآن.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ كلّ مجموعةٍ بشريّةٍ تتناصر فيما بينها فهي حزب، مثل: قريش، واليهود، والمنافقين، وهكذا.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ لا تكن في شكٍّ منه، والمخاطب كلّ مكلّفٍ عاقلٍ، وهذا نظير قوله: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ جمع شاهد، وهو كلّ من يُؤذن له بالشهادة في ذلك من نبي وملك وغيرهما.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ لكي تناسب أهواءهم وشهواتهم.

﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ لا يستطيعون سماع الحقّ لفرط تكبّرهم وغرورهم.

﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ البصر الذي يقودهم إلى الهداية.

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا محالة، وهي تُفيدُ توكيد ما بعدها، كأنه قال: حقًّا إنهم في الآخرة هم الخاسِرُون.

﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾ خضعوا.

﴿۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ الذين عطّلوا منافذ المعرفة ﴿وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ الذين جاهدوا واجتهدوا في سبيل الوصول إلى الحقّ والحقيقة، وهذا هو الفارق الأساس بين الفريقين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾



نوح عليه السلام

تكررت قصة نوح ﷺ في القرآن الكريم كثيرًا، لكنها في هذه الآيات جاءت لتشرح جوانب أخرى من هذه التجربة المبكِّرة في عمر الدعوة، وبتفصيل يتناسب مع حاجة الدعوة المكية إلى فهم طبيعة الشرك وطريقة تفكير المشركين والمآلات المحتملة لهذا الصراع، ومن ناحية أخرى فالقصة كلها وكذاك القصص التالية لها جاءت تفريعا لخاتمة المقطع السابق ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ ﴾.

أولًا: نوح ﷺ يشرح قضيته، وهذا الشرح الذي نقرؤه في هذه الآيات ربما استغرق قرونا، ولكنها طريقة القرآن في إيجاز الحدث وتقديم النموذج العملي الصالح للتأسي والاعتبار:

– أساس دعوته التوحيد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾.

– أنه ناصح لقومه، يحب لهم الخير ويخاف عليهم العذاب ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ وقد تكرَّر منه خطابه لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ بمعنى يا قومي، وهو خطاب تودُّد وتقرُّب.

– أن دعوته مبنية على علم وبصيرة وحجة ظاهرة ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ وقد أخذ وقتا طويلا معهم في المجادلة ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾.

– أن دعوته نظيفة اليد، نزيهة من كل غرض، لا يبتغي بها إلا وجه الله وإنقاذهم مما هم فيه ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾.

– أنه لا يفرّق بين شريف ووضيع، ولا بين كبير وصغير في هذه الدعوة، فهي دعوة لهذا الإنسان كيفما كان، وعلى أي طبقة أو مستوى اجتماعي حُسب، فحينما اشترطوا عليه أن يطرد

من قالوا عنهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ ردَّ عليهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ﴾ وواضح من كل هذا أن هذه النقطة كانت بالغة الأهمية في الصراع بين الفريقين.

- أنه ﷺ لا يعد قومه بكنوز الأرض، ولا بخوارق العادات، ولا يدّعي لنفسه ما يخلع عنه بشريّته ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وهذا تجريد لدعوة الحق من كل شائبة قد تستهوي اللاهثين وراء المال والجاه.

- أن هذه الدعوة دعوة دينيّة إيمانيّة، لا سبيل إلى الإكراه فيها ولا إلى التمنّي إن لم تلامس روح الإنسان من داخله في فكره وقلبه عن رضا وطمأنينة وعقيدة راسخة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾ بسبب إصراركم أنتم على الغواية وتشبثكم بها وتكبّركم على الحق وأهله.

ثانيًا: أما موقف قومه فيتلخّص في الآتي:

- التكذيب المنطلق من نفسية الملأ المُتكبِّرة المُتجبِّرة ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

- مجابهة العلم والحجة بالعناد والمكابرة ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

- الإصرار على الكفر حتى ختم الله على قلوبهم وآذن بهلاكهم ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ وهؤلاء الذين استثناهم القرآن كانوا قليلا في قومهم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ثالثًا: الطوفان:

- أمر الله نوحًا ﷺ بصناعة السفينة استعدادا لذلك الهول القادم، وأخذا بأسباب النجاة ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾.

- إلى هذه المرحلة والمشركون على ما هم عليه من غرور وحماقة وسخرية ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ ﴾

- أمر الله نوحا أن يحمل في سفينته كل المؤمنين، وأن يحمل معهم كذلك من كل كائن حي زوجين اثنين لضمان استمرار الحياة بعد الطوفان ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾.

- بدأ الطوفان متدفّقا من الأرض ونازلا من السماء حتى أحاط الموت بالناس إلا تلك السفينة المباركة ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (٤١) وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾.

- مشهد يعرضه القرآن فيه مزيج من شدّة الموقف وحنان الأبوّة وميزان العدل الحاسم الذي لا مجال فيه للمحاباة ولو كان لأقرب الأقربين ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ ويتذكر نوح ابنه مرّة ثانية، وربما لم يعد يعلم عنه شيئا بعد هذا الحوار فالتجأ إلى الله ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾.

- أذن الله بعد ذلك بتوقّف مصادر الطوفان ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ ثم رست السفينة بمن فيها على أحد المرتفعات ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ ثم هبط نوح

ومن معه على الأرض ليعيشوا حياة أخرى وفصلًا جديدًا من فصول التاريخ البشري ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

دقائق التفسير

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ اعتراف منهم بأن نوحا كان منهم ومن أوساطهم وأشرافهم، وهذا مؤكّد فما من نبيّ إلا وهو من أوسط قومه حسبًا ونسبًا وشرفًا، ثم انتقصوا من أتباعه على وفق ميزانهم الدنيوي المادي في التفاضل.

﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي: هؤلاء قد استَعجَلُوا وأخَذُوا بظاهر الأمر فاتَّبعُوك، وفيه اغتِرارٌ بما عندهم من عقلٍ وخبرةٍ في الحياة تدعُوهم إلى عدم التصديق والتسليم بكل ما يُقال، ولكنه في الحقيقةِ اغتِرارٌ أجوف، كشفه المصير الأظلم الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فليس للنبي ولا لأي داعٍ من بعده أن ينقّب في نفوس الناس ويبحث في نواياهم، فيكفي منهم الاستجابة الظاهرة والخضوع لأمر الله ونهيه، والله بعد ذلك يتولى حسابهم.

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ وهي إرادة متصلة بعدل الله وعلمه وحكمته، ومُتَّسِقة مع سنن الله في هذا الخلق، فمَن طلب الهداية هُدِي، ومن طلب الغواية غَوَى، تمامًا مثل بقية الأسباب في التعلُّم والترزُّق والتطبُّب وغيرها.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ الخطاب هنا لسيدنا ونبينا محمد ﷺ في الْتِفاتة سريعة في وسط القصة، كأنه هناك من كان يسمع هذه القصة من مشركي مكة، فيلتفت إليهم رسول الله منبهًا لهم ومخاطبا لهم في أنفسهم؛ أن هذا الذي أتلوه عليكم هو الحق، وإني أتحمل مسؤوليتي أمام ربي كما أنكم تتحملون نتيجة أعمالكم وتكذيبكم،

وفي هذه الالتفاتة تنبيه إلى الاعتبار والقياس، والنظر إلى عواقب الأمور ونتائجها.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ إشارة إلى احترام نواميس الكون وقواعد الأخذ بالأسباب حتى في هذه المواضع الاستثنائية.

﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ قَرَن بين القدر والأمر، فالسفينة كانت محفوظة بقدر الله وعلمه ورعايته ونظره، ومصنوعة من قبل نوح ﷺ بأمر الله ووحيه، ومسؤولية البشر دائما مع القدر الإيمان والتصديق والرجاء والدعاء، ومسؤوليتهم مع الأمر العمل والتنفيذ.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ لا تسألني، ولا تشفع عندي في نجاتهم.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ الظاهر أنه تنور الخبز، وخروج الماء منه كان علامة على بداية الطوفان، لكن الذي رأيته في بادية العراق – وهي منطقة لا زالت تحتفظ ببعض المفردات العربية الأصيلة – أنهم يطلقون التنّور على بؤرة العين ومركزها الذي يتدفّق بالماء، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في الطوفان: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢].

وقد يكون المعنى صورة ذهنية عامة لبلوغ الأمر ونضجه كما يقال: بلغ السيل الزبى، ولا تعارض بين المعنيين فهذه الصورة لا بد لها من سبب معين ومناسبة محددة أخذت منه، والله أعلم.

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: احمل من كل جنس اثنين؛ ذكرا وأنثى، والزوج واحد من اثنين متصلين، ونصّ على الزوجين لدلالته على الذكر والأنثى وهو مطلب بحدّ ذاته، ثم نصّ على الاثنين تحرّزا من الزيادة حتى تتمكن السفينة من استيعاب كل الأجناس، وهذا لغير البشر، أما البشر فقد نص على أنه يحمل منهم أهله وأتباعه المؤمنين جميعا، ويذر الكافرين ولو كانوا قرابته.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ استثنى قرابته الذين لا زالوا على الكفر ممن سبق قضاؤه تعالى بهلاكهم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بمعنى أنها تجري على اسم الله وتتوقف على اسم الله.

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أراد أن ينقذه من الكفر ومن الهلاك، وفيه أن الداعية لا ييأس من المدعو حتى آخر لحظة من عمره، وأخر فرصة في لقائه.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ كُفّي عن المطر.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص ونزل في الأرض.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ رست على جبل، ولم يحدد القرآن مكانه، لكن بعض المفسّرين ذهب إلى أنه في الموصل شمال العراق، وقال آخرون هو الطور، ولا عبرة بتحديد المكان، والله أعلم به.

﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ تبادر لنوح ﷺ أن وعد الله له بنجاة أهله يشمل ابنه ولو كان كافرًا.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ تصويب ليس لمعنى الأهل، بل لمن يصدق فيهم الوعد من الأهل، كأنه يقول: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم، وفيه تأكيد عملي عميق لعقيدة الولاء والبراء.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ درس بليغ في تجنّب أسباب الجهالة، ومنها اجتزاء النصوص، فالوعد بنجاة الأهل حق، لكن هنالك نصوص أخرى تقضي باستثناء الكافر ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ والنهي عن التشفّع للظالمين ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وهذا الاجتزاء يقع فيه اليوم كثير ممن لم يتزوّد بأدوات الاستنباط، فيقرأ الآية أو الحديث فيمضي به دون أن يستوعب الآيات والأحاديث ذات الصلة والتي قد تكون شارحة أو مخصصة أو مقيّدة، ومن أسباب الجهالة أيضا؛ الكيل بمكيالين، فيحكم على المتماثلين بحكمين مختلفين.

فنوحٌ ﷺ دعا على الكافرين بالهلاك ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، وهذا الدعاء شامل لكل كافر ومنهم ابنه، فقوله فيما بعد: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيه استثناء بلا مسوِّغ إلا من عاطفة الأب ورقَّة قلبه على ولده.

وهذا درسٌ آخر لكل الباحثين والمجتهدين والقضاة وأولياء الأمور، والتوسّع في استنباط هذه الدروس لا ينقص من مكانة النبيين ﷺ فمقامهم محفوظ، وهم قدوة البشر جميعا وسادتهم، ومن تمام محبتهم وتعظيمهم والاقتداء بهم الغوص في استنباط الدروس والعبر من حياتهم ودعوتهم، وهذه غاية القصص القرآني كله ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

وفي هذه الآية أيضا تتجلى عظمة الله وكبرياؤه الحق، فنوح ﷺ مع أنه رسول من أولي العزم لكنه أمام الله عبد، والله يفعل بعباده ما يشاء ويخاطبهم بما يشاء، وقد قال في عيسى ﷺ أشد مما قاله في نوح: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾ [المائدة:١٧]، وقال في محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤- ٤٧]، أما نحن العبيد فواجبنا التأدب مع هؤلاء الصفوة المنتجَبين دون أن يحول هذا الأدب بيننا وبين فهم كلام ربنا ﷻ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ موقف بليغ ومؤثّر إلى حد البكاء، فهذا الرسول الكريم لم يتذرّع بتلك القرون الطويلة التي قضاها صابرًا مصابرًا على الدعوة والعبادة، ومقارعته للكفر والظلم، لم يتذكّر كل ذلك ولم يذكره، وإنما بدأ يستغفر ويعتذر ببالغ الاستغفار والاعتذار والتواضع عن كلمة قالها في لحظة ضعف بشرية، إنه درس في العبوديّة الحقّة التي لا تليق إلا بذلك الصنف من العباد ﷺ.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بعدك يا نوح ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تمهيد للحديث عن الأمم التالية، عاد وثمود وفرعون وغيرهم.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

هود وصالح عليهما السلام

هود وصالح عليهما السلام هما النموذج الأقرب زمانًا وموضوعًا لقصة نوح عليه السلام؛ حيث الحياة البدائية التي تعتمد على الولاء القبلي وتقليد الآباء والأجداد، مع بساطة في مفردات الحياة، والجوانب التي عالجتها هذه الآيات في هذا النموذج تتلخص في الآتي:

أولًا: موضوع الدعوتين واحد ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فهي الدعوة إلى

التوحيد عند النبيين الكريميْن وبصيغة واحدة للدلالة على شدّة الشبه بين التجربتين.

ثانيًا: ترغيب النبييْن لقومهما بالاستغفار والتوبة، قال هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، وقال صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾.

ثالثًا: ردَّت عاد على نبيها: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، كما ردَّت ثمود: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾.

رابعًا: تشابهَت عاقبة القبيلتَين إلى حدٍّ كبير، ففي عاد: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨) وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (٥٩) وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، وفي ثمود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

خامسًا: افترَقَت قصة صالح عن قصة هود بإضافة مشهد الناقة، وهي آية أيّد الله بها دعوة صالح ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾، في حين أن قصة هود لم تقترن بآية خارقة، وربما هذا هو الذي جعل قومه يقولون له: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ إشارة إلى الاحتفاظ بوشائج القربى حتى مع اختلاف الدين، إلا أن الولاء يدور مع الدين لا مع القرابة.

﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ أوجدني من العدم.

﴿مِّدۡرَارٗا﴾ كثيرًا مُتتابعًا.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ يُشيرُون إلى أن آلهتهم قد أصابَتْه بالجنون، فأخذ يتكلَّم بما يتكلَّم به!

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تتأخَّرُوا في مُعاقبَتي وإيقاع الضرر بي، فيه تحدٍّ واضح واستعداد للتضحية.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ كل كائن حي فهو تحت قدَر الله وحكمه، وأخذ الناصية عادة المحاربين في جرّ أسراهم وهم بمنتهى الخضوع، فذهبت مثلًا.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أصلها: تتولوا، وحذفت إحدى التائين تخفيفًا.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالعذاب.

﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ بالجمع، مع أنهم كذبوا رسولًا واحدًا، إشارة إلى أن من كذَّب رسولًا واحدًا فقد كذَّب بالرسل كلهم.

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾ من رحمة الله.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ مكّنكم منها استقرارًا وعمارةً ورزقًا، وفيه إشارةٌ إلى مقصدٍ مِن مقاصِد خلقِ الإنسان، وهو إعمارُ الأرض، وهو لازِمٌ مِن لوازِم الاستِخلافِ.

﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ أي: كنا نرجو أن يكون لك بيننا مقام غير هذا الذي جئتنا به.

﴿تَخۡسِيرٖ﴾ خسارة فادحة ومكررة.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ تعدّوا عليها وذبحوها.

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ الهلاك بالصوت، وفيه إشارة إلى طريقة من طرق التدمير لم يتوصَّل لها العلم إلا حديثًا.

﴿جَٰثِمِينَ﴾ هامدين مكبوبين على وجوههم جُثثًا لا حياة فيها.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ كأنهم لم يُقيموا فيها.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

إبراهيم ولوط عليهما السلام

يعرِض القرآن قصة إبراهيم وقصة لوط ﷺ في هذه الآيات وكأنهما قصة واحدة، والحقيقة أن إبراهيم له أكثر من قصة، وليسَت كلها على صلةٍ بقصة لوط، ويبدو من السياق أن محور القصة الرئيس هنا هو لوط ﷺ، وقصة إبراهيم ﷺ كأنها جاءت تقديمًا وتمهيدا، لما بين النبيين الكريمين من قُربَى في النسب وقُرب في المكان والزمان، وهذه أهم معالم القصة:

أولًا: إبراهيم يتلقى البشرى بولده إسحاق، وهو الولد الأول من زوجته سارة ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾، ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ

يَعۡقُوبَ﴾ وكانت هذه البشارة معجزة وخارقة للأسباب ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾.

ثانيًا: إبراهيم يتلقى من هؤلاء الملائكة الذين بشروه بإسحاق، يتلقى خبرا ثقيلا ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ ولما بدأ إبراهيم يجادلهم في هذا الخبر قالوا له: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾.

ثالثًا: انتقل المشهد مباشرة إلى بيت لوط ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ على خلاف ما وجدوه في بيت إبراهيم من حفاوة وترحيب ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ إن لوطًا في وضع مختلف؛ فهو في قرية فاسدة لا تحترم ضيفانها، وليس عند لوط القوة الكافية لحمايتهم ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾.

رابعًا: لقد وقع ما كان يخشاه؛ حيث دخل عليه قومه يراودونه عن ضيفه وهو يصرخ بهم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ والقرآن هنا يقدم نموذجا مختلفا عن كل النماذج الأخرى، فالمجتمع هنا مجتمع متحلل وشاذ ومنسلخ من الفطرة، وهو النموذج الأسوأ لما يمكن أن تصل إليه البشرية بفقدانها للقيم الدينية والإنسانية.

خامسًا: حاول لوط أن يُقنِعَ قومَه بخيارٍ آخر هو أطهر وأنقى وأقرب إلى فطرة البشر، وهو الزواج ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾، ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

سادسًا: في هذه اللحظة الحرجة يتدخل الملائكة ليطمئنوا لوطا ويحسموا الأمر ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

سابعًا: ثم كانت نهاية هؤلاء لا تختلف عن نهاية الأقوام السابقين؛ قوم نوح وهود وصالح ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ الرسل هنا هم الملائكة، والبشرى كانت بإسحاق ثم بيعقوب كما نصّت الآية الآتية.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ جملة الملائكة فعلية تقديرها: نُسلِّم سلامًا، وجملة إبراهيم اسمية تقديرها: سلام لكم، والجملة الاسمية آكد وأثبت، فيكون ﷺ قد ردّ التحية بأحسن منها.

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ فما أبطأ، وهذا من إكرام الضيف، أن لا يتأخر قِرَاه.

﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ مشويّ.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ لم يمدّوا أيديهم إلى الطعام؛ لأن الملائكة لا شأن لها بالطعام.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ استغرب من صنيعهم.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خاف منهم؛ لأن الضيف الذي لا يمدّ يده إلى الطعام قد ينوي شرًا، أو أنه ارتاب في أمرهم.

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ ليست بجالسة معهم لكنها قريبة منهم.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة تعجُّب.

﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ زوجي.

﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ دلالة أن زوجة الرجل هي أهل بيته؛ إذ لم يكن معهما ثالث، وفي هذا ردٌّ على الشيعة في إخراجهم لنساء النبي ﷺ من مُسمَّى أهل بيته، كما سيأتي في سورة الأحزاب.

﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد.

﴿مَّجِيدٌ﴾ عظيم متصف بصفات الكمال كلها.

﴿ٱلرَّوْعُ﴾ الخوف والفزع.

﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ يجادل الملائكة حرصًا وخوفًا على لوط ومن معه من المؤمنين.

﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ كثير الدعاء وكثير الرجوع إلى الله.

﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ حَزِنَ لمجيئهم.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا﴾ أي: ضاق وسعه بهم، والمقصود شدَّة الانقباض، وليس ضيق المكان.

﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ يسرعون إليه.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ذكر الطُّهر هنا تأكيدٌ أنه يقصِد الزواج، والظاهر أنه أراد بناته على الحقيقة؛ لأنه أشارَ إليهن بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، ولقولهم له: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ ولا يبعُد أيضًا أنّه ذكَرَ بناتِه على سبيلِ التمثيل، فيكون المقصُود جِنسَ البنات؛ وذلك لُملاحظة أنّ عددَ بناتِه لا يكفِي لعدد هؤلاء الذين هجمُوا عليه وعلى ضيُوفِه، وربما كانت الغايةُ مِن عرضِه هذا أن يصرِفَهم عن ضيوفه ليفكِّرُوا بخيارٍ آخر، والله أعلم.

﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ تفسيرُ الحق هنا بالرغبة وإن قال به جمعٌ من المفسِّرين فهو على خلاف الظاهر، وهو مستبعد أيضًا؛ لأنهم إن قصدوا نساءهم أو نساء القرية عامة، فهو باطل؛ لأنهم كانوا يتناكحون ويتناسلون، وإلا لانقطعوا أصلًا، وإن قصدوا بناته خاصة فأنى له أن يعلم ذلك؟ والأقرب أنهم يشيرون إلى حائل بينهم وبينهنَّ تقتضيه عاداتهم وتقاليدهم، التي لا نعلم عنها شيئًا، وصيغة خطابهم ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ كأنهم يقولون له: إن هذا العرض مجرد حيلة منك؛ لأنك تعلم أننا لا نقدم على ذلك، والله أعلم.

﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بسوء.

﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أخرج مع أهلك عندما يحلّ الظلام.

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ نحو المكان الذي خرجوا منه، لإخلاص الهجرة لله وقطع العلائق بالكلية عن أولئك القوم الفاسدين.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ لأنها كانت موالية لقومها، والأظهر أن استثناءها كان من الخروج أصلًا، بمعنى أنها لم تخرج معهم، وأما أنها خرجت ثم التفتت فهلكت بسبب التفاتها، فهو بعيد؛ لأنها استحقت العقوبة بولائها لهم وليس بالتفاتها، ثم إن سياق القصص القرآني لا يتسق مع هذا، فنوح ﷺ سأل ربه في ابنه فردّه الله ذلك الرد الشديد ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فهي إذاً تستحق ما استحقه ابن نوح، أما إذا كان القصد أن لوطا أخرجها معه احتياطا حتى لا تنصرف إلى قومها فتخبرهم بخروجه، فهذا وارد، ويكون لالتفاتها هنا معنى آخر بحيث إنها تكون قريبة من قومها فيصيبها ما أصابهم، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالعذاب.

﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بانقلاب الأرض بهم على الحقيقة، فأصبح عالِيها سافِلَها، وسافِلُها عالِيَها، وخصَّ العالي بالذكر؛ لأنه أبلغ في الإهانة، وتصوير حالة الدمار.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ عذاب آخر غير الانقلاب، أو هو من آثاره، فالانقلاب قد يكون فجّر بركانا ضخما، والبراكين تلقي بالحجارة على مسافات بعيدة كأنها المطر، و﴿سِجِّيلٖ﴾ نوع من الحجارة، و﴿مَّنضُودٖ﴾ متراكم يسقط بعضه فوق بعض.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلّمة، لا تشبه بقية الأحجار.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ تهديد لكل كافر ظالم مكذّب للرسل إلى يوم الدين.

﴿۞ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أرىكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴿٨٤﴾ ويقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿٨٥﴾ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴿٨٦﴾ قالوا يشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد ءاباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشؤا إنك لأنت الحليم الرشيد ﴿٨٧﴾ قال يقوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهىكم عنه إن أريد إلا الإصلح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴿٨٨﴾ ويقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صلح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴿٨٩﴾ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴿٩٠﴾ قالوا يشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنرىك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمنك وما أنت علينا بعزيز ﴿٩١﴾ قال يقوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط ﴿٩٢﴾ ويقوم اعملوا على مكانتكم إني عمل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كذب وارتقبوا إني معكم رقيب ﴿٩٣﴾ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين ءامنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديرهم جثمين ﴿٩٤﴾ كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴿٩٥﴾﴾

شعيب عليه السلام

في قصة شعيب عليه السلام يعرض القرآن لنا نموذجًا آخر، وهو نموذج متكرر في الحياة البشرية، لا سيما تلك المجتمعات المدنية التي تستند في الغالب إلى القيم المادّية، فيكون المال هو الغاية الأسمى ومعيار التفاضل، فينساق الناس في ساحة من المنافسة للجمع والاستحواذ مهما كانت الطرق والوسائل، وهنا تكون مهمة النبيِّ الكريم مهمة مزدوجة، فهو عليه أن يقدّم البديل الأصلح لصناعة المجتمع الإنساني الكريم، ومن ناحية أخرى عليه أن يعالج أصل الداء، وهو

الكفر وغياب العقيدة الأخروية التي تحدّ من هذا الطمع والجشع، وتتلخَّص هذه التجربة الإصلاحية في الآتي:

أولًا: تقوم دعوة شعيب ﷺ على ركنَين اثنَين: التوحيد، والعدل ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ ﴾ وهو يسوقهما سوقًا واحدًا دون فصل أو تأخير في إشارة إلى أن إنقاذ الناس من الظلم لا يقل أهمية عن إنقاذهم من الكفر؛ إذ كلاهما مرتبط بالآخر ويصلح علّة له، فالكفر يؤدّي إلى الظلم، والظلم يؤدِّي إلى الكفر.

ثانيًا: الظلم الاقتصادي مقدمة للظلم العام والفساد الأكبر والأوسع ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ وهذه حقيقة مؤكّدة ومجرّبة، فالرشوة مثلا لا تعني أكل المال الحرام فقط، بل هي أداة لتخريب المؤسسات كلها بما فيها السياسية والتربوية والقضائية، وهكذا كل الجرائم الاقتصادية.

ثالثًا: لحساسية التدخل في الوضع المادي للناس، قدم شعيب نفسه بصورة مكشوفة لقومه من خلال النقاط الآتية:

- أنه واضح معهم يتكلم بالحجة والدليل ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾.
- أنه من الطبقة الغنيّة في المجتمع؛ حتى لا يكون دفاعه عن المظلومين كأنه دفاع عن نفسه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ ﴾.
- أنه باستطاعته أن يفعل كما يفعل الأغنياء، لكنه ألزم نفسه بغير ذلك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾.
- أنه يسعى للإصلاح العادل والشامل ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ﴾.

رابعًا: حذَّر شعيبٌ قومَه أن يُصيبَهم مثل ما أصاب الأمم السالفة، مُنبِّهًا أن العداء الشخصي

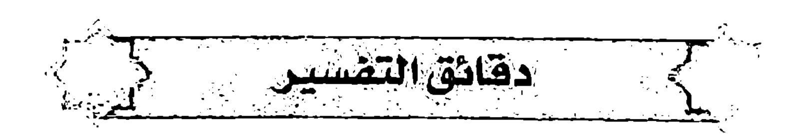
قد يكون سببًا للمكابرة ومزيد من العناد ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾.

خامسًا: رغَّبهم بالتوبة وتصحيح موقفهم ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾.

سادسًا: في مقابل هذا الحلم وهذه الحكمة اتخذ قومه موقفا آخر اتسم بالسخرية تارة ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ وتارة يجمعون إليها الوعيد والتهديد ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾.

سابعًا: استمرّ شعيب بمحاورتهم حتى بعد التهديد ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾

ثامنًا: أصرّ قومه على طريق الكفر والظلم والفساد فاستوجبوا ما استوجبته الأمم السالفة، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.



﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ ناحية بين الحجاز والشام.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ في سَعةٍ ورزقٍ كثير.

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالعدل.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ ما أبقاه الله لكم من الحلال.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ على سبيل الاستِغراب، كأنهم يقولون له: لقد عرفناك فينا حليمًا رشيدًا، فكيف تأتينا بهذا الدين المُستغرَب؟ فهو اعترافٌ بمكانته عندهم؛ لأنه كان من أهل الغِنَى، وهذه مقاييسُ الاحترام في المجتمعات الطبقيَّة، ولا يبعُد أن يكون قولُهم هذا على سبيل الاستهزاء والتهكُّم بعد أن خالَفَهم فيما هم عليه.

﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ ﴾ لا تدفعنَّكم مُخالفتي ومعاداتي.

﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ تهكُّمًا وأَنَفَة، كأنهم يقولون له: كُفَّ عنا.

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ ﴾ لولا عشيرتك.

﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ ﴾ بالحجارة.

﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ ﴾ جعلتموه وراء ظهوركم، كناية عن إهمال حقه والإيمان به.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ على طريقتكم.

﴿جَٰثِمِينَ ﴾ جثثا هامدة، ومن الملاحظ هنا ورود هذا الوصف مع عذاب الصيحة، كأنها تزهق الأرواح دون تدمير، والله أعلم.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ ﴾ لم يُقِيمُوا فيها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

موسى عليه السلام وخاتمة القصص النبوي

في ختام هذه القصص المختلفة يعرض القرآن النتيجة الكلية لهذا الصراع الطويل والمتنوع بين معسكر الإيمان والعدل والفطرة وبين معسكر الكفر والظلم والشذوذ، مُذكرًا بقصة موسى ﷺ مع فرعون، القصة التي أخذت المساحة الأوسع من بين كل القصص القرآني، بينما اكتفَت هذه السورة بالتذكير بها في نهاية المطاف مثالًا خاتمًا لنهاية الظالمين:

أولًا: يقدم القرآن الكريم فرعون نموذجًا للطاغية الذي لا ينفع معه بيان، ولا حجّة، ولا تذكير، الطاغية الذي يقود قومه للهلاك والدمار إرضاءً لغروره وعناده، واستهانةً بالبلاد

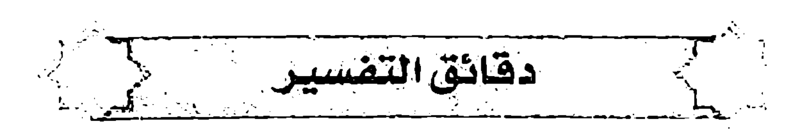
والعباد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

والآيات تنصُّ على أنه كان سببًا في نزول اللعنتَين: لعنة الدنيا بالهلاك والدمار، ولعنة الآخرة بالنار وغضب الجبار.

ثانيًا: أن هذا الذي أصاب فرعون وقومه إنما كان بما كسبت أيديهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾.

ثالثًا: أن هذا الذي أصاب فرعون وقومه قد أصاب أقوامًا سابقين، وفي هذا عبرة للاحقين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ في إشارة أن النجاة من هذا المصير البائس لن تكون إلا بالإيمان بالله والاستعداد ليوم الحساب.

رابعًا: أن الناس الذين انقسموا في هذه الحياة الدنيا بين مؤمن ومكذِّب، ومقسط وظالم، وطائع وفاسق، هناك أيضًا سينقسِمُون ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.



دقائق التفسير

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حجة، ودليل بيِّن.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ يتقدَّمهم.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أدخلهم فيها؛ لأنه كان السبب في كفرهم وضلالهم، وفيه صورة تمثيلية للراعي الذي يتقود قطيعه إلى مورد الماء، لكن فرعون أوردهم النار ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ لعنة الدنيا: الهلاك والدمار، ولعنة الآخرة: النار، وقد أتبعت الثانيةُ الأولى، فكانت رديفا لها أي تالية وتابعة.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قرى قائمة بجدرانها ومعالمها، وأخرى مندثرة، و﴿وَحَصِيدٌ ﴾ من حصد الزرع، شبهها بالمكان المحصود.

﴿تَتْبِيبٍ﴾ تخسير، ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١].

﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ يوم عظيم يحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الأنبياء والمرسلون، وتجتمع فيه الخلائق جنُّهم وإنسُهم على مرِّ أجيالهم، واختِلاف عصورهم.

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي: يوم القيامة، فهو آت بموعده المحدد ووقته المحسوب.

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ ﴾ لا تتكلم نفس إلا بإذن الله، وحذفت التاء الأولى تخفيفًا.

﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ تردد النفَس بصوت مرتفع لشدة الخوف والهول.

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ لا تكن في شكّ.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ماكثين فيها أبدًا، واستثناء المشيئة لتقرير الحقيقة الكبرى أن كل شيء في هذا الوجود خاضع لمشيئة الله ولا يخرج عنها.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ ﴾ أي: لعجَّل لهم القضاء، ولكن قدره ماض، وكلمته سابقة بتحديد يوم القيامة وهو يوم الفصل، فلا يتقدم ولا يتأخر.

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ ﴾ أي: كل من ذكرهم الله من أهل القرى، ومن الخلائق أجمعين سيوفيهم ربُّهم أعمالهم صغيرها وكبيرها.

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

توجيهات ختامية

أولًا: الاستقامة على الحق والثبات عليه ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثانيًا: البعد عن الظلم والظالمين ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

ثالثًا: المحافظة على الصلاة ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾.

رابعًا: الدعوة إلى محاربة الفساد بكل أنواعه ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾.

خامسًا: إن الإصلاح سبب لدفع الهلاك والعذاب ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾.

سادسًا: إن الاختلاف باق بين الناس، وصراع الحق والباطل لن يتوقف، وهذه سنّة الله في اختبار عباده ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾.

سابعًا: إن هذا القصص النبوي فيه العبرة والموعظة والتثبيت على الحق المبين ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ثامنًا: إن المؤمن مطالب بالعمل مهما كان خصمه وعدوّه، فكلّ مجزي بما يعمل ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

تاسعًا: إن هذا كله يتطلب التدرُّج بالصبر واستحضار قيمة الإتقان في العمل والإحسان إلى الخلق ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ تنبيه إلى التواصل بين المؤمنين على طريق الصلة بالله والاستقامة على أمره.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ الطغيان: مُجاوزة الحد، وهو مخالفٌ لمعنى الاستقامة.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الركون هو: الميل إليهم تشبُّهًا بهم، أو رغبةً بما عندهم، أو معاونةً لهم، أما الاختلاط بهم بُغية الإصلاح وتبليغ الدعوة، والتخفيف من الظلم فلا يدخل في هذا النهي قطعًا.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾ أوقات الصلاة في أطراف النهار وساعات الليل، وذكر طرفَي النهار؛ إشارة إلى أن النهار للعمل وكسب الرزق وليس للتعبُّد، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ لأن الحسنات تتضمّن الصلاة والذكر والاستغفار، وتتضمّن التسامح، والتعاون والتكافل، وإرجاع الحقوق للناس، فهذه كلها ستمحو آثار السيئات.

غير أن بعض المتعبّدين زلَّت بهم القَدَم في فهم هذه الآية؛ فهم يأكلون حقوقَ الناس من ناحيةٍ، ويتوسّعون في الغيبة والنميمة وما شاكَلَ ذلك، ثم يجتهدون في العبادات؛ كالعمرة، وقيام رمضان، فأصبحت هذه العبادات الجليلة مدعاةً للاستمرار بالظلم والقطيعة، وهذا على خلاف مقصد الشرع قطعًا.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ ﴾ هلا كان، أسلوب من أساليب الطلب.

﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ ﴾ من علم وخير.

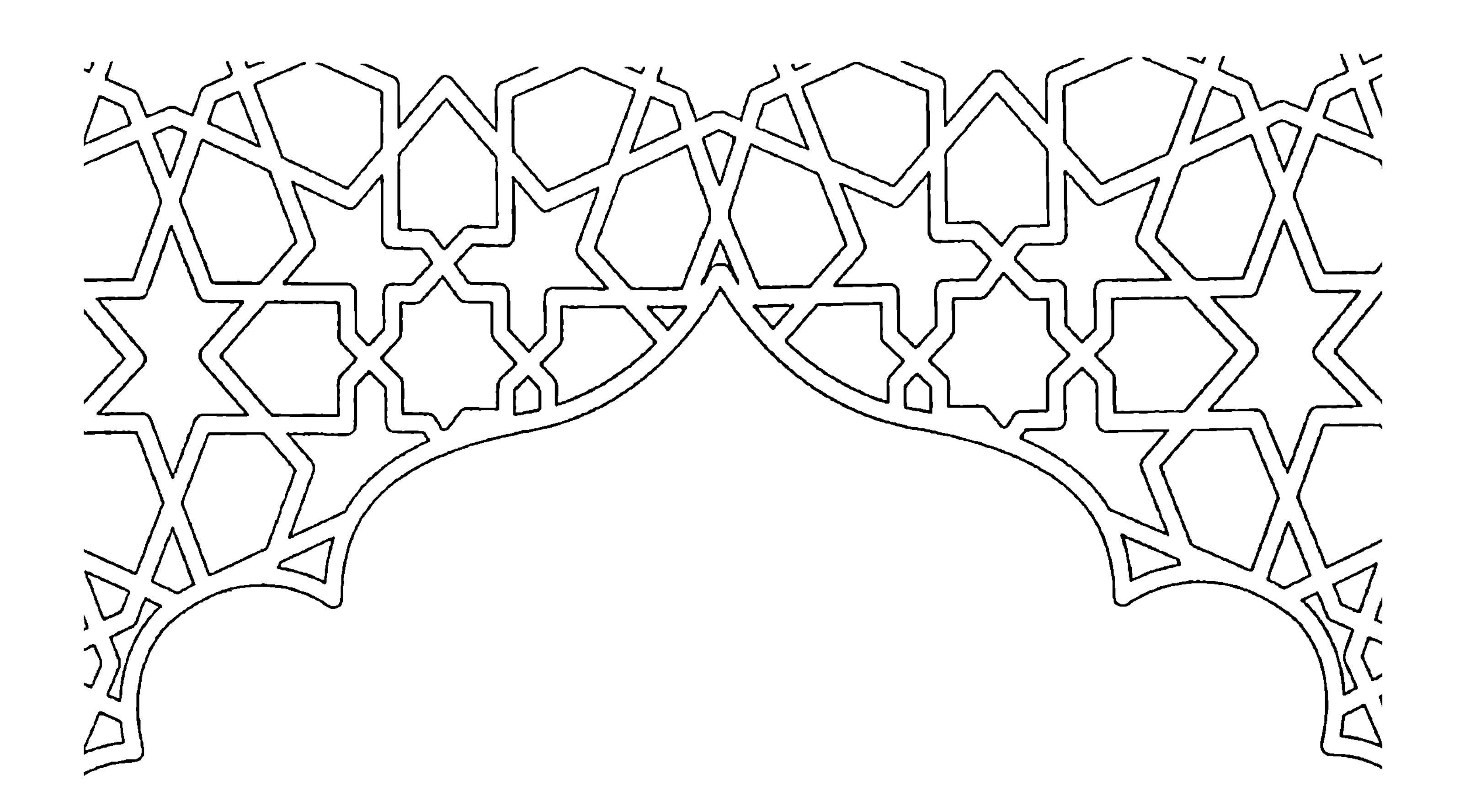
﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ ربط بين الظلم والجريمة والترف، فالترف المحرّم قرين التكبّر، والمتكبّر لا يرى للناس حقا معه، فيهضم حقوقهم، فإذا وقفوا بوجهه أجرم بحقّهم، هذه صورة متكررة، وهناك صور كثيرة تشهد لهذا الاقتران.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ ﴾ أي: بظلمٍ منه لهم – حاشَا لله –، وإنما هي عاقبة أعمالهم التي اقترفوها باختيارهم وسبق إصرارهم.

﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ ولم يقل: صالحون؛ لأن الصلاح الذاتي مع عدم القدرة على الإصلاح يجعل الباطل ينتشر حتى يطوِّقَ الصالحَ ويذهب به.

﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ حين ترى ما جرى للأنبياء السابقين، وشدة ثباتهم وصبرهم على ما يلقونه من أقوامهم.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ على حالِكم وفي مكانِكم، يريد المفاصلة عنهم، وهي مفاصلة العقيدة والمنهج، لا العُزلة والانكِفاء على الذات.



سورة يوسف

المجلس
السادس والتسعون

سورة يوسف

من الآية
﴿١ - ١٨﴾

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ (٤) قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨) ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (١٠) قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ (١٣) قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾

فتنة الحسد

سورة يوسف سورة مكية، إلا أن موضوعاتها أقرب إلى المدنية، فهي لا تتحدّث عن العقيدة ومسائل الخلاف والصراع مع المشركين بقدر ما تتحدث عن مشاكل المجتمع المدني، ومسائل الدولة والسياسة والاقتصاد والحكم.

الموضوع الأول في هذه السورة هو الحسد، وقد عرضه القرآن من خلال ما تعرَّضَ له يوسف ﷺ على يد إخوته، حتى حاولوا قتله؛ وبذلك يكون الحسد طريقًا لمعاصٍ وجرائم أخرى قد تكون أخطر من الحسد نفسه؛ فقد جرَّ الحسدُ هؤلاء إلى الكذب، وعقوق الأب، إضافةً إلى محاولة القتل.

وفيما يلي عرضٌ لهذه الفتنة كما جسّدها القرآن في هذا النموذج:

أولًا: النعمة والموهبة والتميُّز من دواعي الحسد ومظانّه ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾، ويعقوب بما آتاه الله من حكمة وتجربة طويلة في الحياة أدرك هذه الحقيقة، وقدَّم نصيحَتَه لابنه الحبيب يوسف بعد ما أدرك أنه يملك شيئًا سيكون مدعاةً لإثارة الحسد في قلوب إخوته.

ثانيًا: مع هذا الاحتياط إلا أن نَزعَةَ الحسد قد تحرَّكَت لما رأوه من حظوةٍ ليوسف وأخيه الأصغر عند أبيهم، وهي حظوةُ العاطفة، لا حظوة الانحياز والتمييز؛ لأن يوسف وأخاه كانا صغيرَيْن، فهما أَولَى بالحُنُوِّ والرعاية، لكنَّ هذا لم يرُق للإخوة الكبار ﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾، والضلال الذي يرونه أن أباهم قد جانَبَ الصواب فهم أَولَى بهذه الرعاية؛ لأنهم أقدر على النفع، ودفع الضرّ بحكم كونهم عصبة كبارًا.

ثالثًا: سرعان ما تحولت هذه النجوى إلى عزيمةٍ أكيدةٍ لارتكاب الجريمة بأبشع صورها ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ ﴾، ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ مداولات وآراء مختلفة بين قتله، أو إبعاده إلى أرضٍ أخرى، أو إلقائه في البئر!

رابعًا: وكما صنعوا لأنفسهم مسوّغًا للفعل ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ صنعوا أملًا لهم يتخلّصون به من وطأة الضمير ومخافة الذنب والعقاب الإلهي ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ إنه التديّن المغشوش، الذي يسهم في صناعة الجريمة وتهوين فعلها، كما مرّ معنا قبلُ الفهم الخاطئ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤].

خامسًا: بدأت الجريمة بمخادعة الأب ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ

لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

وهذا الحوار ينمّ عن مخاوف وشكوكٍ كانت تراود الأب، لكنه القدر الذي لا مفرّ منه، فقد أخذوه معهم واتفقوا على تركه في البئر الذي لا يمكنه الخروج منه ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وكان هذا الوحي هو سلوة يوسف في هذا الجب.

سادسًا: بعد تنفيذ الجريمة عادوا إلى أبيهم بكذبٍ مركّبٍ وخديعةٍ لم تنطل عليه ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ﴾.

فردّ يعقوب هذا الكذب ولم يُصدِّقهم به ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلُغة العرب.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لم تكن تعلم شيئًا عن هذه القصص.

﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ هي رؤيا رآها يوسف ﷺ في منامه، وعدد الكواكب مطابقٌ لعدد إخوانه، وسجودهم له يعني خضوعهم لسلطانه، وهذا من شأنه أن يثير الغيرة عندهم، والظاهر أن الشمس والقمر رمزٌ للأبوين، وجاء قوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ بجمع العقلاء، لمناسبة السجود، إذ السجود فعل العاقل، وهي إشارةٌ ثانية أن المقصود بالكواكب إخوته.

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ فيها إشارةٌ لترك التظاهر بالنعمة أمام من يُظنّ فيهم الحسد.

وفيه أن يعقوب كان راضيًا بالرؤيا مع أنه معنيٌّ بالخضوع أيضًا، لكنه النبي الكريم الذي يرضيه ما يرضي ربّه.

﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ويختارك.

﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ الفهم، ومنه فهم الواقع، وفهم التدابير والسياسات، وفهم كلام الناس وما يقصدون، ومنه تعبير الرؤى، وقد تحقّق كلّ هذا فيه ﷺ.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالوحي والرسالة.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة قويّة، وفيه إشارة إلى أن أخويهم الآخرين لم يكونا منهم؛ لأنهما من أمٍّ ثانية، والله أعلم.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في تقديره للأمور؛ حيث يؤثر الطفلين الصغيرين علينا ونحن سنده وعزوته.

﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أبعدوه إلى أرضٍ أخرى.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يُقبل عليكم من دون أن يشغله أحد عنكم، وهذا تناقضٌ غريب، فهم هنا كأنهم يتنافسون على محبة أبيهم والتقرّب إليه، ومن ناحية أخرى يُدمون قلبه ويكدّرون خاطره بهذا الفعل الشنيع، لكنه الحسد الذي يُعمي ويُصم.

﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ما يغيب عن النظر في قعر البئر.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ يأخذه بعض المارّة والمسافرين.

﴿يَرْتَعْ﴾ يأنس بالخروج إلى البر.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقد نبّأهم فعلًا بعد أن وفدوا إليه في مصر فعرفهم وهم له منكرون.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ لطّخُوا قميصَه بدمٍ غير دَمِه، يقال: إنه من جَدي ونحوه.

﴿سَوَّلَتْ﴾ زيّنت لكم السوء.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

فتنة النساء

من الفتن التي تشب في مرحلة عمريّة معينة فتنة الرجال على النساء وفتنة النساء على الرجال، وقد اختار الله ﷺ نموذجًا ومثالًا يُحتذى، وقدوةً صالحةً في قصة يوسف ﷺ لكلّ الشباب الذين يتعرّضون لهذه الفتنة ولهذا الاختبار على مرِّ العصور والأجيال، وقد ذكر العلماء أن شرائط الفتنة قد اجتمعت في هذا النموذج، بحيث إنها باتت سقفًا لا تدانيه فتنة أخرى، ومن هذه الشرائط:

أولًا: أن يوسف ﷺ قد حباه الله بأركان الحُسن مجتمعة؛ فهو جميلٌ في صورته حتى سلب عقول النسوة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وجميلٌ في خُلقه وأدبه وإحسانه حتى بهَرَ المسجونين في السجن فقالوا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهو جميلٌ في ذكائه وقوة شخصيّته، وحسن تدبيره ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ حتى قال فيه الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾، ومن كانت فيه واحدةٌ من هذه كان أهلًا لأن يُحبّ، فكيف بمَن اجتمَعْن فيه؟

ثانيًا: أنه ﷺ كان في أَوج شبابه وقوته ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ﴾ وقد ترعرع هذا الغلام حتى بلغ مبلغ الرجال ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ في قصرٍ من قصور الأمراء، ومثله في هذا السنّ تدفع به غريزته كلّ مدفع.

ثالثًا: أنه عاش هذه الفتنة غريبًا، لا يعرف في مصر قريبًا ولا صديقًا، والغربة تكسِرُ كثيرًا من الحواجز، وتجعَلُ الغريب أكثر جُرأةً على فعل ما يمتنع عن فعله في بلده وبين أهله وعشيرته.

رابعًا: أن لقاءه بامرأة العزيز لم يكن لقاءًا عابرًا في سوقٍ أو طريقٍ، بل كان يعيش معها في القصر من سنّ الصبا حتى بلغ عندهم ما بلغ، وهذه لوحدها تكفي لتصوّر شدة الفتنة التي يُواجهها هذا النبيّ الكريم.

خامسًا: أن امرأة العزيز هي من بادَرَت وطلبت منه بُغيتها ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ﴾ فهي التي كسَرَت حاجز الحياء وتجرّأت على المبادرة، وزادَت بأن غلّقت الأبواب، وأخلَت المشهدَ من كلّ غريبٍ أو رقيبٍ.

سادسًا: أنها كانت متنفّذة في القصر، حتى إنها أصرَّت على رغبتها بعد انكِشاف أمرها أمام زوجها، وشيُوع الخبر بين أهل المدينة ونسائِهم، فواجهتهنَّ بقولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

سابعًا: أنّ زوجها لم يكن بالصفة التي يُخشى منه، فإنّه اكتَفَى بقوله: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ مع أنه رأى القميص الذي قدّ من دبرٍ، وسمِعَ الشاهدَ يشهَدُ ليوسف في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ ﴾.

ثامنًا: أن يوسف أدرَك أنه إن لم يستجِب لها فإنه سيُحرَم من نعيم القصر، وسيُرمَى في السجن، أو يكون عُرضةً لانتقامها بأي وسيلةٍ أخرى، وهو في بلدٍ غريبٍ ليس معه جاه، ولا مال، ولا أهل، ولا ملجأ، ومع كلّ هذا كان خيارُه واضِحًا مُجلجِلًا: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ ﴾ وبهذا يكون قد ضرَبَ المثَلَ الأعلى الذي لا يُدانِيه مثَل في قصة نجاحٍ لا تتكرَّر أبدًا بمثل هذه الشروط في أي جِيلٍ من الأجيال.

دقائق التفسير

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ جماعة يسيرون في الطريق الذي كانت فيه البئر.

﴿وَارِدَهُمْ ﴾ الرجل المكلّف بالسقاية وجلب الماء لهم.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ ﴾ في البئر ليملأه بالماء.

﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ ﴾ الذي يظهر أن يوسف ﷺ لما تدلَّى عليه الدلو تمسَّكَ به، فخرج من البئر، واستبشَرَ الوارد به؛ لأنه سيَبِيعَه كما جَرَت العادة في ذلك الزمان.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ ﴾ الضمير يعود إلى السيَّارة، هذا هو ظاهر السياق ولا مُسوِّغ للعدول عنه، فقد اتفقوا على بيعه رقيقًا، وأنهم يكتمون أمره وكيف أنهم وجَدُوه في البئر؛ خوفًا من أن يكون ذلك دليلًا لأهله عليه فيستردُّوه منهم.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ باعوه بثمنٍ قليلٍ، وأصل البخس: النقص.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ أشكل على بعض المفسرين الجمع بين الاستبشار به والزهادة فيه، فذهبوا إلى أن الضمير هنا يعود إلى إخوة يوسف، وهو خروج من السياق، مع ما فيه من تكلّف وإدخال قصة في قصّة، والذي يطمئن إليه القلب أن الزهادة به إنما كانت

لجهلهم به وبنسبه وبما أعدّه الله له، فباعوه كما يبيعون أيّ غلامٍ آخر، ولا ريب أن هذا بخسٌ ليس مثله بخس، وزهادةٌ جاهلة ليس مثلها زهادة، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ حيث وصل السيَّارة بيوسف إلى سوق مصر، فاشتراه منهم عزيز مصر وهو بمثابة الوزير، فأوصَى امرأتَه أن تُكرِمَه لما رأى فيه من النَّباهة وملامح الخير، والمثوى: محل الإقامة.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نتبنَّاه؛ لأن العزيز كان لا ولد له.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أوج قوَّته وشبابه.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ لا تحتمل هذه المراودة وبهذا السياق سوى ما تريده المرأة من الرجل، وهو متوقع منها فهي ليست نبيًّا ولا ملكًا، وقد عبّر القرآن عن هذا بقوله الآتي: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ وقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تحتمل معاني عدَّة ومُؤدَّاها واحد؛ أنها تدعوه لنفسها بعد أن تهيَّأَت له، وأنه لا يسعه الرد، وليس أمامه مهرب.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يطلب الحماية من الله، فذِكْر الله واستحضارُ معيَّته دائمًا هو مفتاح النجاة من كلّ فتنة.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يقصد بالربِّ هنا: العزيز الذي أكرمه، كأنه يقول لها: ليس من الوفاء أن أُجازِي الرجلَ بهذا الفعل الخَؤُون، وبهذا يكون يوسف ﷺ قد استحضر مرَّةً واحدة حقَّ الخالق وحقَّ الخَلق، وهذا من تمام التديُّن، وحُسن الخُلق.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المُتعدُّون على حقّ الله وحقّ الناس.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ مفسّر بالمراودة السابقة، أي: قصدت وعزمت.

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فيه خلافٌ شديد بين المفسّرين، والذي يطمئن إليه القلب أنه مفسّر بقوله الآتي: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ فالنبيُّ بَشَرٌ فيه من

الغرائز ما في سائر البشر، غير أنه معصومٌ ومُنزَّهٌ عن الوقوع في الإثم بالوحي وبحفظ الله له؛ لأنه القدوة والمثل الأعلى، والمبلِّغ عن الله بقوله وفعله، فالهمُّ منه ليس كالهمِّ منها بالضرورة؛ لمكان العصمة والوحي وهما المقصود بالبرهان، والله أعلم.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ تسابقَا نحو الباب؛ هو يريد الخروج، وهي تريد منعه من الخروج.

﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ شقَّت قميصه من الخلف؛ لأنه كان هاربًا منها، وهذه قرينةٌ أخرى على جدِّيَّتها فيما عزَمَت عليه من السوء.

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ وجداه وهما على هذه الحال من المسابقة.

﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ لاذت بالحيلة والمكر لتدفع عن نفسها ما وقعت فيه، ورَمَت بالتهمة على يوسف، وعبارتها تَشِي بحقيقة ما كانت تريده منه.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ هنا يعلّمنا يوسف ﷺ أن صاحب الحقّ لا بُدّ له أن يجهر بحقِّه، وأن التهمة مهما كانت باطلة أو باهتة فلا بُدّ من كشفها والتصدي لها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قريبٌ للمرأة كان بصحبة العزيز حين ألفياه عند الباب، وكان ينظر إليهما وينظر إلى القميص الممزّق، وقد ألهمه الله القول الفصل.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يكون هو الذي يطلبها وهي تدفعه.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يكون هاربًا عنها وهي التي تطلبه، وقول الشاهد هذا مع ما فيه من حقٍّ وعدلٍ، فيه حكمة؛ إذ قدّم الاحتمال الأنسب لها، وهذا شبيهٌ من هذه الناحية فقط بما فعله يوسف مع إخوته فيما بعد ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ يُخاطِبُ امرأته، مُستحضِرًا ما يعرفه عن النساء من اللجوء إلى الحيلة عندما يخرج الأمر من أيديهنَّ.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ يوجه العزيز كلامه ليوسف أن ينسى الأمر ولا يتحدث به لأحد، ثم يؤنّب امرأته على سوء صنيعها، وهو اعترافٌ ببراءة يوسف ﷺ.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ من المقرّبين للقصر، ولا يبعد أنها هي من أفشت سرّها لهنّ؛ لأنه في مثل هذه الحالات يحتاج المرء إلى من يشكو إليه همه، والمرأة في هذا أشدّ احتياجا.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ سمّت قولهنَّ مكرًا؛ لأنها ربما أسرَّتهن بما عندها، فلما تحدَّثن به على سبيل الإنكار والمَلامَة صار بمثابةِ المكر بها، ولا يبعُد أنهنَّ أرَدن أن يَرَينَ هذا الفتى، فألجَأْنَها إلى ذلك بهذا المكر.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ من الإكبار وهو التعظيم المتضمن للإعجاب والاندهاش إلى حدّ أن جرحن أكفهنّ دون شعور؛ حيث كنّ يقطعن الفاكهة بالسكين كعادة أهل القصور في ذلك الزمان.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ كلمة تفيد التنزيه.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ليس في البشر مثله، وشبهوه بالملَك لما استقرّ في أذهان الناس أن الملائكة أحسن الخلق صورة، وهو لجوءٌ إلى التشبيه الغيبي، كأنهن لا يجدن في الحسّ صورة تصح له مثالًا.

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ ﴾ إشارة إلى أن الفتنة لم تعد فتنة امرأة العزيز فحسب، بل تعدتها إلى غيرها، ثم أكّد هذا بدعائه ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمِلْ إليهن، وفيه إظهار التذلُّل وحسن التعبد لله تعالى.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾

فتنة السجن

تجربة أخرى يقدّمها هذا النبيُّ الكريمُ على نبيِّنا وعليه الصلاة والتسليم، وهي تجربةٌ متكررة أيضًا مع أهل الحقِّ حيثما واجهوا باطلًا في دولته وزمان صولته وجولته، وفي هذه

التجربة النبوية نقف أمام مدرسة كبيرة وقدوة عظيمة، نتلمَّس معالمها وملامحها في الآتي:

أولًا: أنه ﷺ كان قد اختار السجن على الوقوع في الإثم ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.

وهذا مثال لكلّ داعٍ للحقّ، فالسجن خيرٌ له من التنازل عن دعوته، أو الانزلاق إلى ما يريده الباطل حيث يتشوّه الحقّ، وتضيع القدوة، ويلتبس على الناس أمرهم.

ثانيًا: أن الباطل لا يتورّع عن مخالفة القيم التي يؤمن بها، وانتهاك القوانين التي رضيها، مادام أن ذلك يحقق له شهوته وسطوته ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هكذا، مع أنهم شهِدُوا له بالبراءة على لسان شاهِدٍ من أهلها، ثم على لسان زوجها العزيز: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ ثم على لسانها هي: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

ثالثًا: رغم هذا الشعور بمرارة الظلم وهو ما يدفع المظلوم عادة لردّة فعل غير مرغوبة ولا محسوبة إلا أنه ﷺ قدّم المثال الأحسن لكل مظلوم، وأظهر من الإحسان ما اعترف له به أهل السجن ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مع أنه لم يكن عنده من متاع الدنيا ما يُقدِّمه لهم، فهو الفقير الغريب السجين، ومع هذا كان من المحسنين، فأيُّ خُلُق بلغ إليه هذا النبيُّ الكريم؟

رابعًا: لم ينقطع يوسف ﷺ عن نهجه الدعوي الإصلاحي حتى وهو في السجن، فكان في حوارٍ مع شركائه في السجن، يعرض ما عنده أولًا عرضًا لطيفًا ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ثم يتوجَّه إليهم بالخطاب المباشر: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ

خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

خامسًا: لقد جاء السياق يُشير إلى تدرُّجٍ تربويٍّ دقيقٍ، قد لا نتلَّمسه في غير هذا الدرس؛ حيث بادَرَهم بالإحسان أولًا، حتى كسب ثقتهم العمليّة والوجدانيّة، ثم انتقل إلى العلم ليقنعهم أنه يملك فيه ما لا يملكون ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾.

وهاتان مقدّمتان لكلِّ داعيةٍ مُصلحٍ، ثم بدأ بعرض معتقده عرضًا دون أن يمس معتقداتهم أو يباشرهم بالدعوة، حتى إذا اطمأن إليهم واطمأنوا إليه راح يصارحهم ويواجههم بالحقيقة.

سادسًا: علاقة المسجونين بالرؤى والأحلام علاقة وثيقة، ومن جرّب السجن عرف ذلك، فهي نافذتهم إلى الأمل خاصّة في بلاد يحكمها الظلم ويغيب عنها القانون، ويظهر هذا في تشبث صاحبيه في ما رأياه، وإصرارهما على سماع التأويل ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد اغتنم يوسف ﷺ هذه الحاجة من أجل أن يعلمهما طريق الخلاص الأكبر والأدوم، طريق التوحيد والإيمان بالله والتوكل عليه وحده، وهما يصغيان.

سابعًا: أن الأخذ بالأسباب المتيسّرة مشروع للتخلّص من هذا الظلم ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ لأنه كان خادمًا للملك وقريبًا منه، فأوصاه يوسف ﷺ بعد أن بشَّره بنجاته من السجن أن يذكر لمليكه قصته والظلم الذي وقع عليه من قصر العزيز، غير أن صاحبه نسيه بعد أن أفرج عنه ورجع إلى خدمة الملك ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

وهنا إشارةٌ لمظهرٍ من مظاهر الدولة الظالمة؛ حيث يعتمد بقاء السجين في السجن أو

خروجه منه على كلمة يتذكرها متذكر أو ينساها ناسٍ.

ثامنًا: يوسف يشخِّص الخطر القادم على مصر ويضع خطته للإنقاذ ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾.

وهذا التنبُّؤ وإن جاء تعبيرًا لرؤيا الملك إلا أن نور الوحي ظاهر فيه، فهذا الجزم في التشخيص والعلاج من فتًى مسجون لا يعرف مصر ولا طبيعتها ولا خصوصية أرضها وأهلها لا يمكن أن يكون مُستنِدًا إلى تعبيرٍ مجردٍ للرؤيا، والله أعلم.

تاسعًا: يوسف يطالب الملك بالتحقيق في قضيته والبحث في أسباب سجنه ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ وهذا العلو لا يليق إلا بهذه الصفوة من الخلق، فالملك يرسل إلى سجين ليس له حول ولا قوة ولا قريب ولا نصير، والسجين يرفض أن يلبي دعوة الملك قبل أن يحقق في قضية سجنه حتى ينكشف الحقّ وتظهر للعالم براءته!

إنه درسٌ آخر من الدروس الفريدة التي يقدّمها هذا النبي الكريم، إن خروجه بعفو من الملك لن يُعفيه من التهمة؛ ولأنه صاحب رسالة ومكلَّف بإنقاذ الخلق وتعمير الأرض وإصلاح المجتمع فلا يمكنه أن يقوم بهذه المهام والتهمة تلاحقه.

عاشرًا: الملك يتولى التحقيق استجابة لطلب يوسف ﷺ ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ نعم لقد حَصحَص الحقّ، وهذا هو مراد يوسف ﷺ، أما الخروج من السجن دون هذا فإنه سيدخله في سجنٍ آخر؛ سجن التهمة والإشاعة والنظرة المريبة.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ بدا لهم رأي آخر؛ حيث اكتفى العزيز أولا بقوله: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ ﴾ ثم لما تحدّث النسوة وشاع الخبر رأوا أن يسجنوه دفعًا للتهمة عن امرأة العزيز، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: مع أنهم يعلمون براءته؛ لما رأوه من دلائل في القميص وغيره.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ ﴾ غلامان كانا في خدمة الملك، أحدهما يصنع له طعامه، والثاني يصنع له شرابه.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ رأيت نفسي في المنام أصنع الخمر.

﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾ فكان يخبرهما بما يأتيهما من طعامٍ قبل أن يصل إليهما، وفائدة هذا الإخبار تعزيز الثقة بما خصّه الله به من العلم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ وكلّ هذا تمهيد لدعوتهما إلى التوحيد ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾.

ولا يبعُد أيضًا أنه قصد تأخير الجواب إلى وقت مجيء الطعام؛ ليجذب قلوبهما إليه في هذا الوقت وهو يدعوهم إلى التوحيد.

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ فهي مجرد أسماء لا حقيقة لها، بمعنى أنهم يسمونها آلهة وما هي بآلهة، وفي الآية دلالة على أن أهل مصر في ذلك العصر كانوا على الشِّرك.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾تسلسُل مقصود، فإثبات حقّ الله في الحكم والتشريع أولًا، ثم يأتي أمر الله ونهيه وهما فرع الحكم، ثم تأتي العبادة وهي الخضوع لهذا الأمر والنهي.

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ العدل المستقيم والحقّ الذي لا عوج فيه.

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ بشارة للساقي بالخروج من السجن، وأنه سيرجع إلى خدمة الملك، وهذا تأويل رؤياه ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ تأويل لرؤياه ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ قال للساقي: اذكُر قصَّتي للملك، المتضمِّنة لمظلَمته، ولِمَا ظهر للمسجونين من إحسانه وعلمه.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أنسَى الشيطانُ الساقِي فلم يتذكَّر وصيةَ يوسف ﷺ؛ ولذلك قال الله عنه فيما بعد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ العِجاف جمع عَجْفاء، وهي ذات الهزال والضعف الشديد، ورؤيا الملك التي عبَّرَها يوسف ﷺ وكذاك رؤيا المسجونَين دليلٌ على أن الرؤيا الصادقة ليس من شرطِها الإيمان والإسلام، فهؤلاء لم يكونوا مُؤمِنِين ولا مُسلِمِين، والله أعلم.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ اعتذار من مستشاري الملك أنهم لا يستطيعون تأويل رؤياه، وقولهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أصل الأضغاث بقايا النبات وأعواده المختلطة، ويعنون به هنا أن الأحلام قد تختلط فيصعب تمييزها وتعبيرها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ هو الساقي الذي نجا من السجن، ونسي وصية يوسف له، لكنه عاد بعد زمنٍ طويلٍ فتذكّرها لما رآهم مشغولين برؤيا الملك.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ آتيكم بتأويله، يعني أنه سيذهب إلى السجن ويستفتي فيها يوسف.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ الساقي يخاطب يوسف في السجن، والصدِّيق المتصف بكثرة الصدق.

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ تستمرّون على الزراعة سبع سنين، في إشارة للبقرات السمان والسنبلات الخضر.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ يرشدهم إلى وسيلة لحفظ الحبوب، فالحب في سنبله أطول عمرًا وأكثر مقاومة، وفيه أيضًا توفير غذاء الأنعام، بخلاف ما لو خزنوا الحبّ وحده.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ استثناء يفيد الحرص والادخار، فلا يخرجون الحبّ إلا عند الحاجة إلى الأكل.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سبع سنين من القحط وانحباس المطر، وفيه إشارة للبقرات العجاف والسنبلات اليابسات.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ ينفد ما ادخرتموه من الحبوب، بسبب حاجة الناس المستمرة إلى الأكل مع انقطاع المورد إلا من المخزون، وفيه إشارة لأكل البقرات العجاف للسمان.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ الخمر، علامةٌ على وَفرة الطعام.

﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الخَطْبُ هو الشأن المهم.

﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ نسب المراودة للجمع إشارة إلى وقوعه من غير امرأة العزيز أيضًا، ويُعضِّد هذا دعاؤه المتقدم: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وسؤال الملك للنسوة بهذه الصيغة مشعر أن الملك قال هذا بعد جمعه للمعلومات وتحققه من براءة يوسف.

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر وتأكّد بعد لبسٍ وخفاءٍ.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ اختلف المفسرون في نسبة هذا القول، والظاهر من السياق

أنه كلامٌ مُتَّصِلٌ لامرأة العزيز، ومعناه أنها لم تَخُن يوسف في هذا الموضع، وهو موضعُ التحقيق في حضرة الملك؛ حيث شهِدَت بصِدقِه وبراءَتِه.

وفيه لمحة ظاهرة من الندم والحُنُوِّ على يوسف الذي كان قد تعلَّق قلبُها به، وهذه لحظاتٌ مُعتادة بعد مُضيِّ سنواتٍ طوال من العناد والظلم والمكابرة.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ كلامها المتصل، وفيه اعترافٌ بذنبها، واعتذارٌ وندمٌ على ما بدَرَ منها، والله يغفر لنا ولها.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ
عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى
وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ
بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ
قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ
ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ
يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ
فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ
ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ
بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ
فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ
أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا
لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

كما خرج يوسف ﷺ من البئر إلى القصر، ها هو اليوم يخرج من السجن إلى العرش، في قصة فريدة في مشاهدها وانتقالاتها وسرعة أحداثها، وفي كلّ مشهدٍ يضرب يوسف المثل الأعلى لكلّ مقتدٍ ومتأسٍ مهما كان موقعه وظرفه الذي يمرّ به، وفي هذا المشهد عبرة لكلّ مشتغلٍ في السياسة العامة والوظائف التي تتعلَّق بها مصائر العباد ومصالحهم:

أولًا: يوسف ﷺ يطلب الولاية العامة ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وقد أثارت هذه النقطة إشكالًا فقهيًّا كبيرًا؛ حيث استقر في الأذهان أنه من طلب الإمارة لا يؤمَّر، وهذه مسألةٌ تحتاج إلى بحثٍ أوسع:

إن مجموع الأحاديث الواردة في هذه المسألة لا يوحي بالتحريم، والأقرب فيه التوجيه والإرشاد، وهذا هو المفهوم من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ! لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا**»[1].

والحديث فيه توجيهٌ دقيقٌ، وهو تقريرٌ أيضًا لواقعٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ معروف، فالناس يتحملون مع أميرهم كامل المسؤولية إن كانوا هم الذين اختاروه، بخلاف ما إذا كان مفروضًا عليهم، وفي حديث أبي ذر ﷺ: قلتُ: يا رسول الله! ألا تستعمِلني؟ قال: فضرَبَ بيده على منكبي ثم قال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ**»[2]. فلم ينهَه عن السؤال أصلًا، ولو كان محرّمًا لنهاه، بل بيّن له سببَ حَجبِه عن الولاية أنه ضعيف، وقد يشكل على هذا حديثُ: «**إِنَّا وَاللهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا العَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرِصَ عَلَيْهِ**»[3].

---

(١) رواه الشيخان، ينظر: صحيح البخاري (٦/ ٢٤٧٢/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٥/ ٨٦/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» (٦/ ٦).

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، وينظر: صحيح البخاري (٦/ ٢٦١٤)، وصحيح مسلم (٦/ ٦).

وهذا بيانٌ صريحٌ لسياسته ﷺ في اختيار الولاة والأمراء، وليس نهيًا صريحًا عن الترشيح أو التقدُّم للولاية، لكنه من حيث النتيجة لن يكون في ظلِّ هذه السياسة ترشيح ولا تقدُّم، والفيصل هنا في تحديد هذه السياسة إن كانت حكمًا شرعيًّا عامًّا بلَّغه رسول الله ﷺ باعتباره نبيًّا، أو أنها من الأمور الإدارية التي كان رسول الله ﷺ يمارسها باعتباره قائدًا ورئيسًا للدولة كمثل أعمال الجهاد والتحالفات والعلاقات السياسيّة، وهذه الأصل فيها تقدير الموقف زمانًا ومكانًا وحالًا، ولا يمكن أن تُدار بتشريعٍ ثابتٍ؛ ولذلك اختلفت طبيعة المعارك النبويّة وأسلوب إدارتها، واختلف أيضًا تعامله ﷺ مع المخالفين.

وعليه يمكن القول: إنّ طلب يوسف ﷺ للولاية لا يناقض هذا الحديث، بل كان ذلك متعينًا عليه في ذلك الظرف؛ فإنقاذ شعب مصر من الهلاك أَولَى من الزهد في طلب الولاية أو التورّع عن آثارها ولوازمها في طبائع البشر، كالمنافسة والمحاسدة والتطلُّع إلى الصدارة والوجاهة، والظرف الذي مرّ به يوسف ﷺ ظرف يتكرر.

وقد تحتاج الأمة من أصحاب الكفاءات أن يُظهِروا ما عندهم وأن يبيّنوا أفكارهم ومشاريعهم للإنقاذ، وهذا هو الذي استقرّت عليه السياسات العالميّة؛ إذ أصبح من العسير التعرّف على الكفاءات والوصول إليها حتى من قبل الحكومات وولاة الأمر، وتبقى للإسلام ميزة الجمع بين قِيَم الزهد والورع ومحاسبة النفس، وبين الشعور بالمسؤولية، والتصدي للشأن العام.

تجدُرُ الإشارة هنا أنّ يوسف ﷺ لم يطلب الولاية ابتداء، بل اختارها بعد أن نال ثقة الملك حتى قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾، ثم قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ وهذه حكمة يوسُفيَّة: أن المتقدّم للولاية عليه اختيار اللحظة المناسبة والظرف المناسب.

ثانيًا: مكّن الله ليوسف في الأرض ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحقيقًا لبشارته الأولى ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ وقد استند هذا التمكين على منظومة من القيم: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

فالحفظ دليل التزكية والتربية الصالحة، والعلم دليل الإعداد المعرفي القادر على إدارة الدولة وشؤون الناس، وهما شرطا التمكين، وإنما يأتي الخلل في كلّ الوظائف العامة من نقص هذَين الشرطَين أو فقدهما.

إنّ أموال الدولة ومقدراتها تتطلب يدًا أمينة تحافظ عليها، وعقلًا سليمًا يحسن إدارتها والتصرّف فيها، وهما شرطا التقدم لمثل هذه الوظائف، ثم تأتي القيم الأخرى مرتكزة عليهما مثل العدل ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ والإحسان ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ حتى اعترف له إخوته قبل أن يعرفوه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وهذا خُلقٌ يوسفيٌّ متكرر في هذه السورة، والحلم ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ﴾ وكان باستطاعته أن يبطش بهم لإساءتهم هذه ولموقفهم السابق منه.

ثالثًا: المشاركة السياسية، وهي المسألة الأهم والأكبر في هذه الآيات، والتي لم تعط حظها من البحث والدراسة في كلّ ما اطلعت عليه، وهي ركيزة السياسة الشرعيّة خاصة في الأزمان التي نعيشها والتي تكاد أن تخلو من نظامٍ إسلاميٍّ صافٍ وشاملٍ، فأصبح أهل العلم والفضل بين خيارين؛ مشاركة ملوّثة بالظلم والسفَه، وربما بالكفر والخروج عن أحكام الشرع، أو اعتزال بائس، وانزواء عن حركة الحياة، وترك الدفة لكلّ جاهلٍ وعابثٍ وماكرٍ.

إنّ يوسف ﷺ قد شارك في حكومةٍ "كافرة" لا تَدِينُ بدينه، وقد نصّ القرآن على هذا بقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ فللمَلِك دينٌ غير دين يوسف، وبهذا تنكَسِرُ عُقدة (الولاء والبراء) في هذه المسألة، والتي يستند إليها بعضُهم في تحريم المشاركة، بمعنى أنّ مشاركة المسلمين لغيرهم في إدارة الدولة لا تَقدَحُ في عقيدة الولاء والبراء، ولا ينطبق عليها مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣]، ولا مثل

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ومعلوم أن هذه من أبواب العقيدة، والعقائد لا يلحقها نسخ، ولا يجري فيها خلاف بين الرسالات السماويّة مهما تباعدت أزمانها.

إذا خرجت هذه المسألة من دائرة العقيدة فإنها ستدخل في دائرة الفقه، وهي دائرة الاجتهاد الأوسع الذي يختلف زمانًا ومكانًا وحالًا، والذي يدخل فيه إلى جانب استقراء النصوص الواردة وتدبرها النظر في مصالح العباد والتقدير الدقيق للنتائج والعواقب، وهذه مساحة قابلة للاختلاف وتباين الآراء وليس أحد في هذا حُجّة على أحد.

إن يوسف ﷺ يعلمنا في هذه المشاركة أن المسلم ليس مطلوبًا منه أن يبلّغ الدعوة وأن يقيم الأحكام الشرعيّة فقط، بل هو مكلف بالمساهمة في إنقاذ الناس ومساعدتهم ولو كانوا غير مسلمين، فقد كان الجهد الأكبر ليوسف مركّزًا في إنقاذ شعب مصر من الجوع، ولو كان هذا بمسايرتهم وفق أنظمتهم وقوانينهم، مع التمايز الواضح في باب الإيمان ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

أما الذين يظنون أننا ممنوعون من تقديم برامج الإنقاذ وخطط الإصلاح إلا في "حكومة إسلاميّة" ونظام إسلامي شامل، فهم واهمون؛ فمهمة إنقاذ الناس من الموت والفقر والظلم ينبغي أن لا تتأخر عن إنقاذهم من الكفر، وفي قصّة التمكين هذه بيان وافٍ وكافٍ.

إنّ المسلم إنسان يعيش مع بقية الناس، وهو مكلف بدعوتهم إلى الإيمان، فإن استجابوا خضعوا جميعًا لحكم الله، وإن لم يستجيبوا فلن يكون المسلم أداة في تخريب هذا المجتمع أو تدمير هذه الحياة.

ومثال ذلك: المسلمون الذين يعيشون في بلاد الغرب ونحوها، فهناك دول قائمة بأنظمة توفّر قدرًا من العدل والحرية وحقوق الإنسان مع مخالفات صريحة ومتوقّعة لأحكام الشرع، وليس هناك من فرصة لإقناعهم بتغيير هذه القوانين، فيكون المسلم من الناحية العمليّة بين خيارين؛ إما المحافظة على هذا النظام والعمل بما هو متاح ومستطاع، أو إعلان التمرّد

وتشجيع الفوضى، والذي يقرأ رسالة الإسلام الحقَّة وغاياتها الكبرى لا يمكن أن يجنح بحال إلى هذه الفوضى؛ حيث سيكون المسلم سببًا في الخراب وضياع الحقوق وتشويه الإسلام نفسه وصدّ الخَلق عنه.

رابعًا: الكيد، وهذا سلوكٌ ظاهرٌ في أطراف هذه القصة، بدأ به إخوة يوسف ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ فكادوا بيوسف حتى أخذوه من أبيه وألقوه في البئر، ثم كادوا بأبيهم وحاولوا خداعه ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، ثم جاء كيد النسوة ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾.

ولقد تعلّم يوسف ﷺ من كلّ هذا أن الذي يريد أن يسوس الناس لا بُدّ أن يكون خبيرًا وعارفًا بهذه الأساليب، وإلا فإنه سيقع ضحيّة لهذا الكيد.

ثم إنّه ﷺ يعلّمنا درسًا آخر: أن التدبير الفطن الذكي لا بُدّ منه للوصول إلى الحلول المناسبة، بخلاف المواجهة والتصدّي المباشر، وهذا هو الكيد المشروع ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وقد سمى الله هذا النوع من الكيد علمًا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أجعله خالصًا لي ومقرّبًا مني، وفيه انبهار الملك بصفات يوسف ﷺ وحكمته وحسن تدبيره، وفيه قاعدة جليلة في علاقة المسلم بغيره، فالثقة والمودّة وما ينتج عنهما من تواصلٍ وتعاونٍ أصلٌ في العلاقات الإنسانيّة، وبابٌ واسعٌ للدعوة والإصلاح، ومن توهّمَ أن هذا مناقض للولاء والبراء فقد ردّ منطوق الآية ومفهومها، كيف وقد ردّ يوسف ﷺ بالإيجاب فقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ شرطا الولاية والوظائف العامة؛ الأمانة والعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ بداية تحقّق الرؤيا التي رآها في صباه.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر.

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم تركُوه في الجُبِّ صغيرًا، والنموُّ يُغيِّر بِنْيَة الصغير وصورَتَه أكثر مما يُغيِّرهما في الكبير، مع التغيُّر الذي طرَأَ على يوسف في قصر الملك وهَيبَة الحكم.

﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أعطى لكلّ واحدٍ منهم ما تحمل دابته من الطعام.

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إشارة إلى حديثٍ سابق بينه وبينهم حول مجيئهم وحاجتهم للميرة وعدد من يعيلون، بمعنى أنه ﷺ قد استدرجهم دون أن يشعروا ليخبروه عن أبويه وشقيقه الأصغر، وهذا أمرٌ متوقعٌ وإن لم يصرّح به القرآن، وفيه أنه جهزهم أولًا بجهازهم وسدّ حاجتهم قبل أن يطلب منهم إحضار أخيهم، ليطمئنهم ويرغبهم، والله أعلم.

﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ النزل: الضيافة، كأنه يرغبهم بالمجيء مرة ثانية.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ طلب غريب بالنسبة لهم، لماذا يحرص عزيز مصر على رؤية أخيهم؟ لكن الغريب أيضًا أنهم لم يستغربوا! وغالب الظن أن هذا جارٍ في سياق لم يفصّله القرآن، فربما كان يوسف ﷺ لما استدرجهم للحديث عن أهلهم وأخيهم، أظهر لهم ما يستدعي التوثيق كعادة الحكّام والأجهزة التابعة لهم، فالسياق أنه يكلمهم باسم الدولة ونظامها وليس باسمه الشخصي، والطلب في هذا السياق يبدو طبيعيًا، والله أعلم.

﴿ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: أثمان ما أخذوه من طعام، لعل هذا يكون أدعى إلى رجوعهم مرة أخرى إلى مصر، لأنهم لا يستحلّون هذه الأثمان بعد أن أخذوا بضاعتهم.

﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي: يمنع عنا الكيل إذا لم نأخذ أخانا معنا، إشارةً لقول يوسف

المتقدم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فيه مشروعيّة الحذر وسوء الظن بأصحاب السوابق.

﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الأثمان التي وضعها فتيان يوسف مع الطعام.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نجلِبُ لهم المِيْرَة.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ ربما خاف عليهم العين أو الحسد، لكنه لا يبعد أيضًا أن يكون هناك محاذير أخرى، فدخولهم جميعًا على هيئة واحدة وهم غرباء قد يثير تساؤلات وإشكالات هم في غنى عنها، وهذه مجرد تفسيرات للحاجة التي قال الله فيها: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ والله أعلم.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضمّه إليه، بعد طول غياب وفراق، ويا لها من لحظات.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لا تشعر بالبؤس، وأنّى له أن يتذكّر ذلك البُؤس وهو الآن في كَنَفِ أخِيه الحبيب.

﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهي صواع الملك الذي يكِيلُون به؛ حيث بدأت خطة يوسف ﷺ لاستبقاء أخيه، ووفادة أبيه، واستقرار الأسرة الكريمة كلها في أرض مصر.

﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مُنادٍ.

﴿ٱلْعِيرُ﴾ القافلة.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ كأن إخوة يوسف قد انصرفوا قليلًا بعد أن جُهّزوا بجهازهم، فلما سمعوا النداء انعطفوا عليه.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ ضامن، أي: للمكافأة وهي حِمل بعيرٍ من الطعام.

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ استِنطاق لحكم السارق عندهم، وهو غير حكمه عند المصريين.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ ﴾ أي: أن السارِقَ يُسلَّم للمسروق منه، وقد صدَقُوا في قولهم، وهذا دليلٌ على أنهم أهل دين، وما فعلوه بأخيهم إنما هو الحسد الذي يُعمِي ويُصِمُّ، والعياذ بالله.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لكي لا يُثير شكَّهم.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ ﴾ وهو عارِفٌ بها.

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ ﴾ علّمناه الكيد المحمود، وهو هنا حسن التدبير، والتوصُّل للمقصود.

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: في شريعته، وهذا دليلٌ على أن يوسف ﷺ كان يقضِي في كلّ ما يَعرِض عليه بحكم الملك، وهذا أصلٌ في كلّ من يتولّى ولايةً في دولة أخرى ليست على شريعَتِنا، وليس في هذا ثَلْمٌ لعقيدة الولاء والبراء، ولا تعارُض مع قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ فالحكم له صفاته وشروطه ومقدماته، فإذا تخلفت تخلّف الحكم، كما في الحدود التفصيليّة كحد السرقة الذي أوقفه الصحابة ﷺ في الحروب وفي عام المجاعة، والله أعلم.

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ إشارة إلى أن ذلك الكيد والتخطيط والتدبير داخل في مسمّى العلم، يؤكّده قول يوسف ﷺ آنفًا: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ اتِّهامٌ ليوسف، وكأن الحسد الذي في قلوبهم لم تُطفأ جمرته بعد، فيوسف على عهدهم كان غلامًا صغيرًا، وقد ألقَوه في الجُبِّ وانقطع عنهم خبَرُه، فقولهم هذا لا معنى له إلا إيغار صدر العزيز على أخِيهم الثاني، والذي

هو شقيقُ يوسف.

أما ما يتردَّد من روايات أن يوسف كان في طفولته قد سرق، فهذه لا تصحُّ سندًا ولا متنًا، ولا يصحُّ اعتمادُها أصلًا، والله أعلم.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ الأقرب للسياق أنه لم يظهر تأثره وغضبه على اتهامهم هذا، فكأنه لم يسمعهم، وهذا من حلمه وفطنته.

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ والظاهر أن هذا القول قاله في نفسه أيضًا، إذ لو صرّح به لاقتضى منه موقفًا ما تجاههم وهو صاحب الأمر، والسياق خلا من أيِّ إشارةٍ بهذا المعنى.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥ﴾ أي: بدلًا عنه؛ لأن البدل يُوضع في العادة مكان المُبدَل عنه، وعرضهم هذا يُوحِي بتيقُّظ عاطفتهم تجاه أَبيهم واستعدادهم جميعًا للفداء، وربما يكون الكلام على معنى الاستعطاف، خاصةً أنهم قدَّمُوا له بحالة أبيهم الشيخ الكبير، وختَمُوه بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥ﴾ ولم يقل: من سرق؛ لأنه لم يسرق وإنما وجدوا متاعهم عنده، وهكذا يكون الصدق حتى في مثل هذه الأحوال التي تتطلب التمويه والحيلة.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

اللقاء بعد الفراق

في هذه الآيات مشاهد متسلسلة للحلقة الختاميّة في هذه القصة الفريدة:

المشهد الأول: مشاورات الإخوة للخروج بحلّ مرضي بعد فقدهم لأخيهم الثاني الذي كان عنده صواع الملك ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ﴾.

الأخ الكبير – وهو الأقرب إلى سنّ أبيه – يشعر الآن بشعورٍ مُختلفٍ؛ إذ المعتاد في الناس أن يقوم ببعض دور الأب في حالة غيابه، الأخ الكبير الذي تقدَّم به السنُّ قياسًا بإخوته، وبهذا يكون قد انطفَأَت عنده جمرة الحسد، فهو أقربُ إلى الندم، وأكثر استعدادًا للتضحية وتحمُّل المسؤولية.

ثم وجَّه الكلام لإخوته: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ثم أخذ يلقّنهم الحجة ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ﴾.

المشهد الثاني: حالة الأب المكلوم وهو يتلقى خبر حبيبه الثاني، فرد عليهم وفق طبيعته البشرية ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾ لأنهم أصحاب سابقة، فالتهمة تلبسهم لا محالة.

ثمَّ راح بعيدًا عن الناس متألمًا حزينًا ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ثم تدرك الشفقة أبناءه فكأنهم يلحقونه لوعظه ومواساته والتسلية عنه: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾، فكان يردّ عليهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثم يفتح بابًا من الرجاء والأمل: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيتحول الأمل إلى عملٍ ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ﴾.

المشهد الثالث: مصارحةٌ وعتابٌ وصفحٌ جميلٌ؛ حيث استجاب الإخوة لأمر أبيهم وجاءوا إلى مصر ليتحسسوا وليطلبوا الميرة أيضا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ هنا رأى يوسف أنه قد حان الوقت لمصارحتهم ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ربما كانت كلمات يعقوب الأخيرة لهم قد هيَّأتهم لمثل هذا الخبر، فلم يتَوَانَوا بالتفاعُل السريع: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يبق أمام إخوته إلا الاعتراف بالخطأ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وكان الرد المناسب لمقام الأنبياء وللخلق اليوسفي الجميل ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

اللهَ اللهَ يا يوسف! ما أسرع أن نسِيتَ فِعلَتَهم في الجُبِّ، وعذابات أبيك وأخيك، ومقولتهم قبل أيام فقط: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ينسَى يوسفُ كلَّ هذا وعَينُه على أبيه ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

المشهد الرابع: وجاءت البشرى من بعيد تحملها ريح يوسف التي تركها على قميصه: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ إنها إشارات المحبِّين وشعارات الصالحين التي تجتاز السدود والحدود، لكن أصحاب الغفلة لا يرون ما يرى، ولا يجدون ما يجد: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وهؤلاء ليسوا أولاده؛ لأن أولاده في الطريق إليه وهم أهل البُشرى ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾؛ لأنه لم يكن قد عمِيَ العمى المعروف، ولكنها غشاوة الحزن.

هنا في هذا الجو العاطفي تتحرك القلوب نحو فطرتها الأصلية: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا

ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾، ﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تسويف لا يحمل معنى الغِل، وإنما هو تعبير عن انشغاله الآن بهذا الخبر السعيد الذي ملك عليه أحاسيسه ومشاعره، والله أعلم.

المشهد الخامس: اللقاء الحميم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وكان هذا بداية هجرة بني إسرائيل إلى مصر، وقد جمع الله شمل هذه الأسرة النبويّة الكريمة بعد فراقٍ طويلٍ وحوادث مؤلمة، وقد بدأ يوسف برفع أبويه على العرش وهو سرير الملك الذي أعدّه لهذا الغرض إجلالًا لمقام النبوة عند يعقوب ولمقام الأبوة لهما، ثم راح يشرح لهم قصته في جوٍّ من الأنس والمودة والرحمة ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾.

ويلحظ هنا أنه لم يذكر الجُبَّ وهو أشدّ من السجن؛ لئلا يخجَلَ إخوتُه ويُذكِّرهم بشَنِيع فِعلَتِهم، ولم يذكر لهم قصَّتَه مع امرأةِ العزيز؛ لئلا يقَعَ في عِرضها وسُمعَةِ أهلِها، وهذا من سنَّة التغافُل، وتعليمٌ لنا أن نستُرَ الزَّلَّات، ونحفظ الخصوصيَّات.

المشهد السادس: شكر ودعاء ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فنسب النِّعم إلى المُنعِم سبحانه، وهذا أصل الشكر كما قاله الجُنَيد وغيره، وربط بين الملك والعلم؛ إذ الملك لا يصلح بغير العلم، ثم وقف في محراب العبودية يسأل الله النصرة والولاية وحسن الخاتمة ورفقة الصالحين، اللهم فألحقنا بهم ولا تباعد بيننا وبينهم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ أي: يئسُوا من إقناع يوسف بالعدول عن أخذ أخيه، فالضمير يعود على يوسف، وهذا أقربُ للسياق لتقدُّم رجائهم واستعطافهم له، والله أعلم.

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ انعزلوا عن الناس للتشاور.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ لن أترك أرض مصر.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ بمعنى: اسأل أهل مصر الذين كنا عندهم، واسأل رفقاءنا الذين حضروا معنا هناك وعادوا معنا الآن.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ سوَّلَت: زيَّنَت، وفيه جواز إساءة الظن بأهل السوابق.

﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ الأسف: الحزن الشديد، كأنّ حزنه الجديد بفراق ولديه الأصغر والأكبر قد أحيا في نفسه حزنه الأول، وقد تمسّك الشيعة بهذا مستندًا لما يقومون به من مواكب ومآتم وبدع مختلفة في ذكرى استشهاد الحسين ﷺ، ولم يفرّقوا بين الحزن الفطري الذي لا يمكن التحرّز عنه ولو طال به الزمن، وبين الحداد وإعلان مظاهر الحزن التي يمكن التحكم بها، والتي قد حددها الشرع بثلاثة أيام إلا للمتوفى عنها زوجها فلها عدّتها المعروفة عند الفقهاء.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يوسف وأخويه الأصغر والأكبر.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ غشيهما البياض المعروف الذي يكون بالحزن وغيره، وهو غير العمى.

﴿كَظِيمٌ﴾ كاتم حزنه في قلبه.

﴿تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تبقى ملازمًا لذكره.

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ شيئًا باليًا، كناية عن الهزال والمرض.

﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾ البثُّ مصدرٌ معنويٌّ للشكوَى، ولو عكس فقال – في غير القرآن –: أبثُّ شكواي لصحَّ، والله أعلم.

﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ابحَثُوا عنهما بدقَّةٍ ورفقٍ، وهو مخالفٌ للتجسُّس الذي يكون في تتبُّع الزلَّات والعورات.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ من رحمة الله.

﴿بِبِضَٰعَةٖ مُّزْجَىٰةٖ﴾ رديئة.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ التثريب: اللوم والتوبيخ.

﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ فارقت أرض مصر.

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ رائحة يوسف، وهذه معجزة ليعقوب، أنه يشمُّ رائحةَ ابنه من قميصِهِ على بُعد فراسخ.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تكذبوني وتتهموني بالضلال، وقد حصَلَ منهم هذا ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾، وهؤلاء ليسوا أبناءه قطعًا؛ إذ كان أبناؤه في طريقهم إليه ولَمَّا يصِلُوا بعد.

﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرٗا﴾ زال البياض المانع من الإبصار، والأصل فيه أنه خارقة إلا إذا ثبت أن الخبر السار يشفي في مثل هذه الحال، والله أعلم.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هو من تغليب لفظ الأب على الأمِّ، وإطلاق وصف الأمِّ على زوجة الأب والتي ورد أنها خالة يوسف تزوجها يعقوب بعد وفاة أمّ يوسف، ويشهد لهذا غياب ذكر أمّه عن هذه الأحداث الجسام، والأمّ أولى بالحزن والرقة من الأب.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ الظاهر أنهم الأبوَان والإخوة تصديقًا لرؤياه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ إلا أن ترتيب الآية هذه يوحي بأن أبويه لم يسجدا مع

إخوته؛ لأنه بدأ الكلام برفعهما على العرش ثم ثنى بالسجود، ومقام الأبوين هنا أدعى للتمييز، فقد يكون سجودهما سجودًا مناسبًا لمقامهما، فهو سجودٌ معنويٌّ بمعنى أنهما دخلا في ملكه وتحت سلطانه، بخلاف إخوته الذين سجدوا له سجودًا جسديًّا بمعنى التحية للملوك والعظماء، وسجودًا معنويًّا بمعنى الدخول في ملكه وسلطانه، أما تصوّر سجود يعقوب لابنه يوسف سجودًا جسديًّا فهو مستبعد ولا يليق بمقام الأبوّة حتى لو كان بمعنى التحيّة، وفي ترتيب الآية متسع لهذا الاجتهاد، والله أعلم.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ البادية.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ نَزَغَ: تدخَّل بالإفساد، وقد أشرَكَ نفسه مع إخوته في هذا، بل بدأ بنفسه ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ تطييبًا لخاطرهم، وإسعادًا لأَبَوَيه حينما يرَون هذا التسامُح وهذه المودَّة بين الأبناء.

﴿ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ نسبة النعمة إلى المنعم، وهذا أصل الشكر، وربط بين الملك والعلم إذ لا يصلح الملك بغير العلم.

﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يطلب العون والتأييد من الله بصيغة الخبر المؤكّد ثقة بالله ولطفه ورحمته.

﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ دعاءٌ بحسن الخاتمة، وتأكيدٌ بأهميتها.

﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تذكيرٌ بصحبة الصالحين ومكانتها في الدارين، اللهم فلا تحرمنا.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

توجيهات ختامية

تضمَّنَت خواتيم هذه السورة تلخيصات وتوجيهات ختاميّة نُجمِلها في الآتي:

أولًا: أن هذه القصة بما ورد فيها من أحداث ومشاهد إنما هي وحيٌ إلهيٌّ مقدّسٌ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ والقصد ليس السرد التاريخي والازدياد المعرفي المجرّد، بل هي خبرة يقينيّة وهدى ورحمة على طريق الحياة والحركة المتواصلة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ثانيًا: أن اختلاف الناس بين مؤمنٍ وكافرٍ ومصدّقٍ ومكذّبٍ سيبقى ما بقي الإنسان، وهذا أساسُ التمحيص والاختبار ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾.

ثالثًا: أن سبب الضلال إنما هو الإعراض عن الآيات وتعطيل المدارك ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

رابعًا: أن المؤمن ماضٍ في دعوته وحرصه على هداية الآخرين بعلم وبصيرة ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ وأنه لا يبتغي بذلك منهم أجرًا ماديًّا ولا معنويًّا ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

خامسًا: أن دعوة المؤمنين متّصلة جيلًا بعد جيل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ وأن العاقبة لسلسلة النور هذه مهما طغَى الباطل وتمدّد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أحكَمُوا خطَّتهم، وهم إخوة يوسف؛ إذ مكروا بأخيهم حتى ألقَوه بالجُبِّ.

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، إشارة إلى حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس مهما آذوه وصدّوا عنه.

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبّرونها ولا يفكرون فيها، حتى لو رأوها بأعينهم ولمسوها بأيديهم، وما أكثر الآيات المبثوثة في هذا الكون الدالّة على الهدى لو تدبّرها الإنسان.

﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ عذاب يعمّهم ويغشاهم.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ علم ودراية.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ فالأمة شريكة لنبيها في وظيفة الدعوة وتابعة له، ولولا هذا لانقطعت الدعوة بموت الرسل عليهم السلام.

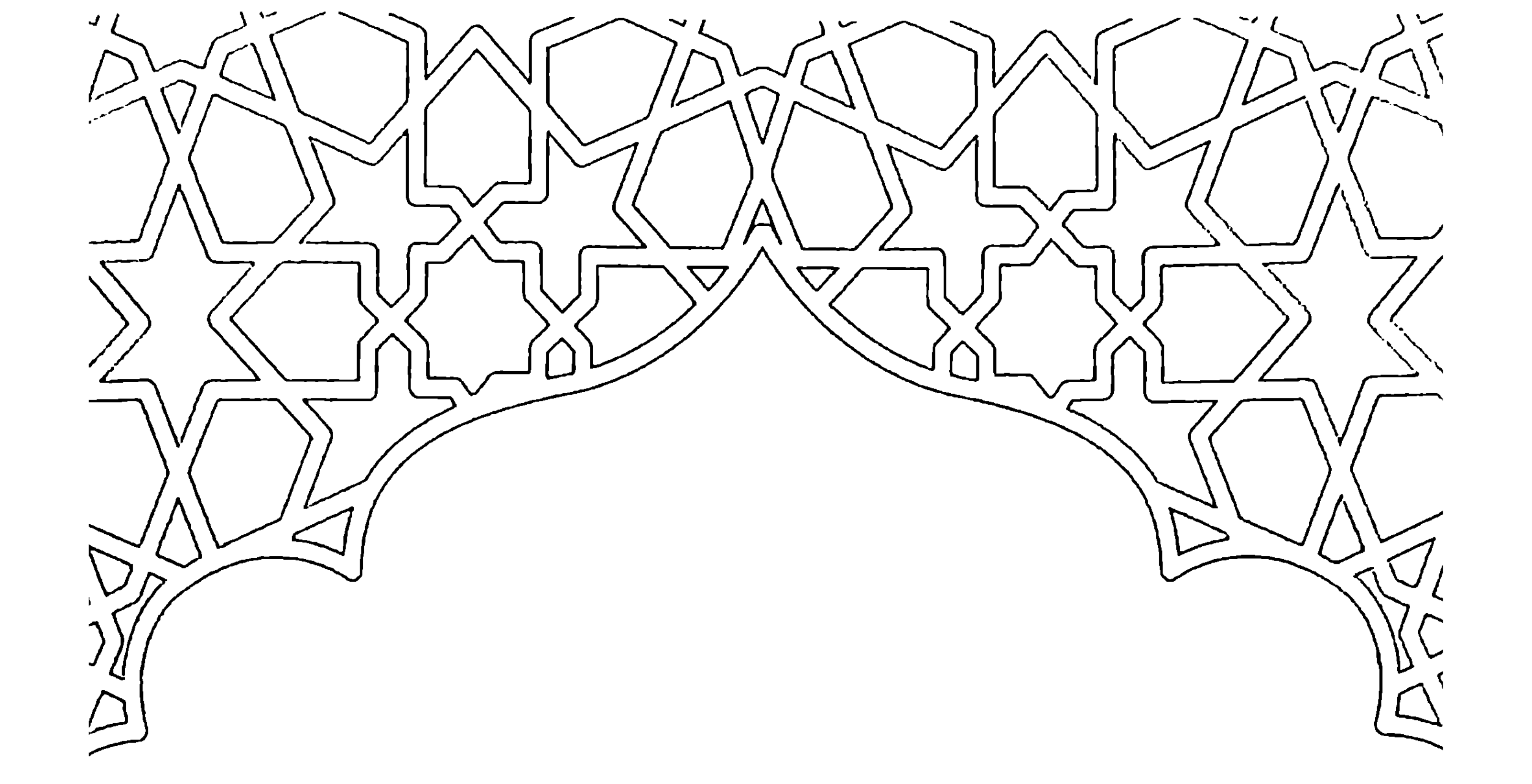
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ أي: ليسوا بملائكة ولا آلهة كما يزعُمُ المُبطِلُون ويدَّعُونه من شروط النبوَّة وصفات النبيين.

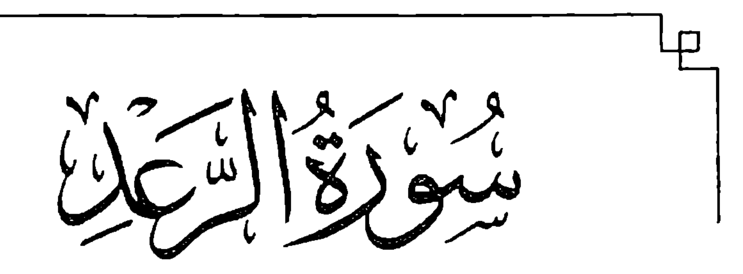
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من قومهم، فلا يرجون إيمانهم.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ الظن هنا اليقين، كما قال عن المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٤٦]، والمقصود أن الرسل ﷺ إذا يئسوا من استجابة قومهم، وتيقَّنُوا أنهم باقون على تكذيبهم، ولا مطمع بإيمانهم جاءهم النصر الذي يُنجِّي الله به المؤمنين ويمحق الكافرين.

﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ التوراة، فقد ورد فيها من قصة يوسف ما يصدّقه القرآن.

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ وصف للقصة، وإرشاد للمؤمنين أن يبحثوا فيها عن كلّ ما يعرض لهم من النوازل المشابهة كفتنة الحسد والشهوة والسجن والمنصب، والعمل مع الموافقين، والعمل مع المخالفين، فقد حوت هذه السورة أجوبة تفصيليّة وعمليّة للكثير من مسائل الحياة وتعقيداتها السياسيّة والاجتماعيّة والدعويّة وغيرها.





سورة الرعد

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

سبيل الهداية

تُعالِجُ هذه السورة في آياتها الأُول قضيَّة الهداية، والأسباب الموصلة إلى الطريق الحقّ، وما يحُول بين الإنسان وبين هذه الطريق ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

محور هذه الآيات يدور حول الكون، الذي هو مجال النظر الفسيح لكلِّ باحثٍ عن الحقِّ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ

مُّسَمًّى ﴾، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾، ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾.

في ثنايا هذا العرض لمُفردات الكون التي يمرُّ بها الإنسان ويتعامل معها كلَّ يوم يُنبِّه القرآن إلى ضرورة إعمال العقل ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

فالحقائق المركونة على رفوف المعرفة مهما كانت لا يمكن أن تكون سببًا للهداية ما لم يتَّصِل بها نظرُ الإنسان محاولًا استِنطاقها وباحثًا عمَّا وراءها، وحينما يُعطِّل الإنسانُ هذه الوظيفة في داخِلِه فإن تلك الحقائق ستكون مجرَّد مألوفات جامِدة لا يتَّصِل بها الإنسان إلا ابتِغاء المتاع وسدِّ حاجة الجسد.

ثم يُعرِّج القرآنُ إلى قانونٍ مكمِّلٍ لما سبَق، فالحقيقة تحتاجُ إلى عقلٍ ينظر فيها، والعقل بحاجة إلى عزيمةٍ وإرادةٍ ذاتيَّةٍ تحمِلُه على الانصِياع لمنطق الحقِّ، ومن ثَمَّ فالتغيير بأيِّ صورةٍ جاء مسؤوليَّة ذاتيَّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

فالإرادة هي التي تُحرِّك العقلَ وتدفعه للنظر الجاد، ثم تدفعه للالتزام بالحقِّ الذي توصَّل إليه، أو تُحرِّكه باتجاه الشهوة والمصلحة الآنِيَّة المُجانِبة للحقِّ، وفي الحالَتَين تأتي السنَّة الإلهيَّة متوافقةً مع مسؤوليَّة التكليف هذه دون تحيُّزٍ أو مُحاباةٍ.

إن وجود هذه الحقائق في نسَقٍ وظيفيٍّ واحِدٍ؛ بحيث لو اختَلَّت مفردة فيه عن سياقها لاختَلَّت الحياة كلُّها هو دليلٌ ساطعٌ على وجود حكمة لا تتَّسِع لها الصدفة العشوائية.

فلو افترضنا مثلًا أن الترابَ الذي في الأرض لا يصلح للإنبات، أو أن الماء لم ينزل على

هذا النبات، أو أنه نزل ولم يكن صالحًا، أو أن الشمس خَفَتَ ضَوؤُها، وذهَبَت طاقَتُها، وهكذا في كلِّ مفردةٍ من هذه المفردات، فكيف ستستقيم الحياة؟ وكيف سيكون شكلها؟ فيا تُرى مَن الذي وضَعَ هذا النظامَ وخصَّصَ هذه الوظائف لكلِّ مفردةٍ من هذه المفردات؟

ثم لو نظر الإنسان في نفسه وهذا التوزيع الوظيفي بين الذكور والإناث والذي بدونه لا يمكن أن تستمر الحياة أو تتعاقَب الأجيال، فهل مثل هذا التصنيف أو التوزيع تحتمله الصدفة؟ وإذا استحالت الصدفة فَمَن ذاك الذي قرَّر أن يخلق الرجل للمرأة أو يخلق المرأة للرجل؟ وأن يمدَّ كلَّ واحدٍ منهما بما يكمِّل نقصَ الآخر؟

يُشير القرآن بعد هذا إلى لجاجَة المشركين وتنكُّبِهم للطريق السويِّ الموصِل للحقيقة، فهم بدل أن يُحاولوا الإجابةَ عن تلك الأسئلة راحُوا يستعجِلُون السؤالَ عن خلق آخر ﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾.

وهم لو أجابوا عن الخلق الأول لتوصَّلُوا إلى جوابِ الخلق الثاني بطريقةٍ تلقائيَّةٍ، كما قال الله في سورة أخرى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥].

ولكي لا يُترك الإنسان لهواه تضمَّن هذا المقطع آيات من الترغيب والترهيب؛ ليشعر الإنسان بمسؤوليَّة اختياره وسلوكه النظري والعملي ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

دقائق التفسير

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تنبيهُ الأذهان إلى الناموس الكوني الذي يُمسِك هذه الأجرام العلويَّة كلٌّ في نظامه وفلَكِه، وتعجيزٌ للبشر أن يرفَعُوا سقفًا فوقهم من غير عَمَدٍ مركوزة في الأرض.

﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسَطَها لتكون صالحةً للبناء والزرع والسُّكنَى، وليس فيه نقضٌ لكرويَّتها؛ لأن بَسطَها مُتَّسعٌ لحركة الإنسان كما هو معلومٌ ومُشاهَد، والشكل الكلِّي للأرض غير محسوسٍ في مفردات الحياة، وإنما هو موزونٌ أيضًا لضبط الليل والنهار، كما قال في آية أخرى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

﴿رَوَٰسِيَ﴾ صفة الجبال، وقد اكتَفَى بذِكرها عن ذِكر موصُوفها.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُغطِّي النهارَ بالليل، ويحجب عنكم ضوء الشمس بحركة الأرض المعروفة.

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ من الشجر ما يتفرَّع عن أصلٍ واحدٍ، ومنها غير ذلك بأن تنبت كلُّ شجرةٍ بمفردها.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ إشارة إلى تنوُّع طعوم الثمرات وتنوُّع ألوانها مع أن غذاءها واحد.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعذاب.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ تذكير بما أصاب الأقوام السابقة، والمَثُلات جمع مَثُلة بمعنى: العظة والعبرة.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ هلَّا أُنزِلت عليه معجزة كإحياء الموتى، ونزول المائدة.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ قصر إضافي، كأنه قال: إن مهمتك الإنذار وليس صُنع المعجزات، ثم عقب بقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فأنت لست بِدعًا من الهداة والدعاة والنبيين من قبلك، والنذارة متضمنة في الهداية، والله أعلم.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ عام في كلِّ زيادة أو نقصان داخل الرحِم؛ من نزول البويضات الأنثوية، ودخول النُّطَف الذكَرية، وما يتم تلقيحه وما لا يتم، وعدد الأجِنَّة، وزيادة حجم الجنين ونقصانه، والسِّقط الذي يقع قبل اكتمال خلقه .. إلخ، فكلُّ هذا جارٍ على علم الله وكمال تقديره وتدبيره.

﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ المتعالي والمنزَّه عن صفات النقص.

﴿مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ يتخفَّى بظلام الليل.

﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ سالكٌ طريقه في وضح النهار، فالسارِب والمستخفِي في علم الله سواء.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ ملائكة مُوكَّلون بالعبد يتعاقبون عليه بأمر الله، يُحصون عليه أقواله وأفعاله، فهذا معنى الحفظ هنا بمقتضى السياق، ولا يبعُد أيضًا تناوله لمعنى الصَّون والحماية، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ فهذا مناط التكليف والاختبار والتمييز، وتحمل المسؤوليَّة على مستوى الفرد أو الجماعة أو الدولة.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ عذابًا وعقابًا على انحرافهم وتجنُّبهم طريق الهداية.

﴿وَالٍ﴾ يتولَّاهم بالتأييد والنصرة.

﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ الخوف من الصواعق والرهبة من صوتها، والطمع بما تحمِله من خيرٍ للأرض والإنسان والأنعام.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ يشهد بعظمة الله.

﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ شديد القوة والعقوبة.

﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ كالظمآن الذي يُشير إلى الماء طمعًا في أن يصِل الماء إلى فمه، وهذا غاية العجز، والتمني الفاسد، والمثال بمُجمله دعوة لتحريك العقول وتحريك الهِمَم لمعرفة الحقِّ والأخذ به.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ حركة الظل من شروق الشمس (وهو الغُدُوُّ)، إلى غروبها (وهو الأصيلُ) محكومة أيضًا بناموس الكون الذي قدَّره الله، وأخضَعَ له خَلقَه راغِبين أو مُكرَهين.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ الْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَالْمَلَٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل

بعد أن شرحت الآيات الأول من هذه السورة سبيل الهداية ومسؤوليّة الإنسان في استكشاف هذه السبيل وتمييزها عن طرق الغواية، والدعوة لها، وإلزام النفس بها، شرع القرآن في هذه الآيات في بيان مواقف الناس إزاءَ هذه المسؤوليّة:

أولًا: تأكيد حقيقة التمايز، وأنه سنَّة إلهيَّة ماضية في هذا الخلق ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

ثانيًا: بيان صفات المؤمنين ومؤهلاتهم التي قادتْهم إلى النجاح والفلاح:

- إعمال أدوات المعرفة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾، ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾.

- الشعور بجديَّة الأمر وعظم المسؤوليَّة ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

- الوفاء بالعهد واستشعار قيمة الكلمة ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾.

- امتثال الواجبات وإلزام النفس بها ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

- الصبر على لأْواءِ الطريق ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.

- السكينة وطمأنينة القلب، والتعلُّق بذكره سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

ثالثًا: بيان صفات الآخرين الجاحدين والمتنكِّرين للحقِّ وأهله:

- غلق منافذ المعرفة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾، ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾.

- نقض العهود ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾.

- الإفساد في الأرض ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

- اللجاجة والمجادلة بالباطل ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

- الاستهزاء والسخرية من الحقِّ وأهله ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾.

رابعًا: النتيجة المحتومة لكلِّ فريق ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، ومن حُسْنَى المؤمنين استبشار الملائكة بهم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ بينما يُستقبَلُ الفريق الآخر باللعنة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ ينطلق القرآن من حقيقةٍ لا مِراء فيها؛ أن كلَّ الشركاء المزعومين ليس لهم شرك في هذا الخلق، ومن ثَمَّ فلا ينبغي أن يكون لهم نصيب من الربوبيَّة أو الألوهيَّة، فالله هو الواحد القهار المستحق للعبادة وحده بحكم أنه الخالق وحده، فمن يخلق هو الذي يملك، ومن يملك هو الذي يتصرَّف في ملكه كيف يشاء سبحانه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ الغالب على كل شيء.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ فسالَ الماءُ في هذه الأودية، كلُّ وادٍ بحسب طوله وعرضه وعمقه وما قدَّره الله فيه من السَّيل.

﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾ رغوة الماء الطافية على ظهر السيل.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: كما أن هنالك فرقًا بين الماء المتدفق في الأودية وبين الزبَد الطافي عليه، هنالك أيضًا فارق بين جوهر الحلية والنقود السليمة المتخذة من الذهب والفضة وبين ما تَنفِيه النارُ من صدَأٍ وشوائب ونحو ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ رغوة السَّيل، وخبث المعادن.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الماء الصافي والمعادن النفيسة.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فالصورة المركبة التي عرضها القرآن عن الماء وما يحمله من زبَد، والمعادن وما تحمله من شوائب، إنما المقصود بها التقريب لحقيقةٍ أكبر وأعمق، ألا وهي الصراع المديد والطويل بين الحقِّ والباطل، فشبَّه الحقَّ بالماء والمعادن النفيسَة النافعة للناس، وشبَّه الباطل بالزبَد والشوائب التي تطفو وتطغى، ثم تذهب كأن لم تكن.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ عام في كلِّ صِلةٍ مطلوبة، ومنها صلة الرحِم.

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بحسب مُقتضى الحال، وقد تكون العلانية أفضل من السرِّ في بعض الحالات إذا سلِمَت النوايا؛ إذ بعض المشاريع تحتاج إلى من يُبادِر ويكون المَثَل والقدوة.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون الإساءة بالإحسان؛ لحلمهم ولطف أخلاقهم.

﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ مفسَّرة بما بعدها ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعُقبى: العاقبة التي ليس بعدها شيء، وعدن: إقامة ومستقر.

﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يعرف المرءُ أبَوَيه أولًا فهما أصله، ثم يعرف زوجَه وهي شريكة حياته، ثم يعرف ذريَّتَه وهم فروعه، ومن تمام نعمة الله عليه أن يجمع له هؤلاء جميعًا معه في الجنة، اللهم فلا تحرِم مؤمنًا من ذلك.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ إعلاء من شأن الصبر؛ الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على نكَدِ الحياة ومشاقِّ الدعوة.

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فرحًا يُنسيهم الآخرة ويبعدهم عنها، أما المؤمن فهو يفرح بنعم الدنيا، ويشكر الله عليها، ويستعملها في طاعته.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ﴾ إنما يعنون الخوارق الحسّيّة، وإلا فالقرآن يكفيهم لو صَدَقوا مع أنفسهم.

﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ طيب العيش.

﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ توبَتي وإنابَتي.

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ لو كان هناك كتاب يحوِّل الجبال من مكانها، إشارةً إلى لَجاجة قريش وطلبهم من الرسول ﷺ أن يُزيحَ عنهم جبالَ مكة.

﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: شُقَّت فيها الأنهار، وهو مطلبٌ ثانٍ لهم.

﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ أي: أُحيِيَ به الموتى، وهذا مطلَبُهم الثالث، وجواب (لو) مفهوم من السياق، أي: لكان هذا القرآن، بمعنى: أن الرسول حامل رسالة، ومهمة الرسالة الهداية وليس إزاحة الجبال، وشقّ الأنهار، وإحياء الموتى، ولو كانت رسالة تفعل مثل هذا لكان القرآن؛ لأنه أفضل الرسالات وأشملها وأكملها.

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ أي: أفلم يتيقَّنوا ويقطعوا شكَّهم.

﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ سنَّةُ الله أن يُمهِلَ أهلَ الباطل ويمدّهم بما يشاؤون من قوةٍ ومتاعٍ، ثم يأخذهم في الوقت الذي يُقدِّره سبحانه.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾

خاتمةٌ وتذكيرٌ بالحقائق الكبرى

اختتمت السورة ببيان الحقائق المتعلقة بهذا الصراع الطويل بين جبهة الحقِّ وجبهة الباطل على اختلاف الزمان والمكان ومن أهمها:

أولًا: أن النظر الصحيح الموصِل إلى العلم لا يمكن إلا أن يقود إلى التوحيد، بخلاف الشرك الذي يدحضه المنطق والفطرة السليمة ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ﴾.

ثانيًا: أن المشركين إنما يتَّبِعون الهوى والمكر والخداع ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ﴾، ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ﴾، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ فأصل الشرك هوى، يدفع إليه الكبر والحسد

والخوف من فوات المصالح العاجلة، ثم يأتي المكر وتزيين الباطل لكسب الرعاع والأتباع.

ثالثًا: أن المؤمنين يفرحون بالوحي مع ما فيه من أمانةٍ ثقيلةٍ وتكليف؛ لأنه طريق السعادة في دنياهم وأخراهم، أما أحزاب الباطل فلا يقبَلُون منه إلا ما جاء على وفق ما يشتهون ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ ﴾.

رابعًا: أن الأنبياء ﷺ بشر، ومحكومون بالناموس الذي يحكم البشر جميعًا، فهم يحتاجون إلى الطعام والشراب والنكاح، ولا يملكون القدرات الخارقة إلا ما يُجرِيه الله على أيديهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾

خامسًا: أن وظيفة الرسول البلاغ، وأما الحساب فلله وحده، فهو الذي يحاسب عباده ثوابًا، أو عقابًا، أو عفوًا ومغفرةً ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ ﴾ بالخلق والتدبير والإحاطة، وجواب السؤال مفهوم من السياق، أي: كمن هو ليس كذلك من أصنامكم التي لا تخلُق ولا تُدبِّر ولا تعلم شيئًا؟

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ ﴾ أي: اذكروا لنا آلهتكم هذه لنرى إن كان منها ما يقدر على الخلق والتدبير! وفي الخطاب تعجيز وتهكُّم لا يخفى.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ ﴾ كلامٌ فارغٌ بلا حقيقة ولا بينة.

﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ ﴾ عاقبتهم ومصيرهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ ﴾ ظاهرٌ في الثُّلَّة التي أسلمت من أهل الكتاب.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ إشارة إلى أثر التعصُّب الحزبي في المعاندة ولو كانت على الباطل.

﴿حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ حكم إلهي جاء بلغة العرب، كما قال في سورة إبراهيم التالية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ من الأشياء والأحكام وكلِّ ما يتعلَّق بهذا الخلق، فالكون كلُّه محكوم بإرادة الله وقُدرته، أما علمُ الله فهو الثابت الذي لا يتغيَّر ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصلُ الكتاب الذي قدَّر فيه المقادير على وفق علمه سبحانه الأزليِّ الأبديِّ، فطرُوُّ العلم بالنسبة لله محال، وكلُّ ما يحصُل في هذا الكون من تعاقُب النبيِّين بالشرائع المختلفة، أو تعاقُب الحوادث، وتغيُّر الأحوال فإنما هو محكومٌ بعلم الله الشامل الذي لا يغِيبُ عنه شيء.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ من العذاب.

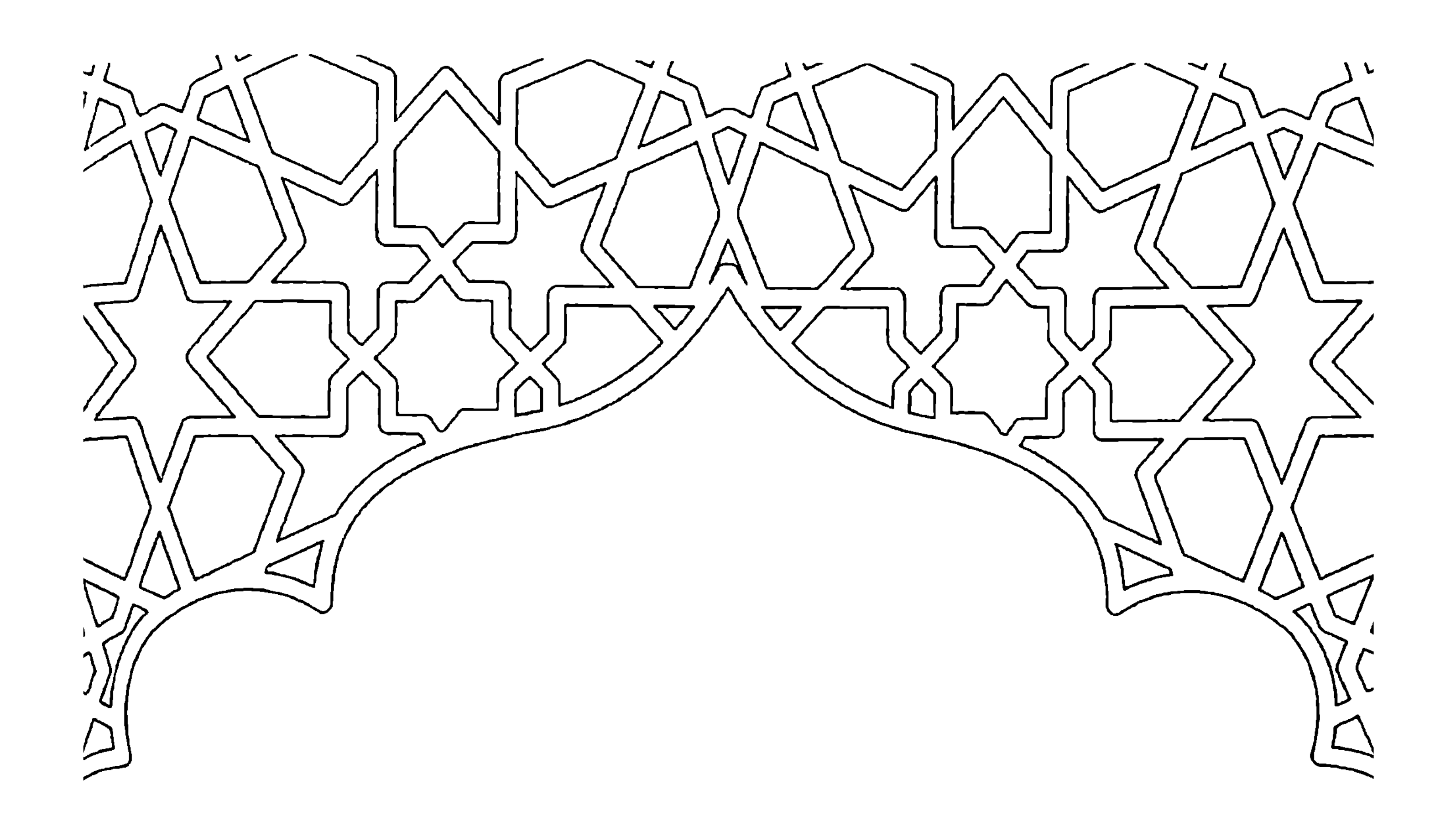
﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ إنذارٌ للمشركين بأن كلَّ سلطان آيِلٌ إلى النقصان ثم الزوال، وهذه سنَّة من سنن الله.

والمقصود بالأرض هنا: الدولة والسلطان الذي يقوم على أرضٍ محددةٍ، ثم تتآكل هذه الدولة وينكمش ذلك السلطان، وهذا أمر مُشاهَد ومعلوم في كلِّ أمم الأرض، وقرينةُ هذا التفسير قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ سبحانه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ لأن الله يعلم حقيقةَ مكرهم ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ وسيجازيهم عليه بما يناسبه من الجزاء، فكأنهم لم يمكروا إلا بأنفسهم ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هم علماء أهل الكتاب الذين شهِدُوا لرسول الله ﷺ بحسب ما يعلمونه من أوصافه في كتبهم، والله أعلم.



سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

المجلس الخامس بعد المائة: ومضات من سيرة النبيين عليهم السلام مع أقوامهم

المجلس السادس بعد المائة: توجيهات إيمانية وتربوية

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ (٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٤) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ (٥) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (٦) وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٩) ۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (١٠) قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (١٥) مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ (١٧) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ (١٨) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ (٢١) وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٢) وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣)﴾

أولًا: تستهِلُّ هذه السورة المباركة ببيان رسالة القرآن ومهمته الكبرى في هذه الحياة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهذا الصراط هو الصراط المستقيم الذي أكَّدَتْه سورة الفاتحة؛ صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، وأنَّ رسالةَ القرآن هذه قد جاءت باللغة البيِّنة التي يفهمها الناس ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وهذا من تمام الحجَّة عليهم.

ثانيًا: ثنَّى القرآن بالتذكير بقصَّةِ موسى ﷺ مع قومه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ هذه إذن رسالة التوراة، وهي نفسها رسالة القرآن؛ إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وكان من بواكير هذا التحوُّل المبارك: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ﴾، ثم رغَّبَهم وأنذَرهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾.

ثالثًا: ثلَّثَ القرآن بذكر موقف مشتركٍ لعددٍ من الأنبياء السابقين ممن واجَهُوا صدودَ أقوامهم وتكذيبهم لما جاءوا به ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾. وهنا يقوم الأنبياء بمهمتهم في محاورة هؤلاء وكشف شُبهاتهم ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وحينما تقول لهم أقوامهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يُجيبهم أنبياؤهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فنحن وإياكم في البشريَّة سواء، فلسنا من طِينةٍ أخرى، ولا من كوكبٍ آخر!

وهذا الجواب من شأنه أن يخفِّف من حدَّة العداوة والحسد، لكن المشركين اختاروا طريق العُنف والتهديد ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وكان الردُّ الحاسِم: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهكذا يعرض القرآن للتجربة المحمديَّة في الدعوة ومقاومة الشرك والوثنيَّة بين تجربتَين مختلفَتين؛ تجربة موسى الذي استجاب له قومه، فنجَّاهم الله من فرعون وملئه، وتجربة نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ونحوهم ممن تنكَّرت لهم أقوامهم بالعناد والمكابرة والإيذاء، فكان عاقبتهم الهلاك، وفي هذا تنبيهٌ لقريش وباقي الناس الذين تصِلُهم هذه الدعوة المُباركة.

رابعًا: في الخِتام يُذكِّر القرآن بالنتيجة الحتميَّة التي تنتظر الجميع، إنها الوعد الحقُّ الذي لا مفرَّ منه، والذي سيتلفَّت فيه المكذِّبون إلى ما كانوا يملكونه من مالٍ وجاهٍ وقوةٍ وسلطان فلا يجدون سوى السراب والضياع ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾، ثم يكون التلاوم والتندم والتحسُّر، والعياذ بالله ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، واستكمالًا لهذا المشهد البئيس ينبَرِي الشيطانُ فيزيدهم حسرةً وندامةً وملامةً ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾.

وفي مقابل هؤلاء البائِسين يقف أولئك الأبرار الذين تحملوا مسؤوليتهم في هذه الحياة، وعرفوا وظيفتهم وغاية خلقهم ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ عام في كلِّ الظلمات؛ ظلمات الأفكار، والثقافات، والسياسات المؤدِّية إلى الكفر، والظلم، ونكَد الحياة.

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الرحمة الشاملة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ينسون الآخرة ويخالفون الطريق المستقيم؛ تغليبًا لمصالحهم وشهواتهم الدنيوية القاصرة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ يَرِد هنا سؤال: إذا كان محمد ﷺ مبعوثًا لكلِّ العالمين وليس للعرب خاصة، فلماذا جاء بلسان العرب فقط؟

والجواب: نعم، رسالة الإسلام رسالة عالميَّة، هذا لا ريب فيه، لكنه ﷺ بُعِثَ في مكة، فكان عليه أن يُخاطِبَ مَن حوله بلسانهم، حتى إذا اشتدَّت الدعوة بهم وأقبل الناس إليها من كلِّ صَوبٍ، كان نَقْلُها إلى الأقوام الأخرى أيسر وأسهل، وهذا الذي حصَل، أما أن يكون هناك لسانٌ عالميٌّ واحدٌ فهذا مُتعذِّر.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ بقوله وعمله وسيرته العطرة، وهذا كلُّه من البيان، وقد ثبَتَ حجِّيَّته بهذه الآية وغيرها.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ سنن الله الماضية وما أصاب الأقوام السابقين.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركوهن أحياء، وهذه لوحدها قد تكون نعمة لولا اقترانها بذبح الأبناء، فيكون إبقاؤهن على قيد الحياة لإذلالهن واسترقاقهن.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ من الأذان، وهو الإعلام والإبلاغ المعلَن.

﴿حَمِيدٌ﴾ مستحقٌّ للثناء والحمد.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: وضعوا أكفَّهم على أفواههم كأنهم يكتمون ضَحِكَهم، وهي صورة معروفة للتهكُّم والاستهزاء.

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن دلالة الخلق على الخالق كدلالة الأثر على المؤثِّر، والنتيجة على السبب، دلالة عقلية بديهيَّة لا تحتمل الشك والخلاف، وفاطرُ السموات والأرض يعني: مُوجِدها من العدم على غير مثالٍ سبق.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ المعهودة وهي التي هدَّدُوا بالإخراج منها.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ سألوا الله الفتح، وهو هنا النصر.

﴿مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ القَيْح الخارج من القروح والجروح.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يقترب منه قسرًا واضطرارًا فيكره شربه ولا يستسيغه.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ تأتيه أسباب الموت فلا يموت.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بصعب أو ممتنع، بل هو سهلٌ ويسيرٌ.

﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ الله لم يهدِهم؛ لأنهم هم الذين لم يطلبوا الهداية، فكان مثلهم كالأحمق الذي لا يمُدُّ يده إلى الدواء القريب منه، ثم يقول: الله لم يشفِني، فكان الحقُّ أن يلوموا أنفسهم ولا يتذرَّعوا بأقدار الله.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فيه دليلٌ على أن الشيطان لا يملك إلا الوسوسة وتزيين الباطل، أما ما يتوهَّمه بعض الناس من قدرات خارقة للشيطان، وأنه يتحكم في عقل الإنسان أو جسده، فهذا كلُّه مردود بهذه الآية، وبقوله تعالى أيضا: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ ما أنا بمُغِيثكم وما أنتم بمُغيثيَّ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

توجيهات إيمانية وتربوية

بعد هذه الومضات السريعة من قصص النبيين واختلاف الناس عليهم بين مصدّق ومكذّب وما كتبه الله لهؤلاء وهؤلاء من نتائج محتومة ومحكومة بسنن الله العادلة، تأتي هذه التوجيهات الكريمة والودودة لهذه الأمة، وكأنها خُلاصةٌ لما ينبغي أن تستَفِيده من دروس وعبر من تلك التجارب الماضية:

أولًا: الكلمة الطيبة النابعة من القلوب الطيبة، والتي يتقبلها الله عنده، ويعمُّ خيرها وينتشر بين الناس، هي كلمة الإيمان والإحسان، وكلمة الحق والصدق ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

وهذا التشبيهُ الجميلُ مدعاةٌ لكل عاقل أن يطيِّب كلامه، وأول الكلام الطيب كلمة (لا إله إلا الله)، والتي يقرُّ فيها هذا المخلوق بفضل خالقه عليه، وتعهُّده له بالشكر والطاعة، وأداء الحقوق.

وفي مقابل هذا التوجيه يأتي التحذير من الكلمة الخبيثة، التي لا تنبعث إلا من قلب خبيث لا يقرُّ بالحق لأحد، ولا يرى في هذا الكون إلا نفسه وشهوته ومصلحته العاجلة، فيكفر بحق الله، ويكفر بحق الناس ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾.

ثم وعد الله عباده المؤمنين أن يثبتهم على الحق ويذكِّرهم بكلمة الحق التي يتشوَّقون إليها، خاصة في مرحلة الانتقال من هذه الدار إلى تلك الدار ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ بخلاف أولئك الذين ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾.

ثانيًا: بعد الكَلِم الطيب يأتي العمل الطيِّب ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾، مع التذكير أن هذا الإنفاق إنما هو مما سخَّره الله لهذا

الإنسان ويسَّره له ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾.

فحريٌّ بالعاقل أن ينسب هذه النعمة إلى مصدرها، وأن يكون شاكرًا ووفيًّا للمُنعِم الذي تفضَّل عليه بهذه النعم، وأن لا يستعملها بخلاف ما يُرضِيه سبحانه.

ثالثًا: تقديم النموذج الأمثل للكلم الطيب والعمل الطيب، وهو هنا إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبيِّنا الصلاة والسلام.

والنموذج الإبراهيمي في هذه السورة يتَّسِق تمامًا مع التوجيهَين السابقَين؛ فيبدأ بالقول الطيب إيمانًا وإحسانًا ومحبةً للخير ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، ثم ثنَّى بالعمل الطيب ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ﴾، ثم الشعور الدائم بالتقصير والحاجة إلى المغفرة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

رابعًا: تثبيت قلوب المؤمنين ومدُّهم بمقوِّمات الثقة وهم يواجهون صَولة الباطل وانتفاش ريشه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾، ثم يلتفت بالخطاب إلى هؤلاء الظالمين أنفسهم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، ثم يرجع بالخطاب إلى المؤمنين مؤكِّدًا ومُطَمئِنًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ شبَّهَ الكلمة الطيبة بالنخلة الباسقة الثابتة في الأرض والدائمة العطاء، وهو تشبيه قريب من البيئة التي نزل فيها القرآن، ولا يمنع إطلاق المثل على كل شجرة فيها مثل هذه الصفات في أي بيئة أخرى.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ لأن التمر قابلٌ للادخار على مدار السنة، وهو قوت لا يكاد يخلو منه بيت في جزيرة العرب.

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: هي الحنظل لمرارتها، والظاهر أنها النباتات الطفيلية التي ليس لها جذور في الأرض ولكنها تشتبك مع أغصان الأشجار الأخرى، وتطغى عليها، وتمصُّ ماءها وغذاءها، وهي ضعيفةٌ في نفسها لا تَقوَى على البقاء والاستغناء، وهي المثلُ المناسبُ للباطل الذي يزهو ويتمدَّد في المظاهر والسقوف الخاوية، ويؤذي بتمدُّده الأشجار الطيبة لكنه إلى زوال.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ تثبيت المؤمن بقول الحق في حياته الدنيا دون نفاق ولا تردُّد مُؤْذِنٌ بحسن الخاتمة وحسن العاقبة، والقول الثابت يبدأ بكلمة التوحيد، ثم ما يُبنَى عليها من عقائد وتصوُّرات في عالَمي الغيب والشهادة.

﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ كفروا بنعمة الله وجحدوها، وكان الأجدَرُ بهم أن يشكروا الله ويُقرُّوا له سبحانه بالفضل والمنَّة.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ الهلاك.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الأمر هنا للتهديد، يقول لهم: تمتَّعوا في هذه الدنيا كما تَشتَهُون فإن مصيركم النار.

﴿خِلَٰلٌ﴾ صداقة تنفع أو تَقِي من عذاب الله.

﴿دَآئِبَيْنِ﴾ في حركة دائِبة ومستمرة لا تنقطع، ومن هذه الحركة يتولَّدُ الليل والنهار، وفي هذا إشارة علمية واضحة.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ حاجات الإنسان كلها متوفِّرة في هذه الدنيا، حتى قيل: حاجة الإنسان لشيءٍ ما دليل على وجوده، وهذا ظاهر في المطعومات والمشروبات والملبوسات والأدوية والضوء والهواء وأسباب السكن والعمران والوقود مما لا يحصى، إضافةً إلى الحاجات العقلية والمعنوية والعاطفية والاجتماعية وغيرها.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ قدَّمَ الأمنَ على الإيمان، إشارةً إلى أن الاستقرار والسكينة والطمأنينة تُعينُ الناسَ على التفكير السليم المُوصِل إلى الإيمان والمعارف الكونية الصحيحة، بخلاف حالة الفوضَى والفتنة والاضطراب، والله أعلم.

﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أيُّ قلبٍ رحيمٍ تملِكُه يا إبراهيم؟ إنه يدعو لمن خالَفَه وعصاه في هذا الأمر العظيم بالمغفرة والرحمة!

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ فكلُّ ما يجِده المسلمُ في قلبه من حَنينٍ إلى تلك البقاع، فإنما هو أثرٌ لهذه الدعوة الخالدة.

﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تتوقَّف باتجاهٍ واحدٍ لا تتحرَّك أو تغمض من شدة الهول والترقُّب، وأكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسرعين.

﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ يرفعون رؤوسهم مترقِّبين، وهي الصورة المكملة لشخوص الأبصار.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ قلوبهم خالية من السكينة والطمأنينة كما كانت خالية من الإيمان.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ عنها، أي: الدنيا، خطاب للمشركين الذين كانوا يُنكِرون الحياة الآخرة، ويُقسِمون أنهم ليس لهم انتقال وتحوُّل عن هذه الدار.

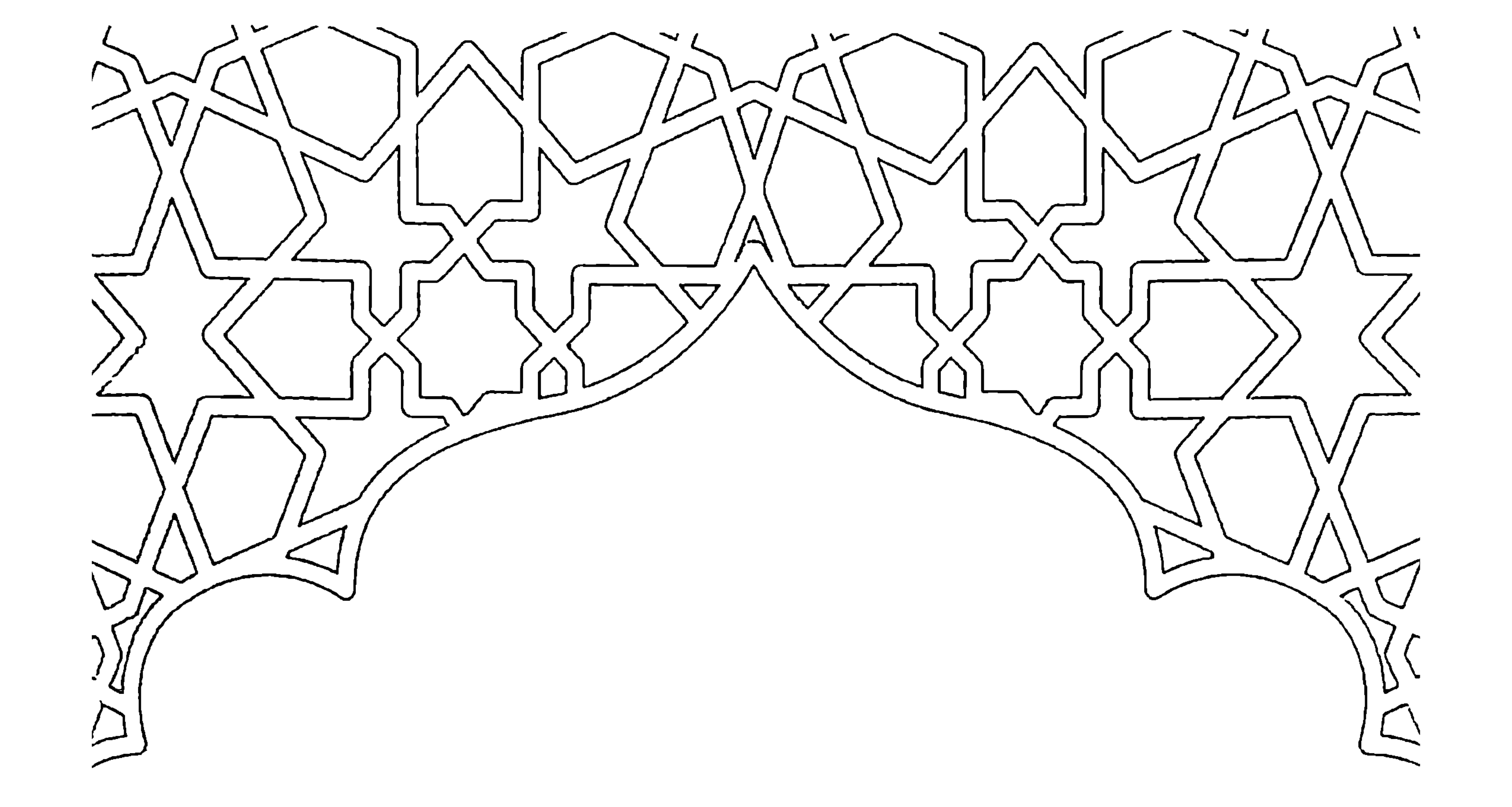
﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ من الأمم السابقة؛ كقوم هود، وقوم صالح، فقد حلَلْتُم في هذه الأرض التي كانوا يسكنونها قبلكم.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: محفوظ ومسجَّل ليُجازِيهم عليه.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: ما كان مكرُهم ليُزيلَ الجبال عن أماكنها، وفيه إشارة إلى أنه مهما بلغ مكرهم فلن يضرَّ هذا الدين الراسخ رسوخ الجبال.

﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ مقرُونين ومُقيَّدين بعضهم مع بعض.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ طلاء أسود كريه الرائحة، قابل للاشتعال.



سورة الحجر

﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾

معركة القرآن مع المكذِّبين

في معركته مع المُكذِّبين يبدأ القرآن بتقرير المقدِّمات والحقائق التي تكشف طبيعة هذه المعركة ودوافعها ومآلاتها:

أولًا: إن القرآن يُحقِّق مصلحة الإنسان، وأن المكذِّبين سيكتشفون هذه الحقيقة بأنفسهم وسيُذعنون لها، وسيتمنَّون لو أنهم قد استجابوا لها ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

ثانيًا: إنّ التكذيب لم يصدُر عن رأيٍ وفكرٍ وشعورٍ بالمسؤولية، وإنما جاء عنادًا وحسدًا ومكابرةً ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

ثالثًا: إن طبع المكذِّبين هؤلاء الاستهزاء والشتيمة، والتنابُز بالألقاب الوضيعة ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

رابعًا: إن هذا القرآن تعهَّد الله بحفظه، فلا تعترضه زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ وهذا الواقع الذي لا يقبل الريب، فبعد أربعة عشر قرنًا من الزمان بما احتَوَتْه من فتنٍ وملاحم، وصعودٍ وهبوطٍ، بقِيَ القرآن كما هو يتلُوه ابنُ المشرق كما يتلُوه ابنُ المغرب بسوره وآياته وحروفه.

خامسًا: إن الله سبحانه هو الذي بيده مقادير هذا الكون، وليس من حركةٍ ولا سكنةٍ إلا بعلمه سبحانه ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ ذلك يوم الندامة، وربما وإن كانت تفيد التقليل إلا أنها هنا جاءت للتهكُّم والتهديد، كقول الملك لواحدٍ من رعيَّته محذِّرًا ومهدِّدًا: ربما ستندم إذا فعلت كذا وكذا، وهو أسلوب معروف.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ أسلوب طلب مثل هلَّا.

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ جوابٌ لشرطٍ مُقدَّرٍ معناه: لو أنزلنا عليهم الملائكة كما طلبوا لما تأخر عنهم العذاب.

﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ ندخل الكفر في قلوبهم بسبب جرائمهم على وفق سنن الله أن من يطلب الإيمان آمَن، ومن يطلب الكفر كفر؛ ولذلك عقَّبَ بذكر السنن ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

﴿بُرُوجٗا﴾ المنازل التي تدور فيها الأفلاك.

﴿ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ فالذين تُطعمونهم إنما تُطعمونهم من رزق الله وما خلق من الطيبات، فالرازق الحقُّ إنما هو الله.

﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ من جملة وظيفة الرياح في هذه الأرض أنها تجمع الغيوم بعضها على بعض حتى تتراكم فينزل المطر، وتجمع ذرَّات النباتات فُحُولها بإناثها حتى يتكوَّن الثمر.

﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ الباقون بعد هلاك الخلائق.

﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ فلا يغيب عن علمه سبحانه حال الأولين ولا حال الآخرين، فالماضي والحاضر والمستقبل كلها عند الله سواء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

معركة الإنسان مع الشيطان

تناول هذا المقطع قصة الخلق الأولى؛ خلق الإنسان، وهي القصة التي تكررت في القرآن كثيرًا، وهنا يعرضها القرآن مؤكِّدًا طبيعة الصراع الأزلي بين الخير والشرِّ وضمن المفاهيم والمعاني الآتية:

أولًا: أن طبيعة الإنسان طبيعة مختلفة عن المخلوقين الآخرين؛ الجن والملائكة، وإن اجتمعوا في صفة العقل، ومؤهِّلات التكليف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ والآيات تؤكِّد أيضًا أن خلق الإنسان متأخرٌ من حيث الزمن عن نظيرَيْه.

ثانيًا: أن الله أمر الملائكة ومعهم إبليس - وكان من الجن - بالسجود لآدم، فسجَدَت

الملائكة ورفض إبليس، فطبيعة خلقه قابلة للزلل والوقوع في المعصية بخلاف الملائكة.

ثالثًا: أن رفض السجود لم يكن في الحقيقة إلا مظهرًا لمعصية خفيَّة، وهي التكبُّر الممزوج بالحسد ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وهذا درسٌ بليغٌ لبني آدم ليحذَروا الآثام الباطنة التي هي أخطر من الآثام الظاهرة.

رابعًا: أن تزيين الباطل هو الأسلوب الذي انتهَجَه الشيطان لإغواء بني آدم ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

خامسًا: أن الإنسان كلما اقترَبَ من عبادة الله ابتَعَدَ عن تأثير وساوس الشيطان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾.

سادسًا: أن نتيجة هذا الصراع ستقسِم الناس إلى فريقَين: فريق الغاوين ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وفريق المتقين ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.

سابعًا: أن باب التوبة والمغفرة مفتوحٌ لهذا الإنسان المعرَّض بحكم طبيعة خلقه للنِّسيَان والغفلة والشَّطَط ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

دقائق التفسير

﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ المادة التي صُنع منها جسد آدم ﷺ، وهي الطين اليابس الناعم، أو الأملس الصقيل.

﴿مِن رُّوحِى﴾ الروح التي خلقها الله، والإضافة هنا للتشريف، كما نقول: بيت الله، وسماء الله.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ نسب الغواية إلى خالقه سبحانه، وهذا من سوء أدبه، وهو نوعٌ

من الاحتجاج القدري الباطل، فالقدر لا يظلم أحدًا، وإنما هو سنن الله الماضية بعلمه وعدله وحكمته، والمخلوق هو من يختار الهداية أو الضلالة فيهتدي أو يضلُّ، وحاشا لله أن يُكرِه أحدًا على شيءٍ ثم يعاقبه عليه.

وقد ردَّ إبليس على نفسه حينما قال بعد هذا: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ فنَسَبَ القدرة على الإغواء لنفسه، وهذا هو دَيدَنُ أهل الباطل؛ فإنهم يُفاخِرون بقوَّتهم وسُلطانهم ويتعالَون بهما على الضعفاء، فإذا تغيَّرَت الأحوال ووقَعُوا في المَلامَة احتجُّوا بالقَدَر، وقالوا: لو شاء الله ما فعَلنا ذلك!

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ردَّ الله تعالى على إبليس أن جميع الخلق محكومون بنظامٍ واحدٍ، ويُحاسَبون بميزانٍ واحدٍ، وهو مُقتضى الصراط المستقيم الذي اختارَه الله معيارًا لسلوك المكلَّفين، وفَيصلًا للتمايُز فيما بينهم.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ تأكيد مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وأن الله لم يسلب حقَّ الاختيار من عباده المكلَّفين، ولم يسلِّط عليهم من ينزع عنهم هذا الحقَّ، فالإنسان هو من يختارُ الخضوعَ لله، أو الخضوعَ للشيطان.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ إتمام لنعمة الله عليهم، وفيه أن الاختلاف من طبع البشر حتى الصالحين منهم، وقد يجُرُّ هذا الاختلاف شيئًا من العداوة والبغضاء، لكن العبرة بغلبة الطاعات، فإذا دخلوا الجنة تكفَّلَ الله بنزع ما يُعكِّر صفوَ الوداد فيما بينهم، وفيه ترغيبٌ خفيٌّ للتغافُر، فالمؤمنون الذين يرجُون الجنة، عليهم أن يعلموا أن الجنة ليس فيها شحناء ولا بغضاء، فليُبادِرُوا بتطهير قلوبهم من هذه الكدُورات قبل مواجهتها هناك على باب الجنة!

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

عاقبة الصراع

بعد أن عرض القرآن قصة الخلق الأولى، والصراع المُبكِّر بين الإنسان والشيطان، بدأ القرآن بعرض الانقسام البشري وفق هذا الصراع ومن خلال النموذجَين الآتيَين:

النموذج الأول: الذين كانوا مع الله بيَقين الإيمان وحسن التعبُّد واللجوء إليه سبحانه، فكان الله معهم كما وعَدَهم، ومن صفوة هؤلاء: إبراهيم ﷺ الذي عجَّل الله له البشارة في الدنيا ﴿ **قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ** ﴾، ومنهم: لوط ﷺ ﴿ **إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾، ثم صالح ﷺ الذي كذَّبه أصحاب الحجر ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ فهؤلاء جميعًا حلقات

مباركة من سلسلة النور في تاريخ هذه الإنسانية، أولئك الذين رفضوا طريق الشيطان، وقاوموه وحذَّرُوا منه.

النموذج الثاني: الذين اختارُوا طريق الشيطان، واتَّبَعوه في خطواته وانضَوَوا تحت سلطانه، ومن هؤلاء: قوم لوطٍ، وقوم شعيبٍ، وقوم صالحٍ:

قوم لوطٍ الذين كذَّبُوه واتبعوا أمر الشيطان؛ فملأهم بكل مُنحرفٍ من الفكر وشاذٍّ من السلوك ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ لم يستثن الله من هؤلاء حتى امرأة لوط ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ في تأكيدٍ مطلق على العدل الإلهي الذي لا يُحابي قريبًا ولا نسيبًا.

وقوم شعيب هم أصحاب الأيكة ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾.

وقوم صالح هم أصحاب الحِجر الذين جاءت هذه السورة على اسمهم ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾.

تجدر الإشارة هنا إلى توافق طريقة العذاب ووقته بين أصحاب لوط وأصحاب الحِجر، فكلاهما هلك بالصَّيحَة، وفي وقت الصبح، كما هلك قوم شعيب بالصَّيحَة أيضًا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤].

دقائق التفسير

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ لأنه قدَّم لهم الطعام فلم تصِل إليه أيديهم، ولم يكن يدري أنهم ملائكة، ونحوه قول لوطٍ لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا يعرفهم، وفيه أن الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا بتعليم الله لهم.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بجانبٍ من الليل، وهو وقت خروج لوطٍ ومن معه من قريتهم قبل نزول العذاب.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أن نهايتهم محسومة عند الصباح.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ يعرِض عليهم بناته للزواج، وليس في العرض تنازُلٌ عن شرائط الزواج، وذكر بناته تمثيلًا، وإلا فالمقصود بنات القرية أو المدينة؛ لأنه من المقطوع أن عدد بناته لا يكفي لعدد هؤلاء الذين وصَفَهم الله بقوله: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقد تقدَّم تفصيل ذلك.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قَسَمٌ بحياة نبيِّنا محمد ﷺ، وهذا غاية التشريف.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتخبَّطُون تخبُّط الأعمى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ دلائل وعبر للمتأمِّلين.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ قرى قوم لوطٍ لا زالت آثارُها شاخِصة على الطريق الذي يسلكه الناس صباحًا ومساءً.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ ثمود قوم صالح عليه السلام.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وأصحاب الحِجر إنما كذبوا صالحًا، وهنا إشارة إلى أن تكذيب النبيِّ الواحدِ هو تكذيبٌ لكلِّ النبيِّين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

توجيهات ختامية

حملت هذه السورة توجيهات ختاميَّة مركَّزة لها صلة بحالة الصراع المستمر بين الحقِّ والباطل، والتي شكلت الموضوع الأساس في السورة:

أولًا: التذكير بحكمة الله في هذا الخلق، وأنه ليس هناك مجال للعبث أو الفوضى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ وهذا الحقُّ مُتضمِّنٌ للجزاء كلٌّ بحسب ما يقدِّم ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ﴾، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثانيًا: أن الذي خلق الخلق هو الذي أنزل القرآن، فلا يصلح هذا الخلق إلا بهذا القرآن ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وأن هذا القرآن لا يقبل القِسمة؛ فمَن آمَنَ به آمَنَ به كلّه، ومن كفَرَ به كفَرَ به كلّه، أما ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ فما وافق هواهم أخذوه، وما خالفه نبذوه، فهؤلاء ما كانوا مؤمنين.

ثالثًا: أن هذا الحقَّ لا يسير لوحده بين الناس، بل لا بدَّ من الدعوة إليه والجهر به ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

رابعًا: أن هذه الدعوة تحتاج إلى القلب الموصول بالله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وتحتاج أيضًا إلى الصبر والحلم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

خامسًا: أن هذه الدعوة تحتاج أيضًا إلى التواضع والقناعة والرضا بما قسمه الله، والزهد بما في أيدي الناس ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ خُلُق من أخلاق الداعية، فما دام هو في مقام الدعوة فعليه أن يتحمل إساءات المدعوين، وأن يتسع صدره لهم لعله يكون سببًا في إنقاذهم.

﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ سبع آيات تتكرر في كلِّ صلاة، وهي سورة الفاتحة، وخصَّها لبيان فضلها وعظيم شأنها.

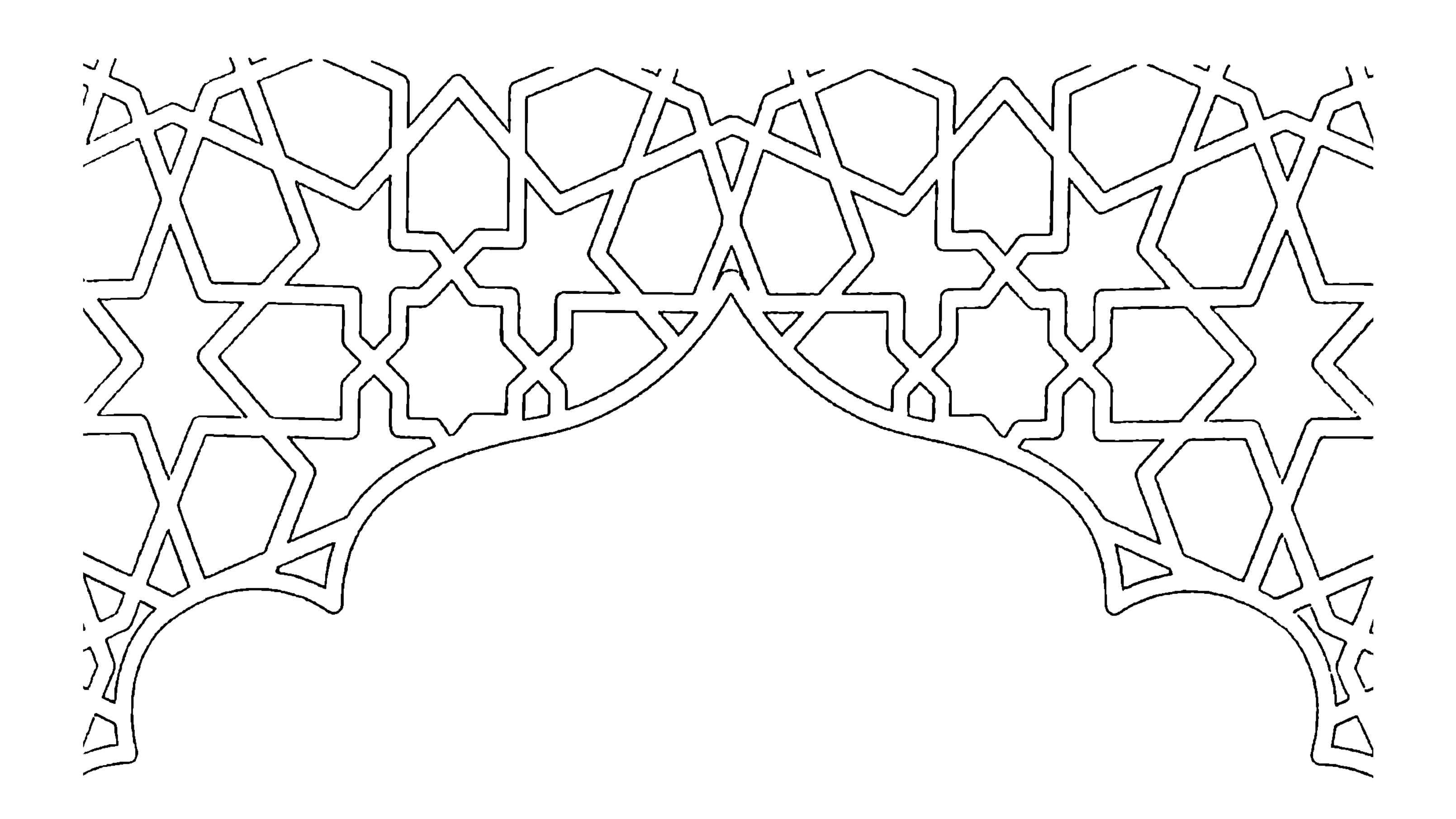
﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تتطلَّع ولا تتمَنَّ ما عند الآخرين من متاع، فنعمةُ القرآن لا تعدِلُها نعمة، ولا يُدانيها متاع.

﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ الذين يحلفون على الباطل وأنهم لن يستجيبوا لدعوة الحقِّ.

﴿عِضِينَ﴾ أجزاء مختلفة يتعامَلُون معها بحسب الهوى والمصلحة العاجلة.

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ هؤلاء صِنفٌ هانَتْ عليهم عقولُهم ونفوسُهم فلا يفكرون بمنطق، ولا يعتبرون بعاقبة، لا يسألون ولا يجادلون، واختاروا طريق السخرية والاستهزاء للتشويش على الدعوة؛ ولذلك تعهَّدَ الله بكفِّهم وإزالَتِهم عن الطريق؛ حتى يتمكَّن رسولُ الله ﷺ من إيصال دعوته للناس وإقامة الحجة عليهم.

وفيه إشارةٌ أن الداعية عليه أن يتجنَّب هذا الصِّنف ولا ينشغِل بهم.



سُورَةُ النَّحْلِ

المجلس الحادي عشر بعد المائة: دلائل التوحيد

المجلس الثاني عشر بعد المائة: عقيدة الجزاء

المجلس الثالث عشر بعد المائة: النبوة والرسالة

المجلس الرابع عشر بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس الخامس عشر بعد المائة: تتمة الحوار مع المشركين

المجلس السادس عشر بعد المائة: بناء المنظومة القِيمَيَّة للمجتمع المسلم

المجلس السابع عشر بعد المائة: تتمة بناء المنظومة القِيمَيَّة للمجتمع المسلم

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

دلائل التوحيد

تستهل السورة بإنذارٍ شديدٍ يقرع الأسماع ويخلع القلوب ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ والغاية جذب انتباه الناس إلى الحقيقة الكبرى التي عليها مدار الدين ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، ثم تشرع السورة بالتقاط الدلائل المبثوثة في هذا الكون والتي لا يمكن إلا أن تكون قد انبثقت من تلكم الحقيقة:

أولًا: خَلْق الإنسان ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ وقد بدأ بخلق الإنسان؛ لأنه أعقل المخلوقات في هذا العالم المنظور عالم الشهادة، فإذا كان الإنسان لا يقوم بنفسه ويحتاج في وجوده إلى مُوجِدٍ فسائر الموجودات من باب أَولَى، والإنسان مُقرٌّ بهذه الحقيقة؛ فلم يظهر من البشر من يدَّعِي أنه خلق نفسه، أو أن وجوده ليس مسبوقًا بالعدم، فضلًا عن أن يكون هو خالق السماوات والأرض.

وإقرارُ الإنسان بهذه الحقيقة يدفعه بالاضطرار لوجود خالقٍ أعلم منه وأقدر، وليس من بين عالم المحسوسات من هو كذلك، ولم يبق أمام الإنسان إذن إلا أن يهبط ليعبد من هو دونه؛ كالشجر والحجر، أو يسمو نحو العلوّ متجهًا بقلبه وعقله إلى العليم الخبير الذي تشهد له آياته في كلّ زاوية من زوايا هذا الخلق.

ثانيًا: خلق الأنعام ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فهي مسخرة لهذا الإنسان وهو لا يستغني عنها بحال، وإذا كان الإنسان لا يدّعي أنه هو الذي خلق لنفسه هذه الأنعام رغم حاجته إليها فلم يبق إلا اعترافه بوجود خالقٍ حكيمٍ أوجد الإنسان وأوجد له مقومات وجوده قبل أن يوجد!

ثالثًا: خلق الماء ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ فالحياة كلها متوقّفة على الماء، والماء قطعًا ليس من صنعة الإنسان، فالذي خلق الإنسان هو الذي خلق له الماء، وهو أعلم به وبحاجته منه.

رابعًا: خلق النبات ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

فانظر لهذا النسق الوظيفي بين الماء والنبات والأنعام والإنسان! هذا النسق الذي لا يمكن أن تستوعبه الصُّدفة العمياء، إن التنسيق بين هذه المفردات ووزنها بالقدر الذي تؤدّي فيه كلّ مفردة وظيفتها حتى تتكامل الحياة وتستمر لا بُدَّ أن يكون وراءه إرادةٌ عالمةٌ

وحكيمةٌ، وعزو كلِّ هذا إلى عشوائيّة الصدفة نوعٌ من المُكابرة أو الحماقة.

خامسًا: خلق الأفلاك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ جانب آخر من النسق، جانب الفلك العلوي الذي يؤثّر في حياة الناس من حيث الضوء والظلمة، والحرارة والبرودة، وأنواع الإشعاع والطاقة، وكلّ هذه يراها الإنسان ويستشعر أهميتها وضرورتها في حياته، وهو غير قادر على التحكم بها، بل تهبِط عليه من عَلٍ، وهذه آية أخرى تشهد بوجود الخالق العظيم الذي أتقَنَ كلّ شيء خلقه.

سادسًا: خلق البحار ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ بعد أن لفت القرآن نظر الإنسان إلى ذلك العالم العلوي، هبط به إلى أعماق البحر لينظُر في آياته، فالبحر مخزنٌ للثروة بأنواعها المعروفة، وهو واسطةٌ للنقل أيسر وأسرع مما هو على الأرض.

سابعًا: بعد هذه السياحة الكونيّة الواسعة، جاء القرآن ليخاطب هذا العقل خطابًا سريعًا ومباشرًا وكأنه يهزّه من داخله ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم يلتفت إلى هذه الآلهة المزيّفة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ فكلّ هذه الأصنام والأوثان مهما اختلفت ألوانها وأشكالها لا يمكن أن تكون هي العلة في إنتاج هذا الكون وتصميمه على هذا النسق البديع.

ثامنًا: من الملاحظ هنا اهتمام القرآن بآيات الجمال والزينة، وهو ارتفاعٌ بمستوى الذوق والسلوك الإنساني في تعامله مع مفردات هذا الكون ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾، ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ ﴾، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا ﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ عذابه الذي كان يستعجل به المشركون عنادًا وتحدّيًا، ولا يبعُد أن يكون الساعة، وهي متضمّنة المعنى الأول أيضًا، وقد كان المشركون يستعجِلُونها كذلك.

﴿خَصِيمٌ﴾ مُجادل.

﴿دِفۡءٌ﴾ ما يتّخِذه الناس من جلود الأنعام وأشعارها وأصوافها وأوبارها من ملابس وأخبية، ومساكن قابلة للنقل.

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وقت رجوعكم بها بعد الرعي إلى حيث المبيت والمأوى.

﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ وقت الرعي.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وعلى الله بيان طريق الحقّ؛ رحمة بعباده، وليقيم به الحجة على من ضل وأنكر.

﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ أي: من السبيل (جنس السبيل) سُبُلٌ وطرق مسدودة لا تصِل إلى الله؛ لأنها ضالة عن طريق الحقّ، ولا يسلكها إلا الضالُّون؛ ولذلك عقَّب: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

﴿تُسِيمُونَ﴾ ترعون أنعامكم.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾، وكذا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾، و﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾ ونحوها إشاراتٌ للدور الوظيفي لهذه المخلوقات، فكلُّها موجودةٌ لغايات محددة تُلبِّي حاجة الإنسان، وتسير بنسقٍ واحدٍ لخدمة الحياة واستمرارها.

﴿ذَرَأَ﴾ خلق.

﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ السمك ونحوه من المأكولات البحرية، وقد جاء بصيغة المدح تنبيهًا لفوائده الصحية.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وضع الجبال للحفاظ على توازن الأرض وصيانتها من الاضطراب.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ معالم الطرق.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعرفون الاتجاهات إذا كانوا في الليل، أما في النهار فمن خلال حركة الشمس مشرقها ومغربها.

﴿لَاجَرَمَ﴾ بمعنى: الحقّ الذي لا بُدَّ منه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

عقيدة الجزاء

بعد هذا الاستدلال المفصَّل لردِّ شُبهة الشرك وإثبات عقيدة التوحيد، انتقل القرآن إلى بيان العقيدة المكمِّلة لعقيدة التوحيد وهي عقيدةُ الجزاء، وهي العقيدة الدافعة للالتزام بمقتضيات التوحيد؛ إذ التوحيد مسؤوليّة وليس فلسفةً نظريّة لحل عقدة الخلق على طريقة الفلاسفة عند ربط العلة بالمعلول، دون الخوض في مسؤوليّة الإنسان تجاه هذا الاستنتاج.

ومن معاني عقيدة الجزاء التي تناوَلَتها هذه الآيات:

أولًا: أن الإنسان يتحمّل مسؤوليّاته كاملةً عن كلِّ معتقدٍ مالَ إليه، أو عملٍ قامَ به، وأن الله لا يظلم في هذا أحدًا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ

سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أما احتِجاجُهم بالقدر وسلب الإرادة منهم على طريقة الجبرية، فهو مردودٌ عليهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ثانيًا: أن الناس وفق هذه العقيدة سينقسمون على قسمين: فريق الموحِّدين المُحسِنين ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وفريق المشركين الظالمين ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

ثالثًا: أن الجزاء في الإسلام جزاء أخروي لا شكَّ، وهو الناموس الذي لا يفلت منه أحد، أما في الدنيا فقد يعجِّل الله بهلاك قومٍ، وقد يؤخِّر آخرين، وقد يموتُ الظالمُ ظالمًا ويموت المظلوم مظلومًا.

ومن صور العذاب الدنيوي: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، ومن صور الثواب الدنيوي: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾.

رابعًا: أن الإنسان كما يُحاسَب على أعماله يُحاسَب أيضًا على أعمال من يضلون بسببه ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾.

وإذا كان هذا في ميزان الضلال والإضلال فهو كذلك في ميزان الهداية لازمًا ومتعديًا، فداعية الخير يضاعف له بقدر ما انتشر خيره بين الناس، كما جاء في الحديث: «**الدَّالُّ عَلَى**

الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[1].

دقائق التفسير

﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حجةٍ ولا دليلٍ.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾ قصده بالخراب، وهو عامٌ في الأمم الهالكة، الذين استحقوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقد ذهب بعض المفسرين إلى تخصيصه في النمرود أو غيره ولا دليل عليه.

﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ من الأُسس.

﴿تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تخاصمون فيهم وتدافعون عنهم.

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ استسلموا وألقوا قيادهم.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إشارة إلى أن التكبّر أصل في الضلال والانحراف عن جادة الحقّ.

﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ هم المؤمنون الذين يعتقدون أن الخير كلّ الخير في هذا الدين، فانشرحت له صدورهم ودانت له أركانهم، وعلى هذا يخشى على كلّ من تبرّم من حُكمٍ شرعيٍّ قاطعٍ أن يكون على خلاف هذه الآية وإن صام وصلّى.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ﴾ ما يجده المؤمن في هذه الدنيا من سكينةٍ وتأييدٍ

---

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذيُّ عن أنس، وقال: غريب، يُنظر: «جامع الترمذي» (٥/ ٤١/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، ورواه أحمد عن بُرَيدة، وصحّح إسنادَه الشيخ شعيب الأرناؤوط، يُنظر: «مسند أحمد» (٥/ ٣٥٧/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ تصحيح محمد الزهري الغمراوي)، وورد بلفظِ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» رواه أبو داود عن أبي مسعودٍ الأنصاريّ، يُنظر: «سنن أبي داود» (٤/ ٤٩٦/ دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٧/ دار البشائر الإسلامية، ط. ٣، ١٤٠٩- ١٩٨٩م، تح محمد فؤاد عبد الباقي) عنه أيضًا.

رباني، وألفةٍ ومحبةٍ بين إخوانه.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لمعنى العدل الإلهي ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

﴿أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ بقيام الساعة أو الهلاك الذي يعمهم كما كان في الأمم السابقة.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ تأكيدٌ متكرر لمبدأ العدل الإلهي.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

النبوة والرسالة

بعد بيان عقيدة التوحيد ثم عقيدة الجزاء شرع القرآن في بيان الركن الثالث وهو الإيمان بالرسل وبيان أهميته وموقعه في منظومة الإيمان هذه:

أولًا: أن الله بعث في كلّ أمةٍ رسولًا؛ إذ الحجة لا تقوم إلا بالرسول الذي يبلِّغ الناسَ رسالة الله، ويبيِّن لهم طريقَ الحقّ من طريق الضلال ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا** ﴾.

ثانيًا: أن الرسلَ من جنس البشر، ومحكومون بالناموس الذي يحكم الطبيعة البشريَّة، وإنما يمتازون بالوحي ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ** ۚ﴾.

ثالثًا: أن وظيفة الرسول تبليغ الرسالة وشرحها وتبيينها بالقول والعمل والقدوة الصالحة ﴿ **بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾.

رابعًا: أن الرسول لا يتحكم بقلوب الناس ولا يملك هدايتهم، إذ الهداية بيد الله وحده، وهي جارية وفق سننه ونواميسه العادلة والحاكمة ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

خامسًا: أن أساس الرسالة إنما هو توحيد الله ومحاربة الشرك بأصنافه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾.

سادسًا: أن الناس منقسمون في هذه الدعوة على فريقين ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾؛ فالأولون يستحقون ثواب الله وكرمه ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، وأما الآخرون فلهم العذاب ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ كلّ معبودٍ من دون الله.

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ بسعيه لها وإصراره عليها.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ في الآخرة؛ حيث سيتبيّنُ الجميعُ من الذي كان على الحقّ ومن الذي كان على الباطل، وهذا التبيين لا ينفع المكذّبين، بخلاف تبيين الرسل الذي كان في دار التكليف.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ المكان الآمن الطيّب وهو هنا مدينة الرسول ﷺ.

﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ أهل الكتب المتقدمة؛ فهم يشهدون أن الرسل إنما كانوا رجالًا من جنس البشر، بمعنى أنهم لم يكونوا ملائكةً كما يطلب المشركون.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ بالسنّة القوليّة والفعليّة وبسيرته العطرة ﷺ.

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في ذهابهم وإيابهم وترددهم في معايشهم وأماكن لهوهم، بمعنى أنهم يكونون في حال أمنهم.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بمعجزين الله، فهو القادر على إهلاكهم في الوقت الذي يشاء.

﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وهم على حالةٍ من الخوف وترقّب العذاب، بخلاف الحالة الأولى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

حوار مع المشركين

بعد بيان العقيدة بأركانها الأساس: التوحيد، والمَعَاد، والنُّبوة؛ شرَعَ القرآن بمحاورة المشركين ودعوتهم لمراجعة موقفهم من هذه الدعوة المباركة:

أولًا: بدأ القرآن بالتذكير أنّ هذا الكون كلّه خاضِعٌ لله بحكم ربوبيته تعالى المطلقة، ويشهد لهذا النظامُ الموحّدُ الذي ينتظم مفردات هذا الكون كلها، كما مرّ في بداية السورة، يقول القرآن هنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثانيًا: ثم شرَعَ يُؤكّد ويُقرّر عقيدةَ التوحيد بطريقةٍ حاسمةٍ وقاطعةٍ: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا

تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾.

ثالثًا: ثم ذكَّرهم بنعم الله عليهم: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ أجمَل هنا النعمة ثمّ فصّلها فيها بعد كما سيأتي في المجلس التالي.

رابعًا: نبّههم إلى فطرتهم الناطقة بالتوحيد ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾.

خامسًا: عرض عليهم نماذج من السلوك الخاطئ المعبّر عن جهلهم وتخبطهم وضلالهم ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴾ حيث كانوا يُقدِّمون النذور والقرابين للأصنام التي صنعوها بأيديهم! ثم قالوا في الملائكة أنهم بنات الله، تعالى الله عن شِركهم وجهلهم ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ مع أنهم كانوا يتبرمون بالبنات ويعلنون سخطهم إذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾.

والقرآن هنا كأنه يقول لهم: إذا كانت البنت بهذا السوء، فكيف تنسِبُونها إلى الله، وهو الذي على كلّ شيءٍ قدير، وبكلّ شيءٍ عليم؟! والقصد هنا بيانُ أثر عقيدة الشرك الفاسدة في تصوُّراتهم وسلوكيّاتهم.

سادسًا: نبّههم إلى أنهم أمام طريقَين وهم يتحملون مسؤوليّة اختيارهم، طريق الحقّ والرحمة والصراط المستقيم المنسجم مع فطرة الإنسان وعقله، وهو المبيّن في الكتاب والسنّة ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾، وأما الطريق الآخر فهو طريق الشيطان ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

سابعًا: حذّرهم من عقاب الله، وأنه آتٍ لا محالة في الأجل المسمّى عنده إن هم أصروا

على كفرهم وظلمهم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فهذا الأجل من رحمة الله بهم لعلّهم يتذكَّرون ويرجعون.

دقائق التفسير

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ بحسب حركة ضوء الشمس.

﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ خاضعون لسنن الله الحاكمة في هذا الكون.

﴿دَآبَّةٍ﴾ كلّ كائنٍ حيٍّ يتحرك على الأرض، عاقل أو غير عاقل.

﴿وَاصِبًا﴾ دائمًا.

﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ كناية عن شدّة الحزن والانقباض.

﴿كَظِيمٌ﴾ يكظم حزنه ولا يتحدث به.

﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يستخفي عنهم خجلًا مما أصابه!

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يُبقي بنته حية مع الشعور الدائم بالذُّل والهوان!

﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ يدفنها!

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المكانة الحسنة عند الله، بمعنى أنهم يقولون حتى لو كانت هناك آخرة فلا بُدّ أنّ لهم الجنة فيها؛ لأنهم السادات والأشراف، بخلاف الفقراء والعبيد!؛ ولذلك ردّ الله عليهم: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

﴿مُّفْرَطُونَ﴾ مُقدَّمون إليها، أي: النار، والعياذ بالله.

﴿ تَٱللَّهِ﴾ أسلوب قسَم مثل: والله.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٍ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـًٔا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

تتمة الحوار مع المشركين

يستمر القرآن في هذا المقطع بمحاورة المشركين مُفصِّلًا ومُتمِّمًا لما بدأ به في المقطع السابق:

ثامنًا: فصّل القرآن في هذا المقطع ما أجمله من النعم هناك، مذكّرا بنعمة الماء وما تستتبعُه من إحياء الأرض ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، ثم ذكّر بالأنعام وما فيها من منافع ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ثم النباتات بأنواعها ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

ثم وفي الْتِفاتة عزيزة ودقيقة، ذكَر النحل وما يُنتِجُه من شفاء للناس ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، ثم ذكر الطيور المسخّرات في جوّ السماء ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ثم ذكر المساكن بأنواعها وما فيها من متاعٍ وأثاثٍ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، ثم ذكر الملابس والدروع ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، وختم كلّ هذا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ بمعنى أن الذي يفكِّر بهذا النسق من النعم المنظومة والمتكاملة لا بُدّ أن يقوده تفكيره إلى الاستسلام والإذعان بوجود خالقٍ قادرٍ وعليمٍ وحكيمٍ سبحانه وجلَّ شأنه.

تاسعًا: أضاف في هذه الآيات معاني جديدة متصلة بخلق الإنسان وحياته الاجتماعيّة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وهذه آية أخرى على وجود

الخالق ﷻ، فالتكامل بين الذكر والأنثى لاستقرار العيش واستمرار الحياة لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العابثة، فأثر القصد ظاهر في هذا التنوّع، وقطعًا ليس الذكَر هو من صنع لنفسه الأنثى، وليست الأنثى هي من صنعت لنفسها الذكر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

عاشرًا: ربط القرآن كلّ هذه النعم بنعمة العقل والنظر والتفكّر؛ ولذلك تكرر في ثنايا هذه النعم قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فدلائل التوحيد قائمة وشاخصة في كلّ نعمة من هذه النعم، ولكنها بحاجة إلى الإنسان الذي يُعمل عقله ويفتح منافذ المعرفة عنده، وقد زوّد الله هذا الإنسان بأدوات المعرفة المتكاملة فلا عذر لمعتذر ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

حادي عشر: أكّد لهم أن أصنامَهم التي يعبُدُونها من دون الله لا تستطيع أن تخلُق كهذا الخلق، ولا أن تُقدِّم لهم شيئًا ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وقد استعمل القرآن لتجْلية هذه الحقيقة أسلوبَ التمثيل بما هو معهُودٌ عندهم، فقارَنَ أولًا بين العبد المملوك الذي لا يملك شيئًا وبين الحُرِّ الذي يملك وينفق مما يملك، ثم قارن بين رجلٍ أبكم لا يقدر على الكلام وبين آخر متكلمٍ عالمٍ يأمر بالعدل والمعروف، ولا يخفى أن هذا تقريب للصورة، فأصنامهم مخلوقة مملوكة وهي بكماء صماء عمياء لا تعرف معروفًا، ولا تنكر منكرًا، فكيف تكون هذه ندًّا لله العليم الحليم الكريم السميع البصير؟!

وسياقُ الآيات يدلُّ على أن التمثيل جاء في سياق بيان بطلان عقيدة الشرك، وأن هذه الأصنام عاجزة وجاهلة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ وأما قول من قال: إن التمثيل جاء لبيان الفارق بين المؤمن والكافر، فظاهر السياق لا يسعفه، والله أعلم.

ثاني عشر: أكّد لهم أن عنادهم هذا سينتهي إلى لحظةِ ندمٍ قاسية، ولاتَ ساعةَ مَنْدَمٍ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ﴾.

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ إشارة إلى العمليّة المعقّدة التي يتحوّل فيها جزء من علف الحيوان إلى لبنٍ سائغٍ وخالٍ من الشوائب، والفرث: بقايا العَلَف الموجود في الجهاز الهضمي للحيوان.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ خمرًا، وليس في هذا إقرارٌ بإباحَتِها؛ إذ المقام مقام تعداد الدلائل على وحدانيّة الخالق وليس مقام تشريع، خاصة أن سورة النحل سورة مكيّة، كأنه يقول لهم: هذه الخَمرة التي تتمتعون بها إنما تتخذونها من النخيل والأعناب التي أخرجها الله لكم، وهناك إشارة يلتقطها النبيه أن هذه الخمرة ليست شيئًا حسنًا؛ لأنه عطَفَ علَيها الرزقَ الحسنَ ﴿سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ فهذا تمييزٌ للحسن عن غيره، والله أعلم.

﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ إيحاءً خلقيًّا فطريًّا؛ أي: أنه سبحانه جعل في فِطرتها وطبيعتها هذا التوجُّه.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ قد تكون فيه إشارة أن أفضل العسل ما كان على الجبال، ثم ما كان على الأشجار، ثم ما كان في المناحل التي يصنعها الناس، وهذا كلامٌ شائعٌ عند أهل الصنعة، والله أعلم.

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ الطرق التي يهتدي بها النحل إلى غذائه ثم العودة إلى مساكنه، وفي هذا من الآيات ما لا يخفى، وقد اكتشف العلم الحديث قُدُرات عجيبة للنحل لا يتسع المجال لذكرها.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ هو العسل، والذي لا زال التداوي به يشهد اتساعًا، وصار يدخل في كثيرٍ من الأدوية الحديثة المصنّعة على أعلى مقاييس الجودة والإتقان العلمي.

﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ النسيان وفقدان الذاكرة، وهو عَرَضٌ من أعراض الشيخوخة.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ يعني: أن أغنياءكم لا يرضون أن يتساووا مع عبيدهم فيردوا عليهم فضل رزقهم، فكيف إذن تساوون بين الله الذي خلق الخلق ورزقهم وبين هذه المخلوقات التي لا تقوم بنفسها ولا ترزق غيرها؟

﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ لا تساووه بخلقه.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ رحيلكم.

﴿أَصْوَافِهَا﴾ أصواف الضأن.

﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أوبار الإبل.

﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ أشعار الماعز.

﴿أَكْنَٰنًا﴾ ما يستكن به مثل الكهوف وغيرها، أو ما يؤخذ من الجبال من صخورٍ ومعادن تستعمل اليوم في البناء، والله أعلم.

﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي: والبرد؛ لتلازمه مع الحر في الذهن، والسرابيل الثياب.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ﴾ الدروع التي تلبس في الحروب.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ هو نبيهم الذي سيشهد لهم أو عليهم في ذلك اليوم المشهود.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يطلب منهم الاعتذار في مقابل الرضا والعفو عنهم.

﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: أن آلهتهم المُزيَّفَة تردُّ عليهم وتقول لهم: كذَبتم ما نحن دعوناكم لعبادتنا.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾

بناء المنظومة القيَميَّة للمجتمع المسلم

المنظومة القِيَميَّة هي مجموعة المعايير الحاكمة على سلوك الأفراد والجماعات، والتي تشكل الرأي العام في المجتمع؛ بحيث نستطيع دون اللجوء إلى المختصّين من قُضاة ومُفتين وخبراء أن نميّز المقبول من غيره في تصرُّفات الناس وعاداتهم وعلاقاتهم، والسورة التي

وضعت الأسس الكبرى لمنظومة القيم الإسلاميّة هي سورة الفاتحة، وكلّ سورة تناولت القيم إنما هي تبني على تلك الأسس وتُفصّل وتبيّن، وفي هذا الدرس وما بعده سنستخلص أبرز القيم التي تناولتها هذه الآيات وبحسب ترتيبها القرآني:

١ - الشموليّة ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فالإسلام يغطي أحوال المكلفين واحتياجاتهم النظريّة والعمليّة ولا يُحْوِجهم إلى غيره.

٢ - الهدى ﴿وَهُدًى﴾ وهو تأكيدٌ لقوله في الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

٣- الرحمة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وهي القيمة التي تكررت في الفاتحة أربع مراتٍ بتكرار اسميْ الله؛ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

٤ - البشارة ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فالإسلام دين التبشير لا التنفير.

٥ - العدل ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ وهو من لوازم ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي ليس فيه اعوجاج أو ظلم.

٦- الإحسان ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ وهو متضمن معنى الإتقان ودقة العمل لمحل المراقبة الذاتية «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[٢].

٧- صلة الرحم ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

٨- النهي عن المنكر بأنواعه ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾.

٩- الوفاء بالعهد ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

---

(٢) جزءٌ من حديث جبريل المعروف، وهو حديثٌ مُتفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٧٩٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ٣٠/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين)، وانفرد مسلم (١/ ٢٨، ٢٩) بروايته من حديث عُمر بن الخطاب ﷺ.

١٠ - أمانة الدين والعلم ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ ﴾.

١١ - الصبر ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

١٢ - العمل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ ﴾.

١٣ - تجنُّب طريق الشيطان ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

١٤ - التوكُّل المقرُون بالعمل ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

١٥ - الثبات ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

١٦ - البيان والوضوح ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

١٧ - الصدق ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه الناس من عقائد وشرائع.

﴿ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ صلة الرحم.

﴿ وَٱلْبَغْىِ ۚ ﴾ العدوان.

﴿ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ جمع يمين، وهو الحلِف بالله.

﴿ أَنكَٰثًا ﴾ جمع نِكْث، وهو النقض.

﴿ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ خيانة بعضكم بعضًا.

﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ ﴾ ذكر سببًا من أسباب نقض العهود، وهو أن يُبْرَم حِلْف وميثاق جديد مع جماعة أكثر عددًا وأقوى شوكة من صاحبة الميثاق الأول فتشترط الثانية إبطال الأول، وهذا شائعٌ في الأعمال السياسيّة والتحالفات التجاريّة.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ اتِّهامُ المشركين لرسول الله ﷺ بالكذب على الله - حاشَاه - حينما ينزل تشريعٌ جديدٌ فيه إضافة أو تعديل أو تدرُّج بما تقتَضِيه حركة المجتمع المسلم إبَّان التشريع.

﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ﴾ أن قريشًا كانت تتهم النبيَّ ﷺ أنّه أخذ القرآن عن رجلٍ معروف عندهم وهو من العَجَم، أي: لم يكن عربيًّا، و﴿يُلۡحِدُونَ﴾ هنا معناها: يَمِيلُون بالتهمة إليه.

المجلس السابع عشر بعد المائة | **سُورَةُ النَّحْلِ** | **من الآية ١٠٦ - ١٢٨**

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْءَاخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَٰقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

تتمة بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم

وهذا الدرس تتمّة لما قبله:

١٨ - الطمأنينة ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ﴾.

١٩- إيثار الدار الآخرة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٠- اليقظة وعدم الغفلة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

٢١- الهجرة، متى دعت الحاجة إليها لحفظ الدين ومقاصده الكبرى.

٢٢- الجهاد ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٣- تحمل المسؤوليّة ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٢٤- شكر النعمة وعدم الكفر بها ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٢٥- الكفاية وسدّ الحاجات المختلفة ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

٢٦- الأمن، وقد جعل الله الجوع والخوف عقوبة الظالمين ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾.

٢٧- التوبة والمراجعة والإصلاح ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٨- الهمّة العالية ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

٢٩- التوحيد ونبذ الشرك ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٣٠- الحكمة ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾.

٣١- الموعظة الحسنة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾.

٣٢- الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

٣٣- التمايز عن الضالّين والمنحرفين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ وهو تأكيدٌ لما ورد في الفاتحة.

٣٤- القصاص العادل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ والصبر والعفو أفضل من القصاص في كثيرٍ من الحالات ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾.

٣٥- انشراح الصدر وتنقيته من الحزن والضيق ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

٣٦- التقوى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ والتقوى هي الخوف من الله، والحذر من عقوبته، إنها الرقابة الذاتيّة التي يصنعها الإيمان.

دقائق التفسير

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ رخصة في التلفظ بكلمة الكفر بشرطين: وجود إكراهٍ بالقتل أو الضرر الشديد الذي لا يمكن تحمله أو دفعه، ووجود طمأنينة إيمانيّة راسخة في القلب، وبهذين الشرطين امتازت هذه الرخصة عن مسمى التقيّة عند الشيعة، التي هي أقرب للنفاق والمجاملة المفتوحة لأدنى غرض أو مصلحة، ومعلوم أن هذه الرخصة نزلت بحقّ سيدنا عمار بن ياسر ﵁، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ختم عليها بظلمهم وسفههم فلا تكاد تفقه شيئًا.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ فتنهم المشركون عن دينهم.

﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ كناية عن الجوع العام الذي يكسو البلدة كلّها.

﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أكل الميتة، ويلحق به كلّ استعمالٍ محرّمٍ على خلافٍ معروفٍ في كتب الفقه.

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ ذكر الجزء وأراد الكل؛ إذ ليس في الخنزير شيء يؤكل لا لحمه ولا شحمه، ويلحق بالأكل كلّ استعمالٍ محرّمٍ، ومحل هذه المسألة الفقهيّة كتب الفقه.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ القرابين والنذور التي تقدم لغير الله كالأوثان والقبور وغيرها.

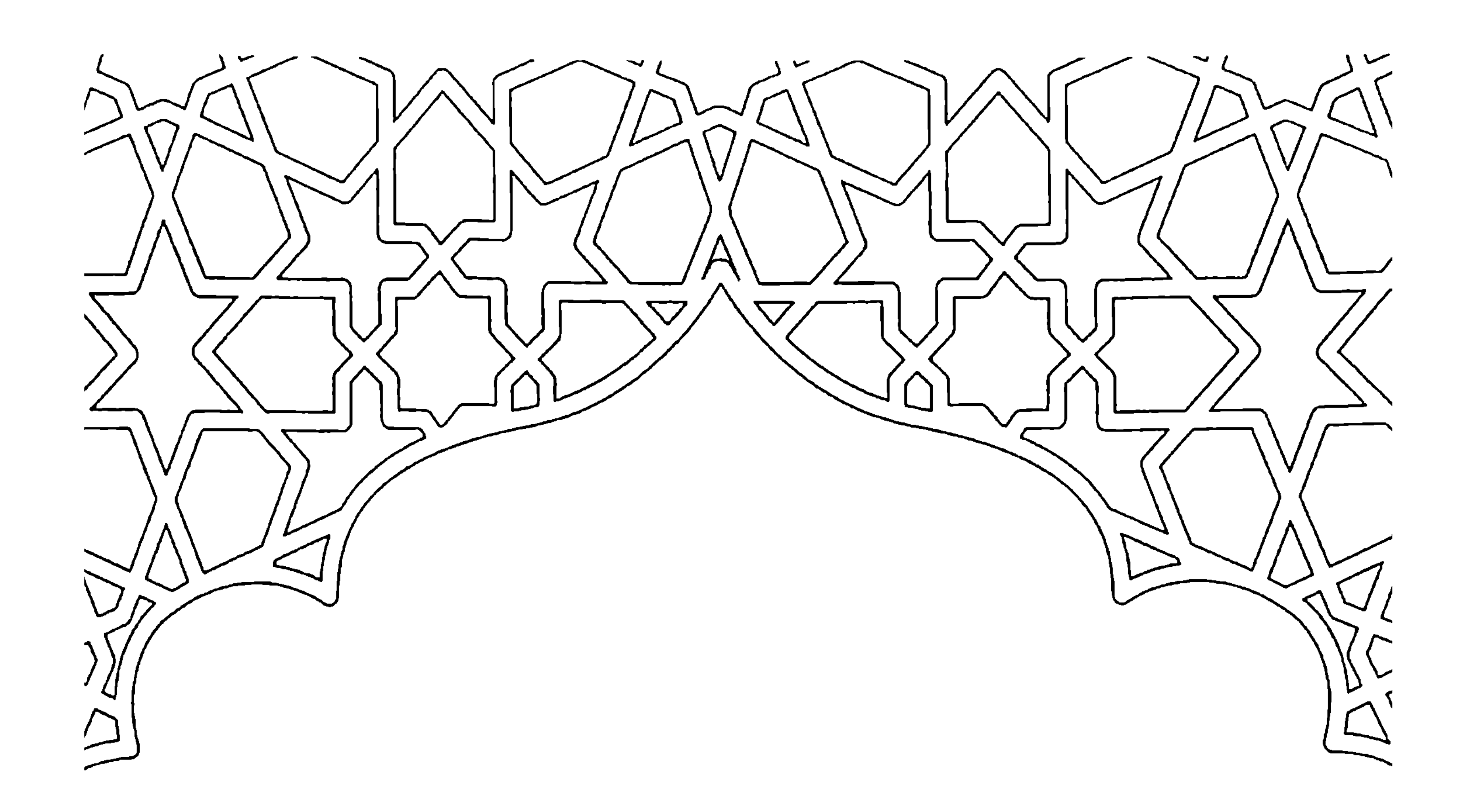
﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ اضطرارًا لشدة الجوع من غير قصدٍ للمعصية ولا إسرافٍ فيها فوق ما يدفع الضرر.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بهمّته، وحرصه على هداية الأمة، وانتشالها من مستنقعات الجهل والشرك والظلم، وهو بهذا إمامٌ وقدوةٌ للناس عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ تنويه بأهميّة التمايز عن اليهود، فنحن لنا الجمعة، وقد جعل الله لليهود السبت، وشدد عليهم فيه بسبب اختلافهم على نبيهم موسى ﷺ، وقد جاء هذا التنويه بعد قوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ لكي لا يظنَّ ظانٌّ أن تعظيمَ السبت كان من مِلَّة إبراهيم ﷺ.

﴿ضَيْقٍ﴾ الغم والكرب.

يمكن القول في ختام هذه القراءة أن هذه السورة المباركة هي سورة النِّعَم والقِيَم، وأنها صورة مركَّزة لما ينبغي أن تكون عليه حياة المسلمين.



سورة الإسراء

المجلس الثامن عشر بعد المائة: المسجد الأقصى

المجلس التاسع عشر بعد المائة: المسؤولية الشخصية

المجلس العشرون بعد المائة: بناء المجتمع المسلم

المجلس الحادي والعشرون بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس الثاني والعشرون بعد المائة: معركة الإنسان مع الشيطان

المجلس الثالث والعشرون بعد المائة: معركة الحق والباطل

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

المسجد الأقصى

تستهلُّ هذه السورة بقصة الإسراء التي كانت لرسولنا ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ثم يأتي التركيز على المسجد الأقصى؛ إعلاءً لشأنه، وتنبيهًا لما يتعرَّض له على مَرِّ الأيام، وكما يأتي:

أولًا: الربط القرآني بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وأن عُقدة الربط: نبيُّنا الكريم ﷺ، وهذا إعلانٌ قطعيٌّ بإسلاميَّة المسجد الأقصى، ومسؤوليَّة الأمَّة كلِّها في إعماره وصيانته وحمايته، تجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ هذا الربط جاء مُبكرًا قبل الهجرة، بمعنى أن صلةَ الأقصى بالمسجد الحرام أقدمُ من صلته بالمسجد النبوي.

ثانيًا: أنَّ الأرض التي فيها المسجد أرضٌ مُباركة ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، وهذا تأكيدٌ آخر لأهمية هذا المسجد ومسؤولية الأمة تجاهه.

ثالثًا: مع أنَّ اليهود لم يكن لهم شأنٌ أيام البعثة النبوية في المسجد الأقصى - حيث كانت فلسطين والشام كلها تخضع لحكم النصارى البيزنطيين -، إلا أن القرآن أغفَلَ ذكرَ البيزنطيين

هؤلاء تمامًا، وركَّز القولَ في بني إسرائيل؛ حيث جاءت الآيات عن تاريخ بني إسرائيل مُباشرة بعد ذكر الأقصى! وهذا تنبيهٌ لما يُستقبَل، وأثر الإعجاز الغيبيِّ فيه واضِحٌ.

رابعًا: أن بني إسرائيل كتَبَ الله لهم العلُوَّ في هذه الأرض مرتَين ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، أما المرة الأولى فتنتهي بأن يُسلِّطَ الله عليهم عِبادًا له أُولِي بأسٍ شديدٍ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فإذا عاد بنو إسرائيل في كرَّتِهم الثانية إلى علُوِّهم وفسادِهم، سلَّطَ الله عليهم عِبادَه أولئك مرَّة ثانية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وفي هذا بيان أنَّ المسجد هو محور الصراع بين الفريقَين، وأن القوم الذين دخَلُوه في المرَّة الأولى سيدخلونه في المرَّة الثانية، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ نسَبَ الفعلَ إلى الله، ووصف النبي ﷺ بالعبد؛ إذ ليس في هذا الإسراء سببٌ من أسباب المادة التي هي بمقدُور البشر.

وأعجَبُ ممن يَرُومُ تأويلَه على غير حقيقته، مع أنَّ في القرآن ما هو أعجَبُ؛ كنقل عرش بلقيس من سبأ إلى بيت المقدس، مع أنَّ الذي عنده عِلم الكتاب نسَبَ الفعلَ لنفسه، فقال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]، والمسافةُ أيضًا أبعَد، والمنقول أثقَلُ وأعسَرُ في النَّقل.

فالصحيحُ: أنَّ الإسراء كان بالروح والجسد، وهو أمرٌ خارِقٌ للعادة - دون ريب -، وأسرَى مِن سَرَى، والسُّرَى: السَّيْرُ ليلًا.

﴿ٱلْأَقْصَا﴾ الأبعَدُ مسافةً عن المسجد الحرام، وهو المسجد الثاني الذي بناه سيدنا إبراهيم ﷺ بعد الكعبة، وقد جاء في «البخاري» وغيره عن أبي ذر: قُلتُ: يا رسول الله! أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أول؟ قال: «**المَسْجِدُ الحَرَامُ**»، قُلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**المَسْجِدُ الأَقْصَى**»، قُلتُ: كَم

بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[1].

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ علّةُ الإسراء: أن يرى محمدٌ ﷺ آياتِ الله التي هي في عالم الغَيب بالنسبة لنا، وقد جاء ذِكرُ هذه الآيات في أحاديث الإسراء والمعراج مع إشارات سريعة في مواضع أخرى من القرآن، كما في سورة النجم، أما وجه كونها علّة، فلا يبدو للناظر سِوَى التثبيت، لكن الجزمُ به والقَصرُ عليه بحاجةٍ إلى دليلٍ من الغَيبِ، وعلاقةُ الرُّسُل ﷺ بالسماء أوسَع من أنْ يحُدَّها نظرٌ، والله أعلم.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ نداءٌ فيه شيءٌ من اللوم والعتب؛ لأن الذين نجَّاهم الله مع نوح ﷺ كانوا من المؤمنين، فلا ينبغي لهم النكوص والنكران.

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ الظاهرُ مِن الأخبار أنهما قد حصَلَتا بالفعل، إما أن تكون كلاهما على يد البابليِّين بقيادة سنحاريب، ثم بُختنصَّر، وهذا الأوفَقُ للسياق، وإما أن تكون الأولى على يد بُختنصَّر وما عُرف بالسَّبْي البابِلِي، والثانية بعد أن أرجَعَهم كُورش ملك فارس، وأعادَ لهم مُلكَهم، فسلَّط الله عليهم الرومان.

﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾ هم أهلُ بابِل، والإضافةُ ليسَت للتشريف، وإنما للاختصاص، بقرينة قوله: ﴿بَعَثۡنَا﴾.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ طافُوا بها بأمان دون مقاومة منكم.

﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بمُعاونة الفرس الذين هدُّوا مملكةَ بابِل، وأعادوا مُلك بني إسرائيل.

﴿أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾ حشدًا للقتال.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المرَّة الثانية من الإفساد.

---

(١) الحديث متفق عليه عن أبي ذر الغفاري ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢٣١/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠١ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٢/ ٦٣/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ يغزُونكم مرَّة ثانية فيحصُل لكم السوء والمهانة.

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دلالةً على أن البابليِّين دخلوا المسجد من قَبل.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ يُدمِّرون كلَّ شيءٍ ظهروا عليه وتمكَّنُوا منه.

وهنا إشكالٌ؛ فالمعروف أن البابليِّين هم من دمَّر مملكةَ إسرائيل أولًا، وفي المرَّة الثانية كان التدمير على يد الرومان، والآيةُ تُشيرُ إلى أنَّ التدميرَ في المرَّتَين كان مِن جهةٍ واحدةٍ، ومِن قومٍ مُعيّنين، ولَيسَا مِن قومَين مُختلِفَين؛ فإما أن تكون المرَّة الأولى على يد سنحاريب، والثانية على يد بُختنصَّر أو (نبوخذنصَّر)، وكلاهما من أرض بابِل، فينتَظِمُ الكلام، وإما أن يكون عَودُ الضمير على الاسم دون المسمَّى، كما تقول: عِندِي دِرهَم ونِصفُه، أي: نِصفُ دِرهَم آخر؛ إذ تسليطُ الرومان عليهم هو كتسليطِ البابليِّين، فكلاهما مبعُوثٌ مِن الله لتأديب بني إسرائيل، والتخريجُ الأولُ أوفَقُ للسياق، وعليه يكون غَزوُ الرومان وما بعده لا صلَةَ له بالمرَّتَين المنصُوص عليهما في القرآن، وإنما كلُّ هذا يدخُلُ في الإنذار المستمر والمتكرر: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

المسؤولية الشخصية

كلُّ امرئٍ مسؤولٌ عن أفعاله وتصرُّفاته، هذه القاعدةُ التي يُؤكِّدُها القرآنُ في مواضع كثيرة، مِن شأنها أن تُنمِّي في النفس حِسَّ المسؤولية والمراقبة الذاتية، وفي هذه المجموعة من الآيات ترسيخٌ لهذه القاعدة، وشرحٌ للمعاني والأبعاد المُتعلِّقة بها:

أولًا: يُؤكِّدُ القرآنُ أولًا أنَّ طريقَ الحقِّ واضح، وأنه لا عُذر للإنسان في جهله أو الابتعاد عنه ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾، وأنَّ اللهَ لا يُحاسِب أحدًا لم تبلُغه هذه الدعوة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

ثانيًا: أنَّ الإنسان إنما يعملُ لنفسِهِ خيرًا أو شرًّا، هدايةً أو ضَلالًا ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، وأنَّ كلَّ أعماله هذه تُحصَى عليه صغيرها وكبيرها ﴿وَكُلَّ

إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

ثالثًا: أنَّ المُهتَدِي ينتظِرُ ثوابَ ما بُشِّر به، والضالُّ ينتظِرُ عِقابَ ما أُنذِر به ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

رابعًا: أنَّ الإنسان لا يتحمَّل ذنبَ غيره مهما كانت صلة القرابة أو الصداقة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فكلُّ إنسان مسؤولٌ عما قدَّم خيرًا أو شرًّا.

خامسًا: أنَّ اللهَ وضَعَ السُّننَ العادلةَ التي تُيسِّرُ للإنسان الوصولَ إلى ما يُريد، وهذا مِن مُتطلَّبات الاختبار الحقِّ الذي ليس فيه غَبنٌ ولا مُحاباة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾.

سادسًا: أنَّ هذه المسؤولية الدينية لا تسلب الإنسانَ من حياته الدنيوية، وحاجاته الجسدية والمادية ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ للطريقة الأحسن والأعدل.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يدعو على نفسه عند غضبه وفوات بعض مصالحه بالشرِّ كما كان يدعو لنفسه بالخير؛ وذلك لأنه قليلُ الصبر.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ المَحوُ هنا بمعنى: الطَّمس، أي: طمَسنَا الليلَ بظُلمته، فلا تظهر فيه الأشياء.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ بضياء الشمس، فتنكَشِفُ الأشياءُ أمام البصر، حتى يتمكَّن الناسُ من العمل وطلب الرزق ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: بتعاقب الليل والنهار، وفيه إشارةٌ إلى أن الأخذ بالحساب الفلكي مطلوبٌ شرعًا، ومُرغَّبٌ فيه؛ لما في التعليل بعُمومه من المِنَّة الظاهرة، والله أعلم.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ الطائر هنا مُفسَّرٌ بما بعده: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾، وهو كتابُ الأعمال الذي يُحصِي على المُكلَّف كلَّ حسنةٍ وكلَّ سيئةٍ.

وقال: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ مع أن الكتب تُؤخَذ بالأيمان أو الشمائل؛ تأكيدًا لمعنى تعلُّق الذمة والمسؤولية، على عادة العرب في قولهم: في رقبتي، أي: في ذمَّتي وعهدي.

وإطلاق الطائر على كتاب الأعمال؛ لأن العرب كانت تتيامَن أو تتشاءَم بحركة الطير يمينًا أو شمالًا، فكأنَّه يقول لهم: إنَّ يُمنكم الحقُّ وشُؤمَكم الحقُّ ليس في ذلك الطائر، وإنما في ما تُقدِّمون من عملٍ، وهو نظيرُ قوله ﷺ في الحديث: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»[1].

فالدهرُ ليس هو الذي يُقدِّرُ آجالكم وأرزاقكم التي تتبرَّمُون بها، وإنما هو الله خالِقُ الدهر، والدهرُ ليس اسمًا لله.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفسٌ آثمة إثمَ نفسٍ أخرى.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ بحيث تصِل دعوتُه إلى المُكلَّف، فإن لم تصِل إليه لتباعُد الأصقاع، وتباعُد الأزمان، فهو كحالِ مَن عدمت فيهم الرسالة، والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ، ينظر: صحيح مسلم (٧/ ٤٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين)، وهو عند البخاري بمعناه، وقد بوَّب بابًا سمَّاه (لاتسبُّوا الدهر) وساقَ حديثًا قُدسيًّا بهذا المعنى، وهو عن أبي هريرة أيضًا، ولفظه: «**قَالَ اللهُ: يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**»، ينظر: صحيح البخاري (٥/ ٢٢٨٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ المُنعَّمِين فيها أهل التَّرَف، والمقصودُ بهم هنا: ذَوُو الجاه والتأثير في مُجتمعاتهم، وإلا فأمرُ الله واحدٌ لجميع عِباده يأمُرُهم بالطاعة، لكن هؤلاء المُترَفين يأبَون ذلك في حقِّ أنفسهم، وفي حقِّ أتباعهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ أي: مَن كان همُّه الدنيا دون الآخرة أعطاه الله من الدنيا على وفق جهده وكَدِّه لا يُظلم في ذلك، وهذا مِن سُنَنه تعالى ومشيئته العادلة، وبهذا نرى الكافر الذي يأخذ بأسباب القوة والعلم والرزق يصِل إلى ما يُريد، بخلاف الجاهل العاجز ولو كان مسلمًا.

﴿مَّدۡحُورًا﴾ مطرودًا من رحمة الله.

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الطائعين والعاصين، ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ من رزقه في هذه الحياة على وفق سُننه تعالى الحاكمة والعادلة.

﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ كأنَّ المؤمن الموحِّد يرتَقِي بإيمانه، والمشرك يقعُد ويلتصق بالأرض مذمومًا ومخذولًا بلا ناصر ينصره، أو مُعين يُعينُه.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

بناء المجتمع المسلم

في هذه المجموعة من الآيات يعرض القرآن لمنظومة من القيم والأخلاق التي تُؤسِّس لمجتمعٍ نظيفٍ ومُتماسكٍ، يجِدُ الفردُ فيه أمنَه وسكينتَه وأُلفتَه:

أولًا: بر الوالدين ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ قرنَ البرَّ بالتوحيد، بل جعل التوحيد مدخلًا للحديث عنه، والتنويه بشأنه وخطره، ثم ذكَّر بما يستدِرُّ العاطفة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾، فكبير السن مهما كان مُستحقًّا للتوقير والرعاية، فكيف إذا كان والدًا؟

ثم فصَّلَ ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾، واحتاطَ غايةَ الحَيطة بقوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وهي مثالٌ لأدنى العُقوق؛ كي يتنزَّه الناسُ عما هو فوقه، ثم أمر بالتذلُّل لهما: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ

ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ والدعاء المستمر حبًّا ووفاءً لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾.

ثانيًا: صلة الرحِم ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾.

ثالثًا: رعاية المسكين وإعانة المُحتاج ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

رابعًا: الابتعاد عن التبذير ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾، وليس بعد الترهيب مِن ترهيبٍ، فاعجَب بعد هذا لمن يُبذِّر أموال الأمة وثرواتها فيما لا فائدة فيه، أو يُسرف في الولائم والمناسبات غايةَ الإسراف، ثم يدَّعِي أنَّ هذا من الكرم، والكرم إنما هو البذلُ دون تحرُّج أو تردُّد في وجوه الخير، أما أكوام الطعام التي يُدعَى لها الأغنياء والمُترَفون، ويُحرَم منها الفقراء والمُعدَمون، فهذا هو الإسرافُ والتبذيرُ الذي حرَّمَه الله.

خامسًا: الاقتصاد في النفقة ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾، وهذه النقطةُ تتمَّةٌ وتفصيلٌ لما قبلها.

سادسًا: القول اللَّيِّن ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾.

سابعًا: الحفاظ على الأولاد وعدم تعريضهم للهلاك مهما كانت الأسباب ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴾.

ثامنًا: البُعد عن الزنا وكلِّ ما يُقرِّب منه ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾.

تاسعًا: الحفاظ على حياة الناس وتحريم القتل ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ ﴾.

عاشرًا: الحفاظ على أموال اليتامى ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ ﴾.

حادي عشر: الوفاء بالعهد ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾.

ثاني عشر: العدل في الميزان وتجنُّب أكل أموال الناس بالباطل ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ﴾.

ثالث عشر: التثبُّت والتأكُّد من المعلومة قبل نشرها أو الأخذ بها ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ

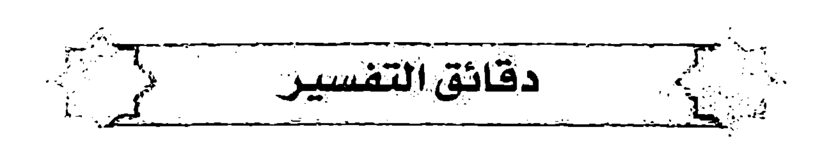
عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

رابع عشر: التواضُع وعدم التكبُّر على خلق الله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾.

خامس عشر: التوحيد في البدء والختام، ففي البدء قال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾، وفي الختام قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾.

تجدُرُ الإشارة هنا إلى أن هذه الوصايا قد ورَدَت بألفاظ متقاربة في الوصايا العشر الواردة في سورة الأنعام، مع بعض التوسُّع هنا والتفصيل، وإذا عُلِم أن السورتَين نزَلَتا بمكة، أدركنا مدى اهتمام القرآن المبكر بمنظومة القيم والأخلاق، وبهذا التفصيل والتأكيد، على خلاف ما كان يظنُّه بعضُ الباحثين في القرآن مِن أنَّ القرآن المكي لم يتعرَّض إلا لمسائل التوحيد والعقيدة!

نعم إنَّ إلزامية التشريع وتنفيذه على الناس يحتاج إلى الدولة، لكن منظومة القيم والأخلاق مُتعلِّقة ببناء المجتمع قبل بناء الدولة؛ وإنما الدولة تنبَثِق من المجتمع، وتعكِس صورته الذاتية وبناءه الداخلي.



دقائق التفسير

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ﴾ إشارة إلى كفالته لهما.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ النهي عن أدنى الإيذاء ليدخل ما فوقه من باب أَولَى.

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ غايةٌ في التواضُع والتذلُّل، ونسبة الذُّلِّ إلى الجناح نسبةٌ مجازيَّةٌ على عادة العرب في ذلك، وقد نزل القرآن بلُغَتهم.

﴿لِلْأَوَّٰبِينَ ﴾ التائبين العائدين إلى الله.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الذي انقطَعَت به الطريق، وحِيلَ بينه وبين ما يملِكُه في بلده، أما إذا كان

يتمكَّن من التواصل مع ماله بالطرق الحديثة؛ كالبطاقات الائتمانية ونحوها فلا يدخل في ذلك.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لا تُنفِق مالك في غير حاجة وبغير وجه حقٍّ، فالمالُ مالُ الله، وأنت مُستخلَفٌ فيه.

﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قُرناءَهم وأشباهَهم في عمل الفساد، والتبذير: فساد المال، وهو من كَفَرَ النعمةَ؛ ولذلك عقَّب ببيان وجه الشَّبَه هذا ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ إذا أعرَضتَ عن المساكين وذوي القربى؛ لأنه ليس عندك ما تُنفِقه عليهم، وكنت تنتظر رِزقًا، فتلطَّف لهم بالقول حتى يأتيك ما تنتظر.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن غاية الحرص والبخل، والخوف من نقص المال.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ كناية عن الإسراف واللامبالاة.

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ فتقعُد عاجزًا بعد تضييع مالك يلومك الناس، وتتحسَّر أنك لا تجِد ما تُنفِقُه على نفسك وأهل بيتك.

وهذا التوجيه الربَّانيُّ يحسِم تلك المفاهيم الخاطئة لعقيدة التوكُّل، والتي تجعل المسلم يتعامَلُ مع الحياة بلا حسابٍ، ولا تخطيطٍ، ولا نظرٍ في العواقب.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ الإملاق: الجوع والفاقة، وهذا دليلٌ على أنَّ بعض الجاهلية كانوا يقتُلون بناتهم خشيةَ النفقة!

﴿خِطْـًٔا﴾ بمعنى: خَطأ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ نهيٌ عن الزنا وعن ما يقرِّب إليه؛ كالنظرة القاصدة، والخلوة، والتبرُّج.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ بحكم الشرع وقوَّة القانون، وليس السلطان القدري الذي يتوهَّمه بعض الناس، فالقاتل يقتصُّ منه القضاء العادل، فإن لم يكن هناك دولة ولا قضاء فلربما يفلِت القاتلُ من العقوبة الدنيوية لتلقَّاه العقوبة الأخروية، وهذا واقعٌ؛ فكم مِن ظالمٍ قاتلٍ مات

من غير عقوبةٍ ولا قصاصٍ.

﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ كأن يقتُل أخا القاتل أو قريبَه، أو يقتُل أكثرَ مِن واحدٍ بقتيلِه، أو يتعدَّى حدَّ القتل المعروف فيحرِق أو يُمثِّل، ومِن الإسرافِ أيضًا: الاستِعجال قبل التبيُّن وقبل قضاء القاضي؛ إذ الأصل أنَّ هذا الحكم يثبُتُ عند القاضي بشرائِطِه المعروفة، وليس لآحاد الناس البَتُّ في مثل هذه الجنايات، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ أي: بقوَّة القضاء.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ مزيدًا من الاحتياط؛ لحاجة اليتامى إلى حماية أموالهم أكثر من غيرهم.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ كأن يتَّجِر بها لمصلحة اليتيم.

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ بالميزان العدل الذي ليس فيه مَيَلان.

﴿وَلَا تَقۡفُ﴾ لا تتبع.

﴿مَرَحًاۖ﴾ خُيَلاء.

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ تمثيلٌ لعجز الإنسان، ودعوة له أن يعرف قَدرَه فلا يتكبَّر على عباد الله.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ كلُّ ما تقدَّم مِن الوصايا والأحكام والمحظُورات، ثم احترَزَ بقوله: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾؛ لأنه ليس كلُّ ما تقدَّم سيئًا.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ وصف لما تقدَّم من الوصايا والقِيَم، بمعنى: أنها جاءت في غاية الإتقان، من حيث معناها ومبناها وموقعها المناسب في خارطة البناء الإسلامي الشامل والمتكامل.

﴿مَلُومٗا﴾ تستحق الملامة.

﴿مَّدۡحُورًا﴾ خاسرًا ومطرودًا من رحمة الله.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾

حوار مع المشركين

بعد بناء المجتمع المسلم وفق هذه الأسس والمبادئ الربَّانية، شرَعَ القرآن في فتح حوارٍ مع الآخر الذي كان يُناصِبُ هذا المجتمع العداءَ، ويُقابِلُ عقيدةَ التوحيد الصافية بعقيدة شِركيَّة وثنيَّة لا تستند إلى فِطرة ولا منطِق، ولا بقيَّة من حُجَّة أو دليل:

أولًا: بدأ بمسألة جُزئيَّة لكنها خطيرة، وتُعدُّ نموذجًا صارخًا للانحراف في طريقة التفكير

ونظرة الإنسان للإله ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

ثانيًا: انتقل من هذه الجُزئيَّة إلى أصل الداء عندهم ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لنازَعَتْه هذه الآلهة المزعومة في سلطانه، كما يفعل ملوك الأرض، ولظهَرَ أثرُ هذا الاضطراب في مُلك الله سبحانه، لكن الكون لا زال كما كان في غاية الإتقان والاتِّساق، والخضوع للناموس الكوني الذي وضَعه خالِقُ هذا الكون ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

ثالثًا: أنَّ هؤلاء قد حِيلَ بينهم وبين فَهمِ القرآن؛ بسبب عنادِهم وتكبُّرِهم، وما ملأ صُدورَهم ونُفوسَهم من غلٍّ وحسدٍ، فصُمَّت آذانُهم، وعَمِيَت أبصارُهم ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وهذا الجَعْلُ الإلهيُّ جَعْلٌ سُننيٌّ مُستندٌ إلى عالم الأسباب، وليس فيه معنى الجَبْر والإكراه؛ إذ إنَّ اللهَ لا يظلِمُ أحدًا مِن خلقه.

رابعًا: أنهم كانوا يستَمِعُون القرآنَ، لكن ليس مِن أجل الفهم والتفكُّر، بل لمُحاربته والسخرية منه ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، وهذا الموقف يتَّسِقُ مع ما قبله، ويزيده تفسيرًا ووضوحًا.

خامسًا: أنهم كانوا يشتُمُون رسولَ الله ﷺ، ويضربون له الأمثال والتشبيهات الباطلة؛ فمرَّةً بالساحر، ومرَّةً بالشاعر، ومرَّةً بالكاذِب، وكلُّ هذا تعبيرٌ عن نار الحَسَد التي تكاد تأكُلُ قُلوبَهم ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، فهذا الحسد لا يمكن أن يؤدِّي إلى خيرٍ وإلى حكمٍ عادل ومنصف، ومن هنا كانت فتنتهم وضلالهم.

سادسًا: بعد موقفهم من التوحيد ومن الوحي، عرَضَ القرآن لمسألة أخرى ربما تكون السببَ الأساسَ لضلالهم، وعدم شعورهم بالحاجة إلى النظر الجادِّ وتحمُّل المسؤولية، ألا وهي: مسألة الجزاء، وعقيدة البعث والحساب ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾،

وقد ردَّ القرآن تساؤُلَهم هذا الذي يحمل معنى الإنكار والاستهزاء: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾.

سابعًا: ردَّ القرآن أيضًا دعواهم وجودَ آلهة مع الله ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾.

ثامنًا: وأما طلبهم المُتكرِّر بإنزال المعجزات المادِّيَّة، فقد ردَّه القرآن بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ إذ مشكلةُ الحاسد ليست في نوعيَّة الدليل وطريقة الاستدلال، وإنما هي مشكلةٌ ذاتيةٌ نفسيةٌ، وربما لا تزيدها المعجزات القاهرة إلا حسدًا مُضافًا؛ ولذا كانت المعجزة القرآنية تُخاطِبُ العقولَ والنفوسَ والقلوبَ، وتدعو لتغيير الداخل، وليس لإقامة الحُجَّة المجردة.

تاسعًا: يذكُر القرآن أيضًا مسألةً لها صلة بالمعجزات المادية، وهي: إخبارُ النبيِّ ﷺ لأهل مكة بما حصل له ليلة الإسراء والمعراج، وما رآه من آيات ربه، فكان ذلك فتنةً مُضافةً لهم؛ حيث ازدادُوا عنادًا وتكذيبًا، مع أن النبيَّ ﷺ أثبَتَ لهم صدقَ دعواه هذه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴾.

عاشرًا: وفي كلِّ جولةٍ من جولات الحوار يُذكِّر القرآن دائمًا بالعاقبة التي تنتظِرُ الجميع ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ ﴾ هذا بالنسبة للمُعاندين المُكذِّبين، أما الذين يَرجُون رحمةَ الله بصدقٍ، فلهم شأنٌ آخر وعاقبةٌ أخرى ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ ﴾.

حادي عشر: وفي ثنايا هذه المجادلة يُذكِّرُ القرآن عبادَ الله المؤمنين بأهمية القول الحسن، خاصَّةً وهم يدعُون إلى الله ويُحاوِلُون الإصلاح ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ تسفِيهٌ لزعمهم أن الملائكة بنات الله، وبيان لتخبُّطهم وقَولهم في الغيب بلا علمٍ ولا دليلٍ، ونظرتهم الدونيَّة عن الأنثى، ثم نسبة هذا الدُّون إلى الله! وكأنَّهم بهذا يرون حالهم أفضل من حال خالقهم؛ إذ هُمْ لهم الأولاد البنون والبنات، بينما ينسبون له سبحانه البنات خاصَّة! إنه نموذجٌ للانحراف والشَّطَط.

﴿صَرَّفْنَا﴾ نوَّعنا أساليبَ الخطاب.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لو كان مع الله آلهة، لسَلَكَت هذه الآلهة طريقًا لُمنازَعَة الله في مُلكِه، ولظهَرَ هذا في اضطراب نظام الكون.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ تسبيح الفطرة الشاهدة بوحدانية الخالق، وفيه ردٌّ على شناعتهم بنسبة الولد إلى الله.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ تأكيدٌ شامل لكل مخلوقات الله، ودفعٌ لتوهُّم أنَّ العقلاء وحدهم هم الذين يسبحونه، والباء للمصاحبة، بمعنى أنهم يُسبِّحون الله مُستصحِبين حمدَه تعالى.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لأنه تسبيح الحال وليس تسبيح المقال، بمعنى أنَّ كلَّ الأشياء دالَّة بوجودها ونظام خلقها على كمال الخالق ووحدانيَّته وتنزيهه عن النقص، لكن المشركين لا يعقِلُون هذه المعاني، ولا يتدبَّرُون هذه الأحوال الملموسة والمحسوسة، ومن ثَمَّ كان التعقيب بـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾؛ فالسياقُ يُوحِي بأنَّ الخطاب مُوجَّهٌ للمشركين والغافلين؛ ولذا اقتَضَى الحلم والمغفرة.

﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: حجابًا ساترًا بينهم وبين تدبُّر آيات القرآن، وهو حجاب الغرور والتكبُّر، كما كان حجابهم عن تدبُّر آيات الكون حجاب الجهل والغفلة، وكلها من نوع الحجاب المعنوي المتعلِّق بالصفات التكليفية، وليس الحجاب الحسِّي مِن صَمَمٍ ونحوه.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطِيَة تحُولُ بينهم وبين الفهم والتدبُّر، وهو جَعْلٌ بمُقتضى السُّنن الإلهيّة العادلة، وهذا شبيهٌ بقوله تعالى في أوائل البقرة: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧] أي: بما كسبوا وظلموا.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ ﴾ وقر التكبُّر الذي يمنعهم من سماع الحقِّ.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قولة المشركين بعد أن ضاقوا ذرعًا بهذا القرآن، فلم يجدوا أبرَعَ مِن هذه التهمة لتنفير الناس عنه، وفيه إشارةٌ أيضًا لإعجابهم الخفيِّ بلُغة القرآن وبيانه، وفي الآية أيضًا تنزيهٌ لمقام الرسول الكريم ﷺ عن السحر.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾، تأكيدٌ لتنزيهه ﷺ، وتشنيعٌ شديدٌ على مَن يتجاوز حدودَ الأدب معه، بأبي هو وأمِّي.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ سؤال استنكاري مليء بالجهل وقلَّة الملاحظة، وقد أكَّدوه وكرَّروه ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ ﴾.

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ جوابٌ على سؤالهم المكرر المملول، ليقيم عليهم الحجة، فمن خلقكم أوَّل مرةٍ مِن العدم، كان أقدرَ على إعادة خلقكم ولو كنتم ﴿حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ ﴾ بمعنى أنكم لن تُعجِزُوه سبحانه في أيِّ صورةٍ أو طَورٍ كنتم.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ ﴾ يتساءلون مع تحريك رؤوسهم نحوك، كما يفعل المستغرِب أو المستهزِئ.

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ يناديكم للخروج من قبوركم، والنداء هنا بمعنى: الأمر التكويني الذي لا يملك معه الخلق إلا الاستجابة، وآنذاك يُقِرُّ الجميعُ لله وحده بالحمد؛ لأنه وحده الإله الحقُّ الذي يستحِقُّ الحمدَ والتعظيمَ تبارك وتعالى.

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ بإطلاقٍ، مع كلِّ خلق الله، فهذا الأليَق بعباد الله.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يُثير الفتن والشحناء.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ للإنسان بإطلاقٍ أيضًا؛ مؤمنهم وكافرهم، وفيه دعوة لطيفة للمؤمنين أن يُنقذوا إخوانهم في الإنسانية ممن وقع في شباك الشيطان.

﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ مشيئة مرتبطة بأسمائه الحسنى ولا تنفكُّ عنها، فهو الرحيمُ الحكيمُ الملكُ الحقُّ الذي لا يظلم أحدًا مِن خلقه، فلا يُعذِّب إلا مَن استحقَّ العذاب فعلًا، وأما رحمتُهُ فهي الأصلُ الذي سبق غضبه.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حقيقة كليَّة جاء بها تمهيدًا للرد على اعتراض المشركين على نبوته ﷺ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم بالنبيين أيضًا ودرجاتهم ومَن يصلح منهم لهذا الزمان أو ذاك ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ مثالٌ على التفضيل، وكأنَّه يقول للمشركين: لستم أنتم الذين تختارون الأنبياء على هواكم، ولستم أنتم الذين تعلمون من يصلح منهم لكم أو لغيركم.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ يتحدَّى القرآن تلك الأوثان المعبودة من دون الله أن تكشف الضُّرَّ عن أصحابها أو تُحوِّله عنهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يتضرَّعون إلى الله وهم الأنبياء الذين تقدَّم ذكرهم، والسياق جاء للمقارنة والمقابلة، كأنه يقول للمشركين: هؤلاء الأنبياء هم الذين يدعون فيستجيب الله لهم، بخلاف أصنامكم التي تدعونها فلا تقدر على جوابكم.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يطلبون كلَّ ما يُقرِّبهم إلى الله.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إشارة إلى التنافس المحمود في الطاعات.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ يحذَرُه المؤمنون؛ لأنهم يعلمون أنه الحقُّ، وفيه تخويفٌ للمشركين وتنبيهٌ.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ قرية مشركة وظالمة مثل قريتكم، والخطاب لأهل

مكة، وعموم القرية مخصوصٌ بالسياق الظاهر في تمييز المؤمنين عن المشركين، ومخصوصٌ أيضًا بمثل قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ في علم الله الأزلي.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وما صَرَفْنا عن إنزال المعجزات وخوارق العادات الحسِّيَّة إلا تكذيب الأقوام السابقة بها، فكانت سببًا في هلاكهم، ثم ذكر مثالًا لذلك: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آية بيِّنة، وفيه إشارة أنَّ القوم الذين بُعث فيهم محمد ﷺ لن يستأصلهم الله بعذاب؛ لأن رسالته ﷺ باقية ما بقي الليل والنهار.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ الناس هنا هم المشركون، والمقصود تطمِينُ النبيِّ ﷺ وتسليته لما يلقاه منهم من المكر والصدود والإيذاء، كأنه يقول له: لا تبتئس؛ فكلُّ حركاتهم وسكناتهم تحت علمنا وقدرتنا، ولكن لكلِّ أجل كتاب.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ اختبارًا لهم، ولتمييز المؤمن الصادق عن غيره، والأقرَبُ مِن سياق السورة أنها: ما رآه النبيُّ ﷺ ليلة الإسراء، وهي رؤية حسِّيَّة وليست مناميَّة؛ إذ المنام لا يكون فتنةً.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ معطوفة على الرؤية، بمعنى: أنها فتنة للناس كذلك؛ لأنها من الأخبار الغيبيَّة، فلا يؤمن بها إلا المؤمن الصادق. وقد ورد أنَّ بعض المشركين كان يسأل مُشكِّكًا: كيف لشجرة تبقى في جهنم ولا تأكلها النار؟ وما علِمَ أن بقاءَه حيًّا في النار أغرب من بقاء الشجرة، لكن الآخرة لها نواميسها التي لا تُشبهها نواميس الدنيا.

والشجرة هذه قد ذكرها القرآن في أكثر من موضع؛ منها قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤- ٦٥].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

معركة الإنسان مع الشيطان

يُكرِّر القرآن الكريم قصة المعركة الأولى بين الإنسان والشيطان التي دارت قبل نزول آدم على هذه الأرض، وفي كل مرَّة يضيف القرآن صورةً جديدةً، أو بُعدًا آخر للمعركة، ولنقِف مع هذا المقطع مُتدبِّرين ومُتَّعِظين:

أولًا: أمر الله الملائكة - ومعهم إبليس - بالسجود لآدم، فسجد الملائكةُ وأبى إبليس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وهذا هو محور القصَّة الذي يتكرَّر معها حيثما وردت.

ثانيًا: تأكيد على تكريم الله لهذا الإنسان وبيان فضله ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، وهو تكريمٌ مُتَّصلٌ بالمسؤولية الكبرى التي يتحمَّلها الإنسان بإدارة هذه الأرض برِّها وبحرِها، وقد زوَّده الله بكلِّ

ما يلزمه من أدوات ماديَّة ومعنويَّة من رزقٍ متنوع متعدد، وتسخير المخلوقات وتذليلها له.

ثالثًا: كان هذا التكريم سببًا لإيقاد جمرة الحسد الممزوج بالتكبُّر، والتي دفعت إبليس إلى المجاهرة بالتمرُّد على أمر الله ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ الآية.

وفي هذا درسٌ بليغٌ: أنَّ أساس الشر قد لا يكون عن غفلةٍ أو جهلٍ، ولا عن عجزٍ أو كسلٍ، وإنما الحسد الذي يدفع الإنسان دفعًا للهاوية، والتكبُّر الذي يُعمِي القلب والبصر عن حقائق الأمور وعواقبها.

رابعًا: العناد، وهي الصفة الملازمة للحسد والتكبر، والتي تعني: الاستمرار في طريق الغواية ومحاربة الحقِّ وأهله ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وهذا إعلانٌ رسميٌّ لبداية المعركة المستمرّة بين الإنسان والشيطان.

خامسًا: أدوات الشيطان التي استعملها في معركته هذه مع الإنسان إنما كانت في تحريك غرائز الإنسان في الأموال والأولاد، والوعود الكاذبة، والتزيين الباطل، كما قال في موضع آخر: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، لكنه هنا أضافَ صورةً أكثر جلبةً وضجيجًا ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

سادسًا: أنّ هذه المعركة ستقسم الناس على فريقين: الأول هم الناجون الفائزون، وهم الموصولون بالله، والمتوكلون عليه وحده ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾، والثاني هم حزب الشيطان وجنده ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾.

سابعًا: أنّ عاقبة المعركة ستظهر جليَّة في ذلك اليوم الموعود ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي

هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾.

ثامنًا: وفي ثنايا هذه المعركة تأتي التوجيهات الربّانية والتذكير بالحقائق الكبرى التي تُثبِّت المؤمنين وتحميهم، وتمدّهم بأسباب الصمود والمنعة ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾.

فإذا كان الله وحده هو من يفعل ذلك - وهو القادر سبحانه على كل شيء -، ففي أي طريق يَتيهُ أولئك الناس الذين يبتَغُون سعادتهم في خطوات الشيطان؟!

دقائق التفسير

﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ أي: خلقتَه من طِين، والطين طورٌ من أطوار خلق آدم ﷺ، والسؤال فيه معنى التهكُّم بآدم والسخرية منه تكبُّرًا وغرورًا.

﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ تهديدٌ وَقِحٌ باستئصال ذرية آدم، وحملهم على معصية الله الواحد الأحد سبحانه.

﴿جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ كافيًا لكم ولمن تبعكم.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ استخِفَّ واستزِلَّ من تقدر عليهم بوسوستك، وسمى الوسوسة هنا صوتًا؛ تشبيهًا له بقائد الجيش الذي يُصدِرُ أوامرَه بقوَّة، والتشبيهُ هنا مُناسِبٌ للسياق والصورة الكليَّة للمشهَد.

﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ اجمع عليهم كلَّ راكبٍ وكلَّ مَاشٍ من جُندك وأتباعك، وفيه تأكيدٌ لمشهد المعركة.

﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ تقريرٌ لمداخل الشيطان الكبيرة التي ينفُذُ مِن خلالها لإفساد

الحياة، المال كسبًا واحتكارًا، وتبذيرًا وإنفاقًا له في وجوه الباطل والعُدوان والمآثم المختلفة، والأولاد بتنشئتهم على الضلال والرذيلة والمنكر، وقد تبدأ هذه التنشئة الفاسدة بالعلاقات الجنسية المحرَّمة، واختيار الزوجة التي لا تتحمَّل مسؤولية بيتها وأولادها، وهكذا.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ اخدَعهم بالوعود الباطلة من التمكين في الدنيا والتكذيب بالآخرة.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ ليس لك قوَّة على إغوائهم، وهم الموصولون بي ذِكرًا ومعرفةً وعبادةً.

﴿يُزْجِى﴾ يسُوق.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الخوف من التِّيه والغَرَق.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ للنِّعمة ناسيًا لها، غافلًا عن شُكرها، وهذا ظاهرٌ في طَبعِ الإنسان وسجيَّته العامة، وليس على سبيل الاستغراق لكلِّ فردٍ فيه.

﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا عاصفةً ترمِيكم بالحصباء، وهي الحصى.

﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ ريحًا تقصِف سُفُنكم وتقلبها في البحر.

﴿تَبِيعًا﴾ من يُناصركم ويثأر لكم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ذلَّلنا لهم البرَّ والبحرَ.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ تفضيلًا تقتضيه وظيفتهم على هذه الأرض، وهي: الاستخلاف وإدارة الأرض بحُكم الله وشرعه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ هو يوم يقومُ الناس للحساب، ويكون التمايُز بالأعمال المدوَّنة في كتاب كلِّ واحدٍ منهم، فيتميَّز هناك أتباع الأنبياء عن أتباع الشياطين.

﴿فَتِيلًا﴾ الشيء التافِه، وأصله القشر المفتُول في شقِّ النواة.

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ عن الحقِّ، والمجاز ظاهر فيه ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن الجنة وكلِّ خيرٍ فيها، وهو مجازٌ ظاهرٌ كذلك.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

معركة الحق والباطل

استمرارًا لمعركة الشيطان مع الإنسان، يعرِضُ القرآن الكريم في هذه الآيات صورةً أخرى لهذه المعركة الطويلة العميقة، صورة أولئك الذين احتنكَتهم أحابيلُ الشيطان فابتعدوا عن نهج الفِطرة، وناصَبُوا الحقَّ العداء، صورة مُتكرِّرة في مواجهة كلِّ دعوة كريمة، وهنا يقِفُ مُشرِكو مكة مُجنِّدين أنفسهم للشيطان في معركةٍ مفتوحةٍ مع النبيِّ الخاتم ﷺ والثلَّة التي آمَنت معه، وهذه معالم تلك المعركة بحسب ما أورَدَته هذه الآيات:

أولًا: مُحاولة تشويه هذه الدعوة المباركة وحرفها عن مسارها المستقيم ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾.

ثانيًا: العمل على إخراج الرسول ﷺ من أرضه التي نشأ فيها، والمجتمع الذي تربَّى فيه ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ﴾.

ثالثًا: المجادلة بالباطل، وإثارة الشبهات، وطلب الخوارق والمعجزات في سلسلةٍ مُترامية وغير متناهية، دون النظر في مضمون الدعوة وأهدافها وغاياتها ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ ﴾، ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

رابعًا: التكذيب بالآخرة، والتشكيك بيوم الحساب الذي هو الدافع الأقوى للالتزام بمنهج الحقِّ والثبات عليه ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾.

ثم بعد كلِّ ذلك يأتي الردُّ القرآنيُّ بالمنهجية التي تجمع بين العلم والرحمة والقوة، في منظومةٍ بنائية هادفة بعيدة عن ردود الأفعال، وبنقاطٍ محددة وواضحة:

أولًا: تثبيت الصفِّ المؤمن ومدّهم بعوامل الصمود والثقة والاستقرار ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ

لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾.

ثانيًا: ترسيخ معاني الإيمان والتديُّن العملي الموصول بالله ذِكرًا وعبادةً وتجرُّدًا وخشوعًا ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾.

ثالثًا: تأكيد المعجزة القرآنية الخالدة، وأنه الحُجَّة الظاهرة والفيصل الثابت بين الحقِّ والباطل ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾.

رابعًا: تأكيد التمايُز بين الفريقَين، وأنه جارٍ على سُنن الله التي لا تتخلَّف وتحت حِكمته وإرادته المُطلَقة ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾، ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ ﴾.

خامسًا: مُجادلة أهل الباطل بما يُقيمُ عليهم الحُجَّة، ويُوضِّحُ لهم المحجَّة، واختيار المَيدان النافع والمُثمِر بعيدًا عن المُماحَكات والمِراءِ الفلسفي العقيم، ففي بشريَّة الرسول نرى كيف يَردُّ

عليهم القرآن ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾، وفي إنكارهم للبعث يقول: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾، وفي نظرتهم للرزق والتعامل المادِّيِّ يقول: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾.

سادسًا: التذكير بالتجارب السابقة، لربط سلسلة الصراع بعمقها التاريخي؛ إذ لا يخلو زمن ما من صورة من صور هذا الصراع ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾.

وهنا إشارةٌ للمستقبل أيضًا، وربما هو الذي نراه اليوم واقعًا في فلسطين ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾، وسياق السورة يُعضِّد هذا الفهمَ؛ إذ كانت السورة قد بدَأَت بالحديثِ عن المسجد الأقصى ودخول بني إسرائيل فيه كرَّة بعد كرَّة، والله أعلم.

سابعًا: بيان العاقبة الحاسمة والنهائية لهذا الصراع ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾، أما في الآخرة فسيرى أهل الباطل مصيرهم الأسود الذي لا مفرَّ منه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ هذا مطمعهم وغاية مكرهم، لكنَّ هذا لا سبيل لهم إليه؛ للعهد الإلهي الذي لا يتخلَّف بحفظ القرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ومن لوازم هذا الحفظ: حفظ الرسول المبلِّغ عن الله، وهذا هو المُحكَم الذي لا ينبغي أن يُعارَض بالمتشابهات، وبالروايات المضطربات والمختلفات.

﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ تأكيدٌ لعصمته ﷺ؛ إذ هي من التثبيت الإلهي الذي لا يتطرَّق إليه الشك أو الخرق.

أما المَيل القليل فهو: رغبته - بأبي هو وأمي - أن يهدِيَ الله قومه، والتي ربما دفعَتْه للتفكير بما يتودَّد به إليهم لعلَّه يكسِر فيهم حاجز العناد، وهذا التودُّد إنما هو في باب السياسات والموازنات، كما حصل معه ﷺ في قصَّة الأعمى، أما أن يتنازل لهم عن حرفٍ واحدٍ مما أُوحِيَ إليه، فهذا المحال الذي ما بعده مُحال.

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أي: عذابًا مُضاعفًا في الحياة بالشقاء والمصائب ونحوها، وعذابًا مضاعفًا في الآخرة، وهو تهديدٌ لمن يُحرِّف الدين إرضاءً لهذا الطرف أو ذاك، وهو تقريرٌ للحكم العام الذي ينطبق على كلِّ مُتلاعِب في الدين، وإن جاء هذا التهديد تفريعًا وجوابًا لقوله: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ الآية؛ إذ إنَّه ﷺ قد نزَّهَه اللهَ في هذه الآية نفسها وأثبت العصمة له، فيبقى الحكم على غيره قائمًا، ويكون المعنى في النهاية كما تقول العرب: إيَّاكِ أعني واسمَعِي يا جارة.

وشدَّة الوعيد ظاهرة في هذا الخطاب، كأنه يقول لهم: إذا كان هذا جزاء الرسول ﷺ لو مَالَ عن الحقِّ الذي أوحاه الله إليه وثبَّته عليه، فكيف بغيره؟

﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ يؤذونك بأصناف الأذى؛ حتى تخرج من مكة على عجل، وقبل الوقت المناسب للهجرة.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لمن يُؤذُون رسولَ الله ويخرجونه من أرضه، بأنهم لا يمكثون في مكة بعده إلا قليلًا، وقد تحقَّق هذا بعد هجرته ﷺ؛ حيث خرج أبو جهل وكبراء القوم معه فقتَلَهم الله في بدر، ثم أزاحَ الله سلطانهم عن مكة بالكامل بيوم الفتح.

وقد وهِمَ من ظنَّ أنَّ المقصود بهذا الخطاب هم يهود المدينة؛ لمخالفته لظاهر السياق، وكذلك لأن هذه السورة مكيَّة وليست مدنيَّة.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أنَّ الله يهلك القوم الذين يخرجون رسولهم؛ إذ لا ينزل عذاب الله الشامل على قومٍ وفيهم رسولهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ بيان لأوقات الصلوات الخمس، فدلوك الشمس زوالها عن خط الاستواء، وهو وقت صلاة الظهر، وهي أوَّل الصلوات، ثم قال: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: إلى اكتمال ظُلمته بغياب الشفق؛ ليشمل صلاة العصر والمغرب والعشاء، فهذا وقتٌ ممتدٌّ من الزوال إلى الغَسَق، وليس معناه وقتَين محُدَّدَين، كما يتوهَّم بعضُهم؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ولم يقُل: وغَسَق الليل، أما صلاة الفجر فأُفرِدَت؛ لانفرادها في الوقت، وللتذكير بخصوصيتها ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهَده الملائكة، والله أعلم.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ زيادة في الحسنات والقربات.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي لا تكون لغيره، كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ حيث يَلتَجِئُ الخلق جميعهم إليه ليشفع لهم عند ربهم في ذلك اليوم العصيب، وهي شفاعة تُعظِّمُ من شأن رسول الله، وتُظهِرُ منزلته عند الله، وهي سببٌ من أسباب رحمة الله.

أرأيتَ دعاء الأخ لأخيه، والولد لأبيه؟! إنها أسبابٌ كذلك، إلا أنَّ الشفاعة أعظم وأشمل

وأقرب، جعلنا الله ممن يحظَى بها وبمجاورته ﷺ في تلك الجِنان الباقيات.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أمر بالتضرُّع إلى المولى الجليل أن يجعله صادقًا مصدَّقًا في دخوله وخروجه، وحلِّه وترحاله - في إشارةٍ إلى الهِجرة -، لكنه دعاء عام لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولكلِّ حركةٍ وسكَنةٍ.

فالمؤمن يخرج من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن وقتٍ إلى وقتٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، وختامها خروجه من دار الممر والاختبار ودخوله في دار الجزاء والقرار، وهو في كلِّ هذا ينبغي أن يستشعر حاجته إلى هذا الدعاء الصادق الودود، فالعبرة دائمًا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو المناسبة.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ إشارةٌ إلى أن الباطل يزهق عند ورود الحقِّ عليه ومزاحمته له، وهي مسؤوليَّةٌ تكليفيَّة لا تخفى.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ لعِلَل الحياة وأدوائها، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض؛ لأن القرآن ينزل مُنجَّمًا بحسب الحاجة والسؤال، وقد أكَّدت هذا المعنى خواتيم السورة ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾.

﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على طريقته.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الروح كائنٌ لطيفٌ حالٌّ في جسد الإنسان، وله آثاره المعروفة في وعي الإنسان وشعوره وسلوكه، لكن هذا الكائن ليس من جنس الكائنات المادّية التي تُدرك بالحواس، ولا يُقدَّر بمقادير الأحجام والأوزان والأشكال والألوان، ومن ثَمَّ فإنَّ السؤال عن ماهيَّة هذا الكائن قد يُقصَدُ به التعجيز، أو هو على الأقلِّ نوعٌ من التكلُّف الذي لا يُناسِبُ حاجةَ البشر ولا قُدراتهم الإدراكيَّة، ولو أخبرنا الله بماهيَّته فرضًا، فإن لُغَتَنا الآدميَّة غير قادرة على فهم هذا التعريف؛ إذ إن اللغة لوحدها مهما كانت فصيحة فإنها لا تنقل الصورة ما لم يسبقها تصوُّر سابق مبني على الحس.

فلو سمِعتَ مثلًا كلمة أسد، فإن هذه الكلمة لا تنقل لك صورة الأسد وحقيقته ما لم تكن قد رأيتَ صورةً للأسد من قبل، بمعنى أنك حينما تسمع أي كلمة، فإن العقل يستدعي الصورة المقترنة بهذه الكلمة والمخزونة في الذاكرة، وهذه مشكلة الإدراك البشري في كلّ المفردات التي تأتيها من بيئة أخرى، فما بالك بعالم الغيب؟

وقد اضطربت الروايات في تحديد السائل، والظاهر من سياق السورة ووقت نزولها أنهم المشركون من أهل مكة، ولا يبعُد أن يكون اليهود هم مَن لقَّن المشركين هذا السؤال، ولا مانع أيضًا أنهم - أي: اليهود - قد كرَّروا هذا السؤال في المدينة بعد الهجرة، ولا مانع أيضًا أن المشركين بادروا بهذا السؤال من أنفسهم؛ لأنه سؤالٌ إنسانيٌّ عامٌّ ومتكررٌ في كلِّ جيل، ومهما كان مصدر السؤال فإن المغزَى من الآية في بيان عجز الخلق عن إدراك مثل هذه الحقائق الغيبية واحد ولا يختلف.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ تأكيد لإرادة الله المطلقة، لكن الله بإرادته سبحانه قد تعهَّد بحفظ هذا القرآن، وبإكمال الدين وإتمام النعمة.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ إعلان للتحدي العام الذي يشمل كلَّ الإنس وكلَّ الجن ولو كانوا مجتمعين عليه ومتعاونين، وقد مضى على هذا الإعلان أربعة عشر قرنًا دون أن يستجيب أحد منهم لهذا التحدِّي، وهذا هو الإعجاز الحقُّ.

أما وجهُ الإعجاز فهو عامٌّ أيضًا في كلِّ آيات القرآن بأسلوبه وبيانه ومعانيه وأخباره وأحكامه، ولا دليل على تخصيص وجهٍ دون وجهٍ.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ فصَّلنا كلَّ المعاني التي تنفع الناس، وتُلبِّي حاجاتهم، وتُوضِّح لهم طريق الحقِّ من طريق الباطل.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ بعد أن عجزوا عن مجاراة القرآن،

ذهبوا للطريق التي لا تجديهم نفعًا، فراحوا يقدِّمون طلباتهم وشروطهم للاستجابة، وكأنهم هم المتفضِّلون على الله إن هم آمنوا به وبرسوله.

﴿كِسَفًا﴾ قطعًا.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ لأنّ الرسول إنما يكون من جنس قومه.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: مكبوبين عليها من الذلّ والصَّغار.

﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ المعجزات التي أيَّد الله بها نبيَّه ورسوله موسى ﷺ، كالعصا والطوفان وانفلاق البحر وغيرها.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إثبات العلم لفرعون بحقيقة هذه الآيات ومصدرها دليلٌ على أنَّ فرعون لم يكن جاهلًا برسالة موسى، وإنَّما هو العناد والكبر.

﴿مَثْبُورًا ﴾ هالكًا.

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أراد أن يحمِلَهم على التعجُّل بالخروج.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فيه تهديدٌ ضمنيٌّ لأهل مكة الذين كانوا يمكُرُون برسول الله ﷺ ليحملوه على ترك مكة.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ الظاهر من سياق السورة كلها أن القرآن يتكلم عن تجميع اليهود في فلسطين من كل أصقاع العالم، والواقع يصدِّق هذا الفهم، وهذه الآخرةُ سيُسلِّطُ الله عليهم مَن يسُومهم كما في المرَّات السابقة؛ تحقيقًا لوعدِه الحقّ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ صفتان للقرآن الكريم بلفظَين مُتقاربَين، فالصفة الأولى تعني: أنه ثابتٌ ومتيقَّنٌ أنه مُنزَّلٌ مِن الله بلا شكٍ ولا ريبٍ، والثانية: أنَّه نزل بين الناس ليُقيم الحقَّ الذي هو ضدّ الباطل ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: أنزلناه مفرَّقًا بحسب النوازل وتجدد الحاجات.

﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾ يسقطون عليها سجَّدًا لله، والذقن: مجمع اللحيَيْن أسفل الوجه، وفي الآية تنويهٌ بمكانة العُلماء الربَّانيِّين الذين يتدبّرون القرآنَ عن علمٍ وبصيرةٍ، جعلَنا الله تعالى مِنهم.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩﴾ تأكيدٌ لتأثير نور القرآن في تلك النفوس الزكيّة، فالقرآن ليس كتاب معلومات ومعارف مجردة، إنَّه النور الذي يُخالِطُ القلوب والأرواح، ويَسقِيها من فَيضِه النقيِّ؛ لتُثمِرَ السلوكَ الأجمل والأكمل في هذه الحياة.

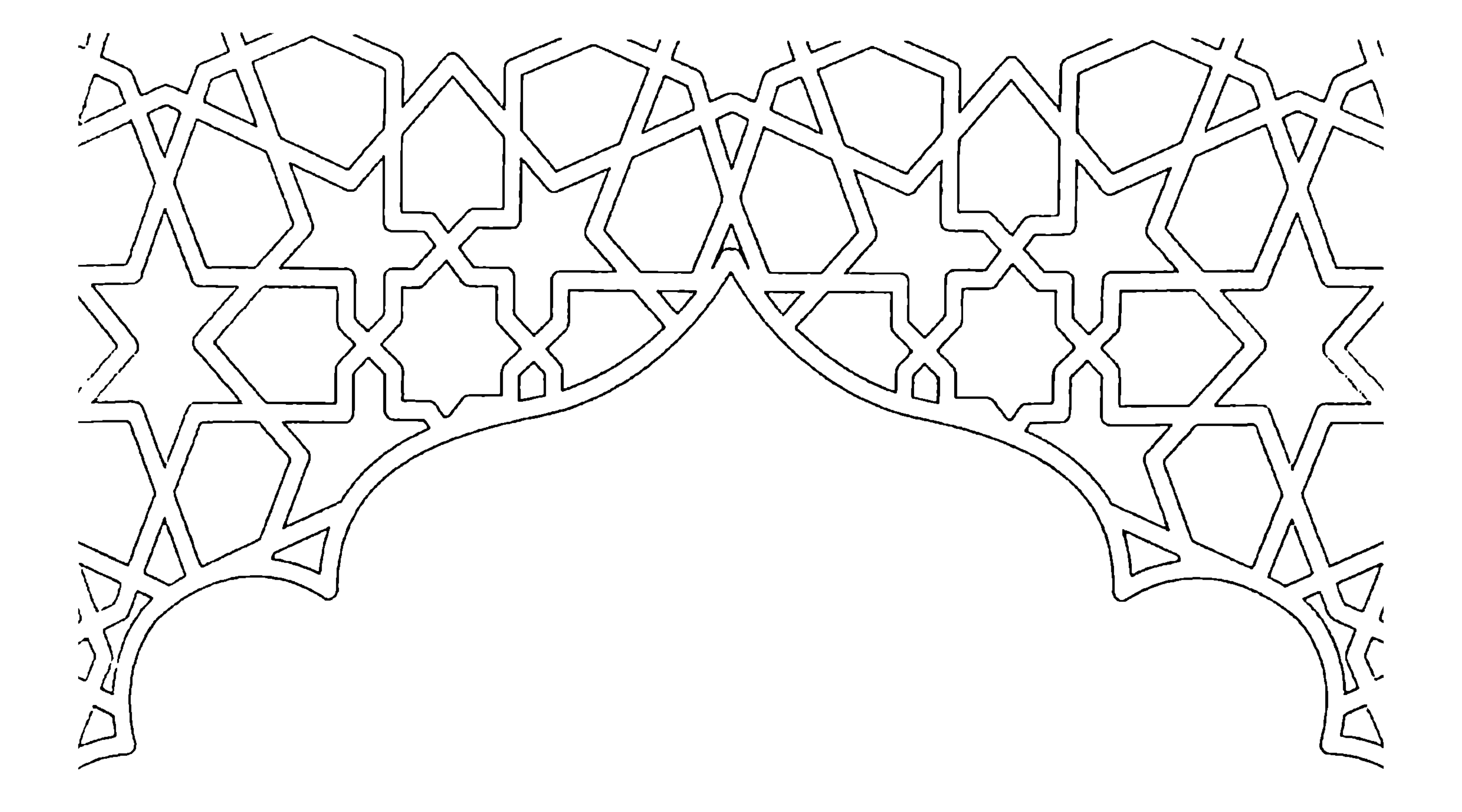
﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ تذكيرٌ بعظمة أسمائه سبحانه، فلكلِّ اسمٍ معنًى لطيف يُسهِم في بناء هذا الإنسان من داخله، ويُقرِّبه من خالقه.

وقد خصَّ هنا اسمه (الرحمن) بالذكر؛ تنبيهًا على صفة الرحمة الغالبة على أسمائه وصفاته تبارك وتعالى، ولتلقي في النفوس المتعبة معنًى جميلًا، وظِلًّا ظليلًا.

﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ تعليمٌ وتدريبٌ على الاعتدال في كلِّ شيء، فلا ترفع الصوت بالمستوى الذي يُشوِّش على غير المصلِّين، ولا تُخافِت به فلا يسمَعه المصلُّون، فرفع الصوت إنَّما يكون بقدر الحاجة، وهكذا يكون كلُّ سلوك المؤمن في حركته وسكَنَته، ومأكله ومشربه، ونومته ويقظته.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ تأكيدٌ لتوحيده تعالى في المُلك؛ إذ لا مالك لهذا الكون سواه، بحكم أنه لا خالق له غيره.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لم يتَّخِذ نصيرًا له بسبب ذلِّ أصابه أو يتخوفه - تعالى عن ذلك -، فهو العزيز الغني عن خلقه، وكلُّ خلقه مفتقرٌ إليه، والله أكبر، والله أكبر، الله أكبر.



سورة الكهف

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

أصحاب الكهف

بدأت سورة الكهف بالتذكير بالأُسُس الإيمانيّة والدعويّة التي تُمثّل المدخل المأمون لقراءة القصص الجديدة والفريدة التي تميَّزت بها هذه السورة، ومن هذه الأسس:

أولًا: تأكيد موثوقيَّة القرآن في كلّ أخباره وأحكامه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾.

ثانيًا: تأكيد رسالة القرآن، وأنه كتاب نِذارة وبِشارة ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.

ثالثًا: نفي الموثوقيَّة عن كلّ مصدرٍ يُناقِضُ أصلَ التوحيد والفطرة والعقل السليم ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

رابعًا: إنَّ فلسفة الخلق الكبرى إنما تقوم على الاختبار، وتمييز المصلح عن المفسد، وأهل الحقّ عن أهل الباطل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

خامسًا: إن مهمة الداعي أن يدعو الناس كلَّ الناس لهذا الهدي المستقيم، ثم يكِل الأمور إلى الله مهما أصرَّ أهل الباطل على باطلهم ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

سادسًا: إنّ حياة الناس لها أمدٌ محدودٌ، وأجلٌ موقوتٌ، ثم يُفضِي كلُّ عاملٍ إلى ما عمل ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

بعد هذه المقدّمات يدخل القرآن في القصَّة الأولى، وهي قصَّة أصحاب الكهف، ويمكن تحديد عناصرها في الآتي:

أولًا: يلخّص القرآن هويَّة أصحاب الكهف بقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

ثانيًا: إنهم كانوا في قومٍ مشركين ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

ثالثًا: إنهم كانوا يخشَون سطوة قومهم وأن يُكرِهوهم على الردَّة وعبادة الأوثان ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾.

رابعًا: ولذلك قرَّروا اعتزال قومهم والبُعد عنهم ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

خامسًا: أجرَى الله عليهم آياته؛ حيث مكثوا في كهفهم رقودًا زمنًا لا يستطيعه حيٌّ في العادة ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾.

سادسًا: أنهم كانوا في كهفهم بحالٍ مختلفٍ عما اعتاده الناس في نومهم ويقظتهم ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾.

سابعًا: ثم إن الله بعثَهم ليكونوا آيةً على إرادة الله المطلقة، وقدرته الظاهرة على البعث والنشور ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾.

ثامنًا: إنّهم ظنُّوا أنّهم لم يلبثوا في رقادهم كلَّ هذا الزمن الذي تعاقبت فيه الأجيال ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ ﴾؛ ولذلك كانوا خائفين حذرين ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾.

تاسعًا: يتَّضِح أن قومهم بعد مرور هذه الأجيال قد تغيَّروا من الكفر إلى الإيمان، وقد جاء هذا في إشارةٍ قرآنيَّةٍ سريعةٍ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾؛ إذ لا يمكن أن يفكِّر ببناء المسجد إلا المؤمنون، والراجحُ أنه مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ

﴿إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة:١٢٥]، وليس هنا محل بسط الخلاف في هذه المسألة.

عاشرًا: أعرض القرآن وفق منهجيَّته العمليَّة الهادفة عن كلِّ مِراءٍ وجدالٍ حول بعض التفاصيل التي لا تنفع العامل المتدبِّر ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

حادي عشر: ختم الله هذه القصَّة بالوصيَّة العمليَّة المستنبطة من روح القصَّة وغاياتها: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ فكما كان فتية الكهف عصبة واحدة على قلبٍ واحدٍ صابرين محتسبين - وإنْ وقف بوجههم الباطل كلّه -، فكذاك الواجب على أهل الإيمان في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، مهما اختلَفَت أنسابهم وأحسابهم ومستوياتهم.

دقائق التفسير

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ العِوَج ضد الاستقامة.

﴿قَيِّمًا﴾ من الفعل قَوَمَ، وأصله الاعتدال والاستقامة، والقيام على الشيء بمعنى: رعايته والمحافظة عليه، ومنه القيمة بمعنى: المعيار الذي تُقاس به الأشياء، وكلُّ هذه المعاني مِن خصائص القرآن الكريم.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ يُنذِر الكافرين العذاب الشديد الذي ينتظرهم من الله.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ صورة لما كان يملأ قلب رسول الله ﷺ من الحزن على قومه؛ حيث يتولَّون عنه بعد سماعهم الذكر وهم مُصِرُّون على كفرهم وضلالهم، وباخِعٌ نفسك: مُهلكها، عبارة عن شدة الحزن.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ذاك يوم الساعة؛ حيث تتحول الأرض إلى خراب

وتراب قاحل لا يمسك ماءً، ولا ينبت زرعًا.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي: هل ظننتَ أنّ ما جرى لأصحاب الكهف من الخوارق كان شيئًا عجيبًا في آيات الله؟ فآيات الله أكبر وأوسع من هذه القصة.

والتنبيه هنا على قدرة الله ومشيئته المطلقة سبحانه، خاصَّةً أن سورة الكهف قد ضمَّت من الآيات الباهرات في كلِّ قصةٍ من قصصها، أو مشهدٍ من مشاهدها.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ بمعنى: المرقوم، وهو الشيء الذي يُدوَّن عليه، ولعله لوح من صخر أو نحوه دوَّن عليه الناسُ أسماءَ أصحاب الكهف لما عثَرُوا عليهم، ولا يبعُد أيضًا أن يكون الرَّقِيم الجبل الذي كان فيه الكهف؛ إذ الرَّقِيم أيضًا: المكان المرتفع والبارز للدلالة، والله أعلم.

ثم إنَّ الناس قد اختلفوا في مكان الكهف والرَّقِيم على أقوالٍ كثيرة، والباب مفتوح للتنقيب والبحث العلمي، وليس في ذلك حرج، لكن تحديد المكان مهما كان لا تنبَنِي عليه مسألة دينية.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ تنبيهٌ إلى دور الشباب في الخروج عن خيمة التقليد الفاسد، وقدرتهم على تحمل أعباء هذا الخروج.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ كناية عن النوم العميق؛ لأن الأذن السليمة لا يحجبها عن سماع الأصوات إلا النوم.

﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ الفريقين، والظاهر أنّهما من أهل القرية الذين عثروا على أصحاب الكهف، واختلاف الناس في مثل هذا معروف ومعهود.

﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ ﴾ مِن الإحصاء، وهو العَدُّ، والمقصود القول الأصوَب في تقدير المدة التي لبثوها.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ثبّتناهم وصبّرناهم، وهذا من جزاء الحسنة بالحسنة.

﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ الأقرب أن القيام هنا معناه: القيام بالأمر، وتحمُّل المسؤوليَّة بغض النظر إن كانوا قد قالوا ذلك قيامًا أو جلوسًا، فالمدح في الثبات على الحقِّ وإعلانه ومواجهة الباطل به.

﴿شَطَطًا﴾ القول البعيد عن الصواب، وأصل الشَّطَط: البُعد.

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ يُؤنِّبون قومهم ويلومونهم أنَّهم عبَدُوا آلهةً أخرى من دون الله بلا حجّة بيّنة ولا دليل.

﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ عرَّف الكهف بالألف واللام، وكأنه كان معهودًا فيما بينهم، ولربما كانوا بالفعل قد وضعوه في حسبانهم واختاروه مكانًا للاختباء عند الحاجة.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ يبسط رحمته عليكم.

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ وصف لحالهم أثناء رقودهم في الكهف، فهم في المكان الأوسع أو الأوسط من الكهف، وليسوا في طرفٍ أو زاويةٍ منه، وكان مدخل كهفهم نحو الشمال؛ بحيث تدخل أشعة الشمس عند شروقها في جهته اليسرى فقط، ويبقى الظل في الجهة اليمنى، فإذا مالت نحو الغروب تحوَّل الظل إلى جهته اليسرى، وعلى هذا يكون الكهف في حالة اعتدال طيلة النهار، ويبقى للشمس مكان في زوايا الكهف من شروقها إلى غروبها، ومعنى تزاوَر: تميل، ومعنى تقرضهم: تتركهم، والله أعلم.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ مَن يراهم يظنُّهم أيقاظًا، ربما بفتح عيونهم، أو بحركة أجسادهم؛ لأنه قال عقب هذا: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾، وربما يكون كلّ هذا من الأسباب التي لا نعرفها، لكن الله جعلها وسيلةً لحفظ هذه الأجساد من البِلَى، وهو سبحانه الأعلم والأحكم.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ والوصيد مدخل الكهف، وهنا تكتمل الصورة الدقيقة للكهف ومن بداخله وحركة الشمس من حوله.

﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ بنقودكم، والظاهر أنها من الفضَّة.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أطيبُ وأطهرُ وأبعدُ عن الشبهة.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ في ذهابه وإيابه ومعاملته في السوق.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ لا يجعل أحدًا من أهل القرية يشعر بكم وبمكانكم، وفيه تأكيد وجوب الحيطة والحذر، والأخذ بكل الأسباب المتيسِّرة؛ فإن احترام الأسباب التي وضعها الله في هذا الكون لا يقِلُّ أهميةً عن احترِام أمره ونهيه وتطبيق شريعته سبحانه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: جعلنا الناس يعثرون عليهم.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ﴾ ليحفظ هذه القصَّة، ويكون شاهدًا للأجيال، فردَّ آخرون وهم أصحاب الغلبة والسلطة: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

والمسجد مكان للعبادة، وهو بُنيان أيضًا، ويؤدِّي غرضَ البُنيان مع إضافةِ معنى الإيمان والشكر، والأصل في المسجد أنه مكان لعبادة الله وحده، ويبعُد أن يكون هذا بقصد عبادتهم؛ إذ لو كان كذلك لأنكره القرآن لمحلِّ الإيهام، وتأخير البيان عن وقت حاجته ليس في حكمته ورحمته بخلقه سبحانه، كما أنَّ الآية ليست صريحةً في أنَّ البناء كان على أجسامهم أو أجداثهم، والله أعلم.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ﴾ هكذا عقَّب القرآن على هذَين القولين إشارة إلى بطلانهما، ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ﴾ إشارة إلى أن هذا القول هو الأصوب، والله أعلم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ إلا بقَدر أخذ العبرة الظاهرة دون تعمُّق في الأسماء والأعداد التي لا تؤثِّر في العبرة، ولا تزيد فيها ولا تنقص، ثم أكَّد هذا بقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، فما جاء في القرآن يكفيك عن السؤال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ذَكَر الغد، والمقصود كلّ ما يستقبل من الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تأديبٌ لعباد الله في شخص النبيِّ القدوة - بأبي هو وأمّي- أنّهم يحتاطون فيما يعزمون عليه بذكر مشيئة الله؛ لأنه وحده الذي يعلم الغيب، ويعلم قابل الأيام والساعات.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت قول: (إِن شَاءَ الله) عند العزم على أمرٍ مستقبلي، فقُلْها متى تذكَّرتَ.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ الظاهر من الآية أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة، ثم مدَّ الله في عمرهم تسع سنين أخرى، فهذا معنى الزيادة الأظهر والأبسط، لكننا بحاجة لإثبات أنّهم عاشوا كلَّ هذه السنوات التسع بعد صحوتهم، وهذا الإشكال حتى إنْ لم نجد له جوابًا، فهو لا ينهض لوحده قرينةً على صرف الزيادة عن معناها الظاهر.

ولا يبعُد أن يكون المقصود: أنهم لبثوا في كهفهم تسع سنين وثلاثمائة، وإنّما سمَّاها زيادةً، على عادة العرب في قولهم مثلًا: أعطيتُه ألفًا وفوقها مائة، أي: أني لم أكتَفِ بالألف، بل زِدته عليها.

ولما كانت الثلاثمائة كثيرة فيما اعتادَه الخلق، اكتفى بذكرها القرآن أولًا، ثم عقَّب بإضافة الزيادة؛ ليكتمل العدد الصحيح الذي لا يعلمه إلا الله.

أما القول بأن التسع قُصِدَ بها الفارق بين السنين القمرية والشمسية، فهذا من حيث الحساب الفلكي صحيح ودقيق، لكنه يشكل من حيث تسميته زيادة؛ إذ الفارق بين التوقيتَين لا يحمل زيادة، ويشكل من ناحية أخرى: أن العرب الذين نزل القرآن بلُغَتهم لم

يكن لهم عِلم بهذا الفارق في الحساب، فكيف فهِمُوا هذه الآية؟

نعم، لا بأس أن يقال: إنهم لبثوا في الحساب القمري تسع سنين وثلاثمائة، وأنه ظهر بالمقارنة أنه يساوي ثلاثمائة فقط من الحساب الشمسي، لا أن القرآن قصَدَ الحسابَين معًا، وبمستوى واحد من الدلالة، فهذا تكلُّف لا يحتمله المنهج القرآني، والله أعلم.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ إثبات السمع والبصر لله تعالى بالكيفيَّة التي لا يُضاهِيه فيهما أحد من خلقه.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في بداية النهوض للعمل اليومي؛ استعدادًا للإتقان والأداء الأفضل، وطلبًا للبركة والتوفيق الإلهي، وبعد العودة منه استغفارًا ومراجعةً ومحاسبةً.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ لا تجاوزهم بنظرك واهتمامك إلى غيرهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ شتاتًا لا يجمعه جامع، وذاك أمر أصحاب الهوى المتقلِّب بحب المصالح الآنيَّة.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قصة المؤمن مع صاحبه الكافر

بعد الصورة التي عرَضَها القرآن الكريم لنموذج من الصراع بين فريقَي الحقِّ والباطل، يعرض القرآن هنا صورةً لنموذج آخر يُلامِسُ خوالِجَ النفوس، والنظرة المختلفة لهذا الكون والحياة، ومعايير السعادة والشقاء، في حوار ثنائيٍّ هادئ إلى حدٍّ كبير، فلا يظهر فيه ذلك

الصخب، وتلك الحركة المليئة بالحيويَّة والمفاجآت مما رأيناه في قصة الكهف، ويمكن رسم معالم القصة الجديدة كما يأتي:

أولًا: قدَّم القرآن لهذه القصَّة بتأكيد قواعد المفاصلة بين الحقِّ والباطل وبما يشبه حلقة الوصل بين القصة الأولى والقصة الثانية ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ فهنا طريقٌ للحقّ وآخر للباطل، والإنسان مخيّرٌ بينهما بلا إجبارٍ ولا إكراهٍ، وهو يتحمل مسؤوليته الكاملة في هذا الخيار ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ هذه هي عاقبة الكافرين الظالمين.

أما عاقبة أهل الإيمان والصلاح فقد جاءت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

ثانيًا: تدور القصَّة كلُّها حول رجلَين، أحدهما: غنيٌّ لكنه كافر، والثاني: فقيرٌ لكنه مؤمن ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

ثالثًا: كان الرجل الكافر مزهوًّا بماله، مغرورًا بقوَّته ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، وكان يتعالَى على صاحبه الفقير ويقول له: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

رابعًا: أما صاحبه الفقير فكان متمسِّكًا بإيمانه ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، وكان حريصًا على دعوة صاحبه لهذا الإيمان ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾.

إنه يُذكِّره بتأريخ خلقه ونموِّه من طورٍ إلى طور حتى بلغ هذا الأشدَّ، وأنه ليس له في قصَّة خلقه شأن، فالله هو الذي خلقه من العدم، ومن ثَمَّ فهو الأعلم به وبما يُصلِحه، وكان يُذكِّره أيضًا بنعمة الله عليه لعله يشكرها ولا يكفرها، ويستعملها بالخير بدل أن تشطَّ به

نحو التكبُّر على عباد الله، وسوء الخُلق معهم ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾.

وكان يُحذِّرُه من عاقبة هذا السلوك المُشِين بحقِّ الله وبحقِّ عباد الله ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾، إنه يُذكِّره بأنَّ السموات والأرض بيد الله وحده، وأنَّه سبحانه الذي سخّر له كلّ هذه النعم قادر على أن يقلبها عليه بما يشاء، وكيفما يشاء.

خامسًا: ثم يعرض القرآن عاقبةَ هذا العناد والمكابرة الباطلة ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

سادسًا: وفي ختام هذه القصَّة عاد القرآن ليؤكِّد تلك الحقائق الكبرى التي هي أكبر من هذه الحياة وما فيها من تفاوت بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، وأنَّ ما أصاب حديقة هذا المعاند المتكبر سيُصيب الحياة كلَّها؛ لأنَّ الله لم يكتب لها الخلود ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

وأما الذي يبقى حقيقةً فإنَّما هو العمل الصالح والذِّكر الطيِّب ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾، ووفق هذا المعيار العادل سيواجه الناس مصيرهم المحتوم الذي هو آتٍ آتٍ، طال الزمان أم قصُر ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

وهكذا تكون القصة بين المؤمن وصاحبه الكافر كأنها مدخل للوصول إلى هذه الحقائق وتأكيدها.

دقائق التفسير

﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ سُورها، وما يحيط بها، في إشارةٍ إلى أنَّ مَن فيها لا يمكنهم الهرب منها، وأصل السرادق: ما يقيمه المترفون وكبار القوم حول قصورهم ومجالسهم، من أبنية وأقواس للأبَّهة والزينة، وكأنَّ القرآن أراد أنْ يُذكِّرهم بذلك؛ تبكيتًا لهم، وتهكُّمًا بهم.

﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كالمعدن المُذاب.

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ منزلًا، وأصل المرتفق ما يُعدُّ للراحة والمقيل والسمر ونحو ذلك.

﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ثياب منوَّعة فيها الرقيق ﴿سُندُسٍ﴾، وفيها السميك ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وكلها من الحرير والديباج.

﴿الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، وهي السرير.

﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أثمرت.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص من الثمر شيئًا، بمعنى: أنها أثمرت ثمرًا كاملًا بلا عيبٍ ولا نقص.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ شققنا بينهما نهرًا، والتفجير يوحي بقوة تدفق الماء من باطن الأرض، والظاهر أنّ فيهما عينًا جارية.

﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أكثر أولادًا، بدلالة قول صاحبه المؤمن له: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ تعبيرٌ عن طول أمل ابن آدم ونسيانه لحقائق الدنيا ونوائب الدهر.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ يعني أنه على فرض وجود الآخرة، فإنَّ الله سوف يكرمني فيها كما أكرمني في الدنيا، كأنه يرى نفسه أهلًا للإكرام لخصوصيةٍ في نفسه، وهذا غاية العُجْب الباطل، والغرور الكاذب.

﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا مُقدَّرًا من السماء، كالصواعق ونحوها.

﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ترابًا أو طينًا تزلق عليه الأقدام؛ لأنَّه لم يبق فيه شجر ولا زرع.

﴿غَوْرًا﴾ غائرًا في الأرض.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أحاط الدمارُ بثمره.

﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ تعبيرًا عن الحسرة والندم.

﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ صورة من صور الدمار ذهبت كالمثل في شدَّة الخراب: أن تسقط العروش أولًا - وهي السقوف -، ثم تتهاوى الجدران على السقوف، فيصير أعلاها أسفلها.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ ظاهر في ندمه، ولا مانع من توبته وأوبَته للحقِّ، والله أعلم به وأرحم.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ثوابه تعالى أفضل الثواب، والعاقبة التي وعد بها المؤمنين أفضل العواقب.

﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ يابسًا محطمًا تُشتِّته الرياح.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الأعمال الصالحات، ومنها: الإيمان والذكر والعبادة، وحُسن الخلق.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فالعمل الصالح هو الذي يفتح باب الأمل، وحسن الظن بالخالق الكريم تبارك وتعالى.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ نحرِّكها ونزيلها من أماكنها، وهذه صورة من صور الخراب العام الذي يعمُّ الأرض وما عليها عند قيام الساعة.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرةً، ليس فيها شجر ولا بنيان، وترى: خطاب لغير معيَّن، كأنّه يقول: لو كان هناك أحد لرآها هكذا.

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ جمعنا الناس جميعًا للحساب ولم نترك أحدًا منهم.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ حفاةً عراةً بلا بهرج ولا زينة، هكذا خلقناكم أول مرة، وهكذا تعودون.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ الخطاب لُمنكِري البعث.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ اسم جنس لكلِّ الكتب التي تحمل أعمالَ البشر؛ لأنَّ الله جعل لكلِّ مُكلَّفٍ كتابًا خاصًّا به.

﴿مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين.

﴿يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ نداء بالثبور والهلاك.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ قاعدة كليَّة لا تتخلَّف، ومُناسبتها هنا: إزالة الوهم في نسبة ما في هذه الكتب من مُوجِبات العذاب إلى الجبر القدري الذي يحتج به دائمًا بعض المُبطِلِين.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

قصة الصراع الطويل بين الحق والباطل

بين هذه القصص التي تفرَّدَت بها سورة الكهف يعيد القرآن في هذا المقطع التذكير بقصة الخلق الأولى، والصراع الطويل بين الإنسان والشيطان، وهي قصة مكررة في القرآن الكريم ومؤكَّدة بأساليب مختلفة، وكأنها محور الابتلاء الإنساني الذي قدَّره الله في هذه الحياة، وقد مرَّت بنا بتدبُّر أوسع؛ ولذلك نكتفي هنا بالإشارة السريعة لبعض الملامح المناسبة لسياق السورة:

أولًا: إنّ الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ﷺ، فسجدوا إلا إبليس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ويبدو من السياق أنه داخل معهم في الأمر وإنْ لم يكن من جنسهم.

ثانيًا: صرَّح القرآن بأنّ إبليس كان من الجن، وجعل هذا كأنه السبب في فسوقه عن

الطاعة ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ إذ الجنّ كالإنس في هذه الناحية، ففيهم القدرة على الطاعة والقدرة على المعصية؛ تحقيقًا لمعنى الابتلاء والاختبار، بخلاف الملائكة.

ثالثًا: إنّ إبليس وذريَّته في حالة عداء دائم لآدم وذريَّته، وعليه فلا ينبغي لبني آدم أن يتخذوا الشياطين أولياء وأنصارًا لهم ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

رابعًا: إنّ الله بدأ الخلق ولم يُشهد إبليس ولا ذريّته ولا تلك الآلهة المزيّفة التي عبدها الإنسان بغواية الشيطان، فالله مُتفرِّدٌ في خلقه، وهو الغنيُّ عنهم من كلِّ وجه، وهم المفتقرون إليه في أصل وجودهم، وفي كلّ شؤونهم ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

خامسًا: تلك الحقيقة الكبيرة ستتجلّى يوم القيامة، وسينكشف كلُّ تزييفٍ وخداعٍ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، وهناك سيندم أولئك المجرمون والمعاندون ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

سادسًا: أكّد القرآن أنّ تلك الحقيقة قد بيّنها القرآن وفصَّلها وأقام الحجة عليها، لولا الكبر والعناد والجدال بالباطل ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

سابعًا: إن سنَّة الله ثابتة وباقية لا تُحابي أحدًا، ولا تظلم أحدًا، ووفق هذه السنَّة العادلة يكون الإنسان هو الذي يختار طريقه دون جَبرٍ من القدر ولا إكراه ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، وهذا العذاب إنّما هو نتيجة لظلمهم وتكذيبهم بدعوة الأنبياء ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾.

ولم تكن هذه الغشاوة التي على قلوبهم وأبصارهم إلا مِن صنع أيديهم ومن ظلمهم لأنفسهم ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾، مع أنَّ الله فتح لهم باب الرحمة والمغفرة ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ أعوانًا، فالله هو الغنيُّ عنهم وعن غيرهم.

﴿مَّوۡبِقٗا﴾ مكان الهلاك والعذاب، والظاهر أنّها جهنَّم، والعياذ بالله.

﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ بالشفاعة لهم، وبدفع العذاب عنهم.

﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا، وفيه معنى التهكُّم على سبيل المشاكلة؛ لظنِّهم الباطل بربهم حينما كانوا في الحياة الدنيا.

﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ واقِعُون فيها.

﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ مخرجًا ومهربًا.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ أي: فصَّلنا فيه كلَّ ما يحتاجون إليه من الأخبار والمعتقدات والشرائع.

وانظر هنا إلى التشاكُل اللفظي بين ﴿مَصۡرِفٗا﴾ و﴿صَرَّفۡنَا﴾ في إشارةٍ إلى أنهم لو تدبَّرُوا هذا التصريف القرآني، لوجدوا لهم مصرفًا عن ذلك العذاب.

﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ الجدل المذموم، وهو جدل المخاصمة والمعاندة.

﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ سنَّة الله في الأولين لمّا عاندوا وكفروا.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ يواجهونه مواجهة، والظاهر أنَّه إشارة لما سيحصل للمشركين يوم بدر.

﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ ليبطلوا.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ هذه سنَّة الله العادلة بلا ظلمٍ ولا محاباةٍ، فمن سارَ على طريق الهداية اهتدى، ومن سارَ على طريق الضلالة ضلّ، فهذا الجَعْل ليس جَعْلًا جبريًّا يسلب إرادة الإنسان، بل هو نتيجة لظلمهم؛ ولذلك استهلَّ هذه الآية ببيان ظلمهم ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾.

﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ ولكنه يؤخِّرهم لعلهم يتوبون أو يتذكرون، وهذا الأنسب لمستهل الآية: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ ﷻ.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ تأكيدٌ لمعنى العدل الإلهي، فإنَّما يحصد الإنسان ما زرع.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

قصة النبي موسى مع الرجل الصالح عليهما السلام

من فرائد سورة الكهف هذه القصة: قصة النبي موسى وفتاه مع الرجل الصالح ﷺ، فمع كثرة تكرار اسم موسى وحياته المتنوعة مع أخيه هارون وقومهما، ومع فرعون وملئه في عددٍ غير قليلٍ مِن سور القرآن، إلا أنَّ هذه القصة لم تتكرَّر ولم ترِدْ إلا في هذه السورة، والتي يمكن الوقوف مع تسلسُل أحداثها المُثيرة كما يأتي:

أولًا: تبدأ القصة بتحديد هدف واضح سار إليه موسى مع فتاه بعزمٍ وإصرار ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾.

والقرآن لم يُشِر بدايةً إلى الغاية من قصد هذا المكان، ولكن السياق يقودنا إلى أنَّ الغاية كانت مُلاقاة الرجل الصالح، والذي لم يُسمِّه القرآن أيضًا، ولكن الثابت في الأخبار أنه الخضِر ﷺ كما سيأتي، ويبدو من السياق أيضًا أن الله قد كلَّف موسَى بمُلاقاة هذا الرجل والتعلُّم منه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾.

وقد جعل الله لموسى علامةً واضحةً على قُرب وصوله إلى هذا المكان؛ حيث سيأخذ الحوت الذي معهما طريقه إلى البحر، وسيترك أثرًا له غائرًا في الماء ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾، وهذه من دلائل الرعاية الإلهية المباشرة والدقيقة لهذه السفرة الفريدة.

ثانيًا: وصل موسى إلى مُبتغاه، والْتَقَى بالرجل الذي قال الله فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ وحين طلب موسى أن يتتلمَذَ على يديه، أجابَه بلُغة العالم الواثق بما معه من العلم: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾، وهنا يردُّ التلميذ الحريص كلَّ الحرص على التعلُّم: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾، وهنا بدأ المُعلِّم يُمِلِي شروطَه: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾.

إنه مشهد لا تكاد الكلمات تَقوَى على وصفه أو تحليله؛ فموسى النبي الرسول، والقائد التاريخي الكبير يجلس ليتعلَّم مِن رجلٍ هو بالتأكيد أقلُّ منه منزلةً، وأقلُّ شأنًا. إنها تربية القرآن لنا دعاة ومدعوِّين، علماء ومتعلِّمين، قبل أن تكون قصَّة توثيقيَّة لذلك الحدث الغابر في التاريخ.

ثالثًا: كان المشهد الأول بعد اللقاء والاتفاق على أسس الصحبة أنَّهما ركبا في سفينة لمساكين يعملون في البحر، فقام الرجل الصالح بخرقها، وهنا لم ير الكليم ﷺ بُدًّا من النهي عن المنكر، خاصَّةً أنه رسولٌ مُبلِّغٌ لشريعة الله، فأنساه هذا شرطه مع الخضر ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ

﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾، ولم يكن ردُّ صاحبه عليه إلا أن ذكَّره بالشرط: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، فاعتذر له موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾.

رابعًا: المشهد الثاني كان الأشدَّ على موسى ﷺ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾.

خامسًا: المشهد الثالث، والذي يبدو أنه الأخفُّ من حيث إنه لم يشكِّل انتهاكًا ظاهرًا للشريعة ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ﴾، ولكن صبر موسى نفد ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾، وهنا أعلن صاحِبُه انتهاءَ الرفقة ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾، ولا شكَّ أن القصَّة لا بد أن تتوقَّف؛ إذ المقصود التربوي والتعليمي قد تحقَّق بهذه النماذج الثلاثة.

سادسًا: في وقفةِ الفراق كان الرجل الصالح يشرح لسيدنا موسى ﷺ الجوانبَ التي خفِيَت عليه في كلِّ مشهد ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾.

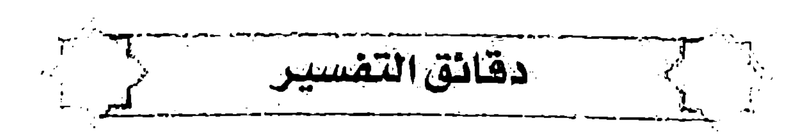
سابعًا: الملْحَظ الجدير بالتوقف هنا قوله: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾، فهذه الجوانب التي خفِيَت على النبيِّ موسى أَطْلَعَ الله عليها هذا الرجل لحكمة ظاهرة في سياق القصَّة، وهذا تأكيدٌ عمليٌّ لقوله تعالى في بداية القصَّة: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ وهو تعليمٌ مقترنٌ بالأمر، وهو أمارة النبوَّة الظاهرة.

والقول بنفي النبوَّة عنه يفتح البابَ لدعاوى كثيرة؛ من ادِّعاء نزول الأوامر الإلهية على البشر بعد النبيِّ الخاتم ﷺ، كما هو شأن الرافضة مع أئمَّتِهم، وهذا يقدَحُ أيضًا بختم النبوَّة من حيث المضمون والفحوى، فإذا كان التعليم الإلهي المباشر لعباده مستمرًّا وفيه أمرٌ ونهيٌ قد يصل إلى خرق السفينة، وقتل الغلام، فما معنى انقطاع الوحي إذن؟

ثامنًا: أما الدرس المحوري الظاهر في القصَّة فهو درسٌ للعلماء، فهذا هو النبي الكريم والكليم الذي واجه فرعون وسلطانه، وقارون وماله، وقادَ شعبًا كبيرًا ومُعقَّدًا غاية التعقيد، يقِفُ بنفسه ليتعلَّم ممن هو أقل منه، مِن رجلٍ لم يذكُر القرآن اسمه، بل ولم يذكره إلا في هذا الموضع كمعلِّمٍ لموسى فقط، ثم هذه الروح الجادَّة في البحث عن أهل العلم والتشبُّث بهم، والتي جعلت موسى يُصِرُّ على مُلاقاة هذا المعلِّم حتى لو أفنَى الحِقَب من عُمره!

وأخيرًا فتلك المشاهد الحيَّة التي أقنعت موسى ﷺ بما يمكن تسميته اليوم بالتنوُّع المعرفي، فالمنظور المعرفي لناظرٍ قد يختلف عن منظور آخر، وهذا بطبيعته يؤدِّي إلى اختلاف في التصوُّرات والأحكام، ومن ثَمَّ كان لا بُدَّ من الْتِقاء المناظير في بؤرة علميَّة مشتركة ومتفاعلة ومتكاملة للوصول إلى الحقيقة الكاملة.

أما الروايات التي تَحكِي بعض حيثِيَّات القصة ومقدِّماتها وأسبابها، فيمكن الرجوع إليها في كتب التفسير بالمأثور؛ كتفسير الطبري، وابن كثير، وأبواب التفسير أيضًا في صِحاح السنَّة، وخاصَّةً عند البخاري ومسلم، ففيهما البُلْغَةُ الموثوقة، ويكفينا هنا أخذ العبرة العمليَّة من السياق القرآني مَشيًا على المنهجيَّة المعتمدة في تأليف هذا الكتاب.



﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ وهو يوشع بن نون[1].

---

(١) وردت تسميةُ فتى مُوسَى ﷺ بـ (يوشع بن نون) في حديث طويل عن ابن عباس يرويه عن أبي بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ، والحديث متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٥٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م) ومواضع آخر، وصحيح مسلم (٧/ ١٠٣/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

يحسُن تفسير القرآن بغير بيِّنة، وكلُّ ما ذكَره المُفسِّرون هنا من تحديدٍ جغرافي للموقع قائم على الظنِّ والتقدير، والله أعلم.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أزمانًا طويلةً غير محددة.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: لم ينتَبِها له حينما خرج من المتاع الذي كان معهما ودخل البحر.

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: عند دخوله البحر ترك نفقًا في الماء غير ملتئم؛ ليكون علامةً لهما.

وقصة الحوت كلُّها آيةٌ من آيات الله لا تنطَبِق عليها نواميس الأرض؛ ولذلك قال عنه في الآية الثانية: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، والله أعلم.

﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي: ما أنساني ذكر الحوت ومتابعة حركته إلا الشيطان.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: مكان نزول الحوت في البحر؛ لأنّه علامة المكان الذي فيه الرجل الصالح، و﴿نَبْغِ﴾ أصله نَبغِي، وهو مضارع مرفوع، وإنما حُذِفَت الياء تخفيفًا.

﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رجعا يتتبَّعَان خطواتهما طلبًا للمكان الذي نسيا عنده الحوت.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ هو الخضر ﷺ[٢].

﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ لا تبدأني بالسؤال والإنكار حتى أُخبرك أنا بحقيقة الأمر الذي أفعله.

﴿فَانطَلَقَا﴾ تكرر هذا الفعل في هذه القصَّة ثلاث مراتٍ؛ ليدل على الحركة والفاعلية، كما

---

(٢) ذكر النبيُّ ﷺ أن العبدَ الصالح صاحبَ موسى هو (الخضِر) ﷺ، وذلك في نفس الحديث السابق الذي رواه الشيخان عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب ﷺ في تسمية فتى موسى بـ(يوشع بن نون) صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

يدل أيضًا على أنّ هذه الأحداث لم تكن في مكانٍ واحدٍ.

﴿إِمْرًا﴾ عملًا فظيعًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ قَتْلُ الخضِر للغلام مسألة أشكلت على كثيرين؛ إذ المبادرة إلى قتل الغلام عملٌ مخالفٌ للشرع، حتى لو افترض كفره، أو أنّ الله طبع على قلبه بالكفر، أو أنه سيرهق أبَوَيه بالكفر، فكلُّ هذا ليس مُسوِّغًا شرعيًّا لقتله؛ ولذلك لا يمكن القياس عليه، ولا اتخاذ هذه الحادثة دليلًا على فعلٍ قريبٍ أو مثيلٍ.

والذي يترجَّح لديَّ – والله أعلم- أنَّ الخضِر لم يكن في هذا الموقف سوى أداةٍ للقدر، فالله الذي بيده حياة الناس وموتهم قد كتب على هذا الغلام الموتَ في تلك اللحظة، فأوحَى إلى عبده الخضِر ليكون سببًا قدريًّا لا غير، وهذا هو قولُ الخضر نفسه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، وهذا تأكيدٌ لنبوَّته ﷺ؛ إذ يستحيلُ أن يكون مِثل هذا الأمر كان بطريق الإلهام، أو بما يسمِّيه الصوفيَّة بالعلم اللَّدُنِّي، والله أعلم.

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ بريئةً وطاهرةً عن كلِّ ما يستوجب القتل.

﴿نُّكْرًا﴾ منكرًا كبيرًا مخالفًا لضرورات الشرع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي: أنهما وصَلَا في مسيرهما إلى قرية، فطلبا من أهلها طعامًا فردُّوهما، وقد ستَرَ الله على أهل هذه القرية فلم يُعرِّف بهم ولا بقريتهم، فالأَولَى الالتزام بهذا الأدب القرآني، والبُعد عن الخوض في اسم القرية ومكانها.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: مائل إلى السقوط، وهو من باب المجاز؛ إذ الجدار ليست له إرادة.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ عدَّله ورمَّمه.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لأن أهل هذه القرية لا يستحِقُّون منك أن تُقيمَ لهم هذا الجدار دون أجر، وقد سبق أن طلبنا منهم طعامًا فأبوا.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا﴾ أي: صالحة؛ ولذلك خرقها حتى لا يأخذها الملك.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنًا وَكُفۡرًا﴾ ذكر الحكمة القدرية والتي لا تحتمل القياس؛ لأنها من قبيل القدر الإلهي المتصل بإرادة الله المطلقة وليس من قبيل التشريع؛ إذ ليس في التشريع نظير لهذا، فالله أراد الخير للأبوين بموته، حتى لا يقودهما حبهما له إلى الكفر.

والدرس المستفاد هنا هو درسٌ قدريٌّ محضٌ، فالمؤمن الذي يواجه المصائب القدرية في حياته مما لا سبيل إلى دفعه، عليه أن يُحسِنَ الظنَّ بربه، ويستشعر رحمته بعبده، فربما لو كشف له حجابُ الغيب لرأى مصلحته في هذه المصائب، والله أعلم.

﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرًا مِّنۡهُ﴾ كأنه يتكلم بلسان القدر، فالإرادة لله، وما الخضر هنا إلا السبب والأداة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ فيه تأديبٌ عظيمٌ؛ وهو أنّ المؤمن لا يعمم بحكم السوء، فالقرية التي أبَت أن تُضيِّف موسى والخضِر ﷺ كان يعيش فيها رجلٌ صالحٌ، وقد ترك يتيمَين له يستحِقّان الرعاية، وقد عرف الخضِر شأنَهما بإخبار الله له، فأقام لهما الجدار، ولم يُعاقبهما بفعل أهل قريتهما.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

قصة ذي القرنين

هذه هي القصَّة الأخيرة في هذا السورة، وهي من فرائدها أيضًا؛ حيث لم يأت ذِكرُ لذي القرنَين إلا في هذه السورة، ويمكن تلخيصُ الملامح الرئيسة لهذه القصة في النقاط الآتية:

أولًا: جاءت القصة جوابًا لقومٍ لم يُسمِّهم القرآن كانوا قد سألوا رسولَ الله ﷺ عن ذي القرنين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، والسائل على الأغلب هم أهل مكة؛ لأن السورة مكيَّة، ولا يبعُد أنَّ أهل الكتاب في يثرب قد لقَّنُوهم هذا السؤال بحُكم العلاقة التي كانت بين مكة ويثرب، ولا يبعُد أيضًا أن تكون قصص السورة الأخريات من هذا القبيل، وتبقى العبرة بمضمون القصة وليس بشخص السائل.

ثانيًا: إن الله قد مكَّن لذي القرنَين في الأرض دون أن يُحدِّد لنا هويته وتاريخه والأرض التي امتدَّ إليها سلطانه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، لكن القرآن يؤكِّد في أكثر من موضع وبأكثر من قرينة صلاحَ هذا الرجل وعدله، ودفاعَه عن المظلومين

والمستضعفين، بل كان ممن يُلهِمهم الله ويُسدِّدهم ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، وكان ينسِبُ كلَّ هذا الخير والتمكين إلى ربه تبارك وتعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

ثالثًا: يلخِّص القرآن حركةَ ذي القرنَين بثلاثة اتجاهات:

الأول: نحو الغرب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾.

والثاني: نحو الشرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

والثالث: لم يحدده القرآن، واكتفى بقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

وهذا يعني أنَّ يأجوج ومأجوج في مكانٍ ثالثٍ لا هو مطلع الشمس ولا مغربها، وما يقال: إنهم في جهة الشرق لا يحتمله السياق، والله أعلم.

رابعًا: إنه قام بإنشاء السدِّ؛ لقطع الممر الذي كان يهجم منه يأجوج ومأجوج على أولئك الناس، وقد كان الممر طريقًا بين جبلَين متساويَين في الارتفاع، فقام ذو القرنَين بردمِه بقطع الحديد المُتماسِك بعد إيقاد النار عليه ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

خامسًا: نجح السدُّ في منع يأجوج ومأجوج من شنِّ غاراتهم على هذه الأقوام؛ حيث أصبح السدُّ حائلًا بينهم ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ ولكنه سيُدكُّ في موعده المحتوم ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

سادسًا: ليس في حديث القرآن عن يأجوج ومأجوج ما يُخرِجهم عن المألوف في الطبيعة

الآدميَّة، ولا عن حالهم بعد مرور كلِّ هذه القرون، والروايات بمجموعها مُتضاربة، ولا تُقدِّم أجوبةً مُتكاملةً عن قصَّة هؤلاء القوم، وأين هم الآن؟ وهل بإمكان هذا السدِّ أن يمنعهم الآن من الخروج؟ والأسلَم ترك أمرهم إلى الله دونَ الخوض في التفاصيل، ولا الجزم بشيءٍ يصدم النص الصريح، أو الواقع الملموس.

دقائق التفسير

﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يحتمل أنه سُمِّي بذلك؛ لأنَّه كان يُضفِّر شعره ضفيرتَين، والعرب تسمي الضفائر قرونًا، أو أنه كان يلبس شيئًا على رأسه بقرنَين بارزَين، وقد يكون لسببٍ آخر لا نعرفه، والمسألة ليست مما ينبني عليه العمل، والله أعلم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أيَّدْناه بكلِّ أسباب القوة والتمكين التي تناسب عصره وجيله.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ سلك طريقًا مُعيَّنًا.

﴿مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ المكان الذي تسقط فيه الشمس عند غروبها فيما يراه الناظر، والمقصُود جِهة الغرب.

﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ماء أسود مختلط بالطين.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ خطاب الله له بصيغة مباشرة محمول على الإلهام، وليس من مانع يمنعه أن يكون نبيًّا، والله أعلم.

﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ لأنهم قوم بدائيون لا يعرفون البناء، فليس لهم مساكن، ولا قرى تسترهم عن الشمس مثل باقي الأمم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ جبلَين متقابلَين كأنهما شِقَّا الصَّدَفة، يؤكده قوله تعالى الآتي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾.

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ من غيرهم؛ لغرابة لُغَتهم، وانعزالهم عن العالم من حولهم.

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هم قومٌ من بني آدم، ولم يذكر القرآن عنهم أمرًا مُستغربًا في خِلقَتهم، وكانوا يعتَدُون على الأقوام المجاورة لهم.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نجمع لك من المال ما يمكنك من بناء السد.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما أعطانيه ربي خير مما تجمعونه لي.

﴿رَدْمًا﴾ يردم به الفجوة بين الجبلَين، وهذه هي طبيعة هذا السد.

﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قِطَع الحديد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ ردم الفجوة التي بين الجبلَين بشكل كامل.

﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ معدنًا مُذابًا يجمع قِطَع الحديد في بناءٍ واحدٍ.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي: لم يتمكَّنُوا مِن الصعود عليه ولا فتح ثغرة فيه، فبقوا محجوزين وراءَه، وممنوعين من الإغارة على جيرانهم، وأضاف التاءَ على فعل (اسطاع)؛ لأن النقب أصعب من الظهور، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى.

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

وقفات ختامية

في ختام هذا التجوال التاريخي في صفحات فريدة من سفر هذا الإنسان وحركته على هذه الأرض، بدءًا من قِصَّةِ أصحاب الكهف وأحداثها المثيرة، ثم مع الرجلَين المتحاورَين بشأن جنَّة الدنيا وجنَّة الآخرة، ثم قصَّة موسى وفتاه مع الرجل الصالح، وأخيرًا ذو القرنَين وبناؤه للسد العجيب لصدِّ يأجوج ومأجوج، بعد كل هذا يعود القرآن مُذكِّرًا بالحقائق الكبرى التي هي أكبر من كلِّ هذه الأرض، وأوسع من كلِّ ذلك التاريخ، فلنتدبَّر:

أولًا: أن هذه الحياة كلها ستتوقف وستنتهي بحلوها ومرها، وصالحها وطالحها؛ لتبدأ حياة أخرى بنظامٍ جديدٍ، وعمرٍ خالدٍ مديدٍ ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

ثانيًا: أنَّ التمايُز هناك سيكون على أساس العمل الذي قدَّمه الناس في هذه الحياة ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾،

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

إن هؤلاء الأشقياء قد عطَّلُوا منافذ المعرفة في نفوسهم، فكانت أعينهم في غطاءٍ، وآذانهم في صَممٍ، وكانوا غارقين في السخرية والاستهزاء بعباد الله، أمَّا عباد الله هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله، واستشعروا عِظَم المسؤولية وجديَّة الأمر، فلهم - بلا شكٍّ - وضعٌ آخر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾.

ثالثًا: نبَّه القرآن في هذه السورة بالذات على سببٍ رئيسٍ من أسباب الضلال يخصُّ الصادقين في تديُّنهم أكثر من الكاذبين، والجادِّين أكثر من العابثِين، إنها صورة الإنسان المتشبِّث بعقيدته الموروثة - مهما كانت - تشبُّث المتعصِّب المُنغَلِق الذي لا يرى الحقَّ إلا فيها، ولا يرى النجاةَ إلا معها، لكنها عقيدةٌ غير مفحُوصة، ولا قائمة على دليلٍ أو تفكُّرٍ أو تدبُّرٍ ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾.

هؤلاء المساكين عادةً ما يكونون جنودًا أوفياء ومخلصين لقادتهم وآلهتهم المزيَّفة، إنهم يقدِّمون أرواحهم وأموالهم في الطريق الخطأ، ولديهم القدرة على معاداة العالمين من أجل فكرة عبثيَّة، أو بدعة مشوهة لا تستقيم على أصلٍ، ولا تؤدِّي إلى غاية.

رابعًا: أنَّ عِلم الله أوسَع من أن تُحيط به الكلمات، أو تستوعِبُه الأرض بمَن عليها وما عليها ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ في إشارةٍ إلى أن ما ورد في هذه السورة من أخبار غيبيَّة إنَّما هو من علم الله الذي لا يقصُر عن شيء، ولا يغيب عنه شيء.

خامسًا: التفريق بين علم الله الشامل والكامل، وبين العوارض البشريَّة التي تصيب

الأنبياء ﷺ، وقد اقتَضَى هذا تعريف النبي تعريفًا دقيقًا بالسور الجامع المانع ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

فالنبيُّ هو إنسانٌ من حيث صفاته البشريَّة وعوارضه واحتياجاته، وإنما يتميَّز بالوحي، ومن ثَمَّ كان لا بُدَّ من التفريق بين الجانبَين في شخصيَّة النبيِّ، والضابط في هذا أن كلَّ قول أو فعل أو تقرير منه ﷺ متصلٌ بوظيفته في تبليغ الوحي، فهذا الحقُّ المطلق، وهو محل التأسِّي الواجب؛ لأنَّه الوحي المُنبَثِق من علمِ الله وحكمته ورحمته تبارك وتعالى، وما عدا ذلك مما لا يتَّصِلُ بالوحي، ولا يشعر بطلب القُربَى والثواب من الله مثل: الأكل، والشرب، والنوم، واللبس، والركوب، والسُّكنَى، والمرض، والتعب، والنسيان، والفرح، والغضب، والبيع، والشراء .. إلخ مما لم ترِد معه قرينةُ الوحي، فهو مِن الصفات البشريَّة التي لا تدخل في مسمَّى الدين إلا من حيث إفادتها للإباحة؛ لأن النبيَّ لا يرتكِب المحرَّم، والله أعلم.

وقد جاء ذِكرُ هذا التعريف مُناسبًا لسورة الكهف وما فيها من أخبارٍ فريدةٍ جاء بها الوحي؛ لتأكيد ثبوتها أولًا، ولتمييزها ثانيًا عن العوارض البشريَّة للأنبياء؛ كالنسيان الذي أثبتَه الله لموسى وفتاه ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وأشار به إلى نبيِّنا محمد ﷺ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، والله أعلم.

سادسًا: رسم طريق النجاة بكلمات موجزة ومباشرة ولا تحتمل اللَّبسَ أو الغموضَ ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، إنه الإيمان بالله وحده، والالتزام العملي بمُقتَضَيات هذا الإيمان كما جاء في سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر].

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: قبل يوم القيامة؛ حيث يختلط يأجوج ومأجوج بعامة الناس، ويكثر الجهل والهرج والمرج، وتغشى الفتن، ويضطرب النظام.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ ذاك يوم البعث؛ حيث يُجمع الناس إلى خالقهم سبحانه.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ أي: أظهرناها لهم عيانًا بعد البعث، وقبل أن يحكُم الله عليهم بدخولها.

﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لا عن عاهةٍ، بل عن عنادٍ وتكبُّرٍ؛ ولذلك استوجَبُوا العقاب.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في إشارةٍ إلى أن اتخاذ النِّدِّ مع الله هو كفرٌ ولو كان النِّدُّ عبدًا من عباد الله، كما هو شأنُ النصارى مع سيدنا عيسى ﷺ، وقوله: ﴿مِن دُونِيٓ﴾ أي: من دون إذني، سواء أكانوا يعبدونه مع الله أم من دون الله.

﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أكثرهم خسارة، وهم الذين يعملون ويجتهدون في عملهم، لكن بعقيدةٍ فاسدةٍ، ولغايةٍ منحرفةٍ.

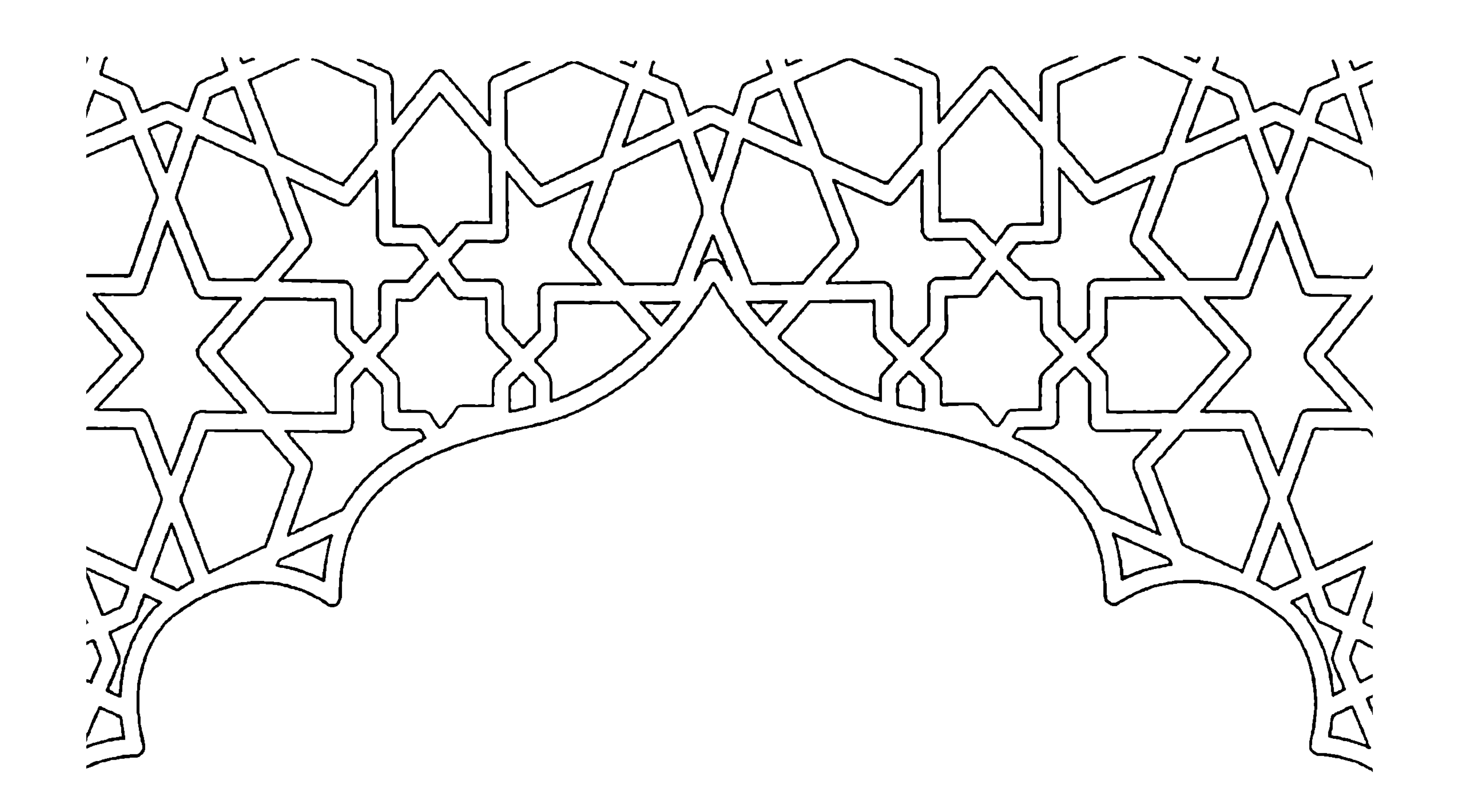
﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ لا يطلبون عنها تحويلًا.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ لانتهى ماؤه.

﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ علمه سبحانه الشامل، وما يتَّصِل به من إخبار بالغيب، وتشريع للحياة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من حيث الخِلقة والحاجة الجسدية، والتعرُّض للطوارئ؛ كالنوم، والسهو، والنسيان بما لا يخدِش مقام العصمة.

أما تميُّزه - بأبي هو وأمّي - عن سائر البشر بما خصَّه الله به - إضافةً إلى الوحي، ومقام النبوة، والرسالة الخاتمة - من حكمةٍ بالغةٍ، وخُلقٍ عظيم، وحِلمٍ كريم، فهذا لا يُنكِرُه إلا جاهلٌ أو حاسدٌ.



سورة مريم

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

تبدأ هذه السورة بقصّة زكريًّا ﷺ ونداته الخفي لربه تَعَالَىٰ أن يهبه غلامًا صالحًا بعد أن كبر سنُّه، ولم يُرزَق بولد، والقصَّة هذه كأنها تمهيد لموضوع السورة الأساس، ألا وهو قصَّة مريم وآيتها الكبرى بولادة عيسى ﷺ، وقد كانت مريم في كفالة زكريًّا، وقد رأت ما حصل، فكان هذا إعدادًا إيمانيًّا ونفسيًّا لها.

تجدُرُ الإشارة إلى أن الروح العائلية الحميمة ظاهرة في هذه السورة، فبعد الحديث عن زكريًّا ومريم، جاء الحديث عن إبراهيم ﷺ مع أبيه، ثم عن إبراهيم وبَنِيه إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم عن موسى وأخيه ﷺ، وهكذا، وكأنَّ القرآن يُقدِّم نماذجَ أسريَّة للاقتداء والتأسّي، ثم في ثلث السورة الآخر يُحدِّثنا عن واقع البشريَّة بعد تلك النماذج، وما أصابها من تراجع وارتباك واختلاف.

وأما قصَّة زكريًّا وابنه ﷺ فيمكن تلخيصها بحسب هذه السورة المباركة في النقاط الآتية:

أولًا: كان زكريًّا ﷺ قد اشتعل رأسه شَيبًا، ووهن عظمه، لكنه لم يُرزق بولد، فأخذ يدعو

ربه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

وقد جاء في دعائه هذا إشارات أنه كان يخشى على من بعده بسوء تصرُّفهم، وضياع العهد الذي يتركه لهم، وهو عهد الإيمان والنبوة والتقوى، فلم يكن يرى في مواليه - وهم عصَبَتُه وأقرباؤه - مَن هو أهلٌ لحَمل هذه الأمانة التي حملها زكريَّا عن آبائه وأجداده من آل يعقوب ﷺ.

وأما التأويل أنَّ هذا كان خوفًا على ماله أن يذهب ويتفرَّق في عصَبَته، فهو تأويلٌ لا يلِيقُ بمقام الأنبياء ﷺ، ثم ما الذي كان يملِكُه زكريَّا وهو رجلٌ نجَّارٌ يأكل من كسب يده، ولم يُعرف بالثراء، كما أخبر النبي ﷺ في حديث مسلم[1]؟.

وقد نصَّ في دعائه أنه يرجو الولد الذي يرثه ويرث من آل يعقوب، فهل ترك آل يعقوب أموالًا لدى زكريا؟ أو تركوا النبوة والعلم والهدى؟

وأخيرًا فالذي يدحَضُ هذا التأويل من أصله ما ورد في «البخاري» وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»[2]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا العِلْمَ**»[3].

---

(١) نصُّ الحديث عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا»، ينظر: صحيح مسلم (٧/ ١٠٣/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) الحديثُ متفق عليه، وقد رواه البخاري في عدة مواضع من «صحيحه»، أغلبها كما أثبتناه، ورواه باختلافٍ بسيط، وكذا فعل مسلم في «صحيحه»، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١١٢٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٥/ ١٥١/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

ثانيًا: استجابَ الله دعاءَ زكريًّا، وبشَّره بيحيى الذي لم يُسمَّ أحدٌ باسمِه من قبل ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾.

ثالثًا: أظهر زكريًّا دهشَتَه وتعجُّبَه ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾، وهذا ليس على سبيل الشكِّ ولا الاستِبعاد؛ حيث إنه هو الذي دعا بهذا، ولو لم يكن يرجو لمَا دعَا، ولكنه إظهارٌ جميلٌ لافتِقار العبد أمام قُدرة مولاه، ولجهلِه أمام علمه سبحانه، وفيه من تعظيم النعمة، وأنها لم تأتِ على عادة الناس، وكلّ هذا من كمال العبودية، وتمام الأدب والشكر.

رابعًا: طلب زكريًّا من ربه علامةً على بدء الحمل ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾، وهو استعجالٌ يناسب طبيعة البشر في هذه البشارات، فأخبره الله تعالى بالعلامة: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أنه لن يقدر على الكلام طيلة هذه الليالي، بمعنى أن الله تعالى يسلب عنه القدرة على النطق فِيهنَّ، وهذه آيةٌ من الله وخرقٌ للعادة، وليس هو امتناعًا تكليفيًّا؛ لأن العمل التكليفي لا يصحُّ علامةً في هذا الأمر، والله أعلم.

خامسًا: واصَلَ زكريًّا دعوَتَه إلى الخير وتذكير الناس بالله، ولم ينشغل بشأنه الخاص ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أوحى إليهم؛ لأنه لا يقدر على الكلام، والوحيُ هنا: الإشارة.

سادسًا: بعث الله يحيى ليواصل دعوة أبيه كما كان يرجو الأب ﷺ، واختصر القرآن حديثَه عن رسالة يحيى بهذه الكلمات: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا

(٣) الحديث رواه أبو داود (٣/ ٣٥٤/ دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والترمذي (٥/ ٤٨/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، وابن ماجه (١/ ٨١/ دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي)، وأحمد (٥/ ١٩٦/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط ﵀: حسن لغيره.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

إنها العلم والقوَّة والحُكم والتقوى والتواضع والمبرَّة بوالديه، هذه منظومة القيم التي جاء بها الأنبياء، وهي الكفيلة بإصلاح الفرد والمجتمع والأمة.

دقائق التفسير

﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ لتقدُّم العمر به.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ مجاز في سرعة انتشاره، وأصل الاشتعال للنار.

﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ أن يُضيِّعوا أمانة الهَدي والنبوَّة، والموالي: القرابات.

﴿عَاقِرًا﴾ لا تلِد.

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يرث النبوَّة التي كانت فيهم، ويحمل الأمانة التي حملوا.

﴿رَضِيًّا﴾ مرضيًّا عندك.

﴿بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ من تمام كرم الله ورحمته أن اختارَ له حتى الاسم، وهو اسمٌ لم يُسمَّ به أحدٌ من قبل، وفي الاسم إيحاءٌ لطيفٌ بطول العمر وتمام الصحة.

﴿عِتِيًّا﴾ أصله مجاوزة الحد، ومعناه هنا: الشيخوخة المجاوِزة لحَدِّ الكبَر.

﴿ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ علامة من عندك أستدل بها على قُرْبِ تحقُّق البشارة.

﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ لا تقدر على الكلام فيهنَّ من غير عاهةٍ ولا خرسٍ، و﴿سَوِيًّا﴾ أي: معتدلًا سليمًا من النقص، وقد جاءت هذه الكلمة في المقطع التالي: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ بالمعنى نفسه.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أومأ وأشار.

﴿مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ من المكان الذي اتخذه مصلى له.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ صباحًا ومساءً.

﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ تعلَّم التوراة بعزيمة وإتقان - حيث لم يكن الإنجيل قد نزل بعد واحمِلها إلى الناس كما حملها آباؤك وأجدادك.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ معرفة الأمور وتمييزها، والعلم بأحوال الناس وما يصلحهم.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ أي: منحناه مع الحكم والعلم الحنان والتزكية، فقد جمع الله له القوة والرقة والعلم والتزكية، وهذه شروط التقوى ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ عليهما، ولا ﴿عَصِيًّا﴾ لهما.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ تحيَّة من الله وسلام، وبشارة دائمة لذلك النبيِّ الكريم الذي سمَّاه الله بنفسه، على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قصة مريم وابنها المسيح عليهما السلام

مريم، تلك الفتاة التي نذَرَتها أمُّها لله وهي جنين لم يرَ الحياة بعد، فأنبتها الله نباتًا حسنًا، وكفَّلها أحد أنبيائه، ورزقها في المحراب بما حيَّر كافلها حتى كان يسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾، فتقول: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ثم رأَت بعينَيها معجزة زكريَّا في استجابة الله لندائه الخفي، فبشَّرَه على كِبَر سنِّه وعُقْم امرأته بيحيى النبي الكريم ابن النبي الكريم.

هذه هي مريم التي نزلت هذه السورة باسمها، تواجه في هذا المقطع ما لم تُواجِهه أنثى على الإطلاق! وهذه الآيات تُجلِّي لنا هذه القصَّة الفريدة، وكما يأتي:

أولًا: اعتزلت مريم قومَها واحتجبت عنهم ناحية الشرق؛ لحاجةٍ لم يذكرها القرآن، فأرسل الله إليها ملكًا من عنده بصورة بشر سوِيٍّ معتدل الخلقة ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

ثانيًا: لم تعلَم مريم حقيقة هذا الملك فارتابت منه، وطلبت منه أن يبتعد عنها، ونادته بنداء الإيمان والتقوى تُذكِّره بالله وتخوِّفه منه ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

ثالثًا: عرَّفها المَلَك بنفسه وأنه مُرسلٌ إليها من الله لأمرٍ قدَّره الله وقضاه بهذه الصورة ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

رابعًا: أنكرت مريم ذلك وتعجّبت منه بحكم بشريّتها والناموس الكوني الذي وضعه الله في هذه الحياة ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، فالغلام لا يأتي من المرأة دون أن يمسّها الرجل زواجًا أو بغاءً، ومريم الفتاة العذراء التي لم تتزوج، والحَصَان الطاهرة التي لم تعرف الحرام.

خامسًا: أجابها المَلَك بلُغة القدر والإرادة الإلهيَّة المطلقة التي لا تحدُّها كلُّ نواميس الكون، وهل النواميس التي نخضع لها ونتعامل بها إلا مِن صنع الله الواحد سبحانه؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ وقد حمل لها في هذا الجواب بشارات عظيمة في هذا المولود المعجزة أنّه آية من الله ورحمة للناس.

سادسًا: حملت مريم بعيسى كما قدَّر الله القدير سبحانه، ولم يذكر القرآن لنا عن مدَّة الحمل هذه، ولا ما مرَّت به من أحوالٍ جسديَّة ونفسيَّة واجتماعيَّة، واكتفَى بقوله: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: ذهبت بعيدًا عن قومها، والسياق يُوحِي بخشيتها من مواجهة قومها.

سابعًا: حين دنَت ساعة الولادة الْتَجَأَت إلى جِذعِ نخلةٍ، وهي تتمنَّى الموتَ خشيةً من كلام الناس، وهذا شأنُ كلِّ شريفةٍ حييَّةٍ، فكيف بمريم؟ ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

ثامنًا: هنا سمِعَت صوتًا يُجيبها ويطمئنها، والظاهرُ أنه صوتُ ابنها وحبيبها الوليد، وهذه أُولى مُعجزاته ﷺ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يُخبِر عن نفسه بما يُذهِب عن أمه الحزنَ والخوفَ، بمعنى أنه سيكون بين الناس عظيمًا، فالسَّراة: هم قادة المجتمع وعظماؤه، وتفسير السَّرِيِّ بجدول الماء ونحوه - وإن صح لغةً -، إلا أنه بعيد عن السياق؛ لأنها كانت تحمِل همَّ الفضيحة عند الناس، ولم تكن تشكو الجوع والعطش، بل ربما لم تفكِّر بهما أصلًا.

تاسعًا: بعد أن سمِعَت المعجزة واطمأنَّت إلى رعاية الله لها، وهدَأَت مشاعرها ومخاوفها، ناداها وليدُها مرة أخرى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ يُعلِّمها بما أودَعَه الله لها في هذه النخلة المباركة، وهذه مع كونها معجزةً، فهزُّ الجذع لا يسقط الرُّطَب، كما يعرف ذلك أهل النخيل.

وفيه أيضًا المبرَّة المبكرة لهذا المولود بوالدته ﷺ، والتي أكَّدَها مرة ثالثة بقوله: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ يُوصيها بما يصلح من حالها جسديًّا ونفسيًّا، إنها إشارات تربويَّة، تُعلِّم الولد الحرص على والدته، والاهتمام بها وبكلّ شؤونها.

عاشرًا: أما كيف ستُواجه قومها؟ فأخذ وليدها يُوصيها بما أوحى الله إليه: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾.

حادي عشر: جاءت به تحمله إلى قومها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾، هنا كانت الصدمة لهم، فهم يعرفون مريم العذراء الطاهرة، لكنها ها هيَ تحمل دليلَ إدانتها بيدها ﴿قَالُوا

﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، وقد أنصَفُوها فزكُّوا نسَبَها من جهة الأب ومن جهة الأم، ولكن ماذا يفعلون وهم بشرٌ وقد رأَوا ما لا قِبَلَ لهم بإدراكه ولا بفهمه؟

ثاني عشر: هنا أشارت مريم إلى وليدها الذي تحمله أن يسألوه، نعم فهي متأكدةٌ أنه سيتكلَّم؛ لأنها كانت منذ قليل تسمعُ له، تسمعُ لوصاياه ونصائحه وتطميناته ﷺ.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ هنا تكلَّم الصبيُّ، الصبيُّ الذي اختارَه الله ليكون آية إلى قيام الساعة ورحمة للناس ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

إنه لم يتكلَّم بما يرفع التهمة عن والدته الزكيَّة الطاهرة، وإنّما راح يشرح لهم رسالته التي بعَثَه الله بها، لقد غدَا يدعوهم إلى الحقّ الذي هو أكبر من الأرض وما عليها، وأكبر من الحياة وما فيها.

ثالث عشر: اختَتَمَ القرآن هذه القصة بجملةٍ من الدروس والتوجيهات الربَّانيَّة، مؤكِّدًا حقيقة السيد المسيح، ومفنِّدًا لقول النصارى فيه ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وأنّ الصراط المستقيم إنّما هو صراط التوحيد الخالص ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وأنّ يوم الفصل آتٍ لا محالة ليُحقَّ الحقّ ويُبطِل الباطل، ويَلقَى كلٌّ جزاءَه ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ اعتزلت قومها وذهبت بعيدًا عنهم.

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ المَلَكُ المُكلَّف بذلك، والأقرب أنه جبريل ﷺ.

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي: إن كنت تخاف الله فستبتعد عنِّي.

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ أي: ليَهَب الله لها، والمَلَك ليس سوى سببٍ غيبيٍّ لا نُدرك نحن البشر سرَّه في هذه القصَّة.

﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ لم يُعاشِرني زوجٌ.

﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ مكانًا بعيدًا.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ ألجَأها المخاض ودفع بها إلى جذع النخلة.

﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ تتمنَّى لو أنها ماتت قبل هذا ولم يبق لها ذكر بين الناس.

﴿سَرِيّٗا﴾ هو العظيم في قومه، كأنه يقول لها: إن ابنكِ هذا لن يكون سببًا في حَسرَتكِ وشقائِكِ عند قومِكِ، بل سيرفع مِن ذِكركِ، والسَّرِيُّ مفردٌ جمعُه: السَّراة، والسياق يقتضي هذا؛ لأنه قال لها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ فالذي تحتَكِ لا يمكن أن يكون سببًا للحزن، والله أعلم.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ معونة من الله لها؛ لأن هزَّ الجذع لا يُسقِط الرُّطَب في العادة، بل إن الجذع في العادة لا تَقوَى على هزِّه امرأةٌ وهي في المخاض.

أما القول بأن الجذع كان يابسًا وغير مُثمر أصلًا، فهذا لا دليل عليه، والأصلُ حملُ الكلام على المعتاد في هذه الحياة، وليس على الخوارق والنوادر، والله أعلم.

وقوله: ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي: كاملًا وصالحًا للجَنْي، وهو القَطْف.

وهنا أيضًا وقفة؛ إذ وقت نضج الرطب إنما يكون في الصيف وليس في الشتاء، وعليه فالتاريخ الميلادي الذي يعتمده النصارى اليوم، ويزعمون أنه يبدأ بولادة السيد المسيح لا يستقيم؛ لأن الولادة الميمونة ستكون في وسط الشتاء نهاية الشهر الثاني عشر، ولا يمكن أن يكون في هذا الوقت رُطَب، والله أعلم.

﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ إمساكًا عن الكلام، وأصلُ الصوم: الإمساك والامتناع عمّا هو مُعتاد من طعامٍ، أو شرابٍ، أو كلامٍ.

﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أمرًا شنيعًا.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ لم يرِد في القرآن ولا في السنَّة الصحيحة تعريف بهارُون هذا، ومُحالٌ أن تكون أختًا لهارُون أخي موسى ﷺ لفارق الزمن، والظاهر أنهم شبَّهوها به أو برجلٍ معروفٍ عندهم بالتقوى، كأنهم يقولون: يا شبيهةَ هارون، واستعمال الأخ والأخت لهذا الغرض معروف في اللغة، والله أعلم.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أعطاني الإنجيل، واستعمل الفعل الماضي لتحقُّق وقوعه.

﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكُّون ويختلفون، وقد أشار لهذا الاختلاف في الآية الآتية.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ مذاهب اليهود والنصارى من بين غالٍ حتى قال بألوهيَّته، وقالٍ مُكذِّبٍ له وطاعن بأمه ﷺ.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أشدَّ سمعهم وبصرهم في ذلك اليوم.

﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ هو يوم القيامة؛ لأنه سيكون يوم ندم وملامة.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ يخبر ربُّنا ﷻ أن هذه الأرض التي جعلها ميدانًا للتكليف والاختبار، ومنحها لهذا الإنسان على سبيل التخويل ستعود لله كما كانت قبل هذا التخويل والتكليف.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

شذرات من سير النبيين عليهم السلام

بعد ذِكر ما جرى لزكريَّا وابنه يحيى، ثم لمريم وابنها المسيح ﷺ، عاد القرآن ليُذكِّر بإشاراتٍ سريعةٍ بنماذج أسبَق وأكثر عمقًا في التاريخ، إنه يُؤكِّد أنَّ رسالةَ الأنبياء في هذه الحياة واحدة مهما اختلفت أماكنهم، وتباعَدَت أزمانُهم، فلنَقِف مع هذه الشذَرات المُبارَكات:

أولًا: حوار إبراهيم ﷺ مع أبيه، حوار الابن البار بأبيه المشفق عليه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ سؤال يمزج العقل بالعاطفة، والمعرفة بالوجدان، ثم يُطَمْئِنُ أباهُ أن نصيحته هذه ليست فكرة عابرة، أو ردَّة فعلٍ طائشة، لا، بل هي العلم

الأكيد، العلم الموصِل إلى الحقِّ والحقيقة ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ثم يُكرِّر هذا الخطاب بعبارات مختلفة وأساليب متنوعة مرَّات ومرَّات، والله وحده يعلم كم كان بين المرة والأخرى.

فما كان مِن أبيه إلا أن يتوعَّده ويُهدِّده ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ﴾، فلم يجِد إبراهيم ﷺ بُدًّا من الهجرة، لكنه ترك سلامًا وودودًا لأبيه مع أنه مُصِرٌّ على شركه وكفره ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فلما اعتزل أباه وقومه عوَّضَه الله بذريَّةٍ صالحةٍ طيِّبةٍ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وهنا يكون الربط والسياق الموحَّد مع القصَّتَين السابقتَين.

ثانيًا: اصطفاء الله لموسى ﷺ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ هكذا، فكما وهَبَ الله لإبراهيم ولزكريَّا ولمريم ما تقَرُّ به عيُونُهم، وهَبَ هارون لموسى، هارون الأخ والنبيّ والعضيد، وفي قوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ تأكيدٌ لسياق الجوِّ العائلي لهذه السورة المباركة، وقد خصَّ الله موسى بتكليمه سبحانه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾.

ثالثًا: رعاية إسماعيل ﷺ لأهله وحرصه عليهم ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وهي شذرةٌ تربويَّةٌ أسريَّةٌ تؤكِّد أيضًا السياق العام للسورة.

رابعًا: التذكير بأسماء عددٍ من الأنبياء بإشارات سريعة ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ ويلحظ هنا تكرار كلمة ﴿ذُرِّيَّةِ﴾ في تأكيدٍ مستمرٍّ لسياق السورة وموضوعها الأساس.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ فيه أنَّ صراط الله المستقيم إنما يُعرف بالعلم، وليس بالجهل أو الخرافة مما يسمِّيه الناس إيمان العجائز، أو الدروشة البعيدة عن منهج الاستدلال والاستنباط.

وفيه أيضًا أنَّ الداعي إلى الحقِّ ينبغي أن يُظهِر ما عنده من العلم؛ لينال ثقة المدعوِّين بما عنده، والتذرُّع بالتواضع وكراهة الظهور تذرُّع فاسد، وقد مرَّ معنا قول السِّبط يوسف ﷺ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

﴿مَلِيًّا﴾ زمنًا طويلًا.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أطلُبُ منه سبحانه أن يغفرَ لك ذنبكَ.

وهنا مسألةٌ دقيقةٌ، وخلاصةُ القول فيها: أنَّ استغفار المسلم لغيره إن كان بمعنى طلب الهداية له، فهذا أمرٌ مشروعٌ ولا غُبار عليه، وإن كان بمعنى طلب العفو عنه مع بقائه على الشرك، أو أنّه قد مات على الشرك، فهذا محظورٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[4]، وعلى هذا يُحمل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ من الحفاوة واللطف والإكرام.

(٤) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في آيتَين من سورة النساء/ ٤٨، ١١٦.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ من زوجته التي هاجرت معه واعتزلت قومها أيضًا، وهذه مناسبة ذكر إسحاق دون إسماعيل، ثم أفرَدَ الله ذِكرَ إسماعيل لمناسبة أخرى، وهي رعايته لأهله وحرصه عليهم، كما مرَّ.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من الجانب الأيمن للطور بالنسبة لموقف موسى ﷺ، والطور جبل معروف.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي: مُناجيًا.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ﴾ نموذجٌ آخر، وقد أفاد التذكيرُ به معنى العمق التاريخي الطويل لهذه الدعوة المباركة؛ حيث إنه ﷺ عاشَ بين آدم ونوح، ومن ثَمَّ جاء التذكير بهما أيضًا لتأكيد هذا المعنى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ عليهم وعلى نبيِّنا الأكرم صلواتُ الله وتسليماتُه.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

حال الخَلَف بعد أولئك النبيين

بعد ما عرَضَه القرآن من سلسلة النماذج المباركة للنبيين السابقين وحالهم مع الله، وعناية الله بهم، واستجابته لدعائهم، ومدِّهم بأسباب الثبات، ومُواصلة المهمة الكبيرة بين ذويهم ومع قومهم، شرَعَ القرآن بتشخيصِ حال الخَلَف الذين جاءوا بعد طول العهد وتعاقب الأجيال، وهنا يسلِّط القرآن الضوءَ على حالةٍ واسعةٍ من الاختلاف واضطراب الرؤية، وشيُوع الانحراف عن ذلك النهج النبوي السديد، وهو في خِضَمِّ هذا التشخيص لا يفتأُ عن التذكير والمحاورة، والترغيب والترهيب، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: إن الخلف بشكلٍ عام قد نكَصُوا عن ذلك الهدي النبوي ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ فاستحقُّوا بهذا العقاب الأخروي ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ ثم استثنى الله تعالى مَن تاب منهم وأصلح ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

ثانيًا: ذكر القرآن بعد إضاعة الصلاة واتِّباع الشهوات حالةً أشدَّ وأبعَدَ عن ثوابت الإيمان، وهي التشكيك بالبعث والحياة الآخرة ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾ وهنا بدأ القرآن يُحاورُ هذا الصنف: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ وإذ لم تنفع هذه المُحاججة العقلية يذهب القرآن إلى هزّ هذه النفوس من داخلها ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ إنّه التصوير الذي يُرهب الإنسان ويدفعه من داخله للتفكير في جدِّية الأمر وخطورته.

ثالثًا: يعرض القرآن سببًا غير مباشر للغفلة عن الآخرة والتشكيك بها ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ إنّه الترف إذن؛ الترف الذي يُعمي أهله ويشغلهم عن حقيقة

أمرهم وما ينتظرهم في قابل أيامهم، هؤلاء الذين يظنُّون أنَّهم المُصطَفَون من دون خلق الله، وأنَّهم مُستحِقُّون لهذا الترف بحكم تميُّزهم عن الآخرين ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾.

رابعًا: ثم يعرض القرآن أشنَع الشناعات وأبشَع البشاعات التي انحدر إلى قاعها العقل البشري: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾.

خامسًا: بيَّن القرآن أن مهمة هذه الرسالة الخاتمة إنَّما هي الدعوة إلى الحقِّ، والتبصير به، والبشارة لكلِّ راغبٍ به مُقبِلٍ عليه، والنذارة لكلِّ لَدُودٍ مُعانِدٍ مُخاصِمٍ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

دقائق التفسير

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الظاهر أنهم أتباع الأنبياء السابقين من اليهود والنصارى الذين طالَ بهم العهد فقَسَت قلوبهم، وابتَعَدوا عن هَدي أسلافهم، وفيه الإشارةُ إلى أهمية الصلاة، والتلازُم بين تركها وبين اتِّباع الشهوات، كما نبَّه في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ عذابًا أليمًا.

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ جنات دائمة.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ يأتي الناس إليه فيرونه بعد أن كان لهم وعدًا غيبيًّا.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فهو رزقٌ دائمٌ غير منقطع.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ التفاتة في وسط السياق، والكلام هنا عن جبريل الذي يتنزل بهذا الوحي، فهو لا يتنزل من نفسه، وإنّما بأمر ربه، وأنّ الله لا ينسى - تبارك وتعالى عن ذلك -، والمقصود الكلّيُّ لهذه الالتفاتة تأكيد صحة هذه الأخبار من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، فالقرآن لا يتنزل برغبة النبيِّ ولا الملائكة، وإنّما بعلم الله الشامل وإرادته المطلقة سبحانه.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ هل تعلم له شبيهًا ومُماثِلا في ذاته أو اسمه أو صفاته تعالى؟

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ استدلالٌ على الخلق الثاني الذي يرتاب فيه المبطلون بالخلق الأول، فالذي خلقهم أوّل مرةٍ قادر على إعادة خلقهم، بل هو بمقاييس البشر أهون وأيسر.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ جاثون على ركبهم خائرون خائفون.

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ أي: لنخرجنَّ مِن كلِّ طائفةٍ وجماعةٍ قادَتهم وأكثرهم طغيانًا وظلمًا؛ ليراهم الناس مكشوفين مخزيين ثم يبدأ بهم العذاب.

﴿أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ مَن يستحق أن يصلَى بنار جهنّم.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ الخطاب لهؤلاء الجاثِين مع شياطينهم حول جهنّم؛ دَفعًا لتوهُّم أنّ بُسطاءَهم مُبرَّؤون من العذاب بعد أن خصَّ العُتاة منهم وقادَةَ الشرّ فيهم بنزعهم وإخراجهم أمام الملأ.

وما ورد من روايات حول تعميم هذا الخطاب لكلِّ الناس بمن فيهم أهل الإيمان لا ينهض لإخراج هذه الآية من سياقها، بل ولا ينهض لتغيير صورة الوعد والوعيد الكليَّة التي أكّدها القرآن بمئات الآيات؛ أنَّ الوعد بالجنة للتُّقاة المؤمنين، وأنَّ الوعيد بالنار للعصاة الكافرين، وهذا محلُّ اتفاق جميع المفسّرين؛ أنَّ الأتقياء لا يدخلون النار مُطلقًا، ولكنهم

حينما أرادوا الجمع بين هذا الأصل القرآني المحكم وبين تلك الروايات فسَّروا ورودَ المتقين على النار بمرورهم عليها مِن فوق الصراط، وهو مخرجٌ لا يضرُّ، لكنه لا يخلو من التكلُّف.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ مَعاذَ الله أن يكون الذين اتقَوا قد دخَلُوها مع هؤلاء الظالمين، وإنَّما الكلام عن حالَتَين منفصلَتَين، والربط بينهما إنَّما جاء لزيادة إيلام هؤلاء الظالمين، و﴿ ثُمَّ﴾ هنا لا تحتمل الترتيب الزمني، حتى لو كان الورود بمعنى المرور على الصراط، فهؤلاء المتقون لن يطول وقوفهم للحساب إلى أن يُقضى لأهل النار بالنار، والله أعلم.

﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيًّا﴾ أحسن مجلسًا، كأنهم يتباهون بمجالسهم وحاشيتهم وأسباب نعيمهم.

﴿أَحۡسَنُ أَثَٰثًا وَرِءۡيًا ﴾ متاعًا وزخرفًا وبهرجةً.

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ خبر بصيغة الأمر، بمعنى أن الله هو الذي يمدُّ هؤلاء الطغاة بهذا المتاع وهذا البهرج، ويزيد لهم بالنعم.

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيۡرٌ مَّرَدًّا ﴾ الأعمال الصالحة هي الباقيات، وهي الأكثر خيرًا والأدوم نفعًا، و﴿مَّرَدًّا ﴾ عاقبةً.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدًّا﴾ نزيد له في العذاب، وهذا مُناسِبٌ لمدِّه بالنعم في الحياة الدنيا التي لم يزدَد بها إلا كفرًا وعنادًا وتكبُّرًا على عبادِ الله.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا ﴾ نرِثُ منه ما كان يقول عنه ويتباهى به؛ المال والولد، فهذه ودائع كانت بيده على سبيل التخويل لا التأبيد.

﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴾ تُحرِّكُهُم وتدفعُهُم دفعًا لكلِّ ما فيه شرُّهم وشقاؤهم.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴾ فكلُّ شيءٍ بميزانٍ وحسابٍ؛ آجالهم وأرزاقهم، وما هم فيه، وما هم صائرون إليه.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ جماعات بعضهم مع بعض؛ ليزدادوا أُنسًا وبهجةً، وفي الوفد معنى الاحتفاء والتكريم.

﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ كالقطيع الذي يساق إلى مورده.

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ استثناءٌ منقطعٌ معناه أنّ هؤلاء ليست لهم شفاعة ولا يقدرون عليها، ولكن الذين يشفعون هم أولئك الذين وعدهم الله بها، كالنبيين والصديقين والشهداء، وهؤلاء لا يشفعون إلا لمن ارتضى.

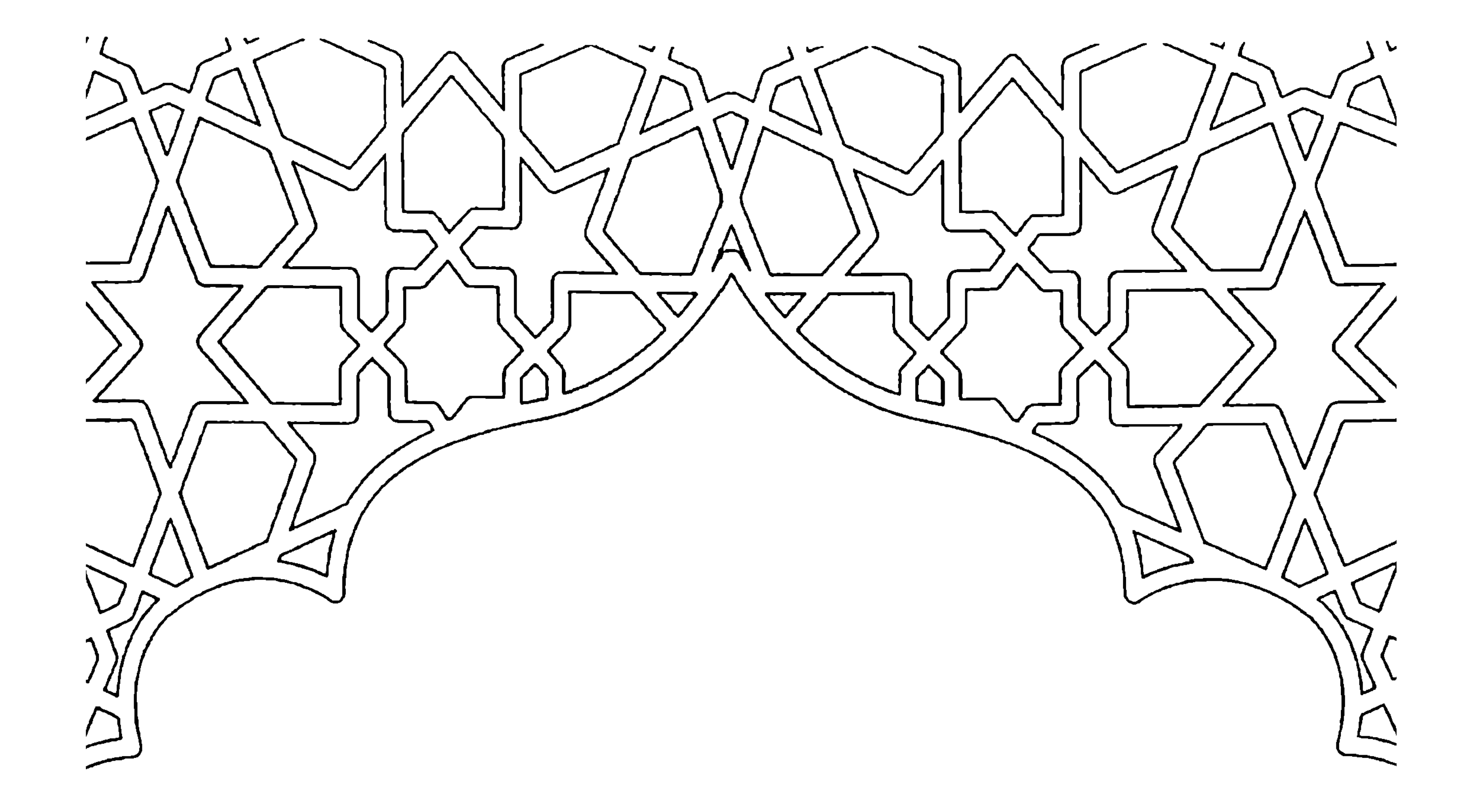
﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ منكرًا عظيمًا.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ عَلِمَهُم واحدًا واحدًا، ولم يغِب عن علمه منهم أحد، كأنه يقول لهم: فمِن أين يأتي هذا الذي تزعُمُون أنه ابنٌ لله؟ ﷻ ربُّنا العظيم عن مثل هذا القول الأثيم.

﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ سيجعل لهم المودَّة والمحبَّة التامَّة فيما بينهم مع محبَّة الله لهم، في إشارةٍ إلى أنّ من كان بينه وبين أخيه شيء في الدنيا فإنه سيذهب ويحلّ محله الودّ والحبّ.

﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ شديدي الخصومة، في إشارةٍ إلى كفَّار قريش.

﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ صَوتًا.



سورة طه

المجلس الرابع والثلاثون بعد المائة: موسى عليه السلام: الإعداد والتهيئة الربانية

المجلس الخامس والثلاثون بعد المائة: موسى عليه السلام في مواجهة فرعون

المجلس السادس والثلاثون بعد المائة: موسى عليه السلام مع بني إسرائيل

المجلس السابع والثلاثون بعد المائة: يوم الحساب والجزاء

المجلس الثامن والثلاثون بعد المائة: التذكير بالعهد الأول وتوجيهات ختامية

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾

موسى عليه السلام: الإعداد والتهيئة الربانية

سورة طه كأنها نزلت في النبيِّ موسى عليه السلام خاصَّة، تلخِّص سيرته، وتتابع مراحل حياته المختلفة، والأحداث التي واجهته، وجديرٌ بالذكر هنا أن قصة موسى بالعموم لا شكَّ أنها القصة الأبرز في كلّ القصص النبوي الوارد في القرآن الكريم كلّه، وأكثرها ورودًا وتكرارًا.

وفي هذا المقطع تعرض السورة المرحلة الأولى في سيرة هذا النبي الكريم، وهي مرحلة التربية والتهيئة والإعداد، ويمكن تلخيصها في الآتي:

أولًا: يُمهِّد القرآن لهذه القصَّة بتأكيد موثوقيَّة مصدرها ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فهذا القرآن الذي يقصُّ علينا هذه القصص إنما هو تنزيلٌ من الله الذي يعلَمُ السرَّ وأخفَى، وله السموات والأرض وما تحت الثرى، وهذا التمهيد جاء مناسبًا للحدث الأكبر والأجلِّ الذي استهلَّ به القرآن هذه القصَّة.

ثانيًا: تبدأ القصة في هذه السورة بالحدث الأجلِّ ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ هذا الحَدَث الذي لا ينبغي للمُتدبِّر معه إلا أن يقف موقف الهيبة والخشوع، والشعور بضآلة العقل البشري لو حاول أن يتجاوز حدود إمكانيَّاته وقدراته، إنها لحظة اتصال السماء بالأرض بالكيفية التي لا يستطيع العقل تخيُّلها ولا مُلامسة كُنهِها، لكنه يسلِّم لها؛ لِمَا ظهر منها في عالم الأرض من آياتٍ بيِّناتٍ ومُعجِزاتٍ قاهراتٍ.

ثالثًا: بيَّن القرآن بشكلٍ قاطعٍ الحكمةَ من ذلك الحدث العظيم ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ ثم أكَّد هذا المعنى في نهاية المقطع ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ إنه الاصطفاء الخاص، والبدء بصياغة هذه الشخصية الصياغة الخاصّة التي تؤهِّله للقيام بالدور الكبير الذي اختاره الله له في تلك المرحلة الخطيرة من التاريخ البشري.

تجدُرُ الإشارة هنا إلى أنَّ الرسالة الموسويَّة هي الأقرب للرسالة المحمديَّة من حيث شموليتها، وخطورة شأنها، وطبيعة حركتها، وللرسالة المحمديَّة ميزة العالمية التي لا يحدُّها زمان، ولا يفصلها مكان، وميزة الخاتميَّة التي تستلزم صلاحها الأبدي ومواكبتها المستمرَّة لحياة الخلق.

رابعًا: بدأ المشهد بإعداد موسى ﷺ إعدادًا ذاتيًّا بمعاني الإيمان والعبادة والعمل الصالح،

والاستقامة والثبات على كلّ ذلك ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ ثلاثُ آياتٍ جمعت معانيَ التوحيد الخالص، والإيمان باليوم الآخر (وهو يوم الحساب والجزاء)، وملازمة العبادة والصلاة والذكر، والثبات على الصراط المستقيم، والوقوف بحزمٍ أمام دُعاة الضلالة والمنكر، هذه هي القِيَم الأولى التي اختارَها الله لصياغة هذه الشخصية الكريمة.

خامسًا: تمهيدًا للوظيفة الكبيرة التي سيتحمَّلها موسى في مواجهة فرعون، شاءت حكمة الله أن يُريه من الآيات ما يُقوِّي قلبه، ويُثبِّت حجته أمام فرعون وملئه ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾.

سادسًا: بعد تلك المُمَهِّدات جاء التكليف الحاسم ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

سابعًا: وقف موسى ﷺ يتلقى الأمر وهو يفكِّر من موقعه في تحمُّله لهذه المسؤوليَّة الكبيرة، وهنا بدأ يرسُمُ حاجاته وأدواته التي تؤهِّلُه للقيام بهذه المهمة ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾.

إنها أشبَه بحالة استقراء تامٍّ لعدَّة الداعية؛ التهيئة النفسية بانشراح الصدر، والقوَّة البيانيَّة والعلميَّة بحَلِّ عقدة اللسان وإيصال الفهم الصحيح، والأخ الناصح الأمين الذي يتحمَّل معه المسؤوليَّة، والصلة الدائمة بمصدر هذه الرسالة وهذا التكليف ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

ثامنًا: أقرَّ الله موسى على حاجاته واستجَابَ له سؤالاته ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وفي هذا تأكيدٌ لأهميتها، ووجوب التأسِّي بها لكلِّ مَن يسير على هذا الدرب، درب الدعوة والوراثة النبويَّة.

تاسعًا: عاد القرآن ليذكِّر بمراحل الإعداد المبكِّر قبل ذلك الحدث الأجَلّ، الذي قدَّمه القرآن تقديم رتبةٍ ومقامٍ، لا تقديم آنٍ وزمانٍ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

وهذه الآيات تختصر سيرة موسى ﷺ من ولادته ثم إرجاعه إلى أمه بعد أن جعلته في التابوت وقذفته في البحر؛ حيث عثر عليه الفراعنة، فنجَّاه الله منهم، ثم أعاده إليهم لينشأ في قصورهم، ثم يقوم بقتلِ واحدٍ من حاشيتهم بعد أن استصرخه واحدٌ من أهله (أي: من بني إسرائيل)، فخرج خائفًا من العقوبة إلى مدين، وهناك تزوَّج من ابنةِ ذلك الرجل الصالح، فلَبِثَ عنده ما شاء الله له، ثم عادَ بزوجته، وبينما كانا معًا في الطريق رأى النار، فكانت المرحلة الثانية التي بدأت بها هذه السورة أولًا.

دقائق التفسير

﴿طه﴾ شاعَت التسمية باسم (طه)؛ ظنًّا أنَّه اسمٌ من أسماء نبيِّنا محمد ﷺ، والصحيحُ أنَّها من الحروف المقطَّعة التي مرَّت معنا بشيءٍ من التفصيل في بداية سورة البقرة.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ بل هو الرحمة التامَّة الشاملة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفيه إشارةٌ أن دعوات الغلو والقسوة على الخلق باسم الدين دعواتٌ باطلةٌ ومرفوضةٌ.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ استواء يليقُ بعظمة الله وجلاله وعلوِّه وغِناه عن جميع خلقه؛ العرش وما سِوَى العرش، وهذه من الأخبار الغيبية التي نُؤمِنُ بها كما ورَدَت، ونُحجِمُ عن الدخول في كيفيَّاتها وصورتها؛ لأن العقل لا يملك الأدوات القادرة على ذلك، ثم نتدبَّر المقصودَ مِن إخبارنا بها، وهو مقصودٌ يسيرٌ على من يسَّرَه الله عليه، فالنصُّ يُوحِي بكمال المُلكِ والسلطان والعظمة والعلوِّ المُطلَق، وهذا يكفي ويُريحُ عقولَنا وقلوبَنا من الجدل الذي لا نتيجة له.

﴿ٱلثَّرَىٰ﴾ التراب.

﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرتُ نارًا، بإضافة معنى الأُنس؛ لأنه كان بحاجة إلى النار.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ بجمرةٍ أو شعلةٍ منها.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ سمِعَ كلامَ الله بلا واسطة، بالكيفية التي تليق بالله سبحانه، والقول في هذه كالقول في استوائه سبحانه على عرشه، من حيث إنَّها أخبار نؤمن بها ونأخذ العبرة منها، وليس هناك متَّسَعٌ للعقل لملامسة كُنهِها وكيفيتها، والله أعلم.

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وطوى اسم الوادي، والمقدَّس المطهَّر.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ فالصلاة ذِكرٌ لله، ووظيفتها تذكير القلب بحقائق التوحيد ومعاني الإيمان، فالإيمان الفاعل إنما هو الإيمان الحاضر المتيقِّظ، والصلاة الفاعلة إنما هي الصلاة التي تجعل هذا الإيمان حاضرًا متيقظًا.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ علَّمَنا الله بحقيقتها، وعلَّمَنا بشرائطها ومقدّماتها، ثم أخفى عنَّا موعدها، فهو سبحانه لم يُخفِها تمامًا، ولم يُظهِرها تمامًا، وفي هذا حكمةٌ عمليَّةٌ بليغةٌ لا تخفَى على لبيب.

﴿فَتَرْدَىٰ﴾ تهلك.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ سنردّها عصًا كما كانت.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ اجعلها تحت إبطك، وأصلُ الجناح للطائر، واستُعير هنا؛ تشبيهًا بحال الطائر حينما يضمُّ جناحَه إلى نفسه.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تخرج بلونٍ أبيضٍ جميلٍ لا يُسبِّبُ تشوُّهًا، كما في البَرَص الذي تبيَضُّ فيه بقعةٌ بطريقةٍ مُتنافرةٍ مع بقيَّة الجسم.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ دلالةٌ أنَّ الداعِي هو المُكلَّف بتبليغ المدعو والمجيء إليه مهما كان الداعي، ومهما كان المدعو.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ دلالةٌ على أهميَّة الفصاحة والبيان للدعاة، ومنه تعلُّم لغة المدعوِّين وطرائقهم في الفهم والتفكير.. إلخ

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ الوزير: المؤازر، وهو المُعاوِن والمُناصِر.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ ظهري، كما تقولُ العربُ عن الأخ: حِزامُ الظهر.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ قدَّم التسبيحَ على الذِّكرِ؛ لأن التسبيحَ فيه معنى العلم والمعرفة؛ إذ هو تنزيهُ الله عن كلِّ ما لا يليق به، والعلم سابق الذكر، فالذاكر بلا علمٍ لا يدري ما يذكر، ولا كيف يذكر، ولا كيف ينتفع بالذكر.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ ألهمناها إلهامًا يقينيًّا.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ ضعيه في ألواحٍ من الخشب.

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ ارمي التابوت بمن فيه في نهر النيل.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ وكانت تتبع التابوت حتى عرفت أين وصل، وبِيَدِ مَن وقع.

﴿فَنَقُولَ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ كأنها ناصحة لهم بعد أن رفض الرضاعة من ثَديٍ غير ثَديِ أمه.

﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فيه اختصار، فأختُه قد نصَحَتْهم بمن يكفله، وواضِحٌ من السياق أنها أقنَعَتْهم بإرجاعه إلى أمه.

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ امتحنَّاك واختبرناك اختبارات كثيرة ومتنوعة؛ لتتهذَّب نفسُك، ويصفُو قلبُك، ويشتدَّ عودُك، وتستقيم خبرتُك.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ هذا المقام الذي يعجز اللسان عن وصفه، فعليك يا موسى وعلى نبيِّنا الصلاة والسلام.

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

موسى عليه السلام في مواجهة فرعون

بعد مرحلة الإعداد، واستجابة الله تعالى لسؤل موسى في إشراك أخيه هارون معه في مهمته الكبيرة هذه، بدأت المرحلة الثانية من هذه القصة، وهي المواجهة التاريخية بين موسى

وفرعون، والتي يمكن تلخيصها هنا في التسلسل الآتي:

أولًا: جاءت التوجيهات الربانيَّة الأخيرة لموسى وهارون ﷺ قُبَيل المواجهة ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾، وقد تضمَّنت هذه التوجيهاتُ: التسلُّحَ بآيات الله لإقامةِ الحُجَّة على فرعون وملئِهِ، والتزوُّد بذِكرِ الله وإدامة الصلة به، ولِين القولِ مع فرعون رجاء تليِين قلبه، فالقول الليِّن أدعى للقبول ومواصلة الحوار، وهو عُدَّة الداعي في مخاطبة الناس والتواصل معهم.

ثانيًا: أعرب موسى وهارون عن خوفهما من فرعون ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ وهو خوفٌ طبيعيٌّ بحكم المألوف من سلوك البشر، وليس في هذا منقَصَة لهما ﷺ، بل هو محمودٌ؛ لما فيه من إظهار الضعف أمام الخالق ﷻ، وطلب العون والمدد منه، فأتى جوابُ الله لهما بما يُثبِّت قلبَيهما: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

ثالثًا: تلخَّصَت رسالة موسى وهارون إلى فرعون بإطلاق بني إسرائيل من نَيْر العذاب والسماح لهم بالسَّيْر معهما ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ وتذكير فرعون بالحقائق الكبرى وعاقبة الناس في هذه الحياة ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ و﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

رابعًا: استمع فرعون لهذه الرسالة ليبدأ معهما حوارًا جادًّا ومثيرًا:

سألهما أولًا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

فأجابه موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

سألهما ثانيًا: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾

فأجابه موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ ثم توسَّع ببيان صفات هذا الربِّ العظيم وآثاره الشاهدة في هذا الخلق ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا

سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾.

لجأ فرعون إلى لغة الاتهام والتهديد المبطَّن ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ ويبدو أن لجوء فرعون إلى هذا الأسلوب كان بعد أن أقام موسى عليه حجة البيان، وحجة الآيات التي أجراها الله على يديه، كما هو موضَّحٌ في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

استجاب موسى لهذا التحدِّي مُحدِّدًا الموعدَ باليوم والساعة والكيفيَّة ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾.

خامسًا: جمع فرعون كيده وسحرته؛ ليبدأ مشهدٌ جديدٌ أكثر إثارةً بين موسى وهارون من ناحية، وبين سحرة فرعون من ناحية أخرى، وبحضور فرعون وجنده وحاشيته وجمهور عريض من الناس، وبعد تشاور وتحاور بين جمع السحرة ومن معهم اختاروا أن يُخَيِّرُوا موسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ وربما كان هذا التخيير على سبيل الاستعلاء وإظهار القدرة والتمكن، كأن الأمر بالنسبة إليهم سيان.

فردَّ موسى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ وربما أراد موسى أن يستكشِف ما عندهم، وهذه طريقة حكيمة في كلِّ حوارٍ، خاصَّةً مع هذا الصنف الذي ليس لموسى معرفةٌ سابقةٌ به، لم يتردَّد السحرةُ فألقَوا ما عندهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾.

أوجَسَ موسى في نفسه شيئًا من الخوف بحُكم بشريَّته، وقلَّة خبرته في هذا الشأن ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ هنا كانت صدمة السحرة، وهم أدرَى بالسحر وأساليبه، وأدرَكُوا عن يقينٍ أنَّ ما مع موسى ليس هو السحر الذي عندهم، إنَّه ليس السحر، ولا يُشبِه السحر ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾.

سادسًا: هنا تحوَّل المشهدُ، وتغيَّرت الأجواء من حالة الاحتفال واستعراض القوَّة والهيبة أمام الجماهير إلى حالةٍ من الغضب والتوحُّش، وانكشاف الباطل على حقيقته ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

لكن ردّ السحرة كان بقوَّة شرارة الإيمان التي أوقدها في قلوبهم موسى ﷺ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مستذكرين المصير المحتوم الذي ينتظر الخلائق كلَّها ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَا تَنِيَا﴾ لا تفترا.

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ غاية الداعية أن يتحقَّق هذا فيمَن يدعوه، فهو لا يريدُ به إلا الخيرَ ولو كان مثل فرعون.

﴿يَأْتِيَنَا﴾ يُعجِّل لنا بالعقاب والهلاك.

﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ صفتان ثابتتان لله، وذكرهما هنا لزيادة معنى المعيَّة والتأييد.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ ظاهرٌ في أن الحوار كان بينه وبين موسى ﷺ، وأما هارون فكان تابعًا لموسى ومُستمعًا لهذا الحوار.

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: أنَّه الذي خلق كلَّ شيءٍ من هذه المخلوقات، وأعطى

كلِّ واحدٍ منها خصوصيته، ثم أرشَدَه إلى أداء وظيفته في هذه الحياة، فكانت هذه الحياة المتنوعة المتكاملة المنظَّمة وفق هذا التنظيم البديع.

فانظر إلى التكامل الوظيفي مثلًا بين الماء والتراب والضوء لصناعة النبات، ثم التكامل بين النبات والحيوان والإنسان، والتكامل بين الذكر والأنثى، وهكذا، فكلٌّ مُيسَّرٌ ومهدِيٌّ لما خُلِق له.

﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما أخبار الأمم السابقة؟ كأنَّه أرادَ أن يُبعِد موسى عن الاسترسال ببيِّنات الكون الشاهدة على توحيدِ الله الخالق العظيم، لكن موسى ﷺ أجابه جوابًا مقتضبًا، ثم عاد إلى مُحاجَجته الأولى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ آيات لأصحاب العقول، وهذا الربط بين آيات الله وعقول العاقِلِين هو منهجُ القرآن الثابت والمؤكَّد، بخلاف توهُّم المتوهِّمين ممَّن مالَ إلى العقل دون النصِّ، أو مالَ إلى ظاهرِ النصِّ دون العقل.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ لأن آدم مخلوقٌ من التراب، وأجسادنا جميعًا إنما تتغذَّى ممَّا يُنتِجه التراب، من ثمار الشجر، والزرع النابت في التراب ومن التراب، أو من لحوم الحيوان المتكونة أيضًا من هذه النباتات.

﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ فريةٌ ظاهرة لتأليب الناس على موسى وأخيه، وإلا فإنَّ موسى قال قبل قليلٍ لفرعون: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بمعنى أننا وقومنا نريد الخروج عنك وعن أرضك.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي: مُستويًا ومحل توافق بيننا وبينكم.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ هو يوم عيد فرعون وقومه، وهنا وقفة؛ فموسى ﷺ هو من اختار هذا اليوم، وهذه إشارةٌ إلى أنَّ حضور مناسبات الكافرين ليس بها بأس إذا كانت

لغاية أنبَل وأكبر من شكلية الحضور والمشاركة، مع التأكيد أن لا يُفهم من هذا الإقرارُ بما هم عليه، ولا مُعاونتهم على المنكر الذي هم فيه.

وقد كانت حكمة موسى ﷺ في اختيار هذا اليوم الذي يتفرَّغ فيه الناس للاجتماع دون شغلٍ ولا همٍّ، وهذا أدعَى لإيصال الحقِّ إليهم، ثم إنه اختارَ الضحى لهذا الغرض أيضًا؛ إذ مظنَّة اجتماعهم ونشاطهم فيه أكثر من غيره.

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يمحقكم ويهلككم.

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وهي في الحقيقة لا تسعَى وليس فيها روح، وهذا دليلٌ على أنَّ السحرَ لا يُغيِّر حقائِقَ الأشياء وطبائِعَها، وإنَّما هو صناعة الخيال الذي يراه الناس كأنَّه حقيقة.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾ شعر بالخوف في داخله ولم يُظهِره لهم.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ العصا التي كانت معه.

﴿تَلْقَفْ﴾ تبتلع.

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ بمعنى أنه خداعٌ ومكرٌ وليس له حقيقة.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قدَّم هارون لمناسبة نهاية الآي، ومعلوم أنّ العطف بالواو لا يقتضي ترتيبًا زمنيًّا أو رُتَبِيًّا، وإنما هو للاشتراك فقط.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يسألهم فرعون سؤالًا استنكاريًّا؛ كيف تؤمنون بربِّ هارون وموسى قبل أن تأخذوا الإذن منِّي؟ وهكذا يتيح الفراعنة لأنفسهم التحكم حتى في إيمان الناس وأفكارهم، وخصوصيَّة أنفسهم.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ يتَّهِم سحَرَتَه بالتواطؤ مع موسى ضدَّه وضدَّ قومه.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يقطع من كلِّ واحدٍ منهم يدَه اليمنى ورجلَه اليسرى.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يربط جثامِينَهم على جذوع النخل ليراها القريب والبعيد؛ مُثلةً بهم، وعبرةً لغيرهم.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يُقارِنُ نفسَه بربِّ العالمين، بل يرى نفسَه الأشدَّ والأبقى، تعالى الله عن قولِه وسفَهِه.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ افعَل ما شِئتَ، ونفِّذ ما توعَّدتَنا به.

﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ بمعنى أنَّ الله سيغفِر لنا السحرَ الذي عمِلناه لخدمتك وتحت سطوتك وجبروتك؛ لأننا تُبْنا إليه تعالى بعد أن رأَينا الآيات على يد موسى ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ كأنهم يردُّون عليه مُقارنتَه تلك الجاهلة الآثمة.

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ لا يموت فينجُو من العذاب، ولا يحيَى الحياةَ الصالحةَ التي يريد.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ جنات المقام الدائم.

﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ من تطهَّر عن كلِّ عقيدةٍ باطلةٍ، أو خُلُقٍ رديءٍ.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾

موسى ﷺ مع بني إسرائيل

بعد تلك المواجهة المُثيرة مع فرعون وسحَرَتِه، تنتقل السورة إلى المرحلة الثالثة من سيرة موسى ﷺ، وهي المرحلة التاريخيَّة التي قرَّر فيها موسى - بأمرٍ مِن الله تعالى - أن يخرُج ببني إسرائيل من مصر؛ حيث دخلوها أولًا على عهد يوسف ﷺ مُعزَّزين مكرَّمين، ولكن الأحوال تغيَّرت عليهم فيما بعد بمجيء الحكم الفرعوني الذي سامَهم أصناف العذاب.

في هذه الآيات صورة لعمليَّة الخروج هذه وما تبِعَها من نجاتهم، وهلاك عدوِّهم،

وخوضهم لتجربة الاستقلال تحت قيادة موسى وهارون ﷺ:

أولًا: جاءت قصة الخروج في هذه السورة مختصرةً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ فالخروج كان معجزة ربانيَّة؛ حيث انفلق البحر لموسى ومن معه حتى صار طريقًا يبسًا، ثم لما رأى فرعون ذلك تشجَّع على مُلاحقتهم في هذا الطريق، فكانت نهايته ومن معه من الجند؛ حيث أطبق البحر عليهم بعد أن نجا آخر فرد من بني إسرائيل.

وهذه المعجزة كأنها جاءت تجليًّا لمعيَّة الله ووعده المؤكَّد ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ بعد أن أظهَرَا له سبحانه غايةَ الضعف بقولهما: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، كما أنها جاءت ردًّا عمليًّا على وقاحة فرعون وسوء أدبه مع الله حينما هدَّد السحَرَة بعد إيمانهم بالله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

والغريب في قصَّة الخروج هذه أنَّ فرعون قد خرج بنفسه لملاحقة قومٍ مُستضعَفين هاربين لا حول لهم ولا قوَّة، وكان يكفِيه أن يُرسِلَ أحدَ أعوانه مِن حرسه أو قادة جنده، لكنها إرادة الله.

ثانيًا: منَّ الله على بني إسرائيل بالنجاة، وهنا أصبحوا أسيادَ أنفسهم، وأهلًا لتحمُّل المسؤولية، وقد أمدَّهم الله بما يحتاجونه في حياتهم وأداء وظيفتهم ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

ثالثًا: سجَّل القرآنُ هنا أوَّلَ سقطةٍ لبني إسرائيل في امتحانهم الأول؛ حيث صنَعُوا لهم عجلًا من الذهب، وصاروا يعبدونه من دون الله، وكان هذا عند غِياب موسى عنهم لذهابه

إلى ميقات ربه ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾.

وهذه السقطة تؤكِّد أن الحريَّة مسؤوليَّة، وأن العبودية ثقافة، فهؤلاء الذين تحرَّروا من فرعون بمعجزة الخروج وانفلاق البحر، عادوا ليصنَعوا بأيديهم عِجلًا يعبدونه، والذهب الذي كان يأخذه منهم فرعون إتاوةً، راحُوا يُقدِّمُونه لعِجلهم طواعيةً.

رابعًا: رجع موسى إلى قومه غاضبًا عليهم مُندِّدًا بفعلتهم ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾، وما كان جوابهم إلا أن ألقَوا باللائمة على صاحبهم السامِريِّ الذي صنعَ لهم العِجل، مع أنَّه ما كان يملِكُ أدنى سلطة عليهم ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾.

خامسًا: يُسجِّل القرآن هنا موقف هارون ﷺ الذي خلَفَ موسى في قومه ﴿ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴾ ولكن بعد رجوع أخيه موسى، توجَّه إليه بالمساءلة والمحاسبة، فكان هذا الحوار: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴾ وهذه حكمةٌ هارونيَّةٌ قَلَّ مَن يلتفت إليها؛ فهارون بقي مُمسِكًا بالمجتمع الإسرائيلي، محافظًا على وحدته رغم ما حصل فيه مِن خللٍ عقديٍّ خطيرٍ؛ ذاك لأن بقاء الناس مُجتمِعِين في مكانٍ واحدٍ، وتحت قيادةٍ واحدةٍ أدعَى للإصلاح، وأيسر في معالجة الخلل.

لقد قال لأخيه بوضوح العبارة: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فلم يُعقِّب موسى، ولم يُعقِّب الوحي، وهذا إقرارٌ بمنح الشرعية لمثلِ هذا السلوك، فمُفاصلة المنكر ليست دائمًا هي الحل.

وقد رأينا من سيرة نبيِّنا ﷺ كيف قاطَعَتْه قريش ومَن معه في شِعب أبي طالب، فما كان يرضَى بهذه المقاطعة حتى قطَعَها الله بآية من آياته؛ فكان في ذلك الفرج للمسلمين.

وحين غابَت هذه الحكمةُ عن بعض الجماعات المنتسبة للإسلام اليوم، راحَت تضرب حولَ نفسها أطواقَ العزلة والمفاصلة عن الناس، ومنها مَن بالَغَ في العدوانيَّة وإظهار الخصومة، ولا زالَت الفتاوى تصدُرُ مِن هنا وهناك في منعِ المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد؛ استنادًا إلى المفهوم الخاطئ لعقيدة الولاء والبراء.

وقد مرَّ معنا في قصة يوسف ﷺ ما يدحَض هذا الفهم الضيِّق؛ حيث انخرَطَ ﷺ في حياة الناس السياسية والاقتصادية وهُمْ على دينٍ آخر مُخالفٍ لدينه.

سادسًا: يُختَم هذا المشهد بموقف موسى ﷺ من السامِريِّ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

ويُلحظ هنا أنّ السامِريَّ كان مُتقدِّمًا في الذكاء على قومه، وأنّه بَصُرَ بما لم يبصروا به، لكن الذكاء لا يعصِمُ صاحبَه من السقوط إذا لم تتوفَّر التزكية الصحيحة التي تُهذِّبُ الإرادة، وتُعدِّلُ السلوك، بل الذكاء قد يُضاعِف من إرادة الشر وآثارها، كما ترى في قادة العصابات الإجراميّة، وصانعي الأسلحة التدميريّة، ومنتجي المسلسلات الإباحيّة.

والغريب أنك ترى المناهج التعليميّة اليوم تجنح نحو تقديم المعارف المجرَّدة، تارِكِين الجانب القيمي والأخلاقي لإرادة المتعلِّم وطبيعة تكوينه وتربيته، ويُلحَظ هنا أيضًا أنّ موسى ﷺ قد ترك السامِريَّ حيًّا طليقًا، مع أنه السبب الأول والأهم في الفتنة والردَّة، بينما

اكتفى بتحريقِ عِجل الذهب ونَسفه في البحر، ومحو أثره.

دقائق التفسير

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ اجعَل لهم طريقًا وسط البحر يابسًا للعبور نحو الضفة الأخرى، فكان ذاك بالعصا التي ضرب موسى ﷺ بها البحر، وهذه آيةٌ مِن آيات الله سبحانه لا يقدِر عليها البشر.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ لا تخشَى أن يُدرِكَك فرعونُ وجُندُه.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ دهَمَهم الماء وغطَّاهم فقَضَوا فيه غرقًا.

﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ الجانب الأيمن لجبل الطور، وكان الميعاد لسبعين رجلًا اختارَهم موسى من قومه.

﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ المَنُّ: طعامٌ لا يتدخَّل البشر بزراعته أو رعايته، وقد ورد عن النبيِّ ﷺ قوله: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ»[1]، وأما السلوى: فهو طائرٌ سهلُ التناول، والله أعلم.

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤالٌ مُتضمِّنٌ المدح لموسى؛ حيث تقدَّم على قومه السبعين مُسرِعًا إلى الميقات شوقًا ورغبةً في سَماعِ الأمر، وتحمل المسؤوليَّة ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ غير السبعِين؛ لأن السبعِين كانوا معه في الميقات، بل هم من عامة بني إسرائيل ممن بقِيَ مع هارون، وكانت فتنَتُهم بعبادة العِجل الذي صنعه لهم السامِرِيُّ.

---

(١) جزءٌ من حديث متفق عليه عن سعيد بن زيد ﷺ، وتمامُه: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»، ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٧/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٦/ ١٢٤/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿أَسِفًاۚ﴾ شديد الغَضَب، وجاءت توكيدًا لقوله: ﴿غَضْبَٰنَ﴾.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ إشارة أنَّ طُولَ العهدِ يُورِثُ الفتورَ والنسيانَ، وغفلة القلب وقساوته، كما قال في آية أخرى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، غير أنَّ بني إسرائيل غيَّروا وبدَّلوا وعبَدُوا العِجلَ قبل أن يطول عليهم الأمَد.

﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ما خالَفنا عهدك بإرادتنا، كأنهم يُلقون بجريرتهم على غيرهم.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أثقَالًا من الزينة، ولعلها هنا الذَّهَب الذي صنَعُوا منه العِجْل، وأكثر المُفسِّرين على أنَّه مما أخَذُوه إعارةً من قوم فرعون، ولا يبعُد أيضًا أنَّهم جمَعُوا إليه ما كان منه على جُند فرعون بعد أن أخَذَهم الغرَق، وكلمة: ﴿أَوْزَارًا﴾ تُوحِي أنه لم يكن مُلكًا لهم، بل فيه معنى الإثم، والله أعلم.

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ رميناها في مكان واحد.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فكذلك صنع السامِرِيُّ، أي: صنَعَ العِجلَ من هذا الذي ألقَيناه.

﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ مُجسَّدًا على صورة العِجل وما هو بعِجل.

﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوتٌ كصوت العِجل، وذلك عند دخول الرِّيح فيه، والله أعلم.

﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ لن نترك عبادته.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ حيث كان موسى من شدَّة غضَبِه يُمسِك بشعر هارون من رأسه ولحيته.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ما حملك على ما فعلتَ؟

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ الظاهر أنه أخذ شيئًا من التراب الذي وطِئَه جبريل ﷺ وهذا من السمعيَّات التي لا يستطيع العقلُ إدراكَ كُنهِها وكيفيَّتِها، والله أعلم.

﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ ألقَيتُها مع الحُلِيِّ.

﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ لأنه كان يتأذَّى بمُلامسَة أي بشَرٍ، وكأنها عقوبة إلهيَّة على فعله الشنيع هذا.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ يُذكِّره بمصيره يوم القيامة، وفيه إشارةٌ إلى أنّه لم يتُب، أو لم يقبَل الله تعالى توبتَه، والله أعلم.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ تأكيدٌ لصدق هذه القصّة بكلِّ تفاصيلها؛ لأن الذي قصَّها علينا هو الذي وَسِعَ علمُه كلَّ شيءٍ ﷻ.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾

يوم الحساب والجزاء

بعد عرض القرآن لسيرة موسى ﷺ ومواجهته لفرعون وسحَرَته، ثم تجربته الطويلة مع قومه بعد أن أنقَذَهم الله به من وَطأَة فرعون وافتتانهم بالعِجل، عاد القرآن ليوجِّه الخطاب للأمة البديلة، مُستخلِصًا الدرسَ الأكبر، ومُذكِّرًا بالحقيقة الكبرى، وبالمصير الواحد الذي ينتظر الجميع؛ الأمم السالفة، والأمم الوريثة، فكلُّهم سائِرُون إلى يومٍ واحدٍ هو يوم الحساب، وكلُّ امرئٍ منهم إنّما هو مجزيٌّ بعمله، ويمكن استخلاص كلِّ هذا في النقاط الآتية:

أولًا: تأكيد موثوقيّة القصص القرآني؛ ليكون مستندًا ثابتًا ويقينيًّا لأخذ الدرس والعبرة ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ وهذه القصص ليست للتسلية، ولا لزيادة المعارف التاريخية المجردة، وإنما هي جُزءٌ من منظومة القرآن في إصلاح المجتمع البشري ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ

ذِكۡرٗا﴾، ومن ثَمَّ كان طريق الهداية والإصلاح إنَّما هو في تدبُّر هذا القرآن وفهمه، والتزوُّد مِن علمِه، وعلى أُسُسه وقواعده ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾.

ثانيًا: إنَّ ذلك اليوم الذي ينتَظِرُ الجميع آتٍ لا محالة، ذلك اليوم الذي تتغيَّر فيه الأرض، وتُزلزَل فيه الجبال ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ وإذا كان هذا حال الجبال، فما بالُك بالخلق الآخرين؟

ثالثًا: إنَّ الناس في ذلك اليوم العَصِيب سيكون حالُهم حالَ المُترقِّب الخائف الوَجِل، لقد اختَفَت السُّنَن التي كانت تحكم هذا الكون، وكانوا على دِرايةٍ بها، أما اليوم فهم أمام عالَمٍ جديدٍ، ووضعٍ مُختلفٍ، لا يملِكُون فيه رأيًا ولا سببًا ولا حولًا ولا قوةً ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾.

رابعًا: سيلقى الظالمون المكذِّبون هناك جزاءَهم العادِلَ أفرادًا وجماعات ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾.

خامسًا: سيكتشِف هؤلاء الخاسرون أنَّ سببَ هلاكهم وخسارتهم إنَّما كان أولًا بتكذيبهم لكلام الله والإعراض عنه ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾، وبما توهَّمُوه من وسطاء وشفعاء ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾، وبما حمَلُوه من ظُلمٍ عام بحقِّ الله وحقِّ خلقه ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾.

سادسًا: أما المؤمنون الصالحون فذلك اليوم يومهم الذي كانوا ينتظرونه ويعملون له ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾.

﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ إثمًا ثقيلًا.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ فهذه بضاعتهم التي اختاروها بمحض إرادتهم، وجاءوا بها إلى مصيرهم هذا.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ لما بهم مِن عَنَتٍ وضيقٍ، وسَوادِ وجه، ومعلوم أن بشرة الآدمي لا تزرَقُّ إلا لعلَّةٍ واحتباس دم.

﴿يَتَخَـٰفَتُونَ﴾ يتهامَسُون فيما بينهم.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ و﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: في الدنيا، فهم يرَون أعمارَهم كانت قصيرةً جدًّا أمام المدى الزمني المفتوح في الآخرة.

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعقَلهم وأحسنهم رأيًا، وليس فيهم عاقل ولا ذو رأيٍ حسن، وإنَّما هو تصويرٌ لحالة الاضطراب التي تعتَرِيهم هناك؛ بحيث إنَّ أذكاهم لا يقدّر عمره في الدنيا إلا يومًا واحدًا.

﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أرضًا مستويةً وخاليةً من كلِّ شيء.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ ليس فيها منخفضات ولا مرتفعات، وهو تأكيدٌ لمعنى القاع الصَّفصَف، والأمْتُ: هو النُّتُوء البارِزُ في الأرض.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ المُنادِي لهم بالحشر؛ حيث الحساب ثم الجزاء.

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يملِكُون المَيلَ عنه ولا يستطيعون.

﴿هَضْمًا﴾ نقصًا.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يجعلهم يتذكرون ويعتبرون بحال الأمم السالفة.

﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ تعليمٌ له ﷺ بحفظ القرآن، فلا يتعجَّل بقراءته للمُسارعة بحفظه، وفيه إشارةٌ خفيَّةٌ أنَّ فهم القرآن وتدبُّره على مهلٍ ورويَّةٍ أَولَى مِن العَجَلة في قراءته والمغالبة بحفظ آياته، والله أعلم.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ شعارٌ دائمٌ للمُسلم في هذه الحياة، وإعلاءٌ لقِيمَة العلم، وفتحٌ لباب التزوُّد منه، فهو أساسُ الإصلاح الذي ينشده الإنسان في نفسه وفي مُجتمعه وبيئته.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

تذكير بالعهد الأول وتوجيهات ختامية

تتناوَلُ الآيات الأخيرة في هذه السورة تذكيرًا بعهد الله الأول مع هذا الإنسان قبل أن يهبط على هذه الأرض، ويدخل في ميدان التكليف العملي، ثم التوجيهات الختاميَّة المناسبة لرسالة السورة وما عرَضَته من تجارب ومشاهد وأحداث، وكما يأتي:

أولًا: عهِدَ الله لآدم بالخلافة فأسجَدَ له ملائكته، وحذَّره مِن كَيدِ الشيطان ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ إلا أنَّ الشيطان تمكَّن مِن الدخول إلى آدم مِن غريزَتَين بشريَّتَين تُولَدَان مع الإنسان وتبقَيان معه حتى الموت؛ حبُّ الملك، وحبُّ البقاء، أو هما حبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ غير أنَّ بابَ التوبة مفتوحٌ لآدم وذريته لا يغلقه إلا الموت أو الساعة ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾، وكان هذا الدرس قبل هبوطهما إلى الأرض؛ ليتدرَّبا ويُدرِّبا أولادَهما على طبيعة المعركة مع هذا الشيطان.

ثانيًا: بعد أن هبَطَ الإنسان على هذه الأرض أصبَحَت عنده تجربة سابقة يستَنِد إليها، وميزان حاضر يحتكِم إليه ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾.

ثالثًا: يدعو الله هذا الإنسان للنظر في تاريخه وتاريخ الأمم السالفة وما جرى لها، فهذا أحرى أن يدفع به لسلوك طريق الهدى، وتجنّب مهاوي الضلالة والردى ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ والعذاب الذي أصاب الأمم السابقة ليس ببعيدٍ عن كلّ مَن يسلك آثارهم ويتبع خطواتهم، ولكن لكلِّ أجلٍ كتاب ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴾ فلم يبق لهم ما يعتذرون به بعد أن أقام الله عليهم حجته، وأرسل لهم نبيّه، وأنزل عليهم هَديَه ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾.

رابعًا: يُوصِي الله نبيَّه ﷺ ومن خلْفِه كلَّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ بالصبر والثبات على طريق الحقِّ، واللجوء إلى الله تعالى في كلِّ الأحوال ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ثم يُوصِي بتذكير الأهل، وحثِّهم على الطاعة، وإقامة الصلاة، والتدرّع بالصبر مع كلِّ ذلك ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾.

خامسًا: يدعو الله ﷻ كلَّ سائر على هذا الطريق أنْ يحذَرَ مزالق الفتنة، ومداخل الشيطان ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ نسيَ العهد بأكله من الشجرة، ولم تكن عنده العزيمة الكافية لامتِثَال الأمر واجتناب النهي؛ إذ مِن لوازم الخلافة تحقيقُ معنى العبودية لله، والخضوع له في كلِّ ما أمر أو نهى.

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ هي صورةٌ لما يمكن أن يُباعِد بين الإنسان وبين الجنَّة التي يرجُوها في آخرته، أما آدم فكان مُقدَّرًا عليه وعلى ذريته أن يكونوا في الأرض لإعمارها، وهم بهذا مُمتَحنون ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ لا تحتاجُ إلى كسب الرزق والعمل تحت وطأة الشمس.

﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ بعد أكلهما من الشجرة، وفيه إشارةٌ أنَّ المعاصي تكشِفُ قبائِحَ الإنسان وأخلاقَه الباطنية السيئة، والله أعلم.

﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ ﴾ بادرَا بستر العورة من أوراق الجنة.

﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ شبَّهَهُ بالأعمى على سبيل المجاز؛ لأنه لا يهتدي إلى الجنة ولا يعرف طريقها.

﴿مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ تجاوز الحدّ بكفره وظلمه.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ أفلم يبيِّن لهم الله.

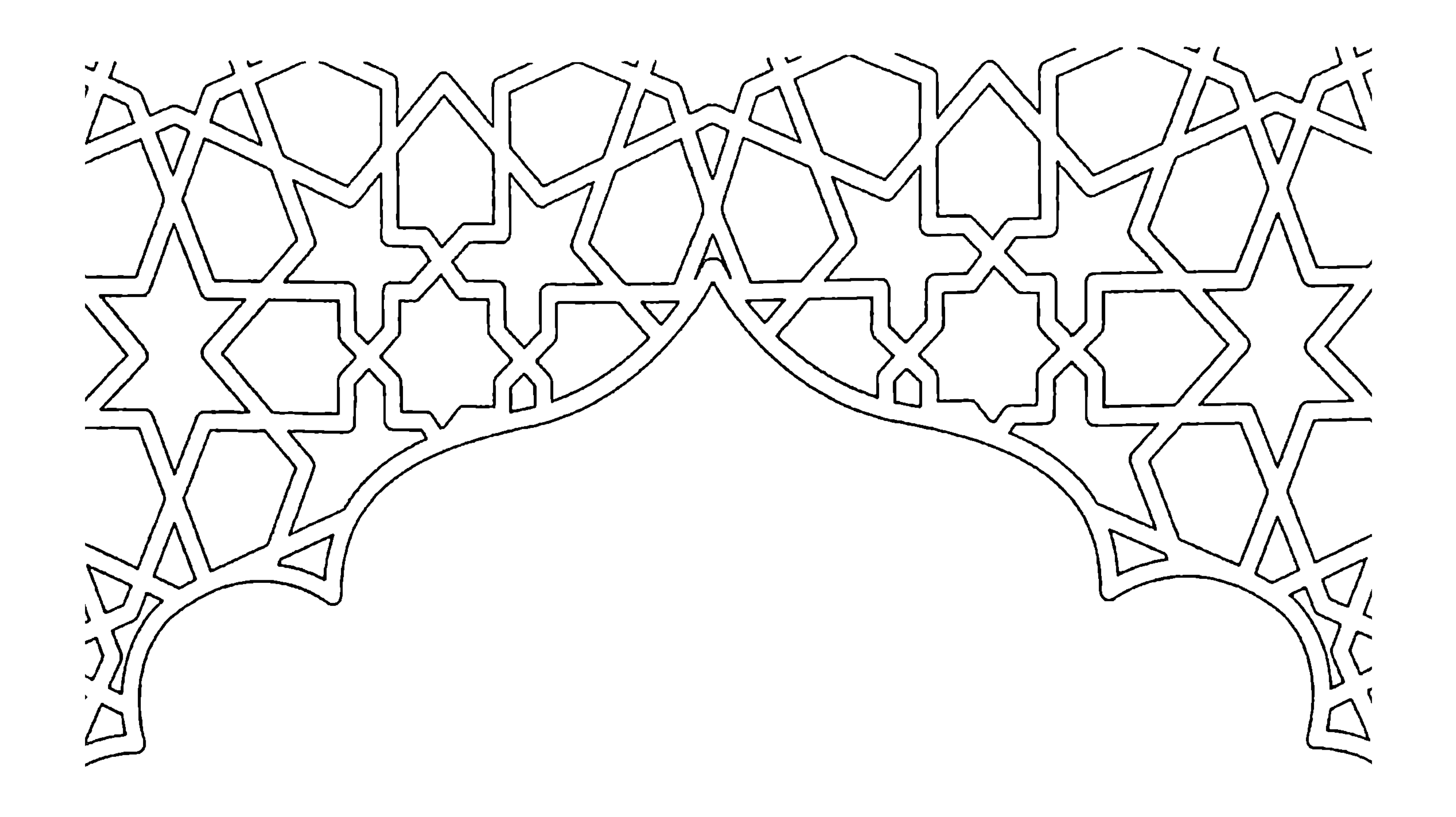
﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أصحاب العقول.

﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ يمرُّون بها أثناء سفرهم.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي: لولا كلمةٌ سبقَت، وأجلٌ مُسمًّى لوقع عليهم العذاب.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ أي: لا تتمنَّ ما أعطَيناه لأصنافٍ مِن هؤلاء الكافرين المعاندين لك، فما عندهم متاع زائل.

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ﴾ منتظر.



سورة الأنبياء

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

تنبيه الغافلين

تُعالِجُ السورة في مُقدِّماتها مشكلة الغفلة التي تلفُّ عقولَ الناس وقلوبَهم، وتُبعِدُهم عن التفكير الجاد بحالهم ومآلهم والكون الفسيح مِن حولهم، ومِن هنا تكرَّرَت في هذه الآيات مصطلحات: الغفلة، واللهو، واللعب، ولا شكَّ أنَّ هذه إحدى أهم أسباب الضلالة والإعراض عن النهج الحقِّ، ويمكن استخلاص طريقة القرآن في تناوُله لهذه الظاهرة بالنقاط الآتية:

أولًا: وصف القرآن هذه الظاهرة وصفًا دقيقًا في أكثر مِن موضع في هذه المُقدِّمات، فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ فهم مُعرِضون؛ لشدَّة غَفلَتهم

حتى عن التفكير في ما ينتظرهم، ثم قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ فهم غارِقون في الغفلة إلى الحدِّ الذي لا يُكلِّفُون أنفسَهم النظرَ في الكلام الذي يسمَعُونَه ولو كان فيه خيرهم، ثم يُشيرُ القرآن إشارةً سريعةً إلى سبب هذه الغفلة ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ فانشغال قلوبهم بمتاع الدنيا ولهوها وزينتها لا يُبقِي فيها مكانًا للتدبُّر والتفكير الصادق.

ثانيًا: بيَّن القرآن مدى انعكاس هذه الظاهرة على نظرة هؤلاء لطبيعة الحياة والكون الذي يعيشون فيه، فهم لا يرَون في كلِّ هذا إلا اللهو والعبث؛ ولذلك ردَّ القرآن عليهم سفَهَهم هذا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾.

وهذه النظرة نراها اليوم في كثيرٍ مِن النظريات والفلسفات الحديثة التي يجنَحُ العقل البشري فيها إلى تغييبِ الحكمة مِن وجود هذا الكون، وتسخِيره لهذا الإنسان، والانهماك في تحقيق المصالح المادِّيَّة المجردة، وتحقيق أكبر قدر ممكن من المتاع.

ثالثًا: ثم بيَّن كذلك مدى انعكاسها في عجزهم عن التفكُّر في حال الناس من قبلهم وما جرى لهم بسبب غفلتهم وإعراضهم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾.

رابعًا: أشارَ القرآن الكريم إلى أن شُبهاتهم التي يُثيرونها بوجه الدعوة المباركة ليست آراء محترمة ناتِجة عن نظرٍ عقليٍّ، وتفكيرٍ صادقٍ، وإنما هي إفرازٌ لحالة الغفلة واللعب واللهو هذه، فتراه مثلًا يقول: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، وينعَكِس هذا اللَّهو واللعب في اضطرابهم، وشدَّة تناقُضهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

خامسًا: في ثنايا هذا التشخيص والتوصيف يبُثُّ القرآن الكريم تنبيهاته وتحذيراته المتكررة التي تهزّ القلوب وتحرّك العقول، فتراه حينما يضرب مثلًا من الذين خلَوا من قبل يقول: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ وحينما يخاطب هؤلاء الغافلين يقول لهم: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

سادسًا: يُؤكِّدُ القرآن لهؤلاء ولغيرهم أنَّ الأمرَ جادٌّ وحاسِمٌ، وأنَّه لا مجال فيه للهو والعبث ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

سابعًا: تأكيده لهم أنَّ القرآن إنما جاء لإسعادهم ورفع شأنهم لو تركوا لأنفسهم فرصة للتفكُّر والتدبُّر ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثامنًا: تأكيده أيضًا أنَّ الله غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم، وهو حينما يدعوهم إنما يدعوهم لمصلَحَتهم، وإلا فالله عنده من الملائكة ما لا يعلَمُه إلا الله، يسبحونه ويعبدونه وحده دون شريك، ودون فتور ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي: يوم حِسابهم؛ وهو يوم القيامة، والخبر عامٌّ لكلِّ الناس، وإن كان المقصُود به تنبيهَ الغافِلين من مُشرِكي قريش وتحذيرهم.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: جديد بالنسبة لنزوله عليهم واتصالهم به، لا بوصف القرآن نفسه، فالقرآن كلام الله وكلامه صفةٌ له سبحانه، لا يتغيَّر ولا يتجدَّد.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ تناجَوا سرًّا فيما بينهم.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ يوبِّخُ بعضُهم بعضًا لمجيئهم واستماعهم لقراءة القرآن؛ حيث كان بعضُهم يتذوَّق بلاغةَ القرآن، ويستأنِس بها، ولا يصبِر عنها.

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو من قوله ﷺ ردًّا على اتهامهم له، كأنَّه يقول لهم: إن ربِّي عليمٌ بحقيقة ما أقولُه لكم، وهو عليمٌ أيضًا بحقيقة ما تقولونه عنِّي.

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ منامات مختلطة لا حقيقة لها ولا بُرهان عليها، وهم إنما يقولون هذا في القرآن الكريم، وهم مع هذا لا يُخفون إعجابهم ببيانه وبلاغته حتى سمَّوه سِحرًا، وهذا دليلٌ على أنهم لا يتكلَّمون بآراء ووجهات نظر، وإنما يلهَون ويعبَثُون، ويتصرَّفون وفق عُقَدٍ نفسيَّةٍ تجمعُ بين التكبُّر والحسد واللامبالاة.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ بمعجزةٍ ملموسةٍ؛ كناقة صالح، وعصا موسى.

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يُذكِّرُهم بالقُرى التي جاءها أنبياؤها بهذه الآيات، فلم يؤمنوا فأهلكهم الله بتكذيبهم وعنادهم؛ لأن هذه القرى لم يكن يختلط عليها الحقّ بالباطل فتحتاج إلى هذه المعجزات الحسِّيَّة، وإنما كان يصدُّها الغرورُ والتكبُّر والحسد والإعراض حتى عن مجرَّد التفكير، وهي موجودةٌ أيضًا عند كفَّار قريش.

والآيةُ تتضمَّن بيان الحكمة من عدم نزول مثل تلك الآيات على قريش؛ لأنهم لو كذَّبُوا بها فسيهلكون عن آخرهم، والله لا يريد لهم ذلك؛ لعلمه سبحانه أنهم سيؤمنون ويتحمَّلون أعباء هذه الدعوة، وقد كان ذاك بالفعل، فدخَلَت قريشٌ كلُّها في الإسلام، وكان منهم قادَة الأمة (الخلفاء الراشدون ﷺ، والأمويُّون والعباسيُّون) وغيرهم.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردٌّ على اشتراطهم أن يبعث الله لهم مَلكًا حتى يؤمنوا به، والاستدلال بهذا على إنكار نبوَّة المرأة لا يقتضيه السياق، خاصَّةً عند من يُفرِّق بين النبوَّة والرسالة باشتراط التبليغ في الرسالة دون النبوَّة، فالآية تتحدَّث عن الرسل وليس عن

الأنبياء، وتتحرَّز عن الملائكيَّة وليس عن الأنثويَّة.

وقد قال بنفي النبوَّة عن النساء جمهورُ العلماء، وغالِبُ استدلالهم بهذه الآية، أو بأدلةٍ عقليَّة تتعلَّق بمهمة التبليغ، وليس بنزول الوحي، وليس هنا محل التفصيل، لكن الخلاف في هذا وارد، والاجتهاد فيه مقبول، والله أعلم.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهم هنا أهلُ الكتاب، خاصَّةً اليهود الذين كانوا على صِلَة بقريش، والسؤال مُحدَّد في موضوع كون الرسل رجالًا من البشر، أو كانوا من الملائكة، فهذه معلومةٌ لا يختلف فيها أهلُ القرآن عن أهل الكتب السابقة، وليس في الآية إطلاق السؤال لهم في كلِّ مسألة.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ تأكيدٌ لبشريَّة الرسل، فهم ليسوا ملائكةً ولا آلهةً.

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرَفُكم وعلوُّ شأنكم، وأسبابُ خيركم وسعادتكم.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ وكم أهلكنا.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ هربًا من قريتهم بعدما رأوا العذاب النازل عليها.

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ توبيخٌ لهم وتهكُّمٌ بهم، وفيه إشارةٌ إلى أن التَّرَفَ كان سببًا في هلاكهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ لعلَّ أحدًا يطلب منكم بعض حاجاته، وهذا تهكُّمٌ أيضًا وهو مناسب لحال المُترَفِين.

﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ ميِّتين لا يتحرَّكون كحال الزرع المحصود.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ يتنزَّل القرآن إلى مستوى عقول هؤلاء الغافلين العابثين، فيقول لهم: لو كان الله يريد اللَّهوَ سبحانه - كما تزعمون - لما خلَقَكم وخلَقَ الموتَ والحياةَ، وأرسلَ إليكم رسُلَه، وجعلَ الثوابَ والعقابَ، ولكان يَكفِيه ما عنده من الحُور

والولدان، وأسباب اللهو والمتاع بحسب تصوُّراتكم المريضة والقاصرة.

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ يزهقه ويزيله.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يمنعهم عن دوام العبادة تكبُّرٌ ولا تكاسُلٌ، وإيثارٌ للدَّعَة والراحة، بل هم يجِدُون أُنسَهم وسعادتَهم في هذه العبادة.

﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ لا يضعُفُون أو يتردَّدون، وأصل الفُتُور: التراخي والسكون بعد الحركة.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

بعد تشخيصه لظاهر الغفلة التي تُعمِي وتُصِمُّ عن التفكُّر في حقائق الأمور ومآلاتها، والتي قادَت هؤلاء الغافلين إلى التمسُّك بأصنامهم وعبادتها والدفاع عنها، فتح القرآن بابًا واسعًا للحوار معهم ومناقشتهم في أصل معتقدهم، وكما يأتي:

أولًا: عرض القرآن صورًا لمعتقداتهم التي خرجوا بها من جادَّة التوحيد إلى مزالق الشرك والكفر، ومن ذلك: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذه هي التي يصنعونها بأيديهم، ثم عمَّم: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ليشمل كلَّ الآلهة المزيفة ولو كانوا بصورة الأنبياء، أو الملائكة، ثم خصَّ الفرية الآثمة بنسبة الولد إلى الله - تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا -: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ثم عرَض تكذيبَهم بعقيدة البعث والجزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، ثم استهزاءَهم بالأنبياء والمرسلين: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثانيًا: كشف القرآن أسباب هذا الانحراف، فكان أولها: الجهل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

وهذا الجهل إنَّما كان بسبب إعراضهم وغلق منافذ المعرفة عندهم، وإلا فقد يُعذر الجاهل بجهله إنْ لم تبلغه الدعوة، أو لم تكن عنده أدوات فهمها والتوصُّل بها؛ ولذلك عقَّبَ القرآن بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وهذا صَمَم العِناد والتكبُّر، لا صَمَم الخِلقة والعاهَة، ومنها: الاستهزاء، كما مرَّ معنا قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، ومنها: طول الأمد والانشغال بالمتاع الزائل: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ

وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾، وطول الأَمَد مع تراكم الغفلة والنسيان لا شكَّ أنَّه أحد أسباب الضلالة، كما قال جلَّ ذِكرُه في سورة الحديد: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦].

ثالثًا: فنَّد القرآن دعوى المشركين في تأليه الملائكة أو بعض النبيين ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

رابعًا: أكَّد القرآن فقدان المشركين لأيِّ دليلٍ أو حجةٍ على صحة دعواهم بوجود آلهة أخرى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

خامسًا: شرَعَ القرآن في بيان أدلته القاطعة على توحيد الله، فذكر منها ما عُرِفَ بدليل التمانُع: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾؛ لأن ﴿ لَوْ ﴾ هنا حرف امتناع لامتناع، بمعنى أنه لما قامَت السماوات والأرض على هذا النظام الموحَّد الدقيق، وانتفى فسادها والتناقض في داخلها، دلَّ هذا على نفي الشريك؛ إذ لو كان فيهما أكثر من إلهٍ لكان فيهما أكثر من نظامٍ تبعًا لاختلاف الإرادات لهذه الآلهة، فالنظامُ الواحدُ لكلِّ هذا الكون دليلٌ على الإله الواحد والإرادة الواحدة، ومنها إلى دقة هذا النظام، وهذا لا يكون إلا مِن إلهٍ واحدٍ حكيمٍ عليمٍ قديرٍ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

سادسًا: مع هذه المُحاجَجة العقليَّة، استعمل القرآن الخطاب العاطفي الوجداني الذي يهزُّ النفوسَ مِن داخلها، ويُذكِّرُها بمصيرها المحتوم وما ينتظرها بعد ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

سابعًا: ربط القرآن بين دعوة التوحيد التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ وبين الرسالات السماوية السابقة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

وهذا الربط جاء لتأكيد أنَّ هذه الدعوة المباركة ليست بِدعًا في الدعوات، بل هي رسالةُ الفطرة والمنطق السليم التي نادى بها جميعُ الأنبياء ﷺ.

دقائق التفسير

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ استفهامٌ مُتضمِّن معنى النفي والإنكار، أي: إن هذه الإلهة المزيَّفة لا تقدر على نشرهم وإحيائهم بعد إماتتهم.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة متعددة غير الله لفَسَد النظام الكوني؛ لأنه لن يكون هناك نظام واحد، بل كلُّ إلهٍ يضع النظام الذي يريده.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فالله لا يسأله أحدٌ عن إرادته وقدرته المطلقة التي أنتجَت هذا النظام الكوني الواحد، وكلُّ ما عدا الله يُسألُ عن سُلُوكه وتصرُّفاته.

﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ القرآن الذي هو ذِكرٌ للمُؤمنين.

﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾ التوراة والإنجيل.

﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ هم الملائكة الذين نعَتَهم المشركون بصفات الإله أو أنَّهم بنات الله.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: لا يُقدِّمون قولَهم على قول خالقهم، بمعنى أنَّهم مُستسلِمُون لطاعته وعبادته.

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ نفيٌ للشفاعة الباطلة التي هي مُستند الشرك، وفتح باب الشفاعة المقترنة بمعاني التوحيد والرحمة الإلهيَّة الواسعة.

﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فصورةُ الخطاب لرسولِ الله ﷺ، والمقصود غيره ممن يتوقَّع منهم الشرك بعد الإيمان، فرسولُ الله مُنزَّهٌ عن الشرك، وكذلك الملائكة، وإنَّما المقصود تهديد المشركين أشدَّ التهديد، فإذا كان الملائكة لو ادَّعى واحدٌ منهم أنَّه إلهٌ، كان هذا عقابه، فكيف بمن يكذب عليهم هذه الكذبة، أو يدَّعِيها لنفسه كما فعل فرعون؟

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ كانتا شيئًا واحدًا متصلًا، ثم فصَلَ الله بينهما، وربما كشف العلم الحديث بعض الحقائق والنظريات الداعمة لهذا التفسير.

لكن يُشكِل هنا: أنَّ الكافرين لم يرَوا ذلك، والقرآن قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ثم إنَّه لا بُدَّ مِن مُحاجَجتهم بشيءٍ يعلَمُونه، ويُؤكِّد فيهم دقَّة النظام الكوني الواحد الذي يدلُّ على وجود الخالق الواحد، فهذا هو السياق أصلًا.

وعليه فقولُ ابن عباس وغيره أنَّهم يرَون السماء رَتقًا، فتنفَتِقُ عليهم بالمطر، ويرَون الأرض رَتقًا، فتنفَتِقُ لهم بالزرع أقرب لِمَا يعلمه المشركون في ذلك الوقت، وأدلّ على

موضوع الحوار، وهناك قرينة من النص أيضًا، وهي قوله تعالى مُباشرةً: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وليس مِن مانع أنْ تتضمَّن الآية المعنَيَين، فهما ليسا ضدَّين ولا نقيضَين، بل فَتْقُ الكون الأكبر مُقدِّمة لفَتقِ المطر والزرع، والله أعلم.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ الرواسي: الجبال، وقد قرَنَها القرآن باستِقرار الأرض وتوازنها، فلا تنقلب بنا ولا ﴿تَمِيدَ﴾ أي: تتحرك بأهلها فلا يستقرون عليها.

﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ والسبل هي: الفِجَاج، وجاء بها للبيانِ والتأكيدِ.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ مُتماسِكًا فلا تقَع على الأرض.

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسِيرُون في مداراتهم المُخصَّصة لهم وفق النظام الكوني الدقيق الذي ضبَطَ الله فيه حركةَ هذا الكون بما فيه من شمسٍ وقمرٍ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ قرارٌ حاسِمٌ وشامِلٌ لا يُستثنى منه أحد، وإنّما الفارق في الآجال وموعد التنفيذ.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فكلُّ ما يُصيب الإنسان في هذه الحياة من صحةٍ ومرضٍ، وقوةٍ وضعفٍ، وغنًى وفقرٍ، وكلّ ما يسُرُّه أو يُحزِنُه إنَّما هو داخِلٌ في باب الابتِلاء والاختِبار، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢]، وإنَّما العبرة بسلوك المبتلى؛ فمن شكَرَ وصبَرَ ظَفِرَ، ومن بطرَ وجَزِعَ خَسِرَ.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: عَجُولًا، والسياق يقدم بهذه الجملة؛ تمهيدًا لردِّه على الكافرين في استعجالهم العذاب استعجال المُنكِر المتحدِّي؛ ولذلك عقَّب بقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تجعلهم باهِتِين واجِمِين لا يعرفون ماذا يصنَعون.

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأحاط بهم العذاب الذي يستحقونه

على استهزائهم بأنبيائهم.

﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَن يحفظكم ويمدكم بأسباب الحياة غير الله؟ و﴿مَن﴾ هنا على البدليَّة، بمعنى: مَن ذاك البديل عن الرحمن الذي يكلَؤُكم؟

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ تأكيدٌ للمعنى الأول، بمعنى: هل لهم آلهة غيرنا تحفظهم؟

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: لا تكون معهم منا نصرة أو جوار.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ إنذار للمشركين بأنَّ كلَّ سلطان آيلٌ إلى النقصان ثم الزوال، وهذه سنَّةٌ من سُننِ الله، والمقصود بالأرض هنا: الدولة والسلطان الذي يقوم على أرض محددة، ثم تتآكل هذه الدولة، وينكمش ذلك السلطان، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومعلومٌ في كلِّ أمم الأرض، وقرينة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، والله أعلم.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ شيءٌ من عذاب الله المُعجَّل لهم في الدنيا.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: الموازين العادلة التي لا تُحابي ولا تميل على أحد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ التوراة، وكأنَّ هذه الآية جاءت لتربط بين موضوع هذه السورة والسورة التي قبلها، وهي سورة طه، بتأكيد أنَّ دعوة الأنبياء واحدة، وأنَّهم يُمثِّلون سلسلة النور والتوحيد في مُقابل تلك التي تُمثِّل الظلامَ والوثنيَّةَ.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

إبراهيم عليه السلام يقيم الحجة على بطلان الأوثان

بعد حواره الطويل مع المشركين وإيراده للحجج العقليَّة والوجدانيَّة يُقدِّم القرآن في هذا المقطع دليلًا حسِّيًّا ملموسًا لا ينبغي أن يختلف في برهانه اثنان، وهذا الدليل جرى على يد سيدنا إبراهيم ﷺ؛ حيث قام بتحطيم هذه الآلهة المزيَّفة لعلَّ ذلك يُحرِّك عقولَ الغافِلين، ويمكن تلخيص هذه الحادثة العظيمة كما وردت في هذه الآيات بالآتي:

أولًا: آتى الله إبراهيم رُشدَه وهيَّأه لهذه المهمة العصيبة، وكان في البدء يدخل مع قومه الوثنيين بالحوار والأسئلة الاستكشافيَّة ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وواضحٌ من هذا العرض أنّ قومه لم يكونوا يمتلكون حجة سوى تمسُّكِهم بما وجدوا عليه آباءهم.

ثانيًا: أضمر إبراهيم في نفسه أن يُحطِّمَ بيده هذه الأوثان؛ ليُقيمَ عليهم الحجة القاطعة الملموسة، فالإله الذي لا يتمكَّن مِن الدفاع عن نفسه كيف يُسمَّى إلهًا؟ ثم نفَّذَ إبراهيم ما عزم عليه، فجعلهم جُذاذًا إلا كبيرهم ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

ثالثًا: رجع القوم إلى أصنامهم فرأوها مُحطَّمةً، لم يسألوا أنفسَهم كيف للآلهة أن تتحطَّم؛ بل راحوا يسألون عن الفاعل وكأنه عملٌ جنائيٌّ وعُدوان على بعض ممتلكاتهم! وهذه هي غفلة العقل التي نبَّهَتْ إليها مُقدِّمات السورة، والتي يغرق فيها الإنسان فلا يَقدِر على رؤية الحقائق ولو كانت ماثِلةً بين يديه ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رابعًا: تذكَّر بعضُهم مُجادلات إبراهيم، فكانت الخيطَ الذي دلَّهم على هويَّة الفاعل ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، نعم، هكذا؛ فالناس لن يسألوا عن حقيقة هذه الآلهة، وما الذي يرجُونه منها بعد أن فقَدَت القدرة على حماية نفسها، هذه الأسئلة ليست مُهمَّة لدى الجماهير الغافلة، وإنَّما المهم معرفة الجاني وما سيُفعَل به.

خامسًا: أُحضِرَ إبراهيم ﷺ أمام هذا الجمهور الأبلَه الغافل لتبدأ هذه المحاكمة الغريبة ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾.

لقد ترك إبراهيم ﷺ كبيرَ الأصنام لهذا الغرض، فهذه إذا كانت آلهة ولها إرادات مختلفة فربما حصل بينهم ما يحصل بين ملوك الأرض، فقام كبيرهم بالتخلُّص مِن هؤلاء الشركاء المُشاكِسِين، وبعد هذا فما الذي يمنع كبير الآلهة - وقد خلا له السلطان تمامًا - مِن أن يُعلِن سلطانه وتفرُّده، وأنَّه هو الذي أزَاحَ هؤلاء المُنافِسِين! هكذا أرادَ إبراهيم أن يطرُقَ على هذه العقول لعلها تستيقِظ، لكنهم بعد تلاوُمٍ وتشاوُرٍ جاءوه بجوابهم الأخير ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾!

سادسًا: لم ير إبراهيم بُدًّا مِن أن يُواجههم بالحقيقة، ويُفنِّد هذه الطريقة الغبيَّة والساذجة في التفكير ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

سابعًا: فما كان جواب هؤلاء إلا اللجوء إلى منطق القوَّة والانتقام بأبشع صوره ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فالتحريقُ إذن هو الردُّ المناسب؛ لِمَا وجدوه من حُرقةٍ في قلوبهم وهُم يرَون آلهتهم مُحطَّمة أمام أعيُنهم، وهكذا اندفع الغوغاء لجمع الحطب وإيقاد النار، وكأنهم وجدوا ما ينشغلون به عن كلِّ فكرةٍ أو خاطرةٍ قد تُحرِّك شيئًا من مجاري عقولهم الآسِنَة.

ثامنًا: أراد الله أن يُقيم عليهم تمام الحجة، وليرينا أيضًا أنَّ هاوية الضلال لا نهاية لها حينما يتلبَّد العقل، ويصدأُ الفكر ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، لقد رأوا النار التي جمعوها وأضرموها قد أحالها اللهُ القديرُ إلى بردٍ وسلامٍ، ونجَّى الله إبراهيم.

وهذه آية تضطر الفكر اضطرارًا للمُقارنة بين تلك الأصنام المحطَّمة التي لم تتمكَّن مِن الدفاع عن نفسها، وبين حال إبراهيم الذي يدعوهم إلى عبادة الإله الواحد، وكيف أنَّ هذا

الإله قد تدخَّل لإنقاذه مِن بين أيديهم، ومِن بين لَهَب نيرانهم، لكنهم أصَرُّوا على التمسُّك بتلك الآلهة المحطمة، وليس بعد هذه الغفلة مِن غفلة، ولا بعد هذا الضلال مِن ضلال.

تاسعًا: ترك إبراهيم ﷺ هؤلاء الناس، مُصطحبًا معه لوطًا ﷺ وزوجته سارة، حتى استقرَّ بهم المقام في أرض الشام، ثم رزقه الله منها بإسحاق، ومن ذرية إسحاق يعقوب، ثم كانت سلسلة النبيين ممن جعلهم الله منارات للسائرين على طريق الهدى والحقِّ المبين ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ أي: مِن قبل موسى وهارون، وقدَّمَهُما بالذكر؛ لمناسبة سورة طه المتقدمة، والتي وردت فيها قصتُهما مفصَّلة، ولتقدم الإشارة إليهما في المقطع السابق بقوله: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ ﴾.

﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ ملازمون لعبادتها.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم﴾ قالها في نفسه، فالكَيد في مثل هذه الأمور لا يناسبه الإعلان، ثم لو كان قد أعلَنَ ذلك لهم لأخذوا حذرهم، ولما تساءلوا: ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾، وحينما أشاروا إليه بالتهمة إنَّما تذكَّروا ذِكرَه لأصنامهم على سبيل الإنكار وليس على سبيل التهديد؛ إذ لو كانوا قد سمِعُوا منه التهديد لما قالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾.

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ لاستدراجهم إلى الاعتراف بأن آلهتهم لا تنطق ولا

تفعل، وفيه معنى التهكُّم أيضًا.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ربما كان هذا في لحظةٍ من التحرر الجزئي للعقل، ثم ما لبثت أن غابت في مَوج الغفلة والعناد والمكابرة، ويحتمل أنهم تلاوموا حينما شعروا بالتقصير تجاه آلهتهم التي تركوها من غير حراسة وحماية.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ تحتمل المعنَيَين أيضًا؛ أنَّهم بعد ومضة التيقُّظ انتكسوا، أو أنَّ القرآن يصف حالهم وهم يعترفون بأنَّهم إنّما يعبدون آلهةً لا تنطق ولا تفعل شيئًا، وليس بعد هذا الانتكاس مِن انتكاس.

﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ ﴾ كلمة تضجر؛ لما رآه منهم من انتكاسٍ في العقل، وارتكاسٍ في حمأة الجهل والغفلة.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ ﴾ مِن زوجته سارة، وقد رُزِقَ قبله بإسماعيل من هاجر.

﴿وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ ﴾ هو ولد إسحاق، وسمَّاه نافلةً؛ لأنه جاء مِن غير سؤالٍ، بخلاف أبيه إسحاق.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ ﴾ يُقتَدَى بهم.

﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ يدلُّون الناس ويُرشِدُونهم إلى طريق الحقِّ بإذن الله تعالى.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

شذرات من قصص الأنبياء عليهم السلام

بعد التذكير بقصة موسى وهارون، ثم تفصيل قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام، شَرَعَ القرآن بنظم بعض الشذرات والومضات السريعة مِن قصص النبيين عليهم جميعًا وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والتسليم، وهي كالآتي:

أولًا: ذِكْرُ لوط ﷺ وكيف نجّاه الله من تلك القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ

﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقد قدَّمه القرآن بالذكر لصِلَتِه بقصة إبراهيم ﷺ.

ثانيًا: ذِكْرُ نوح ﷺ وكيف استجابَ الله له فنجَّاه ومَن معه، وأهلك قومه المعاندين المكذِّبين ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ثالثًا: ذِكْرُ داود وابنه سليمان ﷺ وكيف آتاهما الله المُلك وأسباب التمكين والقوة ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

رابعًا: ذِكْرُ أيوب ﷺ وكيف كشَفَ الله عنه الضرَّ والمرض الذي أصابه بعد طول صبرٍ وتحمُّلٍ ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

خامسًا: ذِكْرُ إسماعيل وإدريس وذي الكفل ونَعتُهم بالصبر والصلاح ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

سادسًا: ذِكْرُ يونس ﷺ ومحنته القاسية والفريدة في بطن الحوت وفي ظُلمات الليل والبحر ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

سابعًا: ذِكْرُ زكريا وابنه يحيى ﷺ الذي وهَبَه الله له على كِبَر سِنِّهِ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

ثامنًا: ذِكْرُ مريم وابنها المسيح ﷺ وقصة خلقه المعجزة ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾.

تاسعًا: بعد كلِّ هذا ذَكَرَ القرآن الحكمة الجوهرية مِن ذِكْرِ هؤلاء الأنبياء في مقطعٍ واحدٍ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، فهؤلاء الصفوة الكرام مع ما يُمثِّلونه مِن أسوةٍ حسنة، ومثالٍ يُحتَذَى به في كلِّ ما يعرض للإنسان المؤمن في حياته المتنوعة، هم كذلك يُمثِّلون المعالم المكوِّنة لشخصيَّة الأمة الواحدة التي تستَعِلي على كلِّ الحدود والفواصل المكانيَّة والزمانيَّة، والعنصريَّة والطبقيَّة، وبالتالي فإنَّ أيَّ مفهومٍ للأمة يخرج عن هذا الإطار هو من الولاءات المُحرَّمة التي تُصادِم صريحَ القرآن.

أما الولاءات الأخرى التي تستند إلى واقع سياسي كمفهوم (الدولة)، أو اجتماعي كمفهوم (القبيلة) فهذه ينبغي أن تدور كلُّها في دائرة المفهوم الواسع للأمة، أما إذا خرجت عنها وتنكَّرَت لها، فهي كذلك من الولاءات العصبيَّة المُحرَّمة.

دقائق التفسير

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أما الحُكم فهو هنا: الحكمة، والقدرة على الفصل بين الخصوم، وتمييز الحقِّ عن الباطل، ومعلومٌ أنَّه ﷺ لم يُؤتَ الحُكم الذي هو السلطة والمُلك، وأما العلم فهو: علمُ النبوَّة.

﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ نموذجٌ مِن حكمةِ الأنبياء وعدلِهم، واحتكام الناس إليهم؛ لعدلهم وحُسن تدبيرهم.

وقد أعرض القرآن عن تفصيل القصَّة؛ لأنه اكتَفَى بهذا المعنى، فالسياق لم يأتِ لبيان مسألةٍ فقهيَّةٍ، والظاهر أنَّ أصلَ المسألة كانت على خلافٍ بين صاحب زرعٍ وصاحب غنمٍ، وقد انتشَرَت غنمُ هذا في زرعِ هذا فأفسَدَتْه، فاحتكما إلى داود وكان بجنبه ابنه سُليمان، فحكم داودُ أولًا بما معه من عِلمٍ، ثم استدرك عليه سُليمان، فكان الأقربَ إلى مُراد الله، وذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

وفيه أيضًا: فضيلة المبادرة بالرأي الحسن مع صِغرِ السنِّ، وفضيلة التراجُع إلى أحسن القولَين مع كِبرِ السنِّ.

﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ في تسخيرهما معنًى مُضاف غير التسبيح؛ إذ التسبيح كائن قبل داود ﷺ وبعده، ولعلَّ خصوصيته كانت بسماعه لهذا التسبيح، واستئناسه به، ولا يمنع أيضًا أنهما سُخِّرتا له لتحصيل منافعهما، وكان هذا مُقترنًا بتسبيحهما وخضوعهما لناموس الله الذي وضعه فيهما.

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ هي الدروع التي تحمي الأجساد من ضرب السيوف وطعن الرماح.

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ أي: سخَّرناها له فكانت تجري بأمره، وإلى الوجهة التي يريدها.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: كان يُكلِّفهم بالعمل داخل البحر لاستكشافِهِ وجَنْيِ جواهرِهِ، ويُكلِّفهم بأعماله الأخرى أيضًا.

وهذه معجزة وليست مثالًا يُحتذى، ولا علة يُقاسُ عليها، فالأصل الفصل بين عالم الإنس وعالم الجن، فلا نحن نُسخِّرهم لخدمتنا، ولا هم يُسخِّروننا لخدمتهم، فهذا مُنافٍ لحكمة الله في الخلق والتكليف.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ ردَّ عليه أهلَهُ، ثم باركَ فيهم وكثَّرَهم.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ صاحب الحوت، وهو يونس ﷺ.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ ترك قومه بعد أن غضِبَ عليهم.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ حيثُ ترك قومه من غير إذنٍ من ربِّه؛ لظنِّه أنَّ الله لم يُلزِمه بالبقاء معهم والصبر عليهم.

﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ الظاهر أنَّه صلاحُ الجسد؛ بحيث تكون قادرة على الحمل والولادة بعد كبرِ سنِّها، والله أعلم.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ عن كلِّ حرامٍ وشُبهةٍ.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلًا على وحدانية الله تعالى وقُدرته المطلقة.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾

العاقبة ونهاية الصراع

بعد هذا التطواف الذي أخذَتْنا به سورة الأنبياء في آماد التاريخ، وأعماق النفس البشرية، وطبيعة المجتمعات، وتجارب النبيين مع أقوامهم، عادت السورة لتذكِّر بالحقائق الكبرى التي تختم هذه الحياة بكلِّ ما فيها من مظاهِر وظواهِر، وأخبار وأسرار، وصراعاتٍ وتحالُفات:

أولًا: أنَّ الخِلاف أمرٌ واقعٌ ولا مفرَّ منه في الحياة البشريَّة، وإنَّما العبرة دائمًا بالعاقبة التي سيقف عندها الجميع، والميزان الحقّ الذي لا يُحابي أحدًا، ولا يميلُ على أحدٍ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ

أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

ثانيًا: أنَّ هذه الدنيا بكلِّ مَن فيها وما فيها ستنتهي عند أجلٍ محددٍ، وأنَّ هذا الأجل له علاماته وأشراطه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾.

ثالثًا: أنَّ هذا الأجل لن يكون نهاية المطاف، فهنالك الحياة الأخرى، والتي هي الأطول والأدوم، والتي سيتمايز فيها الناس بحسب ما قدَّموه لأنفسهم في هذه الدار ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

رابعًا: أنَّ طريق النجاة إنَّما هو في اتِّباع هذه الرسالة الخاتمة، التي بعث الله بها نبيَّه ورسولَه الخاتم محمدًا ﷺ، والتي هي رسالة الرحمة الشاملة في الدنيا والآخرة: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

خامسًا: أنَّ هذه الرسالة تقوم على أساس التوحيد الخالص لله ربِّ العالمين، مع وضوح النهج، وصدق البرهان ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم

مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾.

سادسًا: أنَّ وظيفة رسول الله ﷺ إنَّما هي في تبليغ هذه الرسالة، أما الذي يعلم خبايا النفوس، ويحكم على الخلق، فهو المُتفرِّدُ سبحانه في ربوبيَّته وألوهيَّته، لا يُشاركهُ في صفاته نبيٌّ مُرسل، ولا ملكٌ مُقرَّب ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تفرَّقُوا في دينهم وكانوا شِيَعًا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان شرطٌ في قبول العمل الأخروي، أما من يُقدِّمُ الخيرَ للناس مِن دون إيمانٍ، فله أجرُه كما أراد هو، أي: أجرٌ دنيويٌّ لا يُبخس فيه حقّه ولا جهده.

﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾لا يتوبون إليه، ولذلك أهلكهم، وتحتمل معنى التيئيس، كأنَّه يقول: وكلُّ قريةٍ أهلكناها بظلمها لن تعود إلى الدنيا، فهذا مُحَرَّمٌ عليها، والله أعلم.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ بمعنى أنَّ ظهور هذه الأقوام المتوحشة وتدفُّقهم بهذه الكثرة والقوة هو أحد أشراط الساعة وعلامات اقتراب الوعد الحقِّ.

﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا تتحرك أجفانهم؛ ترقُّبًا وتحسُّبًا بعد أنْ صدَمَتْهم الساعة بأهوالها.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: حطبها ووقودها.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ هذا توبيخٌ للمشركين الذين عبَدوا هذه الآلهة

المزيَّفة من أصنامٍ حجريَّةٍ، أو بشريَّةٍ، وإنّما يُستثنَى مِن ذلك مَن ادَّعى المشركون ألوهيَّتَهم وهم بُرءاء من ذلك؛ كالأنبياء والملائكة والصالحين مِن عباد الله، أما الحجارة فهي قَطعًا ليست مُكلَّفة، وإلقاؤها في النار إنَّما هو لزيادة تحسُّر هؤلاء المشركين وهم يرَون أنَّ آلهتَهم تحترق معهم.

﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ إلا ما يزيدهم عذابًا، وحوار الكافرين في النار وارِدٌ في القرآن الكريم، وكذاك حوارهم مع أهل الجنَّة، ومع أهل الأعراف، ولا يبعُد أن تكون هناك أحوال مُختلفة، فحالٌ يسمعون فيها، وحالٌ لا يسمعون، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ عامٌّ في كلِّ مَن استحقَّ الوعدَ الحسن بثواب الله والجنة من المؤمنين والمتقين، وفيه ردٌّ على مَن جادل في المسيح ونحوه من الأنبياء والأولياء والملائكة الذين ألَّهَهُم البشر، فهؤلاء لهم الحُسنى، ولا يدخلون النار مع تلك الآلهة.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ صوتها؛ لشدَّة بُعدهم عنها.

﴿ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ ذاك يوم البعث الذي ينتفض فيه الخلق لمُلاقاة ربهم.

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ تُطوَى يوم القيامة هذه السماوات بما فيها مِن نجومٍ وكواكب، وتُدرج كما تُدرج الأوراق، فقد انتهى دورها، وتوقفت هذه الحياة، لتبدأ الحياة الأخرى.

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ الزبور: هو الكتاب، وهو اسم جنسٍ للكتب السماوية.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير الخلق، ولا يمنع أيضًا أن يكون الزبور هو كتاب داود، والذِكْر كتاب موسى ﷺ، والله أعلم.

﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: يتمكَّنُون فيها بعد انحسار الباطل وزوال سلطانه، ويُحتمل أن يكون هذا في الآخرة، فتكون الأرض أرض الجنة، وهي الأرض

الدائمة والمستقرة، والسياق لا يبعُد عن هذا، والله أعلم.

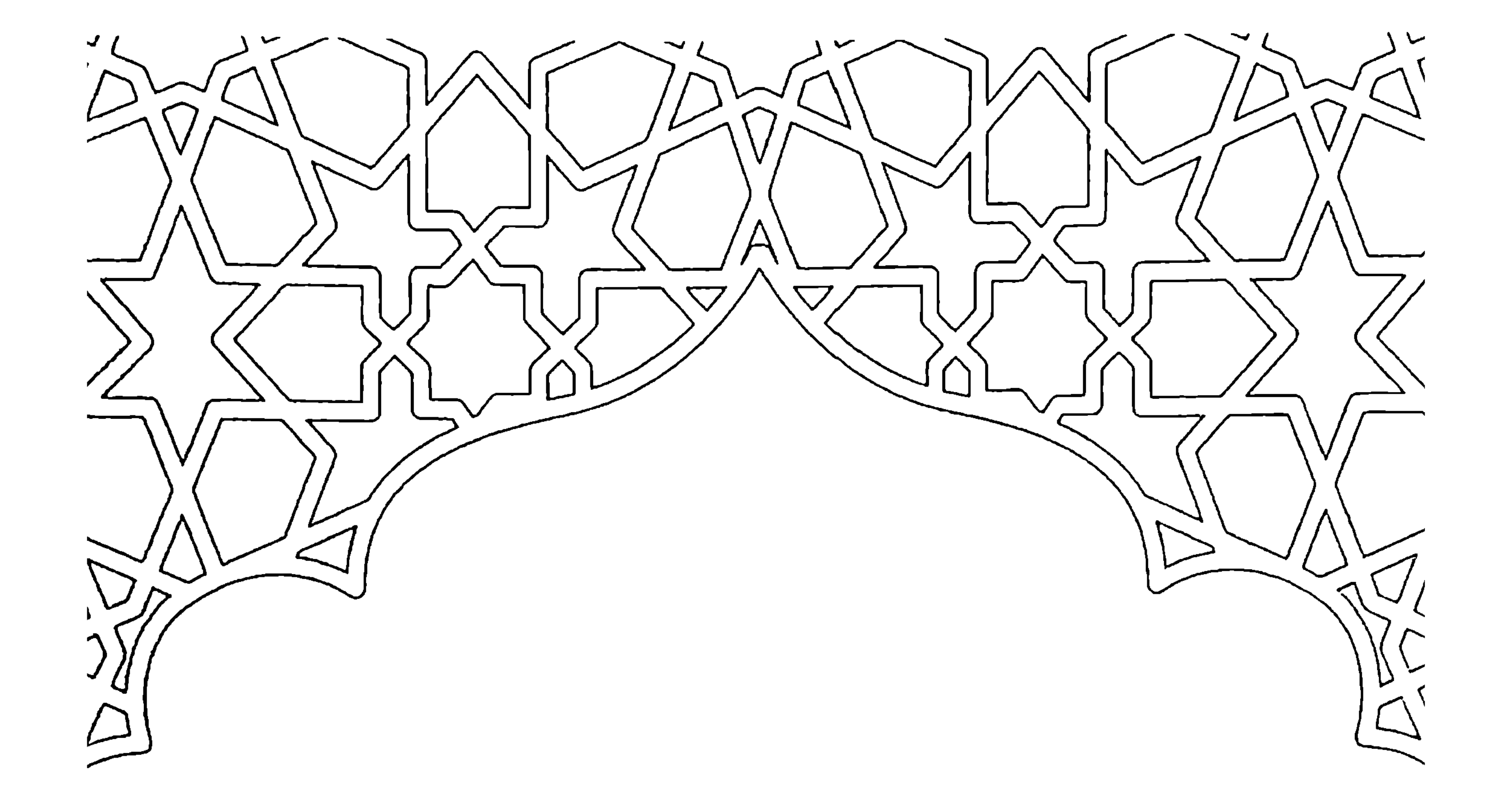
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ تلك هي القيمة المحوريَّة لهذه الرسالة المحمديَّة، وهي غايةُ الغايات، وكلُّ ما في القرآن والسُّنَّة مِن أخبارٍ وأحكامٍ وعظاتٍ؛ إنما هو لتحقيق هذه الغاية، وحينها تكون الرحمة القيمة المحوريَّة، بمعنى أنها المعيار الذي نحكم به على اجتهادات المجتهدين، واختلافات المختلفين، فكلُّ عبادة لله أو حكم من أحكامه لا بُدَّ أن نرى فيه من هذه القيمة أثرًا، فالدين لم يأت للشقاء، وإنما الشقاء من أنفسنا، ومن تصوراتنا الخاطئة والضيقة عن الدين.

﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أعلَمتُكُم جميعًا وبلَّغتُكُم هذه الرسالة كما أنزَلها اللهُ عليَّ.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ الضميرُ عائِدٌ إلى الله، وهذا واضحٌ مِن السياق.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني: تأخير العذاب عنهم، فلعله يكون اختبارًا ومهلةً مضافةً لهم.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ افصِلْ بيننا وبين قومِنا هؤلاء الذين كذَّبونا وآذونا، ولا ينتظر من الله إلا الحقّ، وإنما هو التأكيد، والتبرِّي من حول المخلوق إلى حول الخالق ﷻ.



سورة الحج

المجلس الرابع والأربعون بعد المائة: عقيدة البعث والجزاء

المجلس الخامس والأربعون بعد المائة: رسالة الحج

المجلس السادس والأربعون بعد المائة: الصراع مع المشركين

المجلس السابع والأربعون بعد المائة: عقيدة التوحيد

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

عقيدة البعث والجزاء

إنّها القوّة الدافعة للعمل، والرُّكن الإيماني الذي يُحوِّل أركان الإيمان الأخرى إلى واقعٍ يعيش على الأرض، تلك هي عقيدة الآخِرة بما تتضمنه من حسابٍ وجزاءٍ، فالإنسان لن

يُترَكَ سُدى، وأعماله كلّها صغيرها وكبيرها مُسجَّلة عليه، وهو مجزيٌّ بها، وبقدر ما يكون الإنسان متيقظًا ومستحضرًا لهذه الحقيقة يتحسَّن سلوكه، وينمو عنده الحسُّ المرهفُ تجاه أدنى زلَّة وأقلِّ مظلَمة.

إنَّها وإن كانت عقيدة غيبيَّة محضة في مضمونها، إلا أنَّها عقيدة عمليَّة واقعيَّة بآثارِها ونتائجِها، هذه المعاني وما يتَّصِل بها هي المحور الأول لهذه السورة المباركة:

أولًا: تأكيد وقوع الآخِرة وعظيم شأنِها وخطرِها ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

ثانيًا: تأكيد الصلة بينها وبين الجانب العملي والأخلاقي في حياة الناس، بمعنى أنَّها القوة الدافعة لمحاسبة النفس وتهذيبها وتقويمها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

وإذا كان الإيمانُ بالله الحقّ وبوعده الحقّ يُورِث التقوى والثبات والعمل الصالح؛ فإنَّ الغفلة عن هذه المعاني تُورِث التذبذب والتقلب بحسب المصالح الآنيَّة حتى لو كان في هذا مجانبة عن الحقِّ، وتلبُّس بالباطل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾.

ثالثًا: الاستِدلال عليها بمنطِق العقل، وصورة الحس:

أما العقلُ؛ فإن إيجاد الحياة الأولى دليلٌ على إمكانيَّة الحياة الثانية وبطريق الأَوْلى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وأما الحِسُّ؛ ففي دَورة النبات التي

نراها كل يوم، فالبَذرة تنمو حتى تكون سنبلة، أو شجرة فتُثمِر، وفي الثمرة بَذرة، ومن البَذرة تعود الحياة الثانية، وهكذا ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

ومَن ينتبه للكَمْأَة كيف تنمو، ثم تبقى خلاياها مُمْتزجة بالرمال لسنة أو سنتين يمرُّ عليها الناس فلا يرون شيئًا، حتى إذا جاء الموسم المناسب ونزل المطر، ظهرت من جديد؛ فإنه يُدرِكُ معنى هذا الدليل، ولماذا نُسمِّيه دليلًا حسِّيًّا.

رابعًا: وصم الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنَّهم يفتقرون إلى العلم، ولو كانوا بذلوا جهدهم في تحصيله لما وسعهم هذا الإنكار، فمقتضى العقل والحسِّ شاهد عليها كما مرَّ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وفي الآيات إشارات إلى أنَّ هذا الجهل إنَّما سببه اتِّباع الشهوات ومزالق الشيطان بعيدًا عن الهُدى والتَّجرُّد للحقِّ.

خامسًا: بيان أنّ ذلك اليوم هو يوم الفصل بين أصحاب الديانات المختلفة بأسمائها وأنواعها ومذاهبها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لمن يكذب على عباد الله بصناعة الأديان المُحرَّفة والعقائد الفاسدة، وهي ظاهرةٌ بشريَّة طاغية، وهي لا شكَّ أهم أسباب الضلال والانحراف، حتى بالنسبة للمُلحِدين ونحوهم؛ فإن تشويهَ الدين هو أحد أسباب تكوُّن الإلحاد وانتشاره.

سادسًا: بيان أنَّ الناس في ذلك اليوم سينقسمون قسمة واحدة وبمعيارٍ واحدٍ فقط، لا كما يختلفون هنا في الدنيا بحسب قوميَّاتهم وجنسيَّاتهم، ومستوى معيشتهم، وحتى ألوان بشرتهم، هناك رايتان فقط ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ

ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ أصل التقوى مُلازمة الحذر والورَع، ومضمونها جامعٌ لكلِّ عملٍ صالحٍ.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ قبل تمامه من شدَّة الفزع.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أثبت سُكْرَ المجاز، والذي هو بمعنى الذهول والاضطراب، ونفى سُكْرَ الحقيقة، والذي لا يكون إلا بالشراب، وهذه الآية من أوضح الشواهد على استعمال المجاز في القرآن الكريم.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ تبيانٌ لمراحل خلق الإنسان في الرَّحِم، وقد تمكَّن علمُ الأجنَّةِ الحديث من تصوير هذه المراحل بالدقة الكافية، وأثبت أنَّها تكون في حدود الأسابيع الخمسة الأول، وهو ما يوافق حديث مسلم: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا»[1].

وقد طلَبتُ من الدكتور عبد القادر العبيدي (وهو طبيبٌ معروف ومهتمٌّ بهذه المسائل) أن يكتب لي آخر ما توصَّلَ إليه في هذا المجال، فكتب لي ما نصُّه: (العَلَقَة تبدأ مِن يوم ١٥ إلى يوم ٢٣ بعد التلقيح، وخلال هذه الأيام تبدأ خلايا القرص الجنيني بالتخصص والتكاثر

---

(١) صحيح مسلم (٨/ ٤٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

بشكلٍ سريعٍ جدًّا، وأوَّل ما يتكون الجهاز العصبي والدماغ، ويتبعه القلب والأوعية الدمويَّة، وتكون الأوعية ممتلئة بخلايا الدم ولكنَّها غير متحركة؛ لأن القلب لم يبدأ بالنبض بعد، فهي تُشبِه قطعة الدم الجامدة، وهي تعتمد في غذائها على الأم؛ وذلك بتعلُّقها عن طريق الحبل السُّرِّي الابتدائي بجدار الرَّحِم، وفي نهاية هذه المرحلة تكون في مظهرها الخارجي تُشبِه دُودَة العَلَقة.

أما المُضغَة فتبدأ من يوم ٢٣ إلى يوم ٤٢، والخلايا مُستمرة بالتخصص وتكوين أجهزة الجسم، ولكن الشيء المميز الآن هو ظهور ما يُسمَّى الفلقات على الجانبين، هذه الفلقات ستكون العظام والعضلات والجلد، والجنين في هذه المرحلة شكله تمامًا يُشبِه العَلكة أو اللحمة الممضُوغة، والآن أطباء علم الأجنَّة يُسمُّونها: Leech embryo stage "مرحلة العلقة" وChewable lump stage "مرحلة المضغة".

﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ليست كلُّ النُّطَف الداخلة في الرَّحِم تتخلَّق أجنَّة، بل الجنين يتخلَّق من نُطفةٍ واحدةٍ، وباقي النُّطف يمُجُّها الرَّحِم.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ الطفلُ اسم جنسٍ يُغني عن الجمع.

﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أرْدَأه، وهو الخَرَف؛ ولذلك قال بعده: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

﴿هَامِدَةً﴾ ساكنة، لا حركة فيها ولا نموَّ.

﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تحركت بالزرع ونَمَت.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ لاوِيًا جانبه، وقفةَ المستكبر المستهزئ.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ قاعدة عظيمة في بيان حقيقة العقيدة الإسلاميَّة تجاه مسؤوليَّة الإنسان الكاملة عن سلوكه وتصرُّفه، وأنَّ الاحتجاج بالقدر في هذه المسألة مُنافٍ للعقيدة الصحيحة، وفيه معنى اتهام الله بما يخالف الحقِّ والعدل، فالله مُحال

أن يتدخَّل في إرادة الإنسان ويحرفها عن طريق الخير، ثم يعاقبه على ذلك، تنزَّه ربُّنا الرحيم الكريم عن ذلك، وعلا علوًّا كبيرًا.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ على طرفٍ غير ثابتٍ وغير مستقرٍّ، كأنه يتعجَّل نتيجةَ عبادته؛ فإنْ أصابه مغنَم استمر، وإنْ كانت الأخرى رجع.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ اختلف المُفسِّرون في توجيه هذه الآية، والذي يظهر من السياق: أنَّ الحديث لا زال مُتَّصِلًا بأولئك الذين يعبُدون الله على حرف، فالله ﷻ يقولُ لهم: إنْ كنتم تشكُّون في نصر الله لهذا الدين ولنبيِّه الكريم ﷺ، فارتقوا إلى السماء، واقطعوا عنه الوحي الذي هو أساس الدين، ومصدر النصر والتمكين، وهذا مِن باب التعجيز المحض، ثم يقول لهم على سبيل التهكُّم: ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ بمعنى أنَّه إذا وصَلتم إلى السماء، وقطَعتم مصدر الوحي، فانتظروا آنذاك أنْ يتحقَّق في مُحمدٍ ودينه ما تتمنَّون، والله أعلم.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ هو السجود القدري، والذي يعني: الخضوع التام للنظام الذي وضعه الله في هذا الكون.

﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ يسجُدون أيضًا، لكنَّه السجود التكليفي الذي يتفاوَت فيه الناس بخلاف السجود القدري.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ فريقان: فريق الجنة، وفريق النار.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ في دُنياهم وأُخراهم، أولئك أصحاب الجنة.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ طريق الله الحميد الذي أوصَلَهم إلى الحقِّ والثبات عليه في الدنيا، ثم أوصَلَهم إلى مرضاة الله، والجنة في الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

رسالة الحج

بعد محور البعث والجزاء شرَعَ القرآنُ مباشرة بالحديث عن الحج، وهي انتقالة تبدو لأول وهلة كأنها بعيدة عن السياق، وهي ليست كذلك لسببَين:

الأول: أنَّ حديث القرآن عن اليوم الآخر لم يكن حديثًا غيبيًّا بَحتًا، بل هو حديثٌ يربط بمتانةٍ ووضوحٍ بين عالم الغيب وعالم الشهادة، عالم الإيمان وعالم العمل.

الثاني: أنَّ القرآن ختَمَ حديثَه الأوَّل بالفريقَين المختصمَين في الله؛ فريق الإيمان، وفريق الكفر، فريق الجنَّة، وفريق النار، وبهذا مهَّدَ الطريقَ لتناول أعقَد بُؤَر الصراع على هذه

الأرض بين الفريقَين؛ حيث كانت مكة والمسجد الحرام بيَدِ الفريق المُشرِك الكافر، بينما كان المسلمون يرَون أنهم أَولَى بها، وأنَّ عليهم مسؤولية تطهيرها من رجس الأوثان، وتركها حرمًا آمنًا لكلِّ عاكفٍ وبادٍ لا يبتغي فيها إثمًا، ولا يدعو فيها لوثن.

وقد نزلت هذه السورة، وبهذا الاسم؛ تُشوِّقُ المسلمين للحجِّ، وتُحفِّزُهم لتحمُّلِ مسؤوليَّتهم تلك؛ ولذلك كان مدخل هذا المحور ليس الحديث عن ذات الحج، وإنَّما الإنكار على المشركين أنْ صدُّوا المؤمنين الموحِّدين عن دخول المسجد الحرام، ولنتسَلسَل الآن مع حديث القرآن هذا:

أولًا: ندَّد القرآنُ بالمشركين الذين يصدُّون الناسَ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقد تضمَّن هذا التنديدُ وعيدًا شديدًا، كأنَّه يُهيئُ المسلمين لمرحلة الصدام، والتي هي موضوع المحور الثالث لهذه السورة المباركة.

ثانيًا: ذكَّر القرآنُ بعمق الهويَّة الدينيَّة والتاريخيَّة لفريضة الحجِّ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

ولا شكَّ أنَّ ذِكر إبراهيم ﷺ في هذا السياق له دلالته الكبيرة في الصراع مع الجبهة الوثنيَّة؛ حيث كانت قريش تتبنَّى رعايةَ التراث الإبراهيمي في مكة، ومن ثَمَّ كان نَزع هذه الدعوى وإبطالها إنَّما هو نزعٌ لشرعية المشركين في إدارتهم لمكة ولشؤون الحجِّ فيها، وفي الآيات بِشارة بانتشار هذا الدين وقبوله، وتلبية الناس لنداء الحج مِن كلِّ فجٍّ عميق.

ثالثًا: أن الحجَّ يهدِف إلى تحقيق مصالح العباد كما هو موسِمٌ للعبادة والذِّكر، وصَقل النفس وتهذيبها ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا

رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

وقد ورد في الآية بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالحجِّ مما هي مُوسَّعة في كتب الفقه؛ كالطواف، والهَدْي، والنَّذْر، وتخصيص أيام مفرَّغة لذِكرِ الله.

رابعًا: تأكيد حُرمة الحجِّ وتعظيمه، وتعظيم أحكامه وشعائره ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾.

ولا شكَّ أنَّ هذا التعظيم مع ما فيه من معنى التديُّن والتعبُّد الصادق، يُرسِّخ في الأمة روحَ الاعتزاز بهويتها الجامعة، وهذه إحدى أهم رسائل الحجِّ وغاياته الكبرى.

خامسًا: تأكيد ارتباط الحجِّ بالعقيدة الصحيحة وبالأخلاق الحسنة، فهو ليس عبادة منفصلة، بل ركنٌ في بناءٍ متينٍ ومتكاملٍ ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾، ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

سادسًا: تأكيد روح التكافل ومواساة الفقراء والمحتاجين ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾، ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تقديره: وهم يصُدُّون.

﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ يستوي فيه المقيم في مكة والقادم إليها من خارجها.

﴿وَمَن يُـرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَـادِۭ بِظُـلْمٍ﴾ معناه: مَن يُرِد في المسجد الحرام إلحادًا مُتلبِّسًا بالظلم، والإلحاد هنا: المَيْلُ عن عقيدة التوحيد وطريق الإيمان، والمقصود به: الشرك، وهو الظلم الأكبر.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا﴾ وإذ هيَّأنا.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّـاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ ارفَع صوتك وادْعُهم لأداء فريضة الحجِّ.

﴿يَأْتُوكَ رِجَـالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ يُلبُّون دعوتَك مُشاةً على أقدامهم، أو راكِبين على دوابِّهم، والضامِرُ: الناقةُ المُعدَّة للسفر، بخلاف تلك السمينة المُثْقَلة باللحم.

وهنا مسألة: أنَّ النصَّ تناوَلَ وسيلَتَين فقط، والمسلمون اليوم يحُجُّون بوسائل أخرى؛ كالطائرات، والسيَّارات، دون نَكِير، ومعنى هذا: أنَّ النصَّ على الوسائل ليس كالنصِّ على أصل الحكم، فالوسائل تختلف وتتطور بحسب حاجة الناس، وتقدُّم الحياة، أما نصوص الأحكام (كالطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار) فهذه لا تتغير.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ مِن كلِّ طريقٍ بعيدٍ.

﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ مطلقة؛ دينيَّة ودنيويَّة، ولكن قد يكون هنا إفراط وتفريط؛ فمنهم من يُضيِّق على الناس مصالحهم، ويزهِّدهم بكلِّ ما له صلة بالدنيا، ومنهم من يتوسَّع أكثر مما ينبغي، فيقضي جُلَّ وقته في الأسواق، والحقُّ أنَّ الأصلَ في الحجِّ أنَّه موسم تعبُّدي، مخصوصة أيامُه للذكر والعبادة وفعل الخير، فإن احتاج الحاجُّ إلى حاجة دنيويَّة فلا بأس أنْ يَقضِيها ثم يرجع إلى عبادته، أما التنزُّه الفارغُ فهو تضييعٌ لأثمَنِ الأوقات وأعظمها وأعظمها بركةً عند الله.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والضأن والماعز، فلا تصح الأضحية من غير هذه الأصناف.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمرٌ بمعنى الإباحة وليس الوجوب، ونصَّ عليه دَرءًا لشبهة التحريم؛ لأنها مالٌ مُتصدَّقٌ به، فالشُّبهةُ فيه واردة لولا هذا التنصيص.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ ذكَّرهم بالصفات التي تستدِرُّ الرحمة والعطف.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ يتحلَّلُوا مِن ملابس الإحرام، ويحلِقُوا رؤوسهم، ويقلموا أظفارهم، ويتزيَّنوا بثيابهم المعتادة، ويتعطَّروا، فكلُّ هذا أصبح مُتاحًا لهم، وبهذا يتخلَّصون من تَفَث الإحرام، أي: مِن قيودِهِ ولوازمِهِ.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ الكعبة المشرفة، وسميت البيت العتيق؛ لأنها أوَّل بيتٍ لله وُضِع في الأرض.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ مِن هذه ليست للتبعيض؛ فالأوثان كلُّها رجس، بل هي لبيان مصدر الرجس.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ تشبيهٌ يُصوِّرُ القرآن فيه حال المشرك، فهو كالساقط من السماء، الفاقد للإرادة ولكلِّ أسباب المنعة والمقاومة، فيكون نَهبًا لكلِّ مَن يختطفه بالشبهة أو الشهوة، أو تأخذه ريح الزمن إلى حيث لا يدري، فهو حائرٌ مُضطربٌ لا يدري أصلَ وجوده، ولا يدري مُنتهى عمره، ولا طبيعة هذا الكون الذي يعيش فيه.

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ وهذه أصل التقوى، فمَن لم يتَّقِ الله بقلبه، لم تنفعه تقوى الجوارح؛ لأنها علامات الرياء، ومُداراة الخلق، وستنكشف في أوَّلِ اختبار.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ هي الأنعام التي ينتفع بها أصحابها متى شاءوا، فإذا أشعَرُوها هَديًا فهذا الأجل المسمى؛ فتُترك ولا يُتعرَّض لها حتى

تصِلَ البيتَ العتيقَ، وأما ما يَنتُج عنها في الطريق وبعد الإشعار مِن ولدٍ ولبنٍ، ففيه تفصيلٌ لا يتسع له المقام، ومحله كتب الفقه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ لكلِّ أُمَّة: أنتم، وكذلك مَن سبقكم مِن الأمم، شرَعنا لهم نُسُكًا يتعبَّدون اللهَ به ويذكرونه عليه.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المطيعين المتواضعين.

﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ الإبل المُعدَّة للأُضحية.

﴿مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ من الهَدْي الظاهر، والعلامات التي يتميَّز بها المسلمون.

﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ عند نحرها وهي واقفة.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطت على الأرض بعد نحرها.

﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ القانِع الذي لا يسأل ولا يتشوَّف لها، والمُعترّ بخلافه، وكلاهما مستحقٌّ.

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ لن يصِلَ إلى الله من هذا شيء.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ إنما يصِلُه التقوى مِن نيَّةٍ طيِّبةٍ، وعملٍ صالحٍ.

تجدُرُ الإشارة في ختام هذه الدقائق أنَّ تفصيل القرآن لكلِّ هذه الأحكام ومكة لا زالت تحت وطأة الأصنام، يعني تحقق الفتح الأكيد، ودفع المؤمنين نحو هذا الوعد الإلهي المتيقَّن، وهذا ما حصل بالفعل - كما هو معلوم -، والله يُتمِّمُ على مكة وأهلها بركات ذلك الفتح، ولا ينزع عنها رايةَ التوحيد والدين الحقِّ بمنِّه سبحانه وفضله وكرمه.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ﴾

بعد محور الحجِّ وما تضمَّنه من تنديدٍ بموقف المشركين وصدِّهم عن المسجد الحرام، شرَعَ القرآن ببيان طبيعة العلاقة مع هؤلاء المشركين وما ينبغي للمؤمنين الاستعداد له:

أولًا: بيان أنَّ الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، وهو معهم على مَن عاداهم وظلَمَهُم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ وواضح من أسلوب القرآن هنا أنَّه يتحدث عن الحرب الدفاعيَّة لردِّ الظالم المُعتدِي، وكفِّ عُدوانه.

ثانيًا: بيان أنَّ المشركين هم المعتدون، وهم الظالمون؛ ولذلك حُقَّ للمؤمنين أنْ يردُّوا هذا الظلم، وهذا العدوان ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾.

ثالثًا: تأكيدُ القرآن أنَّ ردَّ العدوان ولو من مُشركٍ أو كافرٍ ينبغي أن يكون بالعدل ﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾.

رابعًا: بيان أنَّ أصل الخلاف مع المشركين لم يكن على أرضٍ أو مصلحةٍ دنيويَّةٍ، وإنما كان خلافًا عقديًّا بسبب موقف المشركين من رسالة التوحيد التي جاء بها خاتم المرسلين محمد ﷺ، وهو موقفٌ مُتكرر مع كلِّ نبيٍّ مرسلٍ، فالصراع بين الشرك والتوحيد صراع وجود لا تخلو منه أرض ولا زمان ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ (٤٣) وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

خامسًا: بيان أنَّ عاقبة الشرك خسارة الدنيا والآخرة، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ

وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

سادسًا: بيان أنَّ عاقبة المؤمنين خير الدنيا وخير الآخرة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وهكذا يكون المؤمن بين الحُسنيَين؛ نصر الدنيا، وشهادة الآخرة.

سابعًا: تحميل المؤمنين مسؤوليَّة الإصلاح ونشر الخير والفضيلة، ومحاربة المنكر والرذيلة بعد تمكين الله لهم، ونصره لهم على عدوِّهم ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

وهذه مسؤوليَّةٌ لا تقِلُّ أهميةً عن مسؤوليَّة البذل والتضحية في مراحل الصراع المختلفة، فمن يَصبِر على مِحَنِ الطريق، ربما يقِلُّ صَبرُه عند قطف الثمر، والتنافُس في مُقارعة العدو قد يكون أسهل على النفس من التنافس على الغنائم، وفي هذه وتلك يعيش المؤمن حالةً من الاختبار والامتحان.

ثامنًا: في خِضَمِّ هذا المحور يَذكرُ القرآن بُعدًا آخر لهذا الصراع، ونموذجًا مما كان يواجهه ﷺ من هؤلاء المشركين، إنَّه نموذجٌ لظاهرة من ظواهر الصراع مع كلِّ الدعوات، ومع كلِّ النبيين، وليست حادثة جزئيَّة أو منفصلة كما تُشير بعض الروايات التفسيرية التي ذهَبَت

بالمقصود من السياق إلى زاوية أخرى ليس لها صلة بالواقع، ولا بالسياق، ولا بطبيعة الصراع أصلًا.

إنَّ القرآن يُقدِّم هذا النموذج كالآتي: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾.

إنه يتكلم عن حالة متكررة، وصراع مستمر وله آثاره وانعكاساته، وهذا لا يمكن أن يكون بكلمةٍ ألقاها جانٌّ أو شيطان ليخلطها بقراءة النبيِّ، ثم يسمعها الناسُ على غير حقيقتها، هذا نوعٌ من العَبَث الذي لا يصحُّ تناوله عند تفسير القرآن العظيم، وكلام ربنا الكريم.

إنَّ الآيات تتحدَّث عن شُبهاتٍ تُثار حول القرآن الكريم، وتشغب على كثيرٍ من الناس ممن لم يتأصَّلوا تأصيلًا متينًا على منهجيَّة القرآن، وهذه الشُّبهات مُستمرة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وكان القرآن أيام نزوله يتولَّى بنفسه دحضِها وكشف زيفها، كما حصل في أكثر مِن مُجادلةٍ، وحوارات طويلة مع المشركين والكتابيين وغيرهم، وهذا هو معنى قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

والنسخ بهذا المعنى قائمٌ ولا يزال، وهو مسؤوليَّة العلماء الربانيين المتأصِّلين بمنهجيَّة القرآن ومُحكماته، وبهذا تكون هذه الشبهات فتنةً للمنافقين والمتردِّدين وبعض الجاهلين، أما أهل العلم فلا تفتنهم هذه الشبهات ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فهم علموه بالعلم، وهذه ميزتهم.

هذه المعاني يشهد لها أيضًا قوله تعالى المتقدم والمتصل بهذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي: يتسابقون في الطعن بها، وإثارة الشُّبُهات حولها، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ كثير الخيانة مُصِرٌّ على كفره بالله، والإشارة هنا إلى مُشركي مكة، كما يتضح من السياق.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ سمّاه إذنًا؛ لأنه جاء بعد منعه بقوله: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]، وهذه مِن سياسة التدرج، ومواكبة المراحل ومتطلباتها وحاجاتها.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد في سبيله، والدعوة إلى الخير، وإنكار المنكر.

﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ أي: لولا ذلك الدفع لعمَّ الخراب، فلا يسلَم ذو دِينٍ على دينه، والصوامِع والبِيَع دُورُ العبادة للنصارى، والصلواتُ أماكنُ الصلاة لليهود.

والقرآن يُشير هنا إلى أن المحافظة على هذه الأماكن على اختلاف مُعتقداتها - بالإضافة إلى مساجد المسلمين - من مقاصِد التمكين ودفع الباطل بالحقِّ، والمنكر بالمعروف، والتخريب بالعمران، وليس بعد هذه السَّعة في الدين مِن سَعَة، ولا بعد هذه السماحة مِن سماحة.

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أعطيناهم المُلك والقوَّة والسلطان.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلتُهم.

﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقِطة سقوفها.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ بهلاك أهلها، وكانوا من قبل يستَقُون منها.

﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ كبير ومرتفع، لكنه خالٍ مِن أهله بعد أن أهلَكَهم الله.

﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ بعمى الحسد والتكبُّر والتعالي الفارغ.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ يتسابقون بالطعن فيها، وإثارة الشبهات حولها.

﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فرّق بين النبي والرسول بالعطف، ولم يُبيِّن لنا الفارق بينهما، ولو كان في ذلك حاجة لبيَّنَه، وأما التفريق اللغوي فظاهرٌ؛ إذ النبيُّ مِن النبأ، وهو الذي يتلقَّى النبأَ عن الله، وهو الوحي. وأما الرسول فهو صاحب الرسالة الذي كلَّفَه الله بحملها وتبليغها الناس.

وظاهرٌ أيضًا أنَّ صاحب الرسالة لا بُدَّ أن يكون نبيًّا؛ لأن الرسالة نبأٌ مخصُوصٌ، وعلى هذا نُطلِقُهما معًا (النبي والرسول) على أصحاب الرسالات مِن محمدٍ إلى عيسى، وموسى، وإبراهيم، ونوح وغيرهم عليهم جميعًا الصلاة والتسليم، وليس فوق هذا مِن عِلمٍ يستند إليه، والله أعلم.

﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ بلَّغ رسالةَ ربه وتلاها على قومه راجيًا أَوْبَتَهُم وهدايتهم.

﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أثار شياطين الجنِّ والإنس الشكوك والشبهات لإفساد الدعوة، والتشويش عليها.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يزيله ويبطله بالحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة.

﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ يُثبِّت الله الحقَّ بعد أن أزاحَ عنه شبهات الباطل.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ في خلافٍ كبيرٍ بسبب ظُلمهم ومُحاربتهم لمنهج الحقّ.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لأنَّهم بعلمهم عرفوا هذه الشُّبُهات وكشفوها وأبطلوها.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ في شكٍّ مِنه بسبب موجات التشكيك والتضليل، ومكر الليل والنهار الذي يتزعَّمه كبراؤهم لتشويه الحقائق وطمسها لو استطاعوا.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ بشارة للمؤمنين بسعادة الدارَين، وتحقق ما يبغونه ويرضونه في حياتهم عاجلها وآجلها.

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ تأكيدٌ لقيمة العدل حتى مع المعتدي ولو كان كافرًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

عقيدة التوحيد

سورة الحج بمضمونها العام ومحاورها الرئيسة سورة عقدية؛ فقد بدأت بعقيدة البعث والجزاء، واختتمت بعقيدة التوحيد، وحتى حينما تناولت محور الحج ومحور الصراع مع المشركين، كان التناول مصبوغًا وممزوجًا بالصبغة العقديَّة، وهذه بالعموم هي طريقةُ القرآن

في تناوُله لمختلف القضايا، إنه يتناولها بمفهوم البناء الشامل والمتكامل.

في هذا المحور جاءت عقيدة التوحيد كأنها امتداد للمحور السابق، مِن حيث كونها الأساس الأول والأهم في ذلك الصراع، ويمكن تلخيص هذا المحور في النقاط الآتية:

أولًا: يؤكِّد القرآن الحقيقة الكبرى لأصل الإيمان، والفيصل الحاسم بين الحقِّ والباطل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فكلُّ إلهٍ مِن دون الله يلجَأ إليه الناس بالعبادة أو الدعاء، أو يمنحونه صفةً مِن صفات الله، فهذا هو الباطل المُنافي للحقِّ، حتى لو جاء بصورة نبيٍّ مِن الأنبياء؛ كقول النصارى في المسيح ﷺ، أو بصورة إمامٍ، أو وليٍّ، أو شجرٍ أو حجرٍ، فكلُّ هذا مُنافٍ للإيمان، ومُصادِم لعقيدة التوحيد.

ثانيًا: إنَّ أصل الشرك المُنافي للتوحيد إنَّما يكون في العقول والقلوب التي لا تعرف الله، ولا تقدره قدره ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ فلو عرف هؤلاء الله لما ساوَوه بخلقه، ولما اختلطت عليهم الحدود الفاصلة بين مقام الخالق ومقام المخلوق مهما كان هذا المخلوق.

ثالثًا: إنَّ بداية التفكير السليم الذي يقود إلى حقيقة التوحيد إنَّما هو النظر في هذا الخلق العظيم الذي يُنبِئُ عن عظمة خالقه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾، ثم النظر في تسخير هذا الكون للإنسان وآثار رحمة الله وعنايته في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾.

إنَّ القرآن لم يَكتَفِ بهذا العرض لهذه الشواهد والأدلة القاطعة، بل راح يتحدَّى المشركين ومَن وراءهم إلى يوم الدين تحديًا صريحًا ومُحدَّدًا، ومُعلنًا لكلِّ الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ فالذي لا يستطيع أن يخلق ذبابة، كيف تُقارِنُونه بالذي خلقكم أنتم البشر، وخلق السموات والأرض وما فيهن ومَن فيهنَّ؟

رابعًا: إنَّ ذلك التفكير السليم الذي يُثبِتُ وحدانية الله وتفرُّده في الخلق، لَيقُود بالبداهة إلى نتيجة أنَّ هذا الخلق إنَّما هو ملكٌ لله بحُكم أنَّه مخلوق لله ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

خامسًا: بناء على ما تقدَّم؛ فالذي يخلق ويملك هو الذي يتصرَّف في خلقه وملكه، يختار لهم ما يشاء، وينهاهم عمَّا يشاء، ويعلَم سرَّهم ونجواهم، ويُحاسِبهم على أعمالهم ومواقفهم، وهذه هي خُلاصة التوحيد في جانبه العملي الذي يُثمِرُ العبادة والطاعة والعمل الصالح ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾، ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾.

وبهذا تنتقل عقيدة التوحيد مِن أُفُقِها السماوي الغيبي إلى مجالها العملي السلوكي الذي يهدف إلى إصلاح هذا الإنسان، ومن ثَمَّ إصلاح أرضه وبيئته، فهذه رسالته الكليَّة التي جاء

ليحملها ويتحمل مسؤوليتها.

سادسًا: في الختام يعرِض القرآن لبُعدٍ آخر في عقيدة التوحيد، هو بُعْدُ الهويَّة الجامعة والمُستعلِية على حدود الزمان والمكان ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

إنّها الأُمَّة الممتدة في عمق التاريخ إلى عرض الجغرافيا، الأُمَّة المكلفة بحمل رسالة التوحيد هذه بصدقٍ وأمانةٍ إلى كلِّ إنسانٍ يعيش على هذه الأرض، الأمَّة المكلفة بتحقيق الشهود الرسالي والحضاري بتمثلها للحقِّ الذي تحمله، والوحي الذي تحفظه، والخير الذي تُقدِّمه، إنَّه اصطفاء وابتلاء، ومسؤولية ثقيلة وحساب.

دقائق التفسير

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ يدخل الليل على النهار بانسحاب ضوء الشمس حتى يختلط فيه بعض الوقت، ثم يدخل النهار على الليل بشروقها فيختلط فيه أيضًا بعض الوقت، في حركةٍ متواصلةٍ ومستمرةٍ لتؤدِّي وظيفة لا يُتصوَّر استمرار الحياة بدونها، والإنسان يشاهد هذا كلّ يومٍ ويحسب به أيامه وأسابيعه وشهوره وسنيِّه وعقوده وقرونه، ألا يدعوه هذا ليتفكَّر؛ ما سرُّ هذه الدورة الفلكيَّة اليوميَّة، وما مناسبتها لحياة الإنسان، ومَن الذي سخَّرها بهذا النظام الدقيق؟

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكلُّ كبيرٍ دونه صغير، وكلُّ عالٍ دونه ذليل.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب الذي هو فوقنا، والعرب تُسمِّي كلَّ فوقٍ سماء.

﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالنظام الكوني وحركة الأفلاك، وانجذابها لبعضها

في ذلك الميزان الدقيق الذي لا يَقدر على صنعه إلا ربُّ السماوات والأرض سبحانه.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ من الأمم السابقة، كما جعلنا لكم منسكًا، وقد تقدَّم نحوه قريبًا.

﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ ظاهر النهي مُوجَّه للمُشركين أن لا يُنازعوا رسولَ الله ﷺ فيما لا يعلَمُونه مِن أمر الوحي، والمقصود عدم الانشغال بمُنازعتهم ومُجادلتهم، والله أعلم.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يبطِشُون بهم؛ لشدَّة عِنادهم وكراهيتهم للحقِّ.

﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾ أي: بِشَرٍّ مما تجِدُونه في صدوركم من غِلٍّ وكراهيةٍ.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ بمعنى أنَّ هذه الأصنام ليست عاجزةً فقط عن خلق الذباب، بل لو أن الذباب سلَبَها شيئًا مما عليها مهما كان صغيرًا، فإنها عاجزة عن مُلاحقته واسترداده منه، فكيف تكون هذه آلهة؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ انظر كيف جعل الركوع والسجود والعبادة مِفتاحًا ومدخلًا لعمل الخير المطلق، وهذه هي العبادة التي يريدُها الإسلام، بخلاف صور التعبُّد المُشوَّه الذي يُبعِدُ صاحبَه عن هذا الخير، ويقتَرِن بالشُّحِّ والأثَرَة وكراهية الآخرين؟

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ الجهاد الذي يُريده هو سبحانه، لا جهاد الشهوة والعصبيَّة والعبث والانتقام.

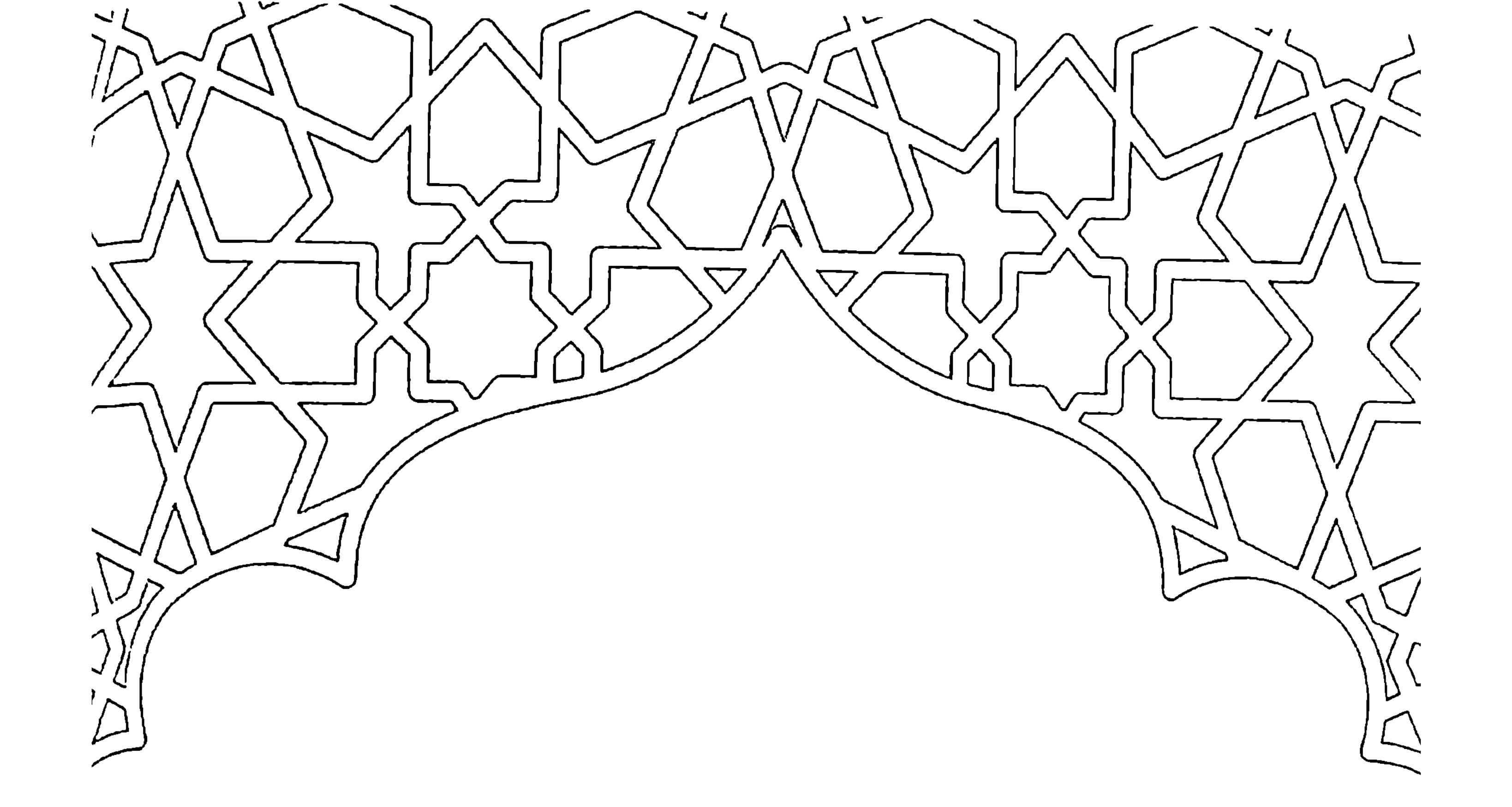
﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأقرب في السياق أنَّ إبراهيم عليه السلام هو الذي سمَّانا المسلمين، وفي القرآن أكثر من قرينة تؤكِّد هذا المعنى؛ كقوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ولا يمنع أيضًا أنَّ الله هو الذي سمَّانا المسلمين؛ استجابةً لدعاء أبينا إبراهيم، والجدل في عَود الضمير ﴿هُوَ﴾ إلى الله، أو إلى إبراهيم جدلٌ لا يُثمِر عملًا، ولا ينبَنِي عليه خلاف، وأما الاستناد إلى قوله: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ بمعنى: هذا القرآن، فيكون هذا صارِفًا للضمير عن العَود إلى إبراهيم (وهو الأصلُ في عود الضمير؛ لأنه أقرب مذكور)؛ لأنه ﷺ لم يُسمِّنا في القرآن، فهو استنادٌ لا يخلو من ضعفٍ؛ إذ يمكن تقدير الكلام على هذا المعنى أنَّ إبراهيم هو الذي سمَّانا المسلمين مِن قبل، وفي القرآن هو اسمنا كذلك، مع أنَّ الذي يظهر من السياق أنَّ قوله: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: في هذا الذي ذُكر مِن الاجتباء، ورفع الحرج، والانتساب إلى إبراهيم مِن أجل أنْ نكون شُهداء على الناس بعد شهادة الرسول ﷺ علينا.

ويُشكل أيضًا على التأويل الأول: عطف محل التسمية الحاضر على زمن التسمية السابق، وكان الأنسَب عطف المحل على المحل، كأن يقول مثلًا: سمَّاكم في التوراة، وفي القرآن، أو عطف الزمان على الزمان، كأن يقول: سمَّاكم مِن قبل، وسمَّاكم مِن بعد، والله أعلم وأحكم وأرحم، وهو يعفو عنَّا إنْ زلَلنا أو أخطَأنا.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ لأنَّه هو الذي بلَّغكم هذه الرسالة، وأدَّى أمانته فيكم كما حملها عن ربِّه.

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ لأنَّكم المُكلَّفُون بحمل هذه الرسالة بعده ﷺ، وأنتم خاتمة الأمم، وتشهَدُون على اعتِدالهم أو انحرافهم عن قِيَم الدين، ومِن ذلك شهادتكم على تحريف المُحرِّفِين، وصدِّ الصادِّين، ومكر الماكرين، وهذه مسؤوليَّة كبيرة تتطلب قدرًا كبيرًا من الوعي والمتابعة، وهي مسؤوليَّة دنيويَّة أيضًا؛ فهذا الشهود ينبغي أن تكون له آثاره في تنمية الوعي، وحسِّ المراقبة والمراجعة، والقدرة على الإصلاح، والاستفادة مِن تجارب الآخرين؛ ولذلك جاءت موصولة مع قِيَم الإخلاص والجهاد والوحدة والاعتصام، وأول شرائط الشهود: العدل، ولا عدل إلا بالعلم والخُلُق الكريم، والله المعين.



سورة المؤمنون

المجلس الثامن والأربعون بعد المائة: صفات المؤمنين

المجلس التاسع والأربعون بعد المائة: دعوة النبيين السابقين

المجلس الخمسون بعد المائة: دعوة النبي الخاتم ﷺ

المجلس الحادي والخمسون بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس الثاني والخمسون بعد المائة: عاقبة المكذِّبين

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۝٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾

صفات المؤمنين

يتناول المحور الأول من هذه السورة المباركة صفات المؤمنين، ومنه جاء اسم السورة، وهي صفات تجمع بين مجموعة من القيم والعبادات والأخلاق؛ لتكوِّن الصورة التي ينبغي أن تكون عليها شخصية المؤمن، وتتلخص في الآتي:

أولًا: الخشوع في الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فهم لا يُؤدُّون الصلاة بجوارحهم وألسنتهم فقط، وإنَّما تُصلِّي قلوبُهم لله قبل أجسادهم، هذه الصلاة التي هي الصلاة الحقَّة بين العبد وخالقه، وهي التي تُثمِر تهذيب النفس، وتحسين السلوك.

ثانيًا: الإعراض عن اللغو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو المباح فضلًا عن اللغو الآثم؛ لأن شعورهم بالمسؤوليَّة الذاتيَّة، وقيمة الحياة التي يعيشونها، وقيمة أوقاتهم لا

تسمح لهم بالانخراط في مجالات اللغو واللهو والعبث، مع ما في اللغو خاصَّةً من تكدير القلوب، وتعميق الفجوات، وإثارة النزعات، مما لا يتوافق مع رسالة المؤمن الصادق في هذه الأرض.

ثالثًا: أداء الزكاة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ لتهذيب النفس أولًا من الشُّحِّ والجشعِ والطمعِ، ثم غرس روح المحبة والتعاون بين أفراد المجتمع، وتطهيره من نزعات الحسد والغل، والتقاطع والتدابر.

رابعًا: العفة والطهر والحياء ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ فالمؤمنون يسعَون لإنشاء مجتمعٍ نظيفٍ خالٍ من الرذيلة، يعرف كلُّ فردٍ فيه مَن أمه، ومَن أبوه، ومَن أعمامه، ومَن أخواله، لا تختلط فيه الأنساب، ولا تتقطَّع فيه الأرحام.

خامسًا: حفظ الأمانة والعهد ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ وهذه قيمة حاكمة لكلِّ مجالات الحياة، فبين الحاكم والمحكوم عهد وأمانة، وبين المعلِّم والمتعلِّم عهد وأمانة، وبين الرجل وأهل بيته عهد وأمانة، وبين الشريك وشريكه عهد وأمانة، وبين الدول والمجتمعات والمؤسسات عهود وأمانات، وواجب المؤمن أينما كان وفي أيِّ مجال وُضِع أن يؤدِّي هذه الأمانة، ويرعى ذلك العهد ولو مع كافر أو مُحارب.

سادسًا: الاستقامة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي: يحفظون صلاتهم بعد تأديتها، فلا يضيِّعونها بالخروج عن كلِّ تلك الصفات والشروط المطلوبة من المؤمن ولو واحدة منها؛ فمن خان العهد، أو ضَيَّع الأمانة، أو اخترق العفَّة، أو منع حقَّ الفقراء، أو أضاع حياته باللغو والعبث، فقد ضَيَّع صلاته.

سابعًا: أشار القرآن في خاتمة هذه الصفات إلى الأصل الذي يُؤسِّس هذه الصفات ويُرسِّخها ويُنمِّيها، ألا وهو الإيمان؛ الإيمان بالله الخالق العظيم، والإيمان بعقيدة البعث

والحساب والجزاء ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾، ثم جاءت الآيات الأخرى في هذا المقطع لتذكِّر بآلاء الله ونعمائه؛ تثبيتًا لهذا الإيمان، وتعميقًا لآثاره المنشُودة في النفس والحياة.

ثامنًا: مع هذه الصفات جاء تأكيد العاقبة التي تنتظر هؤلاء المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه نتيجة مطلقة وشاملة لكلِّ مفردات الفلاح الدنيوية والأخروية، ثم خصَّ الأخروية بمزيدٍ مِن التوضيح والتأكيد ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱللَّغْوِ﴾ الكلام الباطل الذي لا فائدة له.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ المعتدون المجاوزون للحقِّ.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ كلّ ما يؤتمنون عليه من أموالٍ، وأسرارٍ، ومعلوماتٍ، وعلاقاتٍ، ومسؤوليَّاتٍ.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أصل خلق الإنسان؛ حيث خلق آدم من مادة مسلولة ومأخوذة من الطين.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ طريقة التكاثر عن طريق النُّطَف وتلقيحها في الرَّحِم الذي يوفّر له ظروف الاستقرار والحياة والنمو.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ تقدَّم شرح هذه المراحل في الخلق في سورة الحج.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وليس من خالقٍ على الحقيقة إلا الله؛ فما مِن صانِعٍ إلا والله صانِعُه، وما مِن خالقٍ إلا والله خالِقُه، وقد تحدَّى الله مَن يعبُدُون غيرَه ويدْعُون سِواه أن يخلقوا ذبابًا فعجزوا.

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ سبع سماوات.

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلناه - أي: الماء - مُستقرًّا فيها، فمِنه: الينابيع، والآبار، والأنهار.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ شجرة الزيتون.

﴿تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ الزيت الذي يُدَّهنُ به تطبُّبًا، ويُتَّخذ إدامًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢)﴾

دعوة النبيين السابقين

يذكُرُ القرآن الكريم في هذه الآيات بأخبار بعض النبيين السابقين على نبيِّنا وعليهم الصلاة والتسليم الذين تقدَّم ذكرهم مُفصَّلًا في السور المتقدِّمة، وكأنَّه يُقدِّمُهم هنا نماذجَ لِمَن تمثَّلت فيهم صفات المؤمنين التي جرَت معنا في المقطع السابق، والأنبياء الذين ذَكَرَهم

القرآن هنا هم:

أولًا: نوح ﷺ؛ حيث دعا قومه إلى التوحيد فأبَوا، واتهموه بشتى التهم، فأهلكهم الله بالطوفان، ونجَّى الله نوحًا ومَن معه بسفينةٍ صنعها نوحٌ بأمرٍ من ربِّه ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

ثانيًا: هود ﷺ؛ الذي بعثَه الله إلى قومه عاد، فدعاهم إلى التوحيد كما دعا نوح قومَه، فكذَّبوه كذلك، فأهلكَهم الله بالصَّيحة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثالثًا: موسى وهارون ﷺ؛ حيث أرسلَهما الله إلى فِرعون وملَئِه، فاستكبَروا فأهلكَهم الله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ

ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

رابعًا: عيسى بن مريم ﷺ، وكيف جعَلَهما الله آيةً مِن آياته، وأمدَّهما بمَدَده وعَونه ورِعايته ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾.

خامسًا: في خِضَمِّ ذِكْر القرآن لهذه النماذج المُباركة، أشار أيضًا إشارةً سريعةً لباقِي الأنبياء ﷺ الذين جاءوا بعد هود وقبل موسى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾ هم رُؤوس القوم ووجهاؤهم.

﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يريد أنْ يَسودكم ويعلو عليكم.

﴿ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ أصابه الجنون، حاشاه.

﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فانتَظَروه حتى يموت.

﴿ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ انتقِم منهم؛ لأنّهم كذَّبوني.

﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ اصنَعها برعايتنا وحفظنا.

﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ ﴾ فارَت عينُ الماء، وقد تقدَّم بيانه في سورة هود.

﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أدخِل في السفينة مِن كلِّ صِنفٍ مِن أصناف الحيوانات ذكرًا وأنثى.

﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ ﴾ بالدعاء لهم مِن أجل إنقاذهم.

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ ﴾ استقرَرْتَ.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ نبتَلِي الناسَ ونختَبِرهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعدِ قوم نوح.

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ عاد.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هود ﷺ ولم يُسمِّه هنا، وقصته معروفة ومُكرَّرة في القرآن.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ جعلناهم أصحاب تَرفٍ ونعيمٍ.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبعُوثون مِن جديد للحساب.

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ كلمة تستعمل لاستبعاد الأمر وإنكار وقوعه.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ بما استحقُّوه بسبب كفرهم وظلمهم.

﴿غُثَآءً﴾ هلكَى لا حِراك بهم، وأصل الغُثاء: ما يحمِلُه السَّيل مِن زبدٍ وبقايا نباتٍ وحطبٍ.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ فلكلِّ أمةٍ بدايةٍ ونهايةٍ، تطول وتقصر، تمامًا كآجال الآحاد.

﴿تَتْرَا﴾ مُترادِفين ومُتتابِعين، والكلمة تُوحِي بالكثرة.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ قصصًا وحكايات للمَثَل والعبرة بعد أن أهلكهم الله.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ مُستكبرين.

﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي: قوم موسى وهارون، وهم بنو إسرائيل الذين كان يستعبِدُهم فرعون وقومه.

﴿رَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مُهيَّأة للراحة والاستقرار.

﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جارٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ فالصلاح لا يستلزم الحرمان والفقر، بل العناية بالجسد بالغذاء والدواء والرياضة تُعينُ على العمل الصالح.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ تأكيد مُتكرِّر بوحدة الرسالات، ووحدة المصدر والمصير؛ فالأنبياء جميعًا إنما يعبدون ربًّا واحدًا، ويستَقُون من منبعٍ واحدٍ، ويسعَون لغايةٍ واحدةٍ ﷺ.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

دعوة النبي الخاتم ﷺ

بعد ذِكرِ نماذج مِن أخبار الأنبياء السابقين، ذكَرَ القرآنُ هنا طرفًا مِن اختلاف أتباعِهم؛ تمهيدًا للحديثِ عن دعوةِ نبيِّنا الكريم عليه وعلى إخوانه النبيين أفضل الصلاة وأتم التسليم، ويتلخَّص في الآتي:

أولًا: شيوع الاختلاف بعد الأنبياء السابقين ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، فانقَسَمت المِلَّة الواحدة إلى طوائف، وكلّ طائفةٍ لديها كتاب زادت فيه ونقصت منه، حتى لم يَعُد للملة الواحدة كتاب واحد، وكلّ طائفة تدَّعي أنَّ ما عندها هو الحقّ، وما عند غيرها الباطل، هذا بالإضافة إلى الأُميِّين الذين لم ينزل عليهم كتاب فاجتاحتهم خرافات الوثنيّة والجاهلية.

ثانيًا: يُصحِّح القرآن لهؤلاء ميزان الحقّ والباطل، فيردُّ عليهم تصوُّرَهم الخاطئ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فالمال والجاه والكثرة ليست هي المقياس، إنما المقياس الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

إنها منظومة الإيمان والقِيَم الصحيحة والعمل الصالح، فهؤلاء هم المُقرَّبُون عند الله، المُسارعون في الخيرات، الذين تكدُّ أجسادهم في الطاعة، وقلوبهم مُتواضِعة ليِّنة، لا يرَون أنَّهم قدَّموا شيئًا.

ثالثًا: يُحذِّرُ الله أولئك المُترَفين أصحابَ المقاييس الفاسِدَة مِن الصدمة التي ستصدِمُهم وهم في حالٍ مِن الغفلة والضياع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

رابعًا: ثم يأخذ القرآن ببيان إقامة الحُجَّة عليهم، وأنَّ اللهَ لم يترُكهم هَمَلًا ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ نعم، كان يكفيهم لو استمعوا لرسولهم ﷺ، وتدبَّروا قوله وهم يعرفونه تمام المعرفة، يعرفون صدقه وأمانته وشرفه فيهم، ثم يلتفت الخطاب إلى النبيِّ ﷺ فيُزكِّيه ويُزكِّي دعوته ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

خامسًا: يؤكِّدُ القرآن أنَّ الذي صدَّهم عن سماع الحقِّ وتدبُّره والقبول به ليس شُبهةً ذات قيمة، ولا فكرةً قابِلة للنقاش، وإنَّما هي كراهية الحقِّ؛ لأنَّه ثقيلٌ على الهوى ﴿بَلْ جَآءَهُم

بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

سادسًا: يؤكِّدُ القرآن أيضًا أنَّ هؤلاء المُتكبِّرين المُعانِدين لن يرجِعُوا إلى الحقِّ حتى لو كُشِفَ عنهم الضرُّ ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ والشواهد على هذا كثيرة، وأوضحها ما ورَدَ في فرعون وقومه، والآيات الصاعقات التي تنزل عليهم ثم لا يرجعون ولا يهتدون.

دقائق التفسير

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ اختلفوا في دينهم وتفرَّقوا شيعًا.

﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ سكرتهم وعمايتهم.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ لرضانا عنهم؟

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فميزان الرضا والقرب من الله ليس بما نمدّهم به من متاع الدنيا.

﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يُقدِّمون كلَّ ما عليهم مِن واجبات، ويتصدَّقون بما عندهم، ثم هم خائفون مِن الله أدبًا معه، وتواضعًا لعباده، ومحاسبة دقيقة لنوايا القلوب وخواطر النفوس، فمثل هذه القلوب لا يدفعها البذل مهما بلَغَ إلى الغرور، أولئك المتقون.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قاعدةٌ عظيمةٌ مِن قواعد التشريع، فغايةُ الشرع إسعادُ البشر في الدنيا والآخرة، فإذا كلَّفَهم ما لا يُطِيقُون فقد شقَّ عليهم وألجأَهم إلى المعصية، وليس مِن

وراء ذلك حكمة، وليس الله بمُحتاج أصلًا لهذا التكليف، ولا لما نُقدِّمه من العبادة، لكنه لتمييز الطائع عن العاصي، والصادق في إيمانه عن الكاذب، وهذا يتحقَّق بالتكليف الموائم لطبيعة الإنسان وطاقته.

﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يرفعون أصواتهم بالشكوى والدعاء.

﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ تسمرون مع بعضكم في الليل، ولا تتنزهون عن الكلام الباطل في سمركم.

﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ جاهلون به ومستغربون منه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أصابه جنون.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ مالًا وأجرًا على دعوتك لهم.

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أجر الله وفضله عليك أكبر من الدنيا وما فيها.

﴿لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ لتمادَوا في طغيانهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتخبَّطون تخبط الأعمى.

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ فما ندموا، ولا خضعوا للحقِّ.

﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيِسُون من رحمة الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

حوار مع المشركين

تتِمَّة للموضوع السابق الذي تناول دعوة الرسول الخاتم ﷺ وموقف المشركين منها، شرَعَ القرآن هنا بمناقشة هؤلاء المشركين، ولفت أنظارهم لآيات الله المبثوثة في هذا الكون؛ لعلهم يرجعون إلى رشدهم، ويتفكَّرون في حقيقة أنفسهم، ومُستقبل حياتهم:

أولًا: يدعوهم القرآن للتفكُّر في أنفسهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

إنه يُذكِّرهم بأدوات المعرفة التي وهَبَها الله لهم؛ السمع والبصر والعقل، فهذه كفيلة بالوصول إلى الحقّ الذي نزل به الوحي، فإنّ مُنزِّل الوحي هو نفسه خالق هذه الأدوات،

يُذكِّرهم ببداية الخلق، وكيف أنشأهم الله مِن العدم ثم كثَّرهم ونشرهم في هذه الأرض، وخلق فيهم الموت والحياة يتجدَّدان كلَّ يوم؛ فوجٌ ذاهبٌ، وفوجٌ آتٍ، يُذكِّرهم بهذه الحقائق الكبرى لعلهم يخرجون من مألوف عاداتهم قليلًا، ليتفكروا فيما وراء كلِّ هذا.

ثانيًا: يذكر شُبهتهم المتكررة، والتي تلوكها ألسنتهم دون وعيٍ بتلك الحقائق، ولا بحركةِ الحياة مِن حولهم ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وكأنَّ الذي خلَقَهم أول مرة، وذرَأَهم في هذه الأرض أجيالًا بعد أجيال يعجز - حاشاه - أن يُعيد خلقَهم كما بدأهم.

ثالثًا: راح القرآن يُحفِّز عقولَهم بالأسئلة التي لا يملِك العقل أمامها غير التسليم ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾.

فالمُشرك مهما عبَدَ مِن أحجارٍ وأشجارٍ لا يستطيع أن يُسلِّم لها بكلِّ شيء، ولا يستطيع أنْ يدَّعي في هذه الجمادات المصنوعة أنَّها هي التي تملِك السماوات والأرض، وهي التي تُسيِّر هذا الكون على هذا النظام الدقيق.

مِن هنا يريد القرآن أن يأخذهم ليَبنُوا على هذه المُسلَّمات، ولكنهم ينكسون عنادًا وإيثارًا لما عندهم مِن سلطةٍ ومتاعٍ؛ ولذلك يصفهم بالكذب ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ كاذبون؛ لأنهم لا يُناقِشُون عن رأيٍ وشبهةٍ، ولا يبحثون عن الصواب، بل يُمارون ويُسوِّفون ويُراوِغون، وهم بذلك إنَّما يكذبون على أنفسهم ويضلُّونها، ويوردونها موارد الهلاك.

رابعًا: يذكُرُ القرآن أنواعًا مِن شِركهم التي لا تتفق مع تلك المسلَّمات التي أقرُّوا بها ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا ردٌّ لكلامهم على أوله، كأنَّه يقول لهم: إذا كان الله هو ربَّ الأرض ومَن فيها، وربَّ السماوات السبع والعرش العظيم، وهو الذي يُسيِّر كلَّ هذا الكون، فما موقع الشريك، سواء كان ابنًا له، أو وثنًا يُعبد معه؟ تبارك الله وتعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا.

خامسًا: يُوصِي الله ﷻ نبيَّه الكريم ﷺ وكلَّ داعيةٍ مِن بعده بالحلم عليهم، وأن يدفع إساءَتهم بالخُلُق الأنبل والأحسن، مع تحقق التمايز عنهم بالعقيدة الصافية، والموقف الواضح الذي لا شُبهة فيه ولا غُموض ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ إشارة أنَّ التفكير السليم واستعمال السمع والبصر في المعارف الصحيحة من مُستلزمات الشكر، بخلاف مَن استعملها في الباطل وكسب المآثم.

وقد ورد عن الجُنَيد ؓ قوله في تعريف الشكر: (أنْ لا تستعين بنِعَم الله على معاصيه)، وهذه الإشارةُ تشهَدُ له.

﴿ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خلقكم ونشركم فيها.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيبهم التي يروونها دون دليلٍ ولا بيِّنةٍ.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ ﴾ في الأولى ظاهر؛ لأنَّه سألهم ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾، أما في الثانية والثالثة فقد كان السؤال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، و﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فكان سياق الجواب أنْ يكون: الله، ولكن اللام هنا أضافت معنًى آخر، كأنه يقول: هذا ثابتٌ لله، والله أعلم.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ منفردًا به، ومعناه أن يكون لكلِّ خلقٍ نظامه الذي يرتضيه إلهه الذي خلقه، فلو كان هنالك آلهة متعددة، لرأينا لهذا الكون أنظمة مختلفة ومتضاربة.

﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴾ إنْ نفَّذتَ فيهم وعيدَكَ مِن العذاب والهلاك، وأنا موجود وأراهم.

﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: أبعِدني وميِّزني عنهم.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ ﴾ ادفع سيئتهم بحسنتك، ولا تقابل السيئة بالسيئة.

﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ حركاتهم الخفيَّة ووساوسهم.

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أي: يحضُرُون معي في حياتي أو عند مماتي، وفيه التبرِّي مِن الحول والقوة إلى حول الله وقوته.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

عاقبة المكذِّبين

في خِتام هذه السورة المباركة التي بدأت بصفات المؤمنين وأحوالهم، وما أعدَّه الله لهم، جاء الحديث عن المُكذِّبين، والعاقبة البئيسة التي تنتظرهم:

أولًا: يعرِض القرآن حالهم عند الموت، اللحظة التي ينطفِئ فيها كلُّ وهَج الحياة بآلامها وآمالها وحساباتها، ويكون المرء مجرَّدًا من كلِّ شيء أمام مصيره المحتوم، هناك تأكل هؤلاء المكذِّبين حسرات الندم ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾.

ثانيًا: عند البعث والقيامة للحساب يُؤكِّد القرآن أنَّ الميزان هناك إنما هو العمل، فكلُّ نسَب من دونه باطل، وكلُّ علاقة من غيره سراب ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ** ﴾.

ثالثًا: وفق هذا الميزان الحقّ ليس أمام هؤلاء المكذِّبين سوى العذاب الأليم ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ وليس أمامهم سوى الاعتراف والإقرار بذنبهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾.

رابعًا: هناك لم يبق بأيديهم إلا التوسُّل لعلَّ الله يُخرِجهم منها ويعيدهم إلى هذه الدنيا مع العهد والميثاق أنْ لا يعودوا للكفر والتكذيب مرة أخرى، لكن الله يردُّ عليهم ويوبخهم، فقد أمضوا في هذه الحياة من الأيام والسنين ما يتذكَّر فيه من يتذكَّر، ويندم فيه من يندم، وقد جاءهم النذير تلو النذير، والآيات تلو الآيات ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

نعم، فهؤلاء المؤمنون كانوا معكم، وهم حجة عليكم، ولكنكم كذَّبتُموهم وحاربتُموهم. تجدُرُ الإشارة هنا إلى أنَّ أساس الاختبار بين كلِّ الناس إنما كان الإيمان بالغيب، فلما رأى المكذِّبون الآخرة وما فيها لم يعُد هناك غَيب يُمتحنون فيه.

خامسًا: يقرر القرآن أخيرًا تلك الحقيقة الكبرى التي قامت عليها الحياة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

دقائق التفسير

﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيما ضيَّعتُ مِن العمر.

﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ أطلَق الكلمة المفردة على مجموع كلامه، وهو شائعٌ في لغة العرب.

﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ قولٌ بلا حقيقة، ولا ينتج عنه واقع؛ لأنَّ الأمر بيد الله وحده.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالأعمال الصالحة.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ خسِرُوا إنسانيَّتهم وما منحهم الربُّ الجليل مِن عقولٍ ووسائل للفهم والتدبُّر، فآثروا الغفلة ولم يفكروا في هذا الذي ينتظرهم؛ فخسروا أنفسهم، وخسروا كلَّ شيءٍ، ﴿كَٰلِحُونَ﴾ صورة ومعنى؛ صورة من أثر النار ودخانها، ومعنى مِن أثر الخزي والحسرة والندامة.

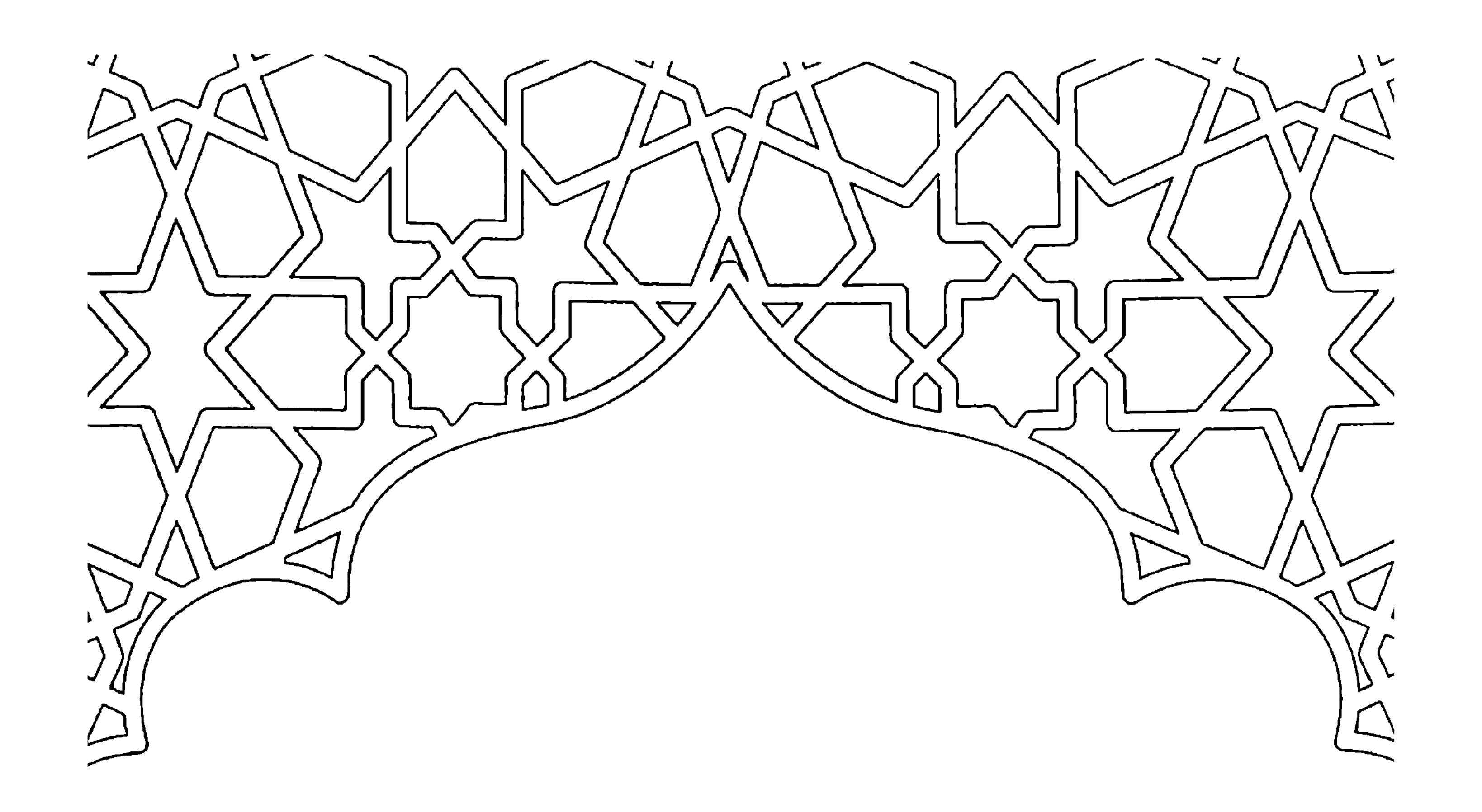
﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ الشقاء الذي صنعوه لأنفسهم بأيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ من السخرية والاستهزاء، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ لانشغالكم بمعاندتهم ومحاربتهم والاستهزاء بهم، فلم تعطوا لأنفسكم الوقت للتفكير في حقيقة دينهم وما يدعونكم إليه، وهنا إشارة إلى سببٍ مِن أسباب الضلال؛ وهو تحويلُ النظر من الأفكار، ومناقشتها إلى النظر في الأشخاص؛ حيث تظهر حظوظ النفس في الغيرة والحسد، والخلافات الشخصية والمجتمعية، فيكون هذا حائلًا سميكًا دون النظر في جوهر الفكرة محل الخلاف.

﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: في الدنيا، وكأنَّهم نسوا ذلك العمر الطويل، وما كان لهم فيه مِن متاعٍ وعلاقاتٍ ومواقف، ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قياسًا على الحياة الأخرى وأبديَّتها التي لا تقف عند حدٍّ.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ على سبيل التحقُّق لا على سبيل التحرُّز؛ إذ الإله الآخر وَهْمٌ لا يمكن أن يقترن ببرهان، ولا شبهة برهان.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دعاء ودود وجميل، اللَّهم فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الراحمين.




سورة النور

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

حماية المجتمع من الرذيلة

تتناول سورة النور باهتمامٍ بالغٍ، الأُسُسَ والمبادئَ والتشريعات المناسبة لحماية المجتمع وصيانته عن كلِّ عوامل الانحراف ومقدِّماته، الانحراف الذي يُهدِّدُ هويَّة المجتمع وقِيَمه وأخلاقه وتماسكه الأُسَري.

وقد جاءت هذه الآيات بمنظومةٍ متماسكةٍ مِن القِيَم البانية، والتشريعات الرادعة، والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

أولًا: تأكيد أنَّ هذه التوجيهات تحملُ طابعَ الحسم والإلزام ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثانيًا: بيان الحكم الحاسم في مرتكبي جريمة الزنا ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثًا: بيان الحكم الحاسم في مُروِّجي الأخبار والاتهامات الباطلة بحقِّ الأبرياء دون بيِّنة كافية ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

رابعًا: تحديد البيِّنة المطلوبة لإثبات جريمة الزنا وما يترتب عليها ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

خامسًا: بيان الحكم الخاص في الرجل الذي يتَّهمُ امرأته ويرميها بالفاحشة ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

سادسًا: التحذير من التشبُّه بأخلاق الزناة وعاداتهم وكلِّ ما كان من شأنهم ودأبهم ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد بلغ التحذير مداه في هذه الآية حينما قرن الزنا بالشرك.

ثم أكَّد هذا التمايز بين مجتمع الطُّهر والإيمان، وبين مجتمع الرذيلة والكفر: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

سابعًا: التحذير الشديد من التهاوُن في إشاعة الفاحشة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشملُ مَن يُشيعها بالقذف الباطل والاتهامات الكاذبة، كما هو واضح من السياق، ويشملُ أيضًا مِن يعملُ على التهوين مِن خطرها، وفتح باب الشهوات؛ من تبرُّج، واختلاط، ومُجُون تحت أيِّ اسمٍ جاءت، كما هو شأن كثير من القنوات الإعلامية اليوم؛ حيث جعلت مِن الشهوة المحرمة دَيدنًا لها في كلِّ عملٍ فنِّيٍّ أو دعائيٍّ، مُتسترَّة خلف قِيَم الحريَّة.

والأصل في الحريَّة أنها قيمة إنسانية تحفظ معنى الإنسان وشرفه وكرامته، أما الحريَّة التي تهدم إنسانيَّةَ الإنسان، وتزرع الشكَّ والريبة داخل الأسرة، وتُشجِّع العلاقات الهدَّامة، فتلك النَّزعة الحيوانية التي تمسَخُ الإنسان، وتقتُلُ خصوصيَّته التي بها يسمو ويرتفع عن سائر الحيوانات.

ثامنًا: ضبط الأحكام المُتعلِّقة بالبيوت وآداب الدخول والاستئذان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

تاسعًا: ضبط الأحكام المُتعلِّقة بالسّترِ وغضّ البصر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

عاشرًا: تشجيع الزواج والتزويج لكلِّ قادرٍ عليه ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

حادي عشر: تشجيع الصبر والاستعفاف لكلِّ مَن يرغب بالزواج ولا يجد القدرة عليه ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي ثنايا هذه الأحكام والتوجيهات والاحتياطات تطرَّق القرآنُ الكريم إلى نموذجٍ عمليٍّ مِن الجرائم التي حصَلَت بالفعل على عهده ﷺ، وهي جريمة الإفك التي مسَّت بيتَ النبوَّة، واهتزَّ لها المجتمع المسلم كلُّه، وقد جعلها القرآن نموذجًا صارخًا لهذا الانحراف الذي يمكن أن ينسَاق وراءه ضِعافُ الإيمان، أو ضِعافُ النفوس؛ حيث تَستغِل الدوائر المشبوهة مثل هذا الضعف في تمرير إشاعاتها المريضة للوصول إلى غايةٍ أبعد مِن التهمة نفسها على خطورة التهمة وبشاعتها.

وقد تكفَّلَت كتب السنَّة وكتب التفسير بالمأثور بعرض هذه الجريمة، وسرد تفاصيلها، وشرح مُلابساتها، وإنَّما يكفينا هنا تدبُّر الآيات كما وردت في هذا الموضع، والله المستعان:

أولًا: حكم القرآن بالقطع الجازم والمؤكَّد أن تلك الإشاعة وذلك الاتهام إنَّما كانا إفكًا وكذبًا محضًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾، ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

ثانيًا: رسم القرآن صورةً للإشاعة وكيفية انتشارها؛ حيث يتولاها من يقصدها ويخطط لها ولنتائجها، ثم تتلقَّفها الألسنة عنه بغفلةٍ دون النظر في فَحواها وعواقبها ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وهذا التنبيه والتشخيص جزءٌ مِن الإعداد التربوي لتحصِين المجتمع مِن خطر الإشاعة، وتدريبه على تحليلها ومواجهتها بوعي وبصيرة.

ثالثًا: قسَّم القرآن الناس الذين روَّجُوا لهذا الإفكَ بِناءً على النقطة السابقة إلى صِنفَين:

الصنف الأول: الذين يطلقون هذه الإشاعات ويُروِّجُونها لأغراضٍ خبيثةٍ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وأما الصنف الثاني: فهم أولئك الذين يطِيرون بكلِّ خبرٍ دون قصدٍ، وإنما هي الخِفَّة والغفلة، وهؤلاء بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التربية والتدريب؛ ولذلك تعامل معهم القرآن بفُسحةٍ ومرونةٍ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وإن تعجب بعد كلِّ هذا فاعجَب مِن بعض مَن يدَّعون الانتساب إلى ملَّة الإسلام اليوم، ويتمسَّحُون بمحبَّة أهل البيت ﷺ، وهم يلُوكُون هذا الإفك، ويجعلون دَيدَنَهم الطعن في عِرض النبيِّ ﷺ وفي أمهات المؤمنين عليهنَّ مِن الله الرحمة والرضوان.

رابعًا: ذَكَرَ القرآنُ نموذجًا للصنف الثاني مِن أولئك المؤمنين الذين أصابَتْهم الغفلة، الغفلة

التي أنسَتْه مقام بيت النبوَّة، ومكانة أُمَّهات المؤمنين، وأنسَتْه أصحابَ الفضل عليه، وهم آل الصدِّيق ﷺ؛ حيث كان أبو بكر يتعهَّده بالإنفاق والرعاية، فوقع في حبائل المنافقين، وخاضَ فيما خاضوا فيه، فما كان من سيِّدنا الصدِّيق ﷺ الحليم الكريم إلا أن قطعَ عنه الصلة.

فجاء القرآنُ ليُرمِّم هذه العلاقة، ويمحُو تلك الآثار السيئة في نفسيَّةِ مِسْطَح؛ ليصنع نموذجًا للمسامحة الكريمة والعفو النبيل ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

خامسًا: وضَعَ القرآنُ منهجًا عمليًّا لمواجهة هذا النوع من الإشاعات ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذه منهجية قلَّ مَن ينتبه لها؛ فالردُّ الفوريُّ لهذه الإشاعات بِناءً على حُسن الظن بالمؤمنين هو المطلوب في مثل هذه الحالات، أما التوقف بذريعة التبيُّن والتثبُّت، فهذا مِن شأنه أن يمنَح الإشاعةَ عُمرًا أطول، ويُعطيها فرصةً للوصول إلى أهدافها، وأما توقُّفُه ﷺ في حديث الإفك هذا وانتظاره للوحي، فهذا غايةُ الحكمة؛ إذ التهمةُ مُوجَّهةٌ إلى بيته وعِرضه، فلو بادَرَ هو بالردِّ - بأبي هو وأمِّي -، لكان للمنافقين منفَذٌ آخرُ للطعنِ والتشكيك، وهذا لا يخفى على لبيبٍ.

أما التبيُّنُ الوارد في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] فليس محله هذا النوع مِن الإشاعات، فلا بُدَّ مِن التفريق بين مسؤوليَّة الدولة، أو القضاء في التثبت قبل اتخاذ القرار أو الحكم، وبين هذه الإشاعات التي تستهدف سُمعة المجتمع ووحدته وتماسكه، وقد بسَطنَا هذه المسألة في بحثنا الموسوم: «منهج القرآن في مكافحة الإشاعة»[1].

---

(١) بحث منشور في «مجلة الأحمدية» التابعة لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث/ دبي، العدد الخامس، سنة ٢٠٠٠م.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ وكلُّ سور القرآن مُنزَّلة، وإنما خصَّها؛ تنبيهًا على أهميتها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ بمعنى الإلزام؛ لما فيها من الأحكام والتشريعات القاطعة.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ لفظان عامَّان في كلِّ زانٍ وزانيةٍ، وقد ورد تخصيصهما بأحاديث رَجم المُحصَن دون البِكْر، وهو محل اتفاق الفقهاء والمذاهب المعتبرة، كما وردت إضافة عقوبة التغريب عامًا للبِكْر في الأحاديث الصحيحة، وللناس في الجمع بين هذه العقوبات وتكييفها وشروط تطبيقها من الأقوال ما لا يتَّسِعُ له المقام، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لا تأخذكم الرأفةُ بهما بعيدًا عن تنفيذ حُكم الله، أما الرأفة بمعنى الرحمة والدعاء لهما بالتوبة والمغفرة، فهذه مِن صَميم خُلق المسلم، فالحدُّ ليس انتقامًا من العاصي، ولا كراهيةً لشخصه، وإنما تقتضيه ضرورة النظام العام وحماية المجتمع.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لتحقيق الردع للآخرين، وتكوين الوعي اللازم لصيانة المجتمع وحمايته.

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إخبار ووصف لطبيعة المجتمعات الوثنيَّة الموبوءة بالعقائد الفاسدة، والعادات المنحرفة، وليس فيه تشريعٌ بإباحة زواج الزاني مِن الزانية أو المشركة، وأما المجتمع المؤمن فهو مُبرَّأٌ مِن الشرك، ومبرَّأٌ مِن الفاحشة؛ لأنه محميٌّ بشريعة الله.

فقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان سبب هذا النقاء الذي يتميَّز به المؤمنون، وليس ابتداءً للتشريع؛ إذ تحريم الزنا سابق، فالآية كلُّها إنما جاءت إخبارًا ووصفًا ومقارنةً بين مُجتمع المؤمنين ومُجتمع المشركين، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يتَّهِمُون العفيفات بالزنا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ البيِّنة المطلوبة لإثبات جريمة الزنا، وهي بيِّنة يصعُبُ تحقُّقها؛ إذ ليس مِن الممكن ممارسة هذا النوع مِن الجرائم أمام الملأ، وكأنَّ الشرعَ وضع هذه العقوبة لكي لا ينزَلِق المجتمع إلى حالةٍ مِن الفوضى الشهوانيَّة التي لا تُناسِبُ فطرة الآدميين.

أما لو زلَّ امرؤٌ في هذا الباب زلَّةً، فالأَولَى به الستر، مع وجوب المبادرة إلى التوبة النصوح، أمّا الحرص على نزع الاعتراف منه، والرغبة في إقامة الحدِّ عليه، ظنًّا أنَّ هذا مقصود الشارع، فهذا مِن الخطأ الناتج عن جهلٍ بطبيعة هذا الدين ومنهجه في الإصلاح.

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثلاث عقوباتٍ للقاذف: جلده ثمانين، وردُّ شهادته في أيِّة واقعة أخرى، ووصمه بالفسق، والعياذ بالله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ استثناء من وصمة الفسق؛ فالفسق يزول بالتوبة اتفاقًا، ولا يدخل الجلد في هذا الاستثناء اتفاقًا أيضًا، فالتوبة لا تُبطِلُ حدَّ القذف، وإنما وقع الخلاف في قبول شهادته بعد التوبة، والظاهر ردُّها بالتأبيد الوارد في الآية، ولأن الاستثناء لم يلحق العقوبة كلَّها اتفاقًا، فالأَولَى قَصرُه على آخرها، وهو الفسق، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ يقذفون زوجاتهم بالزنا وليس معهم أربعة شهود.

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهي شهادةٌ لدفع عقوبة القذف عن نفسه، استثناء تقتضيه خصوصية العلاقة بين الزوجين.

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ إشارة إلى العذاب الوارد أولًا في حدِّ الزنا، وفيها تأكيدٌ لمعنى العموم الأصلي في الحدِّ، والله أعلم.

﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ جماعة منكم وتعيش معكم، وقد مرَّ تصنيف القرآن لهم.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ إذ رفَعَ اللهُ به ذِكر أمهات المؤمنين، وأنزل براءة الصدِّيقة بنت الصدِّيق ﷺ وعن أبيها آياتٍ تُتلَى حتى قيام الساعة، وكان فيه الدرسُ العمليُّ البليغُ لتحصين

المجتمع المسلم ومدِّه بأسباب المَنَعَة والمقاومة.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ هو ابنُ أُبَيِّ بن سَلول رأسُ المنافقين، وقد جاء في «صحيح البخاري» : (... فقام رسولُ الله ﷺ مِن يومه، فاستعذَرَ مِن عبد الله بن أُبَيِّ بن سَلول، فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا..**»)[1].

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ هلَّا، وهي أداةٌ من أدوات الطلب.

﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ تأكيدٌ لمعنى المجتمع المتلاحم والمترابط حتى كأنه جسدٌ واحدٌ، وشخصيَّةٌ واحدةٌ.

﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذِبٌ ظاهرٌ، وأصلُ الإفك الصَّرف، وأُطلِق على الكذِبِ؛ لصَرفه عن الحقِّ والعدل.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في علمِ الله، وهذه تبرئةٌ قاطعةٌ لأمِّ المؤمنين؛ إذ إنَّ القاذف في الحالات الأخرى قد يكون صادقًا في عِلمِ الله وإن أُقيم عليه حدُّ القذف؛ لفقده الشهود.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ تنبيهٌ إلى أخطر أسباب انتشار الإشاعة؛ التلقِّي عن غير عِلمٍ، والنشر بلا تفكيرٍ، وهي ظاهرةٌ مجتمعيَّةٌ طاغيةٌ، خاصَّةً فيما يُستغرب من الأخبار، ويُثير الفضول والاهتمام عند الناس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهُم المنافقون ومن يُواليهم ويمشي في رِكابهم؛ إذ لا يتصوَّر مؤمن يسعَى لنشر الفاحشة في مُجتمعه؛ ولذلك توعَّدَهم الله بعذَابَي الدنيا والآخرة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

---

(١) جزءٌ من حديث الإفك الطويل، وهو حديثٌ متفقٌ عليه عن أمّ المؤمنين عائشة ﵂، ينظر: صحيح البخاري (٢/ ٩٤٢/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٨/ ١١٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ جوابُه مفهومٌ مِن السياق، ويدلُّ عليه الجواب السابق: ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ تأكيدٌ أنَّ فِعلَ المنافقين في الإفك، والسعي لإشاعة الفاحشة وزعزعة المجتمع المؤمن إنما هو اتباعٌ للشيطان وخطواته المتسلسلة والمتابعة لفتنة المسلمين، وإلحاق الشرِّ بهم.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ ولا يحلف.

﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ إشارة إلى أنَّ الصلاح مع الغفلة وعدم الفطنة قد يُوقِعُ صاحبَه في الخطأ الكبير، ومِسْطَح مِثالٌ لهذا، والترغيب بالعفو والصفح عنه إنما هو مِن حيث الصلة لا مِن حيث الحدِّ، فالناس أمام الحدود سواء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن رمى مؤمنةً عفيفةً، وهو آكَد وأشَدُّ فيمَن رمَى أمَّ المؤمنين، وخاض في عِرض رسول الله ﷺ.

وقد ذكر العلماء أنَّ مَن خاض في هذا بعد نزول هذه الآيات فهو كافرٌ ومكذِّبٌ للقرآن، وخارجٌ مِن الأُمَّةِ والمِلَّةِ.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ﴾ تهديدٌ آخر، وتخويفٌ من عواقب الإفك.

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ حسابهم العادل، وهو وعيدٌ آخر، وتهديدٌ مُضاف، فيا خسران من استحقَّ كلَّ هذا الوعيد والتهديد.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وصفٌ لما هو الأصل والشأن المعهود في العلاقات، وكما يقال: شَبيهُ الشيءِ مُنجذبٌ إليه، ومناسبةُ الإخبار عن هذا الشأن جليَّة؛ فالرسول - بأبي هو وأمِّي- أطيَبُ الخلق وأزكاهم وأصفاهم، وقد اختار الله له أطيَبَ النساء، حتى منعَه مِن الزواج بغيرهنَّ: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فلو لم يكُنَّ مُناسِباتٍ له وجديرات به لما

تمسَّك بهنَّ اختيارًا، ولما خصَّه الله بهنَّ تقديرًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ بمعنى أنَّ الطيبين والطيبات مُبرَّؤون مما يَرمِيهم به الخبيثون والخبيثات.

﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ حتى تستأذنوا، وفي الاستئناس معنًى دقيقٌ مُضافٌ إلى الاستئذان، وهو اختيار الوقت المناسب الذي يبعث على الراحة والأُنس.

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ﴾ حالتان ينهى الله فيهما عن دخول بيوت الآخرين: ألا يكون فيها أحد، وأن يكون فيها أهلها لكنهم لم يأذَنوا لَمن استأذن عليهم، وهذا مِن حقِّهم؛ لأنَّهم أعلَمُ بحالهم وبمَن معهم.

والتحرُّج في هذا مِن قِبَلِهم أو مِن قِبَل المستأذن تحرُّجٌ في غير محله، وهو مُنافٍ لحالة الصفاء وحُسن الظنِّ فيما بين المؤمنين؛ ولذلك عقَّب بقوله: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ أي: أطهر لقلوبكم، وأصفى لعلاقاتكم.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ استثناء تقتضيه المصلحة، فهناك بيوت لم تُعدَّ للسكنى أصلًا؛ كالأماكن العامة المعدَّة مثلًا لخدمة الزوَّار، والمسافرين، وطلاب العلم، فهذه لا تحتاج إلى استئذان ولا استئناس.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ نهي عن السبب أولًا؛ إذ النظر المُحرَّم سببٌ في انتهاك الحرمات، والوقوع في المنكرات، سواء كان من الرجل أو من المرأة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾.

﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ إذ زينة المرأة ليست للرجال الأجانب، وقد وقع الاستثناء فيما يصعب إخفاؤه، أو ظهر منها عن غير قصد.

وللعلماء في وجه المرأة وكفيَّها كلامٌ لا يتَّسِعُ له المقام، وهي مسألةٌ لم يَرِد فيها نصٌّ قاطِعٌ؛ ولذلك جرى فيها الخلاف، وساغ فيها الاجتهاد، والله أعلم.

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ الخُمُر: جمع خمار، وهو: غطاء الرأس، والجيوب: الصدور،

والمعنى أن تستر المرأة رأسها بالخمار، ثم تلفُّه على عُنقها، وتُسدِلُه على صدرها.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ ما يجوز للمرأة أن تُبدِيه لبَعلِها غير ما يجوز لها أن تُبدِيه لأبيها ومَن بعده مِن الرجال المحارم الذين ذكَرَتْهم هذه الآية، وهذا مُقتضى الفطرة والنقل والعقل، أما إذا كان المقصود بالزينة ما تتزيَّن به المرأة في العادة؛ كالقُرط، والسوار، والخلخال - وهو ظاهر النص - فلا فرق في الاستثناء، والله أعلم.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: يجوز لها أن تُبدِي زينتها لمن معها من النساء المؤتمنات.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء ولو كُنَّ مُشركات، فالأَمَة تخدمها وتدخل عليها، فلا يصح احتجابها عنها، وأما العبد فالأصل فيه المنع، وخلاف الفقهاء فيه معروف وليس هنا محله.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ هم الرجال الذين يتبَعون الناس ولا يستقِلُّون برأيٍ ولا عملٍ؛ لعاهةٍ مُقعِدةٍ لهم، أو عَتَهٍ وبَلَهٍ، بشرط ألا يُعرف عنهم المَيْل الغريزي للنساء، فإن عُرِف عنهم ذلك وجَبَ الاحتجابُ، فربما كان المجنون والمعتوه أجرَأَ من غيره، وأبعَدَ عن معاني الاحتشام والمروءة.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ اسم جنس، والمقصود: الأطفال؛ ولذلك عقَّبَ بالجمع فقال: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لم يعرفوها لعدم التمييز.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا تضرب برجلها الأرض ليسمع الرجال صوت خلخالها، فهذا مع ما فيه مِن قصدٍ مُنافٍ للستر، أمارةٌ على خفَّتها، وقلة احتشامها، مما يُجرِّئ عليها السفهاء ونحوهم.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي: زوِّجُوا الأيامى وساعِدُوهم على الزواج، والأيامى: جمع أيِّم، وهو من لا زوج له مِن الرجال والنساء، بِكرًا كان أو ثيِّبًا.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إرشادٌ للناس وحثٌّ لهم على المُبادَرة بالزواج والتزويج، وألا يكون الفقر حائِلًا دونه، وفيه وَعدٌ لطيفٌ بفتح بابٍ للرزق لمن رضِيَ بالفقير أو

الفقيرة، وأبواب الله واسعة لا يَحُدُّها حدٌّ، ولا يمنعها سدٌّ.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أمر بالاستعفاف والصبر لكلِّ راغبٍ بالزواج مع عدم القدرة عليه، وفي الآية وَعدٌ خفيٌّ بالفرج والرزق.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمر للسادة بشأن العبد الذي يَشتري حريَّتَه بما يكسبه من عمله، وبما يُقدِّمه له إخوانُه المسلمون مِن عونٍ، فالأمر صريحٌ بالمكاتبة، وهذا مِن تشجيع الإسلام على تضييق مساحة الرِّقِّ، وتوسيع مساحة الحرية، وهو المناسب لكلِّ التشريعات الإسلاميَّة المتعلقة بالكفَّارات، ومطلق القُرُبات.

وربما كانت المناسبة للسياق: أن هذا العبد يرغب بالزواج بعد التحرُّر، وهو الأصل الذي ينشُدُه كلُّ آدمي مُستقِلٍّ بإرادته.

وأما قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فمعناه: إن ترجَّح لديكم أنه قادرٌ على الكسب والاستقلال بنفسه، والله أعلم.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ترغيبٌ في معاونة المكاتب للإسراع في تحرُّره وتخفيف الأعباء عنه، وهي دلالةٌ أخرى على رغبة الإسلام في فكِّ قيُود العبودية، وتحرير مَن يمكن تحريره من الرقيق.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ تحريمٌ صريحٌ ومُنسجمٌ مع نصوص الوحي ومبادئ التشريع وأحكامه، وفيه توبيخٌ للمشركين الذين كانوا يُكرِهون إماءَهم على البغاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس على سبيل التحرُّز، بل هو زيادةٌ في استِقباح فعلهم، كأنه يقول لهم: كيف تُكرِهوهُنَّ على البِغاء استغلالًا لضعفهنَّ، وقلة حيلتهنَّ، وأنتم تعلمون أنَّهنَّ يَكرَهْنَ ذلك؛ لأنه مُنافٍ لفِطرتهنَّ، وانتهاكٌ لآدميَّتهنَّ؟

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفورٌ لهنَّ ورحيمٌ بهنَّ؛ لأنَّهُنَّ مُكرَهات ولَسْنَ مُختارات، وإنما الوِزرُ على من ظلَمَهُنَّ وأكرههُنَّ، ليبتغي بشرفهنَّ عَرَضًا مِن المال الزائل.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

مجتمع النور

بعد تنقية المجتمع من آثار الإشاعات المنكرة والسلوك المشين، وحمايته من الانحراف ومُسبِّباته، شرَعَ القرآن في بيان الأسس التي ينبني عليها هذا المجتمع، وملامحه وخصائصه التي تُميِّزه عن المجتمعات الأخرى:

أولًا: إنَّه مجتمعٌ موصولٌ بالله، ومنوَّر بنور الله الذي هو مصدر هذا الوجود، ومنشئ الحياة فيه، وهادِيه إلى أحسن الخلق وأعدل النظام ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ثانيًا: إنَّه مجتمع المساجد التي يلتقي فيها المسلمون على نور الله ومحبته وذكره وشكره، إخوةً مُتحابِّين مُتعاوِنين مُتكافِلِين﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾.

ثالثًا: إنَّه مجتمع الاستقامة والثبات على طاعة الله، والاحتكام إلى شرعه وسنَّة نبيِّه ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

رابعًا: إنَّه المجتمع المنسجم مع حركة هذا الكون ونظامه العام، وسُنن الله وآياته المبثوثة في كلِّ جانبٍ مِن جوانبه، وفي كلِّ زاويةٍ مِن زواياه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾.

خامسًا: إنَّه المجتمع الموعود بنصر الله وتمكينه، وحفظ أمنه واستقراره ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.

سادسًا: إنَّه المجتمع الموعود بالجنَّة والسعادة الأبديَّة ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾.

في مُقابل هذه الملامح والخصائص، يُشير القرآن في معرض المقارنة إلى تلك المجتمعات التي رفَضَت هذا النور، وتخبَّطَت في ظلام الجهل والجاهلية؛ ليظهر بذلك ميزة المجتمع المسلم عن غيره، أما ملامح تلك المجتمعات فتوضِّحها هذه الآيات كما يأتي:

أولًا: إنَّها مجتمعات تعيش في ظلماتٍ متراكمة ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وهذه الظلمات المتراكمة إنَّما هي ظلمات الجهل والظلم والشرك التي تجتمع حولهم، وفي صدورهم؛ فتُعميهم وتُصمّهم عن النور الذي أودَعه الله في هذا الكون نظامًا دالًّا على وحدانيَّته، وتشريعًا دالًّا على كمال ألوهيَّته، وحكمته ورحمته.

ثانيًا: إنَّها مجتمعاتٌ ترفض الانصياع للحقِّ إلا إذا كان يُحقِّق لها بعضَ المصالح الآنيَّة، وهذا لا شكَّ مظهرٌ من مظاهر النفاق ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾.

ثالثًا: إنَّها مجتمعات لا تعرف الله، ولا تُحسن الظنَّ به، بل هي في شكٍّ وقلقٍ واضطرابٍ دائمٍ ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

رابعًا: إنَّها مجتمعات لا تُقدِّرُ الكلمةَ، ولا تَفِي بوعدٍ ولا بعهدٍ، بل هي مُتقلِّبة بحسب مصالحها المستعجلة أو المتوهمة ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

خامسًا: إنَّها مجتمعاتٌ ستلقَى جزاءَها، وتَجني في الآخرة ما زَرَعَتْه في دنياها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ النور ضد الظلمة حقيقةً ومجازًا، والله نور السماوات والأرض مُنوِّرهما بضياء النجوم والكواكب، ومُنوِّر الخلق فيهما بنور هَديه ووَحيه، بل وكلُّ مخلوقٍ إنَّما خرج بنور الله مِن ظلمة العدم إلى نور الوجود.

والنور أيضًا: العلم؛ إذ تُقابله ظلمةُ الجهل، والله مصدرُ كلِّ علمٍ ومعرفةٍ، وهو الخالقُ لهذه العقول التي تنكَشِف لها معارِفُ الكون وخباياه.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ﴾ مَثَلُ نور الله وهَديِه في قلب المؤمن مِثْل المصباح الذي يَجتمع ضوءُه في كوَّة غير نافذةٍ في الجدار، فقلبُ المؤمن الكوَّة التي يجتمع فيها الضوءُ، ونورُ الله المصباح الذي هو مصدر الضوء.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ﴾ تشبيهٌ للحفظ ومُضاعفة الضوء؛ إذ الزجاجة تحفظ المصباح وتزيد من إشراقه وسطوعه.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ ساطعٌ بنوره، وَسَامٍ بعلوِّه ورفعته.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ معناه أنَّ وقود هذا المصباح مِن زيت شجرةٍ مباركةٍ كثيرة الخير، مُعتدلة ليس فيها ما يَشِينها ويُقلِّل بركتها.

وقوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لتأكيد اعتدالها، وليس لتحديد مكانها أو جهتها، كما تقول: فلان مستقيم لا يميل يمنةً ولا يسرةً، وهو المعنى المراد أصلًا مِن التشبيه؛ فالمؤمن معتدلٌ بلا بخل ولا إسراف، ولا جُبن ولا تهوُّر، ولا تهاوُن ولا تنطُّع، وهكذا.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لفَرط صفائِه ونقائه.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تأكيدٌ للمُراد مِن التشبيه؛ أنَّه نور الوحي والهداية والاستقامة، ثم أكَّده بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ﴾.

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ هي المساجد التي يجتمع فيها المؤمنون على نور الله وهَديه، ومنها يشِعُّ هذا النور وذلك الهَدي إلى بقاع الأرض.

وقد أشكل على بعض المُفسِّرين مُتعلَّقُ الجار والمجرور، والأظهر أنَّه مُتعلق بالمشبَّه وليس بالمشبَّه به، أي: بهَدي الله ونوره، وليس بالزيت والمصباح؛ إذ لم تكن في مساجد المسلمين آنذاك مثل تلك المصابيح، ومعنى تُرْفَع: تُبْنَى حتى يظهر بناؤها، ويُعرف عند الناس.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ في بداية النهار ونهايته.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فهم يتَّجِرون ويبيعون كسائر الناس، لكنهم لا ينشغلون بأعمالهم هذه عن واجباتهم الدينيَّة؛ كالصلاة، والزكاة.

وخصَّ الرجال؛ لوجوب الجمعة عليهم، وحثِّهم على الجماعات، بخلاف النساء المخيَّرات في ذلك.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ كنايةً عن القلق والخوف وشدَّة الاضطراب.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فوق ما وعدهم الله به من الحسنات، وهذا مِن كرم الله الذي ليس له حد.

﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أعمال الكافرين تكون في ذلك اليوم كالسراب الذي يظهر في القاع المستوية، ولا حقيقة له، ولا جدوى منه.

﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ عميق.

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ حيث يتراكم الموج ويركب بعضه بعضًا لتشتدَّ ظلمة قاع البحر، فكيف إذا تلبَّدَت الغيوم فوق ذلك، وحجبت أشعة الشمس؟

﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ صورة مركَّبة للمُشبَّه به، تُقابِل صورةَ المُشبَّه، وهو هنا: التِّيه والضلال الذي يغرق فيه هؤلاء الكافرون والمنافقون.

﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتها وهي تُحلِّقُ في جوّ السماء.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: كلُّ مخلوقٍ يعلم طريقتَه في الصلاة والتسبيح، فالعقلاء يُصلُّون لله ويُسبِّحونه الصلاةَ والتسبيحَ التكليفيَّيْن برجاء الثواب والغفران، وغيرهم يخضع الخضوع القدري، ويدل على وحدانية الله وعظمته وحكمته بهذا الخضوع والانسجام الكلي مع نواميس الكون.

﴿يُزْجِي﴾ يسوق.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ فترى المطر يخرج من خلال السُّحب المتراكمة.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ شبَّه الغيوم المتراكمة بالجبال، ولأنَّها في العلوِّ، فهي في السماء، وقوله: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي: يُنزل بردًا، وليست هي وصفًا للجبال.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: بالوَدْق والبَرَد، وهذا الظاهر، فالإصابة هنا بمعنى: الخير، ومَن قصَرَه على البَرَد حمل الإصابة على المكروه؛ لأنَّ البَرَد قد يُصيب الزرعَ بالضرر، والله أعلم.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ كناية عن شدَّته وسطوع ضوئه.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ فالماء أصلُ الحياة على هذه الأرض، ومنه تتكوَّن النُّطَف، ومنه

تتكون الأجسام.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالزواحف والأفاعي.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ﴾ عامة البهائم والسباع والأنعام.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ إشارة للأنواع الأخرى التي لم ينص عليها؛ كالحشرات التي تمشي على أكثر من أربع.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ طريقة القرآن في تجنُّب التعميم في الحكم؛ تأكيدًا لمبدأ العدل حتى مع هؤلاء الكافرين والمنافقين.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن حكم الله إذا رأوه ليس في صالحهم.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ مُستَجِيبين وخاضِعِين، وهذه مِن علامات النفاق؛ إذ إنَّهم لا يتحاكمون إلى الشرع إيمانًا به، بل طمعًا في حصول المنفعة الدنيوية إذا كان الحكم بجانبهم، وإن كانت الأخرى رفضوه وخالفوه.

﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أن يميل عليهم بظلمهم وأخذ حقِّهم، تعالى الله عن ذلك.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ نصّ في دخول التقاضي فيما يختلف فيه الناس من شؤون حياتهم في معنى الدين والإيمان، بخلاف ما يردده بعض المعاصرين المتأثرين بأفكار الغرب من قصر الدين على الشعائر التعبدية ونحوها.

﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلفوا بالله أبلغ الحلف وآكده وأشده.

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ للجهاد ونحوه طاعة لك.

﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ لا حاجة لهذا القسم ولا لتأكيده وإعادته، فطاعتكم معلوم لنا كذبها بحسب ما تكرر من سلوككم.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: على النبيِّ البلاغ، فهذا ما كُلِّف به، وعليكم الطاعة، وهذا ما كُلِّفتم به.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وعدٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ وأصحابه ومَن اتبعه بالتمكين في الأرض، وجعلهم أئمة وسادة، وقد تحقَّق هذا بفتح مكة، ثم بالفتوحات التاريخيَّة الكبرى على يد الصحابة والتابعين لهم عليهم رضوانُ الله أجمعين، ثم ما كان مِن فتوحٍ عظيمةٍ أيام الأمويين والعباسيين والأيوبيين والعثمانيين، ولم تنتكِس هذه الأمة إلا بعد أن نكَثَت عهدها مع ربِّها، وفلَّت حبلَ وحدتها، وآصِرة أخوَّتها.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فهو تمكينٌ للدين وقيمه ومبادئه، وليس تمكينًا تسلُّطيًّا استعلائيًّا لأشخاص مُعيَّنين، أو تغليبًا لقومٍ على قومٍ، وطبقةٍ على طبقةٍ، فالناس كلُّ الناس أمام الحقِّ سواء.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ تأكيد لأهمية الأمن وضرورته لحياة الناس.

﴿مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يُعجِزُون الله، بل هو القادر عليهم أينما كانوا، وكيفما كانوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

مجتمع الرحمة والأخلاق والانضباط

في خِتام هذه السورة النورانيَّة تأتي التوجيهات الربَّانيَّة المناسبة لمحاور السورة ولموضوعها الاجتماعي الأساس؛ لتصوغ منظومةً من الآداب التي تحافظ على خصوصية هذا المجتمع، وتصُون وحدته ونسيجَه الداخلي، وعلاقاته المختلفة، وتُجيب على بعض التساؤلات التفصيليَّة ذات الصلة:

أولًا: في ضبط تحرُّك العائلة الواحدة ومن يسكن معها داخل البيت؛ مِن خَوَلٍ وخَدَمٍ،

وإمكانيَّة اطِّلاع بعضهم على بعض، يُشرِّع القرآن ثلاثةَ أوقات للاستئذان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

ومعلومٌ أن هذه هي أوقات الراحة، وما عداها أوقات عمل وحركة، وفي وقت الراحة يخلُدُ الناسُ إلى خلَوَاتهم وحجراتهم الخاصة، وقد يتخفَّفُون مِن ثيابهم، وقد يكون معهم في ذلك أزواجهم، لكلِّ ذلك وجب الاستئذان بالنسبة للخَوَلِ والخَدَمِ، وكذلك الأولاد المُميِّزون الذين لم يبلُغوا الحُلُم في هذه الأوقات الثلاث، فإن بلَغُوا الحُلُم وجب عليهم الاستئذان فيها وفي غيرها ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

ثانيًا: استثنى من الحكم السابق المرأة الكبيرة التي لا ترجو نكاحًا، ولا تتشوَّف للزواج، وقد قعَدَت عن الحيض والحَبَل، فلها أن تضع عنها مِن ثيابها مِن غير تبرُّجٍ ولا تزيُّنٍ ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾، ثم رغَّبَها بالاستعفاف والاحتياط في ذلك ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

ثالثًا: في ضبط الأكل والشرب داخل البيت، وفي بيوت الأرحام والأقرباء والأصدقاء يقول القرآن: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ ﴾.

ففي هذه الآية يُعدِّدُ القرآنُ قائمةً بالذين يجوز للشخص أن يأكل مِن طعامهم دون إذنٍ منهم، بل يكتفي بما هو معروف ومعهود في مثل هذه القرابات والعلاقات، بل ربما يكون طلب الإذن مُستغربًا ومُستهجنًا، وهو من التنطُّع والتكلُّف في دين الله.

وقد أشكل على بعض المفسرين علاقة هذا الموضوع بصدر الآية، والظاهرُ أنَّ الحديث عن الأعمى والأعرج والمريض في رفع الحرج عنهم جاء بمثابة المقدِّمة والتمهيد، كأنَّه يقول: إنَّ طبيعة هذا الدين هي رفعُ الحرج، والبُعد عن التنطُّع والتكلُّف، وكلّ ما يؤدِّي إلى المشقة، فكما أنَّ الله رفعَ الحرجَ عن أصحاب الأعذار في كلِّ ما يشُقُّ عليهم مِن جهادٍ وغيره، فكذلك رفع الحرج في هذه العلاقات؛ لأن طلبَ الإذن في كلِّ مرَّة مبعث على الضيق وتقييد الصلات التي أمر الله أن تتوسَّع وتتوثَّق؛ ليكون رفع الحرج قاعدة عامة تندرج تحتها مسائل كثيرة.

وفي هذا تربية أصوليَّة قياسيَّة مقاصديَّة للعقل المسلم، والله أعلم.

ثم أكَّد هذا المبدأ العام في مسألة تفصيليَّة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، فلكلِّ حالة ما يناسبها بلا تشديد ولا تضييق، وبحسب حال الناس والظرف الذي يمرون به.

رابعًا: في التحيَّة التي هي السلام، وديننا كلُّه هو دين السلام ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ والآيةُ ليس فيها تقييد، فمَن دخَل بيتًا ووجَدَ فيه أهله فليسلِّم عليهم، وإذا لم يجِد فيه أحدًا فليسلِّم على نفسه، كما جاء في التشهد: «**السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ**»[1].

وسلامُ المؤمنين على أنفسهم يحتمل هذا وهذا معًا، وفيه شعورٌ ودودٌ بالأخوَّة الحميمة التي تتسامى حتى تكون كالجسد الواحد، والنفس الواحدة.

خامسًا: في آداب الانصراف، لاسيَّما في اللقاءات التي تهم الشأن العام؛ حيث يتأكد الالتزام بضوابط اللقاء ووقته ونهايته، فإذا كان ذلك في عهد رسول الله ﷺ، فسيكون الالتزام مع ما فيه

---

(١) هذا اللفظُ جزءٌ من دعاء التشهُّد في الصلاة، وقد وردَ في عدة أحاديث، منها: حديثٌ متفقٌ عليها عن عبد الله بن مسعود ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٢٨٦٩/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٢/ ١٣/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين)، وانفرد مسلمٌ بأحاديث أخرى عن ابن عباس، وأبي موسى الأشعري ﷺ، ينظر: صحيح مسلم (٢/ ١٤).

من خُلُقٍ رفيعٍ علامةً على الإيمان الصادق، وحسن الأدب مع مقام النبوَّة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سادسًا: ذكَّر القرآن بعد كلِّ هذه التوجيهات والتشريعات بالأصل الذي يدفع المسلم للالتزام والانضباط، وتنمية الرقابة الذاتية في ضميره ووجدانه ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ممن يعملون في البيوت، وتدعو الحاجة لدخولهم واختلاطهم بأهل الدار.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وقت القيلولة.

﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ ثلاث أوقاتٍ مخصوصة يجب فيها الاستئذان؛ لما فيها من مظنَّة التخفُّف من الثياب.

والملاحظ هنا إشارة أنَّ عمل المسلم يبدأ مع طلوع الفجر، فإذا أراد الراحة كان ذلك في قيلولة الظهيرة، ثم السكن وأخذ الراحة التامة بعد صلاة العشاء، وهذا تنظيمٌ للوقت لو أخذ به المسلمون اليوم، لكان لهم بركة ومزيدَ نشاط وإنتاج.

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يطوفون عليكم لخدمتكم، وأنتم وهم جميعًا بحاجةٍ إلى هذه الحركة والخالطة، والدخول والخروج بلا تحرُّج ولا استئذان، أي: في غير العورات الثلاث.

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: الأحرار البالغون الذين أوجب الله عليهم الاستئذان في كلِّ الأوقات.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللواتي قعَدن عن الحيض والحمل فلا يتشوَّفن للزواج؛ ولذلك قال في وصفهنَّ: ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ في كلِّ ما يشُقُّ عليه، وكذا الأعرج والمريض، وهذا حكمٌ معروفٌ في غير هذا الموضع، وجاء به هنا؛ تذكيرًا بالمبدأ العام في التشريع، وهو رفع الحرج؛ ليكون تمهيدًا مناسبًا للأحكام المفصلة الآتية.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ كبيت الموكِّل إذا سلَّم المفاتيح لوكيله ليتعهَّده في حال غَيبته، فللوكيل الأكل بالمعروف مما يجِده في البيت، ومثله الحارس والخادم، والله أعلم.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: لا حرج كذلك من الأكل في بيت الصديق ومن طعامه دون إذنه إذا كان ذلك معهودًا، وهذا يختلف بحسب قوَّة العلاقة ونوعها، والله أعلم.

﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ على أهلكم وإخوانكم، أنزَلَهم منزلةَ النفس، فإن لم يكن فيها أحدٌ فليسلِّم المسلمُ على نفسه[1].

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ على أمرٍ يهم الجميع، كما في الاجتماع للشورى ونحوه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ لمظنة أنَّ استئذانهم لبعض شأنهم لم يكن أَولَى مِن البقاء للشورى والمشاركة في الأمر العام، وإن كان الاستغفار مطلوبًا ومحبوبًا في كلِّ حين.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تُخاطبوه كما يُخاطب بعضُكم بعضًا؛ فالأدب مع رسول الله ﷺ قرينُ الإيمان به؛ ولذا وجَبَ خفض الصوت بحضرته،

---

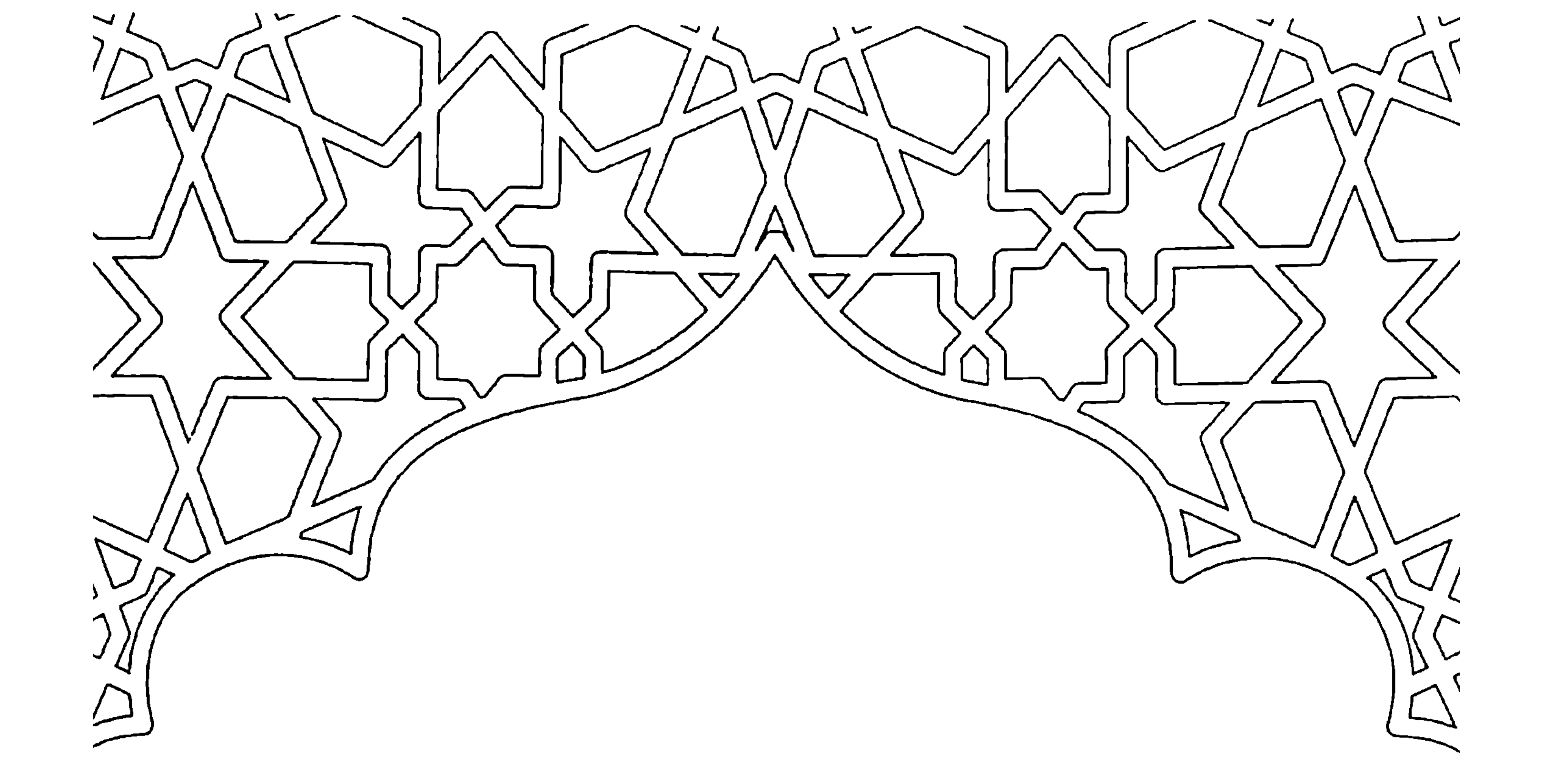
(١) وذلك لما رُوِيَ عن نافعٍ، أنَّ عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (إذَا دخلَ البيتَ غير المسكونِ فليقُل: السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٧/ دار البشائر الإسلامية، ط. ٣، ١٤٠٩- ١٩٨٩م، تح محمد فؤاد عبد الباقي)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر، ينظر: فتح الباري (١١/ ٢٠/ دار المعرفة، طبعة سنة ١٣٧٩، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).

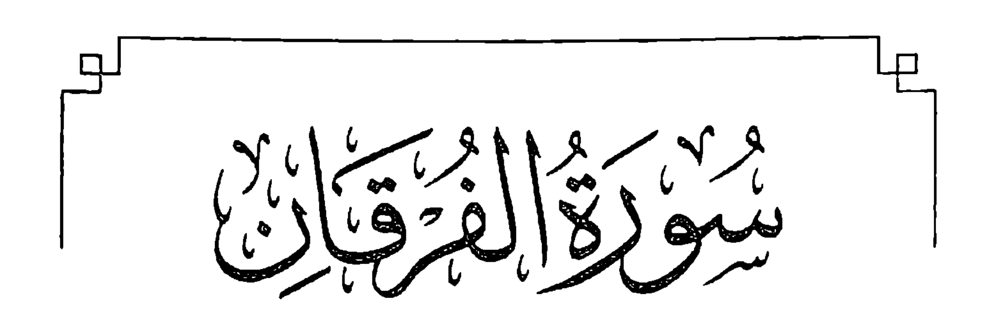
والاحتياط في اختيار اللفظ والصيغة المناسبة لمقام النبوَّة.

﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ صفة مِن صفات المنافقين في التهرُّب مِن مجالس الرسول ﷺ، وصلاة الجماعة، والعمل المشترك الذي فيه مصلحة المسلمين؛ لأن ذلك كلَّه كان يشُقُّ عليهم.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تحذيرٌ ووعيدٌ شديدٌ لمن يتعمَّد مخالفةَ أمر رسول الله ﷺ، أو يُسيئُون الأدبَ معه أن تُصيبَهم فتنةٌ في دينهم بالرِّدَّة والنفاق، ثم يلحَقهم العذابُ الأليمُ في عاقبة أمرهم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على وجه الإحاطة واليقين، و(قد) هنا للتأكيد والتحقيق.




سورة الفرقان

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

الفرقان بين الحق والباطل

سورة الفرقان، والفرقان هو: القرآن الذي جاء ليفرِّق بين الحقِّ والباطل، وبين طريق الجنّة وطريق النار، وبين صفات المؤمنين الطائعين وصفات الكافرين المعاندين، هذا هو موضوع السورة الذي ينتظم جميع آياتها.

إنَّها سورة البيان الذي لا يدَعُ مجالًا للغبش والالتواء، ولا للشكِّ والتردد؛ ليكون الناس بعد ذلك على بيِّنةٍ تامَّةٍ مِن أمرهم، وليتحملوا عاقبة قرارهم وخيارهم.

في فواتح السورة جاء الحديث بشكلٍ مفصَّلٍ عن الحقِّ والباطل؛ الحقّ بنوره ودلائله ومعالمه، والباطل بظلمته وشُبهاته وتخبُّطه، وكما يأتي:

أولًا: إن القرآن هو الفيصل بين طريق الحقِّ وطريق الباطل، وهو الذي أنزله الله على خاتم رسله محمد ﷺ؛ ليُنذر به العالمين كلَّ العالمين ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ثانيًا: إنَّ التوحيد هو نقطة الافتراق الأولى بين طريق الحقِّ وطريق الباطل ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

ثالثًا: إنَّ الموقف من القرآن الكريم هو الفيصل المنهجي والتشريعي العميق بين مَن يُؤمِنُ بمصدريَّة القرآن، وحاكميَّته ومصداقيَّته المطلقة، وبين من يَعمَى عنه، ويلُوذُ بالخرافات التي يسميها دينًا، أو بالتصورات المادية المحدودة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

رابعًا: إنَّ الموقف مِن الرسول الخاتم ﷺ هو الحدُّ الحاسم بين طريق الهداية وطرق الضلال، فهو ﷺ الدالُّ على الخير، وهو القدوةُ في كلِّ خير، وهو المثَلُ الأعلى لكلِّ سائرٍ على الصراط المستقيم ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ

ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

خامسًا: إنَّ عقيدة الحساب والجزاء هي حجر الزاوية بين المهتدين والضالين، بين مَن يجدُ في نفسه الدافعَ للعمل الأفضل والسلوك الأمثل بحسٍّ حاضرٍ ودائمٍ من الرقابة الذاتيَّة، وبين مَن يعيش عابثًا لاهيًا ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾.

سادسًا: إنَّ أهل الباطل ليس لهم حجة يدلون بها، ولا عذر يعتذرون به، بعد قيام الحجة عليهم، ومواجهتهم بالحقيقة الصادمة أنَّهم وحدهم من يتحمل مسؤوليَّة المصير الذي أوقعوا أنفسهم فيه ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾.

سابعًا: إنَّ وجود أهل الباطل يمثِّل اختبارًا لأهل الحقِّ، كما أنَّ وجود أهل الحقِّ يمثِّل اختبارًا لأهل الباطل، وهذه سُنَّة معلومة وثابتة مِن سُنَنِ الله في هذا الخلق، فبوجود الباطل وأهله يمتَحِن الله إيمانَ المؤمنين، وصبرَ الصابرين، وبوجود الحقِّ وأهله يُقيم الله الحجةَ على المُكذِّبين والجاهلين والمُعانِدين، ويختبر الله صدقَ توجهاتهم وإراداتهم، بحيث لا يبقى عذر لمعتذر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ تقدَّس وتعظَّم.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ اسمٌ مِن أسماء القرآن؛ لأن غايتَه التفريق بين الحقِّ والباطل.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هو نبيُّنا الكريم محمد ﷺ.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ صفةٌ للرسول ﷺ أو للقرآن، وكلاهما بمعنًى، فالرسول إنَّما يكون نذيرًا بهذا القرآن.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ تأكيدٌ لأصلٍ من أصول التوحيد، وهو وحدانيته تعالى في المُلك؛ إذ هو المالك لكلِّ شيءٍ بحكم أنَّه الخالق لكلِّ شيءٍ.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فكلُّ مخلوقٍ له خصوصيته ووظيفته وحدُّه الذي لا يتجاوزه، وهنا إشارةٌ أنَّ الهَديَ القرآني يُحقِّقُ انسجام الإنسان مع سُنن الله في هذا الكون.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: مِن دون إذنه، وإلا فهم يعبُدُونهم تقرُّبًا إلى الله بزعمهم.

﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ تأكيد أنَّ الذي يستحقُّ الألوهيَّة إنَّما هو الذي يخلُق، أما المخلوق فواجبه الخضوع لإرادة الخالق وأمره ونهيه.

﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ تهمةٌ يُطلِقُها المشركون بعد أن أدهشَتْهم حقائق القرآن، وأثبتَت عجزَهم وعجزَ آلهتهم عن مُجاراتها، فهم يرمونه ﷺ باختلاق القرآن، ويتَّهمُونه أيضًا بالاستعانة بآخرين، يُشيرون إلى علماء أهل الكتاب، وقد ردَّ القرآن هذه التهمة على قائليها: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ الأساطير ما سطَّره الأقدمون مِن قصصٍ وحكاياتٍ بلا دليلٍ ولا بينةٍ، والمشركون إنَّما يَعنُون به القرآن، وهذا من تمام تخبُّطهم، وفَقْد صوابهم، ولو أزاحوا عن عيونهم غشاوةَ الحسد والتكبُّر الفارغ، لآمنوا به واستسلموا له

قبل غيرهم؛ لِمَا يعرفونه من لغة القرآن وبيانه وفصاحته، وقد نزل بلغتهم، ولِمَا يعرفونه عن نبيِّهم الذي وُلِد ونشأ بين ظهرانيهم، والذي كانوا يسمُّونه الصادق الأمين قبل البعثة.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البُكرة أول النهار، والأصيل آخره.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة لتحقُّق الانسِجام بين سُنن الله في السماوات والأرض، وبين ما جاء في هذا القرآن من أخبارٍ وأحكامٍ.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ جنوحٌ غريبٌ في الناس للتقليل من شأن من يخالطهم ويعيش معهم في تفاصيل حياتهم بآلامهم وآمالهم، وكأنَّ الذي يستحقُّ الاتباع والاقتداء إنَّما هو ذلك الذي يعيش في أبراجٍ مرتفعةٍ عليهم، ومُستعليةٍ على واقعهم، هذا الجنوح المتكرِّر والمعتاد هو الذي صنَعَ الطواغيتَ البشريَّة في كلِّ جيل.

﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلَّا أنزل الله معه ملكًا ليصدِّقه ويُعاونه في تبليغ الرسالة، ومن ثَمَّ ليتميَّز عليهم نبيُّهم، فلا يكون بشرًا مثلهم.

﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تأكيد لذلك الجنوح نحو البحث عن المتبوع الذي يتميَّز عليهم، ويتعالَى عليهم حتى بمعيشته ومستوى رفاهيَّته، ولا مانع أن تكون هذه الشروط نوعًا مِن التعجيز والمماحكة الباطلة، لكن السلوك البشري العام شاهد أيضًا على وجود هذه الظاهرة في الحياة الإنسانية.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ دلالة أنَّ مَن يتهم الرسول بالسحر أو أنَّه يتأثر به في رسالته وبعثته ووظيفته، فقد ارتكب إثمًا وظلمًا مبينًا.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ الصفات والتشبيهات الباطلة، فكان هذا سببًا في ضلالهم ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ نعم؛ فالله على كلِّ شيءٍ قدير، لكن مقياس التفاضل بين الناس لا يصحُّ أن يكون بهذا المتاع

الزائل، فكيف بالنبيِّ الذي شرَّفَه الله بالوحي، واصطفاه بالرسالة، وجعَلَه المثَلَ الأعلى والأسوةَ الحسنةَ لعباده، وأيَّده بالمعجزات الباهرات؟!

إنها انتكاسة العقل حينما يَعمَى عن كلِّ هذا، ثم يبحث في مُمتلكات النبيِّ ومُقتنياته المادية ليجعلها مقياسًا لصدقه أو كذبه! أو ليرى هل هو جديرٌ بالاتباع أو لا!

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ إشارة إلى أن سبب تخبُّطهم هذا إنَّما هو في تنكُّرهم ليوم الحساب، فغَدَت الدنيا بالنسبة لهم مَسرحًا للهو والعبث، والتنصُّل عن كلِّ مسؤوليَّة.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: أول ما يظهروا لها - أي: النار -، وعبَّر بالرؤية كأنَّها تحسُّ بهم وتتشوَّف لهم؛ لأنَّها لم تُخلق إلا لهم.

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ التغيُّظ: همهَمةُ المُغتاظ الغاضب، والزفير: صوت الهواء الخارج من الصدر، وهذه صورةٌ تخلَعُ القلوبَ بخوفها ورُعبها، فكأنَّ جهنَّم - أعاذَنا الله منها - كائنٌ حيٌّ وقد مُلِئَ صدره بالحنق والغضب.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ والضيقُ لوحده عذابٌ، فكيف إذا كان بين لَهيبها ودخانها!

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مُصفَّدين، قد قُرِنَت أيديهم مع أعناقهم.

﴿ثُبُورًا﴾ هلاكًا.

﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ادعوا - والخطاب للمشركين - بالهلاك على أنفسكم كثيرًا.

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ الجنَّة الباقية الخالدة.

﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ مطلوبًا ومأمولًا، ويتطلَّع له المؤمنون كلَّ حين.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: المشركين والذين اتخذوهم آلهة من دون الله.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا جواب الأنبياء والملائكة الذين اتخذهم المشركون آلهة، يقولون: إننا لم نتخذ من دونك وليًّا ومعبودًا، فكيف ندعو

هؤلاء المشركين لعبادتنا؟

ولا يبعُد أيضًا أن يكون هذا جواب الصالحين الذين صوَّرهم المشركون على هيئة الأصنام فعَبَدوهم من دون الله.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ بيان لسبب ضلالهم أنَّهم طالَ بهم الأمد حتى نسوا كتاب الله المنزَّل على أنبيائهم، والظاهر أنَّه مِن جواب النبيين الذين عُبِدوا مِن دون الله كعيسى وعُزَير ﷺ.

﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هالِكين.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: إن الأنبياء والملائكة والصالحين الذين اتَّخذتموهم آلهة ها هُم يتبرَّؤون مِنكم ومِن عبادتكم، ويُكذِّبُونكم فيما تدَّعون.

﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ لا يقدرون على صَرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ إذ الأنبياء بشر لا يتميَّزون عن سائر البشر إلا بما فضَّلَهم الله به من النبوَّة وما تَستَتبِعُه مِن شرائط التبليغ ومُتطلَّبات التأسِّي، فأكل الطعام ليس منقصة، وكذلك المشي في الأسواق بيعًا وشراءً وإجارةً ونحوها، وهم في هذا يَعتَرِيهم ما يَعتَرِي سائر البشر من الغنى والفقر ونحوهما، وبهذا كانوا قدوةً لأحوال الإنسان المختلفة.

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ نختَبِر بعضَكم ببعضٍ، وهذه سنَّة الله العامة في هذا الخلق.

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا (٢١) يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا (٢٢) وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٢٣) أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (٢٤) ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (٢٥) الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا (٢٦) ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا (٢٧) يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا (٢٩) وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا (٣٠) وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا (٣١) وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا (٣٣) الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا (٣٤) ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا (٣٥) فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا (٣٦) وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما (٣٧) وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا (٣٨) وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا (٣٩) ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا (٤٠) وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا (٤١) إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (٤٢) أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٤٤)﴾

أسباب الغواية والضلال

بعد أن وضعت فواتح الفرقان الحدَّ الفاصل بين الحقِّ والباطل، جاءت هذه الآيات لتبيِّن الأسباب التي تأخذ ببعض الخلق بعيدًا عن طريق الحقِّ، وترميهم في مهاوي الضلال والتِّيه:

أولًا: الاستكبار، فهو الذي يُعمِي ويُصِمُّ، ويغلق طرق البحث والفهم والحوار ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا﴾.

ثانيًا: الصحبة السيئة، التي تُعين على الباطل، وتُزهِّد بالحقِّ، وتصنع بيئةً مِن المجاملات الباطلة ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

ثالثًا: الجهل المتعمَّد بهجر مصدر النور والمعرفة الموثوقة ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾.

وفي معرِض ردِّه على شُبهات المشركين، أكَّد القرآن أنَّه الكتاب الذي يثبِّت المؤمن على طريق الهداية، ويمُدُّه بأسباب الصبر، ومقاومة الباطل وضغوطاته ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾.

رابعًا: العداوة للنبيِّ ﷺ ثم لكلِّ داعٍ للحقِّ بعده، وهذه العداوةُ لا شكَّ أنَّها تُبعِد المُعادِي عن سماع الموعظة والحكمة مهما كانت جليَّة ومؤثِّرة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

خامسًا: الاستهزاء الذي أبعَدَهم عن التفكير الجاد، والمحاورة الهادئة والهادفة ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾.

سادسًا: اتِّباع الهوى حتى يصبح كأنَّه إله يعبُدُونه من دون الله ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾.

سابعًا: غلق منافذ المعرفة التي أودَعَها الله فيهم، وهذا دَيدَن المُتكبِّرين والمُستهزِئين وعُبَّاد الهوى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

في ثنايا هذه الأسباب والطرق المُوصِلة إلى الضلال، جاء ذِكر النماذج والأمثلة السابقة مِن تجارِب النبيين ﷺ مع أقوامهم، فذكَّر بقصة موسى وهارون، وبقصة نوح ﷺ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

ثمَّ عرَّج على بعض الأقوام الغابرة: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾، مبيِّنًا أيضًا عاقبةَ هذه الأقوام الظالمة والمُكذِّبة برسالات الله ودينه الحقّ الذي ارتضاه لعباده ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾.

دقائق التفسير

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ طلب الرؤية بحدّ ذاته ليس منكرًا، فقد طلبها موسى ﷺ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لكن هؤلاء يطلبونها ليس شوقًا لمعرفته سبحانه والإيمان به، وإنَّما استكبارًا وغرورًا مع قَدرٍ مِن السخرية والاستهزاء؛ ولذلك عقَّب القرآن عليهم: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾.

ثم إنَّ رؤية الله أو نزول المَلَك ينقل عالمَ الغيب إلى عالمِ الشهادة، وحينها ينتهي معنى الاختبار والتمايُز بين البشر في الإيمان بالغيب.

والعتوُّ: هو الطغيان ومُجاوزة الحدّ.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ هو يوم القيامة، وفي ذلك اليوم لا تنفَع المشركين هذه الرؤية أبدًا ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ بمعنى أنَّ الملائكة لا يُبشِّرون هؤلاء المشركين بالجنة، بل يقولون لهم: إنَّها محرَّمة عليهم أبدًا.

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ذلك العمل الذي كانوا يظنُّون أنَّه النافع لهم وفق مقاييسهم المغلوطة، ونحوه كلّ عملٍ لا يُقصد به وجه الله، ولو كان في

ظاهره خيرًا، كالبذل والكرم؛ لأنَّهم عمِلُوه للدنيا، وقد نالوا مُبتغاهم فيها مِن سُمعةٍ وجاهٍ، دون تبخيسٍ أو تطفيفٍ.

والهباء: ما لا وزن له ولا قيمة مما تحمله الريح؛ كالغبار، والدخان.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكان القيلولة والراحة، وفيه صورةٌ للنعيم المقيم الذي ينعم به أهل الجنة.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ صورةٌ مِن صور يوم القيامة؛ حيث ينزل الملائكة بأمر الله ومعهم ظُلل من السحاب، وفيه ردٌّ على سؤال المشركين السابق بتنزيل الملائكة، كأنه يقول لهم: إنَّ الملائكة ستنزل في الوقت الذي لا ينفَعُكم ذاك النزول.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ صورةٌ بالِغةٌ في الندم والتحسُّر.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يتمنَّى لو أنه اتخذ طريقًا يجمعه مع النبيِّ ﷺ وهَديه ودعوته.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ كلمة تحسُّر وندامة.

﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ لم يُسمِّه؛ لأنَّ لكلِّ ضالٍّ فُلانه الذي أضلَّه وأبعَدَه عن طريق الحقِّ.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وهم المشركون الذين هجروا القرآن، بمعنى أنَّهم كفروا به ونأَوا عنه، أما المسلم العاصي والتارك لتلاوة القرآن وتدبُّره والعمل به، فقد يقَع في الهجر الجزئي الذي يستحقُّ عليه الإثم، وليس هو المقصود أصالةً بهذه الآية، والله أعلم.

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: لم ينزله الله جملة واحدة، وإنَّما أنزَلَه مُفرَّقًا بحسب النوازل والمستجدَّات، وحاجة الصفِّ المؤمن في مسيرته ومراحله المختلفة، ولا شكَّ أنَّ هذا أدعى لتثبيتهم على الحقِّ، ومدِّهم بأسباب المَنَعة والمقاومة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بشُبهة على مثال الشُّبهات التي يُكرِّرها ويُعيدُها أهلُ الباطل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أحسن بيانًا.

﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ جزاءً مناسبًا لغرورهم واستكبارهم.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾ معاونًا ومناصرًا.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة.

﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قومٌ مِن الأقوام الكافرة والمكذِّبة بدعوة الرسل، ولم يرِد في القرآن ولا في السنَّة الصحيحة ما يُبيِّن حالهم، فالأَولَى أخذ العِبرة العامة دون الجَزم بهويَّتهم، والله أعلم.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾ لعلَّهم يتَّعِظون بأحوال من قبلهم من الأمم الغابرة.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ دمرناهم تدميرًا بسبب ظلمهم وعنادهم وتكذيبهم لأنبيائهم بعد إقامة الحجة عليهم.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: لقد مرُّوا في طريقهم - والكلام عن مشركي قريش - على القرية التي أمطَرَها الله بالحجارة، وهي قرية قوم لوط ﷺ.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ ليعتبروا وينظروا في حالهم، وعاقبة أمرهم.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ بيان لسبب لهوِهِم وغفلتِهِم، وعدم اعتبارهم؛ حيث كانوا لا يؤمنون بالآخرة ولا يحسبون حسابها، والنشور هو: البعث والقيامة للحياة الأخرى.

﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ سؤال على معنى الازدراء والاستهزاء.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأنَّ الأنعام ليس لها القدرة على تمييز الحقِّ عن الباطل، وليست مكلَّفة بذلك، بخلاف هؤلاء الذين منَحَهم الله العقل فعطَّلوه، ومنَحَهم أسباب المعرفة فأغلَقوها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾

دلائل الهدى المبثوثة في هذا الكون

بعد التفصيل الذي قرأناه في المجلس السابق لأسباب الغواية والضلال، شَرَعَ القرآن في هذه الآيات بتعداد آلاء الله ونعمائه وآياته المبثوثة في هذا الكون، والتي يتعامل معها الإنسان بشكلٍ يوميٍّ حتى أصبحت جُزءًا من حياته، وكلُّها شاهِدة على وحدانيَّته سبحانه، وهادية إلى طريق الحقِّ والسعادة الأبديَّة:

أولًا: يُذكِّرُ القرآن بحركة الظِّلِّ التي يعيش معها الإنسان في كلِّ نهار، ظِل الأشجار والجبال والبيوت، وظِل الإنسان نفسه وهو واقفٌ أو جالسٌ أو ماشٍ، والذي يستجيب لحركة الشمس طولًا وقصرًا.

وهذا التذكير نوعٌ مِن تدريب العقل على التفكير في كلِّ ما حوله، ومحاولة تحليل الظواهر

وتفسيرها مهما كانت مألوفة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾.

ثانيًا: واستتباعًا لحركة الظِّل يُذكِّرُ القرآن بتقسيم اليوم إلى ليلٍ ونهارٍ، ولكلٍّ وظيفته ودوره في هذه الحياة، فالليل خيمةُ السكن والراحة، والنهار وقتُ الانتِشار والحركة والعمل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

ثالثًا:ينتقل القرآن مِن حركة الظِّل إلى حركة الرياح وما تحمله مِن سحابٍ ورزقٍ للعباد ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

رابعًا: ثم راحَ القرآن يلفِتُ أنظارَنا إلى عالم البحار وما فيه مِن خبايا وأسرارٍ، ونِعَمٍ ودلائل ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

خامسًا: ثم عاد القرآن ليُذكِّر بخَلق الإنسان نفسه، إنَّه مخلُوقٌ مِن ماء، فالماء سِرُّ هذه الحياة، يُكوِّن البحارَ والأمطارَ، ويُحيِي الأرضَ بالنبات والأشجار والثمار، وينبت منه الإنسان في نظامٍ موحَّدٍ ومُتناسقٍ لا يقدر عليه إلا الذي أبدعَه وكوَّنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾.

سادسًا: ثم ذكَّر بأصلِ الخلق كلِّه، خلق السماوات والأرض وما بينهما ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

سابعًا: ثم رفع بنظر الإنسان لينظر في سقف هذا الكون وما فيه من آياتٍ ودلائل باهرات ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ

﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

ويلحظ هنا كيف ختم الله هذه الآيات بما بدأ به؛ فذكَّر مرةً أخرى بحركة الليل والنهار وتعاقبهما، وكأنَّه يُشير إلى هذا النظام الموحَّد، والنسق الكلي الذي يحكُمُ حركةَ هذا الكون.

وفي ثنايا هذه الدلائل يُؤكِّد القرآن المعنى الكلِّيَّ الذي تقود إليه هذه الدلائل ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩﴾ مُنبِّهًا المؤمنين أيضًا في شخص النبيِّ الكريم ﷺ بواجب الثبات على الحقِّ وتبليغه والدفاع عنه، مهما كلَّف مِن جهدٍ وجهاد وتضحيات ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾.

دقائق التفسير

﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بسطه بالتدريج تبعًا لحركة الشمس.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ والقبض ضدُّ البسط، وقبض الظلِّ: انحساره بظهور الشمس وعلوِّها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ يغشاكم ويعمُّكم بستره.

﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ سكنًا وراحةً لكم.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ ينتشر الناس فيه للحركة والعمل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يستبشر بهبوبها الناس؛ لما تحمله من خير ومطر.

﴿مَآءً طَهُورًا﴾ طاهرًا في نفسه مُطهِّرًا لغيره.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ شبَّه القفر بالموت والزرع بالحياة.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: ماء السماء فسُقناه إلى بلادٍ مختلفة؛ ليروا آثاره في الحياة، وفي الآية تنبيه أيضًا للهدي النازل من السماء، وما فيه مِن حياةٍ للقلوب، والآيات التالية تؤكِّد هذا المعنى.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ لكنَّ الله خصَّ نبيَّه الخاتم ﷺ بهذه الدعوة العامة لكافة الخلق؛ تعظيمًا لشأنه ولشأن الرسالة التي يحملها، وليتنظم هذا الخلق في شريعةٍ واحدةٍ، وخلْف قُدوةٍ واحدةٍ.

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ جاهِدْهُم بالقرآن تذكيرًا وتحذيرًا، وترغيبًا وترهيبًا، حاوِرْهُم بحقائقه، وأقِم عليهم الحجة بأدلته، ولا تألُ جهدًا في كلِّ ذلك، وهذا الخطاب له ﷺ ولأمته معه ومن بعده في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خلطهما، وهذا مشاهد بتدفُّق الأنهار العذبة في البحار المالحة، دون أن تتغير الأنهار ولا البحار، كما سيأتي.

﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الفرات العذب، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنَّه شديد العذوبة.

﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ والأجاج المالح، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنَّه شديد الملوحة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا، فلا يطغَى المالح على العَذْب فيفسده، ولا العَذْب على المالح فيذهب به؛ لأن لكلٍّ منهما وظيفته، فالأنهار العذبة وظيفتها: السقي والريّ، والأنهار المالحة وظيفتها: حفظ الحياة البحرية من التعفُّن والتغيُّر الضار.

أما تفسير العذب بوجود مياه عذبة وسط البحار المالحة فلا مانع منه، لكن ليس هذا هو المعهود والمعروف بين الناس، ثم إنَّ هذه المياه ليست هي التي تُستعمل في السقي، ولا ينتفع منها عامة الناس، ومساق الآيات مساق عظةٍ وامتنان.

وأما إطلاق البحر على النهر العظيم؛ كالنيل في مصر، والرافدين الكبيرين في العراق، فهو أمرٌ شائعٌ ومعروفٌ في لغة العرب، والله أعلم.

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ جعل مِن هذه النُّطَف بشرًا كثيرًا لهم أنساب وسلالات وقرابات وعلاقات ومصاهرات.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعاديًا لله محاربًا لدينه، ومعاونًا للشيطان في كلِّ ذلك.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فالدعوة لله، وأجرها من الله، وفي هذا تأكيد للنزاهة، ونظافة اليد لكلِّ من يتصدّى لمهمة التبليغ والدعوة إلى الله.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استثناءٌ منقطعٌ، بمعنى: أنِّي لا أطلب منكم أجرًا سوى هدايتكم إلى طريق الله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فكلُّ ميتٍ أو مُعرَّضٍ للموت لا يصح التوكل عليه، فالذي لا يحمي نفسَه من الموت كيف يحمي غيره! وهذا تنبيهٌ نفيسٌ لخصائص التوحيد الحقِّ، ومجادلةٌ ضمنيَّةٌ للمشركين الذين يرجون من المخلوق ما لا يملكه ولا يقدر عليه.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾هي ليست مِن أيامنا؛ لأن يومَنا هو حصيلةُ دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكلِّ كوكب يومه، فكيف باليوم الذي كان قبل خلقِ السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلَمُه إلا الله، والمقصود بالإخبار عن تلك الأيام إنما هو التقديرُ على مراحل، كما هي سنَّةُ الخلق كله.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ﴾ استِواءٌ يَلِيقُ به سبحانه، ومن لوازِمه العلوُّ المطلق، والمُلك والسلطان، وكلُّ صِفات الكمال الثابتة له سبحانه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ وليس هناك مِن خبيرٍ بالرحمن وأسمائه وصفاته كالرحمن نفسه – تبارك وتعالى علوًّا كبيرًا –، كأنَّه يقول: لا تَسَلْ غيري عنِّي، فأنا العليم الذي ليس فوقي عليم، وأنا الخبير الذي ليس بعدي خبير.

﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هذا قولُ المُشركين الذين يُنكِرون هذا الاسمَ العظيم لله، وكأنَّهم يتَّهِمُون النبيَّ ﷺ باختلاقه وإضافته إلى الله، بدلالة قولهم: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ﴾.

﴿بُرُوجٗا﴾المنازل والطرق التي تدور فيها الأفلاك.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا﴾ يعني: الشمس، وفيه إشارةٌ أنَّ الشمسَ ضوءها ذاتي كالسراج، بخلاف القمر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ ﴾ يخلف أحدُهما الآخر، في دورة فلكيَّة يوميَّة، كما هو مُشاهدٌ ومحسوسٌ.

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ فهذه كلُّها دلائِلُ تستلزِم التذكُّر والتفكُّر، ونِعَم تستَدعِي الاعترِاف والشكر.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

عباد الرحمن

في خِتام هذه السورة المباركة وبسياقٍ مُتَّصل يُقدِّم القرآن صورةً للمُجتمع الفاضل الذي اختار الحقَّ وتمسَّك به، ذلك المجتمع الفريد الموصُول بالله، والذي ظهَرت عليه رغم بشريَّته الضاغطة كلُّ الصفات المُتَّصلة بتلك الحقائق الكبرى التي ميَّزت طريقَ الحقِّ عن طريق الباطل، وقد أضافَهم الله إلى نفسه فسمَّاهم عبادَ الرحمن، تودُّدًا وتقرُّبًا، وهو الودود والقريب سبحانه، وهذه الصفات هي:

أولًا: اللِّين والطمأنينة والسَّكينة مع المجتمع الذي يعيشون فيه، والأرض التي يمشون عليها ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

ثانيًا: العبادة الخالصة لله. ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ إيمانًا به وتودُّدًا إليه وشُكرًا له، وقد أكّد هذا المعنى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

ثالثًا: الخوف والمراقبة الدائمة، والتحسُّب ليوم الحساب ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

رابعًا: الإنفاق المعتدل الذي ينفع الآخرين، ولا يضُرُّ بالمنفقين ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾.

خامسًا: تجنُّب الدم الحرام وإزهاق الأرواح بلا وجه حقٍّ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

سادسًا: الابتِعاد عن الزنا ﴿وَلَا يَزْنُونَ ﴾.

سابعًا: الابتِعاد عن شهادة الزور وكلِّ قولٍ مُحرَّمٍ أو لغوٍ لا فائدة منه ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾.

ثامنًا: التفكُّر والتدبُّر ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.

تاسعًا: تحمُّل مسؤوليَّة الأهل والأولاد والعناية بهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾.

عاشرًا: الهمَّة العالية، والطموح المشروع في كلِّ أبواب الخير ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

حادي عشر: الاستغفار والتوبة النصوح بعد كلِّ هفوةٍ أو زلةٍ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾.

إنَّها منظومةٌ مِن القِيَم الحاكمة والموجِّهة، والمعالم الهادية على طريق الخير والسعادة الدائمة؛ ولذلك استحقَّ هؤلاء الأخيار ذلك الجزاء الودود ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ على خلاف أولئك المكذِّبين الضالِّين ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ

﴿يَكُونُ لِزَامًا﴾، في مُقارنةٍ واضِحةٍ بين الفريقَين، والتي هي محورُ السورة كلِّها وموضوعها الأساس.

دقائق التفسير

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فيه مُقارنة بطريق الإشارة بين هؤلاء المؤمنين بالرحمن، وبين أولئك البعِيدين الذين يتساءَلون باستنكار واستكبار: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟

﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ كناية عن التواضُع والطمأنينة ولِين الجانب.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: قَولًا يُجنِّبُهم الخصومة والمِراء الباطل، ومنه التغافل والعفو وغضُّ الطرف، أما لفظة: ﴿سَلَٰمٗا﴾ هذه فقد يكون قولها مدعاةً للخصومة خاصَّة بين المسلمين؛ لأنه يحمِلُ اتهامًا مبطَّنًا بالجهل باستذكار هذه الآية، فتكون النتيجة بعكس ما أرادَتْه الآية، وهذه ملحوظةٌ دقيقةٌ ينبغي التنبُّه لها في العلاقات والمجادلات.

﴿كَانَ غَرَامًا﴾ ثقيلًا ومديدًا لا فكاك منه.

﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾ بزيادة الإنفاق فوق ما ينبغي.

﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ ولم يبخلوا.

﴿قَوَامٗا﴾ عدلًا ووسطًا بين الإسراف والبخل.

﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ عذابًا على ما ارتكب مِن الإثم، أطلق الملزوم - وهو الإثم -، وأرادَ لازِمَه وما يترتب عليه - وهو العذاب -، ثم فسَّره بقوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ دلالة أن التوبة لا يكفي فيها الندم والانقطاع عن الذنب، بل لا بُدَّ مِن أن يكون ذلك نابِعًا مِن الإيمان، ومتبوعًا بالتصحيح والعمل الصالح، وأداء الحقوق لأهلها.

﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ اكتفَى بالموصوف عن صِفَته، والمقصود: المتاب الصادق

المقبول عند الله.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ بألسنتهم ولا بمشاركتهم.

﴿مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ مُعرِضِين عن اللغو وكلِّ كلامٍ باطلٍ، فهم أرفَع مِن ذلك وأسمى.

﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ أي: لا يتعامَلُون مع آيات الله كما يتعامَلُ المشركون الجاحدون؛ حيث يُعمُون عنها عيونهم، ويُصمُّون عنها آذانهم، ويخِرُّون عند سماعها كأنَّهم يتحاشَون أن يرَوا قارِئَها؛ لشدَّة بُغضِهم له ولما معه مِن الذكر.

وفيه: أنَّ المؤمِن يأنَسُ بالقرآن، ويفتَح له قلبه وعينيه وأذنَيه بإصغاءٍ وتدبُّرٍ هاديَين نافعَين.

﴿هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ بأن يكونوا مُؤمِنِين صالِحِين يهنأُ بهم القلب، وتُسرُّ بهم العين.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قدوة حسنة، ومثالًا يُحتذَى لِمَن أراد التقوى والعمل الصالح.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ ﴾ جمعها الغرفات، وهي أعلى منازل الجنة.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ دلالة أن هذه الصفات والخلال الحميدات تتطلَّبُ قَدرًا كبيرًا مِن الصبر ومجاهدة النفس.

﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ أي: لا يُبالي بِكُم، ولا يكتَرِث لحالكم، وأصل يَعبأُ: يتحمَّلُ العِبْءَ.

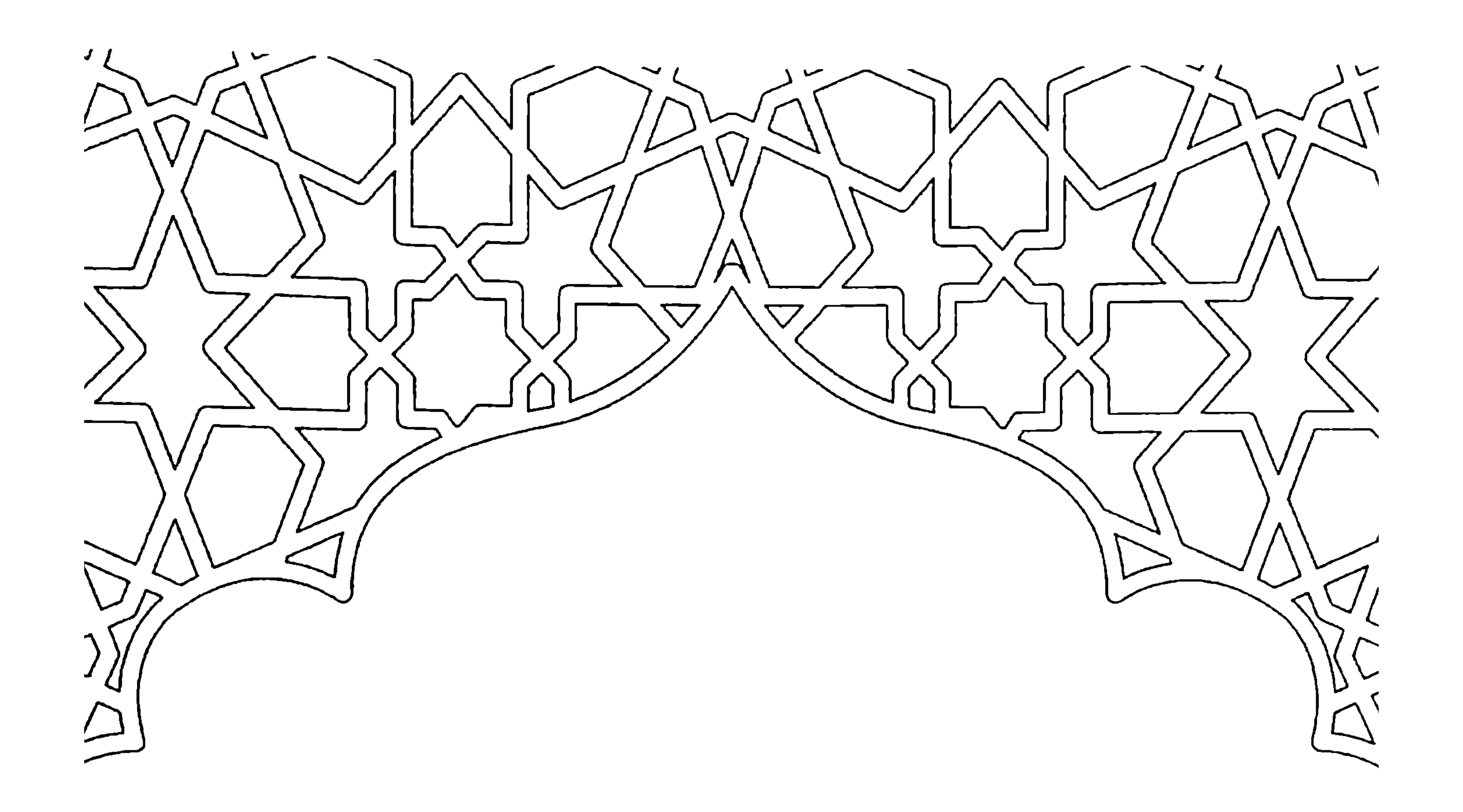
﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ أي: لولا دعوتكم إلى الحقِّ؛ إذ بعث الله أنبياءه ورسله لهذه الغاية،

﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ أي: لولا دعوتكم إلى الحقِّ؛ إذ بعث الله أنبياءه ورسله لهذه الغاية،

فهذه وظيفتهم.

أما عِبْءُ الاستجابة فيتحمَّل مسؤوليَّته المدعوون، فهم المُمتَحَنون والمُختبَرون، فمَن آمَنَ كانت له الغرفات، ومَن أبَى واستكبَرَ كان العذاب ﴿لِزَامَۢا﴾ له.

اللهم فاجعَلنا في زُمرة عباد الرحمن، وخلِّقنا بأخلاقهم، وجمِّلنا بصفاتهم.



سورة الشعراء

المجلس الستون بعد المائة: مقدمة في دعوة نبيِّنا ﷺ

المجلس الحادي والستون بعد المائة: موسى وهارون عليهما السلام

المجلس الثاني والستون بعد المائة: إبراهيم ونوح عليهما السلام

المجلس الثالث والستون بعد المائة: هود وصالح عليهما السلام

المجلس الرابع والستون بعد المائة: لوط وشعيب عليهما السلام

المجلس الخامس والستون بعد المائة: دعوة نبيِّنا محمد ﷺ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

مقدمة في دعوة نبيِّنا ﷺ

تستهلُّ سورةُ الشعراء بومَضَاتٍ سريعةٍ عن تلك الدعوة المباركة التي بدأ بها نبيُّنا الكريم ﷺ في مكَّة المكرَّمة، وما كان يعمُر قلبه الشريف من حِرصٍ على الهداية ومحبَّة الخير والصلاح لكل الناس، ثم تختتم السورة بهذه الدعوة أيضًا، ولكن بشيءٍ مِن التفصيل والتوسُّع، مع توجيهاتٍ دعويَّة وتربويَّة له ﷺ، ولتلك الثُّلَّة المؤمنة التي اختارَها الله لنبيِّه في تلك المرحلة التأسيسيَّة التي شكَّلَت هويَّة الأمة، وتأريخها، وجغرافيتها.

وبين الاستهلال والخِتام يعرِضُ القرآن لسلسلةٍ مِن التجارب الدعوية التي قادَها النبيُّون السابِقُون على نبيِّنا وعليهم الصلاة والسلام، في تأكيدٍ مُستمرٍّ أنَّ هذه الدعوات إنما هي دعوةٌ واحدةٌ، وأنَّ هذه الرسالات إنما هي رسالةٌ واحدةٌ.

أما الوَمَضاتُ السريعةُ التي جاءت في فواتِحِ هذه السورة فهي كالآتي:

أولًا: تأكيد أن هذه الدعوة تستَنِدُ إلى مصدرٍ موثوقٍ وواضِحٍ لا لبسَ فيه ولا غُموض ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

ثانيًا: أنَّ النبيَّ الذي يحمِلُ هذه الدعوة قد بلَغَ في الحرصِ والجدِّ مبلَغًا لا يُدانِيهِ فيه أحدٌ، حتى كادَ أن يُهلِكَ نفسَه مِن الحزن حينما يرى قومه ينأَون بأنفسهم عن هذا الخير الذي يحمِلُه إليهم ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

ثالثًا: تأكيد أنَّ الله قادرٌ على أن يُنزِّل مِن الآيات ما يُجبِرُ تلك الرؤوس المعانِدة على الخضوع لها ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ لكن هذا لا يُناسب فلسفة الاختبار والابتلاء التي أقام الله عليها هذا الخلق، والتي تستلزم الحرية في اتخاذ القرار، وعدم الجبر أو الإكراه.

رابعًا: أنَّ المشركين قد أغلَقوا منافِذَ المعرفة فيهم عن كلِّ آيات الله التي تنزِلُ تِباعًا لإرشادهم وتعليمهم وتوجيههم ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

خامسًا: أنهم قد أعمَوا أبصارَهم عن دلائل الحقِّ المبثُوثة في هذا الكون، والتي تشهد كلُّها بوحدانية الخالق تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

سادسًا: بيان عاقبة التكذيب والعناد لعلَّهم يتذكَّرون ويرجِعُون ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

سابعًا: أنَّ الله الذي هو ربُّ هذه الدعوة ومصدرها وغايتها الكبرى إنما هو العزيز الرحيم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقد تكرَّر هذا الوصف وبهذا اللفظ تسع مرَّاتٍ في هذه السورة، في إشارةٍ واضحةٍ أنَّ هذه الدعوة كلَّها وفي كلِّ مراحلها تجمع بين هاتَين الصفتَين المُتلازمتَين: العزَّة والرحمة؛ العزَّة بالحقِّ، والرحمة بالخلق، وأنَّ الداعية أيضًا الموصُول بالله، والمتخلِّق بموجِبات أسمائه تعالى هو عزيزٌ لا يُذِلُّ نفسَه لغير خالقه، كما أنه رحيمٌ يسعَى لنشر الخير والرحمة بين الناس مهما اختلف معهم أو اختلفوا معه.

دقائق التفسير

﴿طسٓمٓ﴾ تقدَّم القولُ في الحروف المقطَّعة في سورة البقرة، وفيه ما يُغنِي إن شاء الله.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه، وإنَّما أشارَ لها بتلك؛ تنبيهًا لرفعتها وعلوِّ شأنها، كما أشار

للقرآن كلِّه بـذلك الكتاب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البيِّن الواضِح بنفسه، والمُبِين لطريق الحقِّ عن طرق الباطل.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ مُهلِكها غمًّا وحزنًا عليهم؛ لجحودهم وعنادهم وكفرهم بالله، و(لعلَّ) تُفيدُ هنا الإشفاق؛ لأنَّها اقتَرَنَت بما يُخشى منه، فإذا اقتَرَنت بما هو مطلوبٌ ومرغوبٌ أفادَت الرجاء، وأما البَخع فأصلُه الذبح، ثم استُعِير بمعنى الهلاك، والله أعلم.

وفي الآية تسلِيةٌ لرسولِ الله ﷺ لما كان يُصِيبه مِن الهمِّ والضِّيق بسبب حِرصه على هداية قومه وإنقاذهم مما هم فيه، وهم ينأَون عنه ويُحاربونه ويحاربون رسالته، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية وهو يحمل نورَ الله إلى عباد الله.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ بمعنى أنَّ اللهَ قادِرٌ على أن يقهَرَهم على الإيمان قهرًا بأن يُنزِّل عليهم مُعجزة من السماء تُخوِّفهم بقُرب هلاكِهم إن لم يؤمنوا، لكن هذا يُخالف سنَّةَ الله في الاختبار والاختيار؛ إذ الإيمان الذي يستحِقُّ صاحِبُه الثواب إنَّما هو الإيمان الناتِجُ عن صِدق التوجُّه، وحُسن الاختيار، لا الإيمان الحاصل بالاضطرار والإجبار.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ أي: جديد بالنسبة لنزوله عليهم واتِّصالهم به، لا بوَصفِ القرآن نفسه، فالقرآن كلامُ الله، وكلامُه صفةٌ له سبحانه لا يتغيَّر ولا يتجدَّد.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ، بمعنى أنَّ عذاب الآخرة الذي يُكذِّبون به سيأتيهم وليس مصروفًا عنهم.

﴿أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ مِن النباتات المختلفة والمتشابهة، في دورة حياتيَّة تُقرِّب للناظر صورةَ الموت والحياة الثانية للإنسان، وذلك قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ وهي دعوةٌ لأولئك المُكذِّبين بالآخرة للتأمُّل والتدبُّر قبل أن يلحَقَهم العذاب.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ العزيز الذي له العزَّة والقوَّة والمشيئة المطلقة، والرحيم بخَلقه الرحمة الشاملة التي تسبِقُ غضَبَه، وقد تجلَّت هاتان الصفتان الإلهيتان في كون الله المنظور، وفي كتابه المسطور، تبارك ربُّنا وتعالى.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

في هذه الآيات عرضٌ لسيرة النبيَّين الأخوَين الكريمَين موسى وهارون ﷺ وما واجهاه في حياتهما الدعوية مِن سطوة فرعون ومكره وسحره، وكيف أنجاهما الله وقومَهما بعد هلاك فرعون وجُنده، ويمكن تلخيص هذه السيرة في النقاط الآتية:

أولًا: أمر الله موسى ﷺ بالتوجُّه إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى تقوى الله والخروج مِن حالة الكفر والطغيان التي يعيشونها، ولكنَّ موسى بطبعه البشري شَعَر بالخوف مِن فرعون؛ لما يعلمه عنه مِن صلَفٍ وجبروت، فخشِيَ أن يضيق صدره ويتلعثم لسانه، فلا ينجح في مهمته، خاصَّةً أنَّه كان قد قتَلَ رجُلًا مِن قوم فرعون بعد أن استغاثه الذي مِن شيعته، فهرب منهم خائِفًا يترقَّب، فكيف يرجع إليهم اليوم ناصحًا ومُذكِّرًا ومُحذِّرًا؟

لكلِّ ذلك وقف موسى أمام ربه العليم الحكيم، يعرِض ضعفَه وخوالج نفسه، ويطلب من الله المَدَد، وأن يُرسل معه أخاه هارون ﷺ، فاستجابَ الله سُؤلَه، وطمأنَه بالمعيَّة الربانيَّة والعناية الإلهيَّة ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ وأمرهما أن يطلُبا مِن فرعون السماحَ لبني إسرائيل بالخروج معهما بعد أن سامَهم سوء العذاب ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ثانيًا: ردَّ فرعون على موسى بعد أن بلَّغَه رسالةَ ربه مُمتنًّا عليه برعايته له في طفولته، ومذكِّرًا له بقتله للرجل الفرعوني ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثالثًا: اعترف موسى بفعلته واعتذر عنها بأنَّها كانت قبل أن يَصطَفِيه الله بحكمته ورسالته: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى

مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ثم ردَّ على مِنَّة فرعون بأنَّها لا تُسوِّغ الظلمَ الذي أوقَعَه فرعونُ على بني إسرائيل حتى جعلَهم عبيدًا له ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

رابعًا: انتقل فرعونُ بالحوار إلى الموضوع الأخطر والأهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأجابه موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، فالتفت فرعون إلى حاشيته مُستنكرًا ومتهكِّمًا بموسى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فأكَّد موسى جوابَه الأول بثقةٍ ورباطة جَأشٍ، وبما يصدم عقيدة فرعون ودعواه الكاذبة الباطلة: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

هنا حاول فرعون حرفَ مجرى الحوار بشَتمه لموسى ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، لكن موسى لم يستَجِب لهذا الاستفزاز، وحافَظَ على الحوار في طريقه الصحيح، كأنَّه لم يسمع تلك الشَّتيمة: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هنا لجأ فرعون إلى التهديد ليحسم الأمر بقوة السلطة لا بقوة الحجَّة، كعادة الفراعنة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، أمَّا موسى ﷺ فقد لجأ إلى ما عنده مِن المعجزات والآيات الباهرات التي وعده الله بها: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

فلمَّا رأى فرعونُ هذا الذي فوق علمه وفوق طاقته، والذي ينزع عنه رِداءَ ألوهيَّته وربوبيَّته لجأ إلى اتِّهام موسى بالسحر: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، وهنا جاء دور الحاشية والأعوان ليُثبِتُوا ولاءَهم لفرعون، وليقترِحُوا مُواجهةَ السحر بالسحر: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ هكذا، فربُّهم المزعوم لا يقدِر على مواجهة

موسى إلا بحشدٍ مِن السحر والسحرة!

خامسًا: جُمع السحرة مِن كلِّ قريةٍ ومدينةٍ، وحضَروا أمام فرعون، هو يطمع في نصرتهم، وهم يطمعون في أجره وجائزته، وقد اجتمع الناس أيضًا لأغراضٍ شتَّى، لكن الحدث بحدِّ ذاته يستَهوِي الجماهير، فكيف إذا كان هناك فرعون وحاشيته وسحرته ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ إنَّه الطغيان في مواجهة الحقِّ، والسحر في مواجهة النبوَّة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ لقد بطل السحر، واكتشف السحرةُ عُمقَ الضلال الذي كانوا فيه، فخرُّوا ساجدين لله وخاضِعِين لنور الحقِّ الذي يُبشِّرُ به موسى ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

سادسًا: هنا انتقل المشهد كلُّه إلى مُواجهةٍ أخرى؛ مواجهة بين فرعون وبين سحرته الذين جمَعَهم لنصرته ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ إنَّه الطغيان الذي ليس له حدٌّ، لكن حلاوة الإيمان في قلوب هؤلاء السحرة بعد أن ذاقُوها منذ لحظات كانت أقوى مِن فرعون وتهديداته ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

سابعًا: لم يُشِر القرآن إلى موقف فرعون مِن موسى نفسه بعد هذه المواجهة الصاخِبَة التي أربَكَت فرعون، وأذلَّت كبرياءه.

والظاهر أنَّ فرعون اكتفى بمعاقبة السحرة ولم يجرؤ على التعرُّض لموسى بعد أن رأى مِنه ما رأى، لكنَّه استدرج فيما بعد لمواجهة أوْدَت به وبمَن معه؛ حيث أمر الله موسى بأن يقودَ

بنفسه عمليةَ الخروج الكبرى؛ خروج بني إسرائيل من أرض مصر.

فلما علِمَ فرعون بذلك جنَّد جُنده، وجيَّش جيشَه وتبِعَهم، فأغرقه الله وأنجَى موسى وهارون ومَن كان معهما مِن بني إسرائيل ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه أنَّ الحقَّ هو الذي يأتي على الباطل ليُغيِّره، فإن قصَّر أهلُ الحقِّ في هذا دهَمَهم الباطلُ وأذلَّهم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ شرطان في الداعية الناجح: سعة الصدر، وطلاقة اللسان؛ فإنَّ ضَيِّقَ الصدرِ يغلِب عليه الغضب، وانسداد الأفق، ومُنغلِقُ اللسان ينقُصُه البيان، فيغلِبُه خصمه ولو كان الحقُّ معه.

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فيه ثلاثة تطمينات؛ (كلا) المُتضمِّنة هنا نفي الخوف الذي أبداه موسى من ضيق الصدر، وانغِلاق اللسان، ثم مِن بطش فرعون وقومه، وتأييدهما بالآيات والمعجزات، والمعيَّة الإلهية المصاحبة لهما ﷺ.

﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أفرد الوصف لهما بإشارة إلى أن رسالتهما واحدة.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ للعودة بهم مِن حيث جاء آباؤهم؛ يعقوب وأولاده ﷺ.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ بقتل المصري الذي كان مِن قوم فرعون.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لأن تلك الفعلة كانت قبل النبوَّة، وفيه أنَّ الداعية ينبغي أن يعترِفَ بخطئه مهما كان، وألَّا ينشغل بالدفاع عن نفسه كثيرًا، فيتحول الحوار من مسار الدعوة والإصلاح إلى حالةٍ من المماحكات الشخصية، مع أنَّ موسى ﷺ كان قادرًا على تسويغ فعله بأنه كان دفاعًا عن المستضعفين والمظلومين، لكن هذا يحرِف الحوار بعيدًا عن مساره وغايته.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كأنَّه يقول له: كيف تَمُنُّ عليَّ بسنوات التربية تلك، وأنت تُعذِّب قومي وتتخذهم عبيدًا؟!

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على سبيل التهكُّم والاستخفاف؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ويلحظ هنا أن موسى ﷺ كان يمضِي في بيان الحقِّ الذي معه ولا يلتفت لهذا التهكُّم وهذا السباب، وكأنه لم يسمعه.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أخرج يده من جيبه فإذا بها بيضاء من غير سوء.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ تهمةٌ باطلةٌ؛ لأنَّ موسى كان يطلب الخروج بقومه من أرض مصر كلِّها.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ﴾ أي: أخِّره ريثما يجتمع السحرة.

﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ المدن والقرى والنواحي التي يعيش فيها السحرة.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ إنَّهم لا يشترطون على فرعون، فهم دون ذلك، لكنَّه إظهارٌ لتمكُّنهم، ورغبة بإظهار طابعٍ من الاحتفال على هذه المبارزة.

﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ تبتلع ما صنعوه من الخداع والكذب، وفيه أنَّ السِّحْرَ لم تكن له حقيقة، ولم تتغيَّر به الأشياء، يؤكِّد هذا قوله تعالى في موضعٍ آخر: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وقوله: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يستنكِرُ عليهم الإيمان بالآيات التي رأوها مع موسى قبل أن يأخذوا الإذنَ منه، وهذا دأبُ الفراعنة في كلِّ زمانٍ ومكان، يستعبِدُون الناس حتى في أفكارهم ومُعتقداتهم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ تهديدٌ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى من كل ساحر آمن بموسى وهارون.

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ لا ضَير أي: لا ضرر، والمقصود أنَّهم لا يخشون من هذا التهديد؛ لأنَّه ضررٌ مؤقَّتٌ وزائلٌ في مقابل نعيمٍ دائمٍ ينتظرهم بعد موتهم.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: امشِ بهم في الليل؛ فإن فرعون وجنده سيتبعونكم، والمقصود أن يخرج موسى ببني إسرائيل ليلًا حتى يصِلُوا البحرَ قبل أن يلحَقَ بهم فرعون.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ الشِّرذمة: المجموعة القليلة من الناس، وقليلون تأكيد لمعنى القِلَّة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: قد أغضبونا بخروجهم واتِّباعهم لموسى وأخيه من دون إذنٍ منا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ يعني: أنَّه وملأه وجنده في حالةٍ من اليقظة والحذر، كأنَّه يُطمئِن قومه.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: تعقَّبُوهم مُتوجِّهين جهةَ الشرق، ولا يبعُد أيضًا أنه قصدَ الوقت، وهو وقت الشروق، بمعنى أن بني إسرائيل ساروا ليلًا، فخرج فرعون وراءهم مع شروق الشمس.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: أخرجنا فرعون وجنده، من مُلكهم وسلطانهم، وأموالهم وبساتينهم.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أورثنا بني إسرائيل نعيمًا وملكًا بعد خروجهم، ولا

يمكن أن يكون هذا عين ما كان تحت فرعون وقومه؛ لأنَّ بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم، فيكون الضمير في ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يعود إلى جنس تلك النعم لا إلى أعيانها، إلا إذا كان المقصود به المال الذي كان مع فرعون وجيشه، والذي ربما سلَبَه بنو إسرائيل منهم بعد هلاكهم، وذلك قوله تعالى: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، فيكون من باب إطلاق الكلِّ وإرادة الجزء، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع موسى ﷺ، وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ استحضر موسى في هذا الموقف العصيب - الذي ارتجفَت فيه قلوبُ أصحابه - معيَّةَ الله ووعده الأكيد له.

وهذا الوعدُ ليسَ سنَّة ثابِتة في كلِّ صراعٍ، كما يُردِّد بعضُ الوُعَّاظ، وبعَضُ القيادات الإسلامية المعاصرة؛ فموازينُ القوى حاكمة، وسُنن الله في الكون لا تتخلَّف، وخوارق العادات ليست أصلًا في هذه الحياة، لكننا نرجُو الله وندعوه، ونعدُّ العُدَّة الكافِية، ونتوكَّل على الله دون أن نتألَّى عليه ﷻ، ولله أن يبتَلِي عبادَه بالنصر أو الهزيمة وفْق حكمته تعالى، وإرادته المطلقة التي لا تخضع لرغباتنا وتصوّراتنا، والله أعلم.

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: انحسر ماءُ البحر إلى الجانبَين، فكان الماءُ في كلِّ جانب مثل الجبل العظيم، وهذه معجزة لموسى ﷺ لا يُقاس عليها، والله يفعل ما يريد.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: استدرجنا فرعون وجنده، فدخلوا خلف بني إسرائيل فيما بين الطودَين، ومعنى أزلفنا أي: قرَّبناهم من ذلك المكان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: هذا الذي حصل لفرعون فيه العبرة الكافية لمن يبحث عن الحق، لكن الناس - ومنهم أهل مكة - لا يتَّعِظُون ولا يعتَبِرُون، وقد تكرَّرت هذه الآية بعد كلِّ قصَّة من القصص الواردة في هذه السورة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبعزَّته أغرق فرعون وجنده، وبرحمته أنجى موسى وجمعَه.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

إبراهيم ونوح عليهما السلام

في هذه الآيات يعرِض القرآن مواقف محدَّدة من دعوة النبيَّين الكريمَين: سيدنا إبراهيم، وسيدنا نوح ﷺ، وربما بدأ بقصة إبراهيم؛ لأنَّها الأقرب إلى قصة موسى وهارون التي تقدَّمت معنا في المجلس السابق، مع التنبُّه إلى أنَّ القرآن لا يعتمد التسلسُل التاريخي في سرد القصص والوقائع، بل يعتمد النسَق المنهجي العلمي، وبما يُعزِّز المعاني التي يهدِف القرآن إلى تأكيدها وتجليَتها، فلنتدبَّر مِن سيرة سيدنا إبراهيم ﷺ هذه المواقف الدعويَّة:

أولًا: بدأ إبراهيم ﷺ بطرح أسئلته العقليَّة التي تمسُّ أصل المعتقدات الوثنيَّة التي كانت متغلغلة في مجتمعه آنذاك ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾.

إنه يسألهم عن هذه الأشياء التي يعبدونها، وما إذا كانت تسمع دعاءهم إذ يدعونها، أو أنها قادرة على أن تنفعهم أو تضرهم، فالإله الذي لا يقدر على هذه الأشياء ليس جديرًا بالعبادة.

ثانيًا: لم تكن لدى أبيه وقومه أجوبة على تساؤلاته تلك سوى قولهم: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ إنه التقليد الأعمى والأصم، والتمسُّك بالموروث ولو كان عن غير بيِّنة ولا تفكير، وهي عادةٌ مِن عادات البشر في كلِّ جيلٍ، وهي سببٌ مِن أسباب جمودهم، وضلال مَن ضلَّ منهم.

ثالثًا: لما سمع إبراهيم جوابَهم هذا بادر بإنكاره وإعلان البراءة من هذه الآلهة الجامدة التي لا ترى، ولا تسمعُ، ولا تضُرُّ، ولا تنفعُ، مُعلنًا في الوقت ذاته تمسُّكه بعبادة الله الواحد الأحد خالق الخلق، ورازقهم، ومُحييهم، ومُميتهم، غافر الذنب، وقابل التوب ﷻ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾.

رابعًا: لجأ إبراهيم ﷺ إلى ربِّه يدعوه ويتضرَّع إليه، ويسأله الحكمة والصلاح وقول الصدق الذي يخلِّد ذكره الحسن، وسلامة القلب، ثم الجنة، ولم يَنسَ إبراهيمُ في دعائه هذا أن يدعو لأبيه بالمغفرة: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾.

خامسًا: يُذكِّرُ القرآن في ختام هذه القصَّة بذلك اليوم الذي ينتظر الخلائق أجمعين، ليروا أعمالهم وما قدموه لأنفسهم في هذه الدار، مُحذِّرًا مِن تلك العاقبة البئيسة التي تنتظر أولئك المشركين الذين يُصِرُّون على عبادة أصنامٍ لا تعي، ولا تنفعُ، ولا تضرُّ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

هناك يعترفون بضلالهم، ولا فائدة مِن هذا الاعتراف، ويتلاومون فيما بينهم، ولا فائدة من هذا التلاوم، ويتمنَّون أن لو يعيدهم الله مرة أخرى إلى هذه الأرض، ولا فائدة مِن هذا التمنِّي، ويلتفتون لعلَّ شفيعًا يشفع لهم، أو صديقًا يتذكَّرهم، أو قريبًا يرِقُّ لهم، فلا يجِدُون غيرَ الحسرة والندامة، أعاذنا الله من ذلك.

أما مِن قصة نوح ﷺ، فلنقِف مع هذه المواقف:

أولًا: يتوجَّه نوح إلى قومه ليبلغهم رسالةَ ربِّه، ويُحذِّرهم مما هم فيه مِن ضلالٍ ووثنيَّة، ولكنهم يواجهونه بالعناد والتكذيب ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثانيًا: يؤكِّد نوحٌ ﷺ لقومه أنه لا يبتغي مِن دعوته أجرًا ماديًّا ولا معنويًّا؛ لأن دعوته دعوة ربَّانيَّة خالصة لا مَطْمَع فيها سوى رضا الله والجنة ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذه سِمةٌ مِن سِمات الدعوة لا ينبغي أن يغفل عنها الدعاة.

ثالثًا: لم يجِد قومُه ما يعيبونه عليه إلا تبرُّمهم بمَن معه من المساكين والفقراء ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الأرذلون بمقاييسهم الماديَّة، إنه نوعٌ من التكبُّر الطبقِي الذي

يُقَسِّمُ المجتمعات إلى شرفاء وأراذل، أو نبلاء ومنبوذين، تبعًا لما معهم من جَاهٍ ومتاعٍ، وليس على ما يملِكون مِن دينٍ وخلقٍ، أو ما يُقدِّمونه للناس مِن خيرٍ وخدمةٍ.

وقد ردَّ نوحٌ عليهم هذا التصنيف وهذا الاعتراض: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هكذا يتمسَّك نوحٌ بمن معه من المؤمنين، ويرفض المساومة عليهم، وهذه ثابتةٌ من ثوابت الدعوة لا ينبغي الحيْد عنها مهما كانت الضغوط والتحديات.

رابعًا: هنا ظهر الباطل على حقيقته، وانكشف بصَلَفه وظلمه وعدوانيَّته ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

خامسًا: لم يجِد نوحٌ بُدًّا بعد كلِّ تلك القرون المديدة من الصبر والمصابرة، والحلم الطويل إلا أن يلجأ إلى ربِّه بهذا الدعاء الممزوج بالحسرة والألم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فاستجاب الله له، وأنجاه ومَن معه من المؤمنين بعد هلاك الكافرين الظالمين ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ مُقيمين على عبادتها.

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إنْ عبدتُموهم.

﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ من ترك عبادتهم.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فالذي خلق هو الذي يَهدي ويُشرِّعُ، ويأمرُ وينهى، كما قال في آية أخرى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسنَدَ المرَض لنفسه والشفاءَ لربِّه، وهذا مِن حُسنِ الأدبِ مع الله، وإلا فإنَّ الله يبتلي عباده بما شاء مِن صحةٍ ومرضٍ، وغنًى وفقرٍ، وقوةٍ وضعفٍ، والعاقبة للتقوى.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اجعَلني منهم وفي رَكْبِهم.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: واجعل لي لسانًا صادقًا يعرفني به الناس على مرِّ الأجيال، فيُثنون عليَّ بالصدقِ والحقِّ، لا بالكذب والبهتان، ولا بالغلو والطغيان، وقد كان له ذلك؛ فلا يذكره الناس على اختلاف مِلَلهم وأديانهم إلا بخير، ولم يشطَّ به الغلاة فيؤلِّهُونه كما ألَّهوا بعض الأنبياء والصالحين.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وهنا مسألة دقيقة، وخلاصةُ القول فيها: أنَّ استغفار المسلم لغيره إن كان بمعنى طلب الهداية له، فهذا أمرٌ مشروعٌ ولا غبار عليه، وإن كان بمعنى طلب العفو عنه مع بقائه على الشرك، أو أنَّه قد مات على الشرك فهذا محظورٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(1).

وعلى هذا يُحمل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤].

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِّبَت لهم، جعلنا الله منهم.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أُظْهِرَت لهم بلهيبها ودخانها، أعاذنا الله منها.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ فأُلْقِي بعضهم فوق بعض.

---

(١) تكرَّر هذا النص الكريم مرتين في القرآن الكريم، وكلاهما في سورة النساء: ٤٨، ١١٦.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنَّون العودةَ مرةً أخرى إلى الدنيا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبعزَّته كَبكَبَ هؤلاء المجرمين في النار، وبرحمته أدخَلَ أولئك المتقين في الجنَّة.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تلازم الرسالة والأمانة، وفيه أنَّ الداعية ينبغي أنْ ينال ثقة الناس بصدقه وأمانته، فهذا مِن تمام الحجَّة ووضوح المحجَّة.

وما يتوهَّمه بعضُ الجاهلين اليوم من التهاوُن في أموال الناس، والاستخفاف بهم، وبالمعلومات المقدَّمة لهم على أنَّهم كافرون أو مُبتدِعون، خروجٌ عن الجادَّة، وتشويهٌ للدعوة.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ تأكيدٌ لنزاهة الدعوة عن أي مطمعٍ ماديٍّ أو دنيويٍّ.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ قاعدةٌ جليلةٌ في الدعوة، فالداعية لا يُنقِّب عن أحوال الناس وأسرارهم، بل هو يدعوهم إلى الصراط المستقيم، فيقبل مؤمنهم، ويتلطَّف بمُخْطِئِهم، ويستُر عيوبَهم، ويَكِلُ أمرَ حسابهم إلى الله، أما ما يظُنُّه بعضُ الناس مِن الفِطنةِ والنباهةِ وهم يتتبَّعُون الزلَّات، ويحفظون العَثَرات، ويُسيئُون الظنَّ بالنيَّات، فهذا سببٌ في القطيعة والتباعُد حتى بين العاملين للدعوة أنفسهم.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لنرجمنَّك.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ احكُم بيني وبينهم، وهو بمعنى الدعاء عليهم.

﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة بالخَلْقِ والمتاع.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبعزَّته أغرقَ الكافرين بالطوفان، وبرحمته نجَّى المؤمنين بسفينة الإيمان.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

هود وصالح عليهما السلام

بعثَ الله هودًا إلى قبيلة عادٍ، ثم بعثَ صالحًا إلى قبيلة ثمود، وكلتاهما مِن القبائل المشركة التي يغلب عليها طبع البداوة والجفاء، والقرآن يَذكُرُهما في الغالب مُقترنين ومُتعاقبين، فيذكرُ هودًا أوّلًا، ثم يُعقّب بصالح، وكأنّهما قصة واحدة؛ لما بينهما مِن التشابُه، كما سنرى في هذه النقاط:

أولًا: افتتح القرآن قصة هودٍ عليه السلام بقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ثم افتتح قصة صالحٍ بقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ولولا اختلاف أسماء الأعلام لما فرّقنا بين القصة الأولى، والقصة الثانية.

ثانيًا: كلاهما أكَّد نزاهةَ اليد، وأنَّ هذه الدعوة دعوة ربَّانيَّة ليس فيها مِن مطمع سوى رضا الله والجنة، فقد قال هودٌ لقومِه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهكذا قال صالح لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثالثًا: ثم حذَّر هودٌ قومه من التجبُّرِ والظلمِ، والإسرافِ في التعالي والتَّرف: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، وبما يَقْرُبُ من هذا أيضًا حذَّر صالح قومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ومن مجموع هذه الآيات يتَّضِح أنَّ القومَين كانوا على مستوى عالٍ مِن الرفاهية والنعيم.

رابعًا: وقد ردَّت عادٌ على نبيِّها بمنطق الاستِعلاء الفارغ والتكبُّر: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وبما يَقْرُبُ من هذا ردَّت ثمود: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

خامسًا: اختلَفَت ثمودُ عن عاد بقصة الناقة، وهي الآية التي طلَبَتْها ثمود من نبيِّهم ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، لكنَّهم ظلموا بها وكفروا ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾.

سادسًا: ثم التقيا بالعاقبة البئيسة؛ حيث حلَّ فيهما عذاب الله بعد كفرِهما وطغيانِهما، أما عاد فيقول الله فيهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وأما ثمود: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ أنكر عليهم الانشغال بالدنيا، والتباهي بالأبنية الشامخة فوق كلِّ مكانٍ مرتفعٍ إظهارًا للقوة والمنَعَة، مع قسوة القلب، والغفلة عن طريق الآخرة.

والعُمران بأصله مشروعٌ، لكنَّه لَمَّا كان رياءً ومباهاةً وتعاليًا على الحقِّ والخلق، سمَّاه عبَثًا، والرِّيعُ: المكان المرتفع، و﴿ءَايَةٗ﴾ هنا: البناءُ الشاخِصُ.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ بما يُناسِبُ ذلك العصر من أدوات الري، والزراعة، وتجميع المياه، وكذا السلاح وأدوات القتال، وربما كان عندهم غير ذلك مما لم يصِلنا عنه خبر، والله أعلم.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يحتمل أنَّهم يُشيرون إلى مواعظ نبيِّهم لهم، وأنها من موروث الأقدمين وأساطيرهم، وهو تعليلٌ لرفض دعوته ورسالته، ويحتمل أنهم يُشيرون إلى ما عندهم مِن دينٍ وثنيٍّ وعاداتٍ باطلةٍ، بمعنى أن هذا من موروث آبائهم وأجدادِهم، فهم مُتمسِّكون به ولا يرضون عنه بديلًا، وهو تعليلٌ أيضًا لرفض دعوته، فتكون النتيجة واحدة، والله أعلم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبعزَّته أهلك عادًا، وبرحمته نجَّى هودًا.

﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أتظنُّون أنكم مُخلَّدون في هذا النعيم، وأنكم بمأمنٍ مِن الموت والعذاب؟

﴿وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ الطَّلْع: عِذْق النخلة الذي يحمل رُطَبها، والهَضِيمُ: الرُّطَبُ اليانع الجاهز للأكل.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ تنحِتون بيوتًا في الجبال بمهارةٍ وإتقانٍ، ترفًا ومباهاةً.

﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ والإسراف هنا: الإفراط في الكفر والطغيان، وتبذير المال.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ أي: المسحُورين، وفي المُسحَّرين مبالغةٌ وزيادةٌ في المعنى.

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ تعدَّوا عليها وذبَحوها.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فبعزَّته أهلك ثمود، وبرحمته نجَّى صالحًا.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

لوط وشعيب عليهما السلام

إذا كان هودٌ وصالحٌ ﷺ يجمع بينهما أنهما أُرسِلَا إلى قبيلتَين يغلبُ عليهما التعصُّب القَبَلي، والتمسُّك بالموروث من عادات الآباء والأجداد، فإنَّ لوطًا وشُعيبًا ﷺ أرسلَهما الله إلى قريتَين أو مدينتَين.

وفي المدن ما ليس في القبائل من المشاكل والتعقيدات والأمراض؛ ولذا نجد الفساد هو المعضلة التي جمعت بين قوم لوطٍ وقوم شعيبٍ وإن اختلفت مجالات الفساد ومظاهره، بينما لم يكن هذا واردًا في عادٍ وثمود؛ فلعادٍ وثمود مُعضلات أخرى، ومشاكل أخرى تتناسب مع طبيعتهما القَبَليَّة، أما قصَّة لوطٍ مع قومه فيمكن تلخيصها كما وردت في هذه الآيات بالآتي:

أولًا: بدأ لوطٌ دعوته لقومه بما بدأ به نوحٌ وهودٌ وصالحٌ، وقد واجَهَ مثل ما واجهوا من الإعراض والتكذيب ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثانيًا: أكَّد نزاهةَ يده، وأنه لا يرجو منهم أجرًا ولا جزاءً، كما أكَّد الأنبياء السابقون ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثالثًا: شخَّص الداءَ الذي أصابهم وشذَّ بهم عن جادَّة الفطرة الآدميَّة ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

رابعًا: إلا أنَّ قومَه ردُّوا عليه كما ردَّت الأقوام السابقة على أنبيائهم: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾.

خامسًا: هنا أعلَنَ براءَتَه منهم، ثُم توجَّه بالدُّعاء والضَّراعة إلى ربِّه أن ينجِّيه وأهله من هؤلاء القوم ومما سيُصيبهم ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

سادسًا: استجابَ الله دعاءَ لوطٍ، فنجَّاه وأهله إلا عجوزًا كانت مُوالية لقومها، ثم دمَّرَ الله القرية وكلَّ مَن فيها بمطرٍ مِن العذاب ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أما قصة شُعيبٍ مع قومه، فيمكن تلخيصها كما وردت في هذه الآيات بالآتي:

أولًا: بدأ شعيبٌ دعوتَه لقومه بما بدأ به نوحٌ وهودٌ وصالحٌ ولوطٌ، وقد واجَهَ مثل ما واجهوا من الإعراض والتكذيب ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثانيًا: أكَّد نزاهة يده وأنه لا يرجو منهم أجرًا ولا جزاءً، كما أكَّد الأنبياء السابقون

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

ثالثًا: شخَّصَ الداء الذي أصابَهم - كما فعل لوط -، لكنَّه داءٌ مختلفٌ وإن كان مشتركًا بمعنى جامع، وهو الفساد؛ حيث كان فسادُ قوم لوطٍ فسادًا أخلاقيًّا ومُنافيًا للفطرة، بينما كان فساد قوم شعيبٍ فسادًا اقتصاديًّا مُنافيًا للحقِّ والعدل ﴿ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ (١٨١) وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

رابعًا: إلا أنَّ قومَه رَدُّوا عليه كما رَدَّت الأقوام السابقة على أنبيائهم: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

خامسًا: لقِيَ قومه ما لقِيَتْه الأقوامُ الأخرى جزاءَ تكذيبهم وظلمهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴾ أي: لنُخرجنَّك.

﴿ مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴾ مِن المُبغِضين الكارِهين.

﴿ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ كانت تُوالِي قومَها فأهلكها الله مع الهالكين.

﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ ﴾ مِن الحجارة المُهلِكة؛ ولذلك قال: ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فبعزَّته أهلك قوم لوط، ونجَّى من بينهم لوطًا.

﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ هم قوم شعيب ﷺ، وأصل الأيكة الشجرة.

﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ الميزان العدل.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ لا تنقصوهم أموالهم من حيث وزنها ومقدارها أو ثمنها.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الفساد المالي ينشر الفساد في الأرض، وهذا واقعٌ ملموسٌ في كلِّ زمان، فالرِّشوة مثلًا لا تُفسِدُ المال فقط، بل تُفسِدُ الأخلاق والعلاقات وكلَّ مجالات الحياة، حتى التعليم والقضاء.

﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: الأمم الذين قبلكم، وأصلُ الجِبِلَّة الخِلقة.

﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ قِطَعًا من العذاب، يطلبونه تحدِّيًا وعنادًا ومكابرةً.

﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ يوم السحاب الذي كان فيه هلاكهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبعزَّته أهلك أصحابَ الأيكة، وبرحمته نجَّى شُعيبًا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

دعوة نبيِّنا محمد ﷺ

اختتَمَت السورة بما استهلَّت به، فالدعوة المحمديَّة هي المحور الأساس في هذه السورة، وما جاء بين الاستهلال والخِتام من تجارب النبيين السابقين مع أقوامهم، إنَّما كان الغرض منه التزوُّد بالخبرة، وأخذ العِبرة، وتسلِيَة المصطفى ﷺ مما يُلاقيه مِن قومه في مكة مِن صدودٍ وجحودٍ، ويمكن تلخيص المعاني التي ورَدَت في هذه الخواتيم بالآتي:

أولًا: تأكيد ما ورد في أول السورة من أنَّ القرآن هو الحقُّ المبين، مع توسُّعٍ في المدلول، وشرحٍ للدليل، ومُناقشةٍ للمُشكِّكين والمُكذِّبين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

ثانيًا: إضافة معنى أنَّ الكتب السابقة تشهد لهذا القرآن وتُؤيِّده ولا تُعارِضه ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ثالثًا: أنَّ هؤلاء المشركين المعانِدين لن يؤمنوا بهذا القرآن، سواء كان الذي جاءهم به عربيٌّ منهم، أو أعجمي من غيرهم؛ لأن المسألة عندهم مسألة عنادٍ واستكبار، وليست مسألة نظرٍ واعتبار، وبهذا استحقُّوا العذاب الأليم ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾.

رابعًا: تأكيد العدل الإلهي المطلق، وأنَّ اللهَ مُنزَّهٌ ﷻ عن الظلم، وأنَّ ما يُصيب هؤلاء الظالمين إنما هو بما اقترفَتْه أيديهم دون إكراهٍ، ولا سلب اختيار ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

خامسًا: تنزيه القرآن عن وساوس الشياطين، والفصل التام والحاسم بين آيات القرآن البيِّنات، وبين ما تُوحِيه الشياطين إلى أوليائهم من تضليلٍ وخرافاتٍ وأوهام ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾.

ثم تعرَّضَ القرآن لنمطٍ من الأبواق التي تشيع الباطل وتروِّج له باسم الأدب أو الفنِّ، وتُعلِي مِن شأن الظالمين والمنافقين وكلِّ مُفْسِدٍ على هذه الأرض ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم استثنى الذين آمنوا منهم وسخَّروا طاقتَهم لنُصرة الحقِّ وأهلِه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾.

سادسًا: تأكيد معاني التوحيد الحقِّ ونقض الشرك بكلِّ صوره ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

سابعًا: الأمر بدعوة الأقرب فالأقرب إلى هذا الصراط المستقيم، وتخويفهم من عاقبة الشرك والانحراف عن الهدي القويم ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

ثامنًا: خفض الجناح للمؤمنين، والتعاون معهم على ذكر الله وعبادته وتبليغ رسالته ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ هو جبريل عليه السلام.

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يا محمد، وفي العبارة من الوُدِّ والأُنس واللُّطف، والإشارة إلى النور الذي يعمُرُ قلبه ﷺ والمحبة والرحمة ما لا يخفى على لبيبٍ.

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ تأكيدٌ وبيانٌ لما ورد في مُستهلِّ السورة: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بمعنى أنَّ التبشيرَ بهذا القرآن، والتنويه بمكانته وعلوِّ شأنه قد ورد في الكتب السماويَّة السابقة.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الظاهرُ أنهم العلماء العدول الذين هداهم الله للإسلام؛ كعبد الله بن سلام، ولا يبعُد أن يكون المقصود أعمَّ من ذلك، ليشمل كلَّ علماء بني إسرائيل الذين تتوافق معلوماتهم مع ما ورد في القرآن من أخبار الأمم السابقة، وكذلك بعض الذين تحاوروا مع المسلمين في بعض المسائل فأبانوا عما يشهد لهذا القرآن، سواء آمنوا به أم لم يؤمنوا، ومن يتتبَّع اليوم أقوالَ بعض المستشرقين يجِد هذا النموذج واضحًا، والله أعلم.

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ فهم لم يؤمنوا بالرسول الذي يعرفونه ويعرفون نسبه وصدقه وأمانته، ويفهمون لغته وفصاحته، فكيف سيؤمنون لو جاءهم نبي أعجمي لا يعرفون نسبه، ولا يفهمون لغته؟ والمعنى: أنَّهم مُعانِدون ومُكابِرون لا غير.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: سلَكنا التكذيب في قلوبهم بسبب عنادهم وإجرامهم، فلا يُرجَى إيمانهم، والكلام عن فِئةٍ من المشركين وليس عن جميعِهم؛ إذ إنَّ كثيرًا منهم قد تابَ وأنابَ، وحسُنَ إسلامُه.

﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ يتمنَّون تأخير العذاب عنهم.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: إلا بعد أنْ بلَغَتهم الدعوةُ الصحيحةُ، وقامَت عليهم الحُجَّة.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تأكيدٌ لعدل الله المطلق، ودفعٌ لشبهة الإكراه، وسلب الاختيار عند قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ فهم لا يسمعون الوحي، ولا يعلمون الغيب، ولا يتَّصِلون بخبر السماء. وفي هذا تنزيهٌ للقرآن عن كلِّ شبهة من هذا القبيل، وفيه أيضًا تصحيح التصورات الخاطئة عن عالم الجن والشيطان، والتي تصِل إلى حدِّ الخرافة وإن تلبَّسَت بلَبُوس الدين.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ كناية عن التواضع، والجناح للطائر، ونسبته للإنسان على سبيل المجاز المحض، وفيه جواز استعمال المجاز بإطلاق، سواء اتَّصَف به على الحقيقة قبل المجاز أم لا.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه إشارة أن الله بعزته سيُهلِك الكافرين المعاندين، كما أهلك فرعون، وقوم نوحٍ، وعادًا، وثمود، وقوم لوطٍ، وأصحاب الأيكة، وأنه تعالى برحمته

سينصر المؤمنين ويُنجِّيهم، كما نجَّى موسى وإبراهيم ونوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وشُعيبًا، وهذا سرُّ تكرار هذه الآية العزيزة الرحيمة.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بمعنى أنَّ الله معك برعايته ونُصرته وتأييده في جميع أحوالك؛ قائمًا في جوف الليل تُناجِيه وحدك، أو بوجودك مع أصحابك المُصلِّين الراكِعِين الساجِدِين، والتقلُّب: التردُّد والذهابُ والمجيءُ، والمقصودُ صُحبتهم، ومُشاركتهم في أحوالهم، وشؤون دينهم ودنياهم.

﴿أَفَّاكٍ﴾ كثير الكذب.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ صورة من صور الكذب والدجل، فهؤلاء الكهنة والدجَّالون يتظاهرون كأنهم يتلقَّون الخبر من السماء، فيصغون أشدَّ الإصغاء، في حركةٍ تخدع السذَّج والبُلَهاء، ثم يتكلَّمُون بعد هذا الإصغاء والانتظار بما يشغل بالَ هؤلاء المساكين، فيُصدِّقونهم بما يقولون بلا بيِّنةٍ ولا شهودٍ.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ هم شُعراء الفتنة والإفساد، وهم مهوى قلوب الغاوين والفاسدين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ فيمدَحون بالباطل، ويهجُون بالباطل، ويُفاخرون بالباطل، يبحَثون عن الشهرة والمال من أين جاء؛ ولذلك فهم في كلِّ وادٍ يهيمون، أي: في كلِّ طريقٍ يجدون فيه شهوتهم وبغيتهم.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فالكذب دأبهم، والفخر الأجوف دَيدَنهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء يُخرِجُ الشعراء المؤمنين الذين وظَّفوا شِعرَهم لخدمة الحقِّ وأهله، وانتَفَضوا ضدَّ الظلم والظالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

تم الجزء الثاني،

ويليه الجزء الثالث وأوله

﴿ سورة النمل﴾